المملكة المغربية
جامعة محمد الخامس

منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط

سلسلة: رسائل وأطروحات رقم 39

المقاومة المغربية

للوجود الإسباني بمليلة

(1697 - 1859م)



حسن الفكيكي

المقاومة المغربية

بسم الله الرحمن الرحيم

منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
سلسلة: رسائل وأطروحات رقم 39

المقاومة المغربية

للوجود الإسباني بمليلة

(1697 - 1859م)

حسن الفكيكي

1997

الكتاب : **المقاومة المغربية للوجود الإسباني بمليلة (1497-1859).**

المؤلف : حسن الفكيكي.

الناشر : منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.

سلسلة : رسائل وأطروحات.

الغلاف : إعداد عمر أفا.

لوحة الغلاف : صورة مدينة مليلة بخلفية وثائقية.

الخطوط : بلعيد حميدي.

التصفيف : حسن الفكيكي.

الطبع : مطبعة النجاح الجديدة - البيضاء.

ردمك : 8 - 94 - 825 - 9981.

التصنيف الدولي : 0334 - 1113.

الإيداع القانوني : 1691/ 97.

الطبعة الأولى : 1997.

طبع هذا الكتاب بدعم من برنامج التعاون

بين كلية الآداب ومؤسسة كونراد أدناور

الإهـداء

إلى زوجتي

وأبنائي شكري وشفيق وكمال وعادل وأمين وربيع.

وإلى حفدتي المهدي وأمال وعلي

وفقهم الله

*

إلى قلعية

إذا كان هناك من يستحق الإهداء فإنني أتوجه به إلى قبيلة قلعية التي استقبلت وآوت جدي عبد القادر بن محمد الفكيكي الودغيري في بداية هذا القرن، حيث تربى والدي مصطفى رحمهما الله، وحيث ولدت ونشأت وترعرعت، فليكن هذا العمل اعترافا منا جميعا بنعمة الله علينا وبقائنا بين أحضان تلك القبيلة. وجب علينا الاعتراف أيضا بالجميل الأسنى الذي هو أهل لها لكفاحها الطويل ضد التدخل الإسباني بمدينتنا مليلة المغتصبة. وليكن ما سطر هنا تخليدا وتمجيدا لتاريخ هذه القبيلة التي هي جزء غالي من المغرب وطننا الحبيب.

سلا في فاتح شتنبر 1997

حسن الفكيكي

أصل هذا الكتاب

رسالة جامعية بعنوان: " قلعية ومشكل الوجود الإسباني بمليلة " (1497-1859) ، أشرف عليها أستاذنا المرحوم محمد زنيبر، تغمده الله برحمته ونوقشت بعضوية الأستاذين محمد حجي وأحمد التوفيق، وذلك مساء يوم 16 مارس 1984 بقاعة الشريف الإدريسي،وحصلت على ميزة حسن جدا.

ولا يسعني سوى أن أتقدم بالشكر العميم إلى الأستاذ الفاضل السيد عبد الواحد بنداود، قيدوم كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط على تفضله بقبول نشر هذا العمل المتواضع، مضيفا بذلك لبنة جديدة إلى العمل الجبار الذي تقوم به الكلية في سبيل نشر البحث العلمي ببلادنا انطلاقا من منبر الجامعة المغربية.

ولا يفوتني أيضا تقديم الشكر والتنوية بالمجهودات الموازية التي يقوم بها مكتب النشر ،حرصا منه لتقديم الأعمال الجامعية على أجود صورة من الضبط اللائق والإخراج العصري .

الرموز المختصرة

خ.ع.ر. : الخزانة العامة بالرباط.

خ.ح.ر. : الخزانة الحسنية بالرباط.

خ.ع.ت : الخزانة العامة بتطوان.

SI.H.M.	:	Sources Inédites de L'Histoire de Maroc
A.H.N	:	Archivo Historico Nacional
A.G.S	:	Archivo General de Simancas
A.I.A	:	Archivo Ibro Americano
A.I.E.A	:	Archivo del Instituto de Estudios Africanos
B.R.E.	:	Bibleoteca Real del Escorial
B.E.T	:	Bibleoteca Espanola de Teutan
B.R.A.H.	:	Bibleoteca Real de la Academia de Historia
B.R.A.H.	:	Bibleoteca Real de la Academia de Historia
B.N.M.	:	Bibleteca Nacional de Madrid
C.H.I	:	Cuadrnos de la Historia del Hislam
R.H.M.	:	Revista de Historia Militar
L.	:	Legajo
Fol.	:	Folio

مقدمة

تشوفت غايتنا في بداية الأمر لإعداد بحث تاريخي شامل عن الريف الشرقي عامة وقبيلة قلعية بصفة خاصة، مؤملا إبراز مشكل الوجود الإسباني بمليلة خلال القرن العاشر الهجري (16م). وتبين مع تقدم البحث علاوة على الحيز المكاني الواسع المعين للدراسة أن مشكل الوجود الإسباني ومقاومته ظل مقتصرا بصورة أساسية على قلعية دون غيرها من قبائل الريف الشرقي. ذلك هو الاعتبار الأساسي الذي حول اتجاهنا نحو حصر مكان الموضوع بالقبيلة وحدها.

وبتتبع تاريخ الوجود الإسباني بمليلة لم يكن من محيد عن تمديد الفترة الزمنية المقررة للدراسة إلى غاية سنة 1859/1276، وهي السنة التي حدث فيها أول تغيير في مسار المقاومة بحصول الوجود الإسباني على توسعة ترابية أولى بساحة قلعية، بعد أن استهدف نشاط المقاومة خلال تلك الفترة الطويلة الحيلولة دون تمكينه بأي امتياز. هذا الإطار بمكانه وزمانه معا هو الذي سيكون مجالا لمباحث هذه الدراسة.

تندرج الدراسة ضمن عدد آخر من الأبحاث المساهمة في مشروع إعادة كتابة تاريخ المغرب من خلال معالجة التاريخين الجهوي والإقليمي. وتاريخ قلعية ومشكل الوجود الإسباني نمط من تلك الدراسات الجهوية التي ستحاول وضع اللمسات الأولى للتعريف بتاريخنا القومي مستندين إلى المصادر المعدة لهذه الغاية.

ساهمت في تركيب أقسام هذه الدراسة مصادر متنوعة تتفاوت طابعا وجنسية، بين ما هو مغربي متسم بوصفه العام وأخرى ذات سمة محلية إلى جانب قائمة المصادر الأجنبية. وسنقدم نظرة نقدية عن أهمها:

المصادر الوطنية

لا يتجاوز ما أفادتنا به مصادرنا الوطنية الإشارات العابرة، نجد في مقدمتها مجموعة الجغرافية التاريخية التي يمثلها أبو عبيد الله البكري وابن حوقل البغدادي والشريف الإدريسي والحسن الوزان. استفدنا من النصوص المقتبسة تقديم التعريف بمليلة القرن الرابع الهجري من حيث التاريخ والعمران والعلاقات التجارية.

وهناك مجموعة المصادر التاريخية التي يتصدرها ابن حيان الأندلسي وابن عذاري وابن خلدون وابن أبي زرع. استفدنا من مجموعها العديد من البيانات المتعلقة بالسكان والأحداث التي عرفتها قلعية والمنطقة المجاورة لها وربطها بالسياق التاريخي العام، مما لا مجال للحصول عليه في جهات أخرى.

المناقب والأنساب: تدخل ضمن مصادر الدراسة مجموعة من كتب المناقب والأنساب، أشير على سبيل المثال فقط إلى عدة مخطوطات مجهولة الاسم والمؤلف تتناول الأسر الإدريسية بالشمال الشرقي المغربي. كان استغلالها هاما للحصول على بعض المعلومات المرتبطة بالوضعية السكانية لما قبل القرن السابع الهجري وتأكيد ما حصلنا عليه بواسطة المصادر المخطوطة المحلية.

المصادر المحلية: والواقع أن حصولنا على بعض المصادر المحلية كان المشجع الأساسي للمضي بالدراسة إلى الأمام، نعد منها:

تقييد نسب قبيلة قلعية: وهو لمجهول شكل العثور عليه فاتحة أملنا، إذ أن وجود أمثاله أساسي للبحث في التاريخ الاجتماعي. ويطرح التقييد جانبين هامين:

الهجرة إلى قلعية: اهتم التقييد بإبراز أصول الهجرات ومحاورها ومسالكها. وقد عالجنا بتلك المعطيات فصل التحول السكاني خلال فترة ما قبل القرن العاشر الهجري.

توزيع المهاجرين بالبوادي القلعية: ساعدنا التقييد على الإجابة عن السؤال المتعلق بالإطار البشري الذي أصبح قاعدة حركة المقاومة طوال الفترة المدروسة وما يندرج فيه من التقسيمات إلى فرق وجماعات وأسر وتحالفات الأخماس، مما أمكن ترجمته إلى بيانات ورسوم وخرائط.

تراجم عيسى البطوئي: أدرج المؤلف ضمن كتابه في التصوف المعنون مطلب الفوز والفلاح في آداب أهل الفضل والصلاح مجموعة من شخصيات الريف الشرقي المنضوية تحت راية الحركة الجهادية القلعية، ساعدتنا على تعزيز أمثلة المقاومين، إلى جانب بعض الإشارات التاريخية الهامة خاصة بالحالة السياسية والاجتماعية. والإشارات مجتمعة هي عمدة المقدمة التاريخية التي فتحنا بها الحديث عن أمثلة المقاومة في النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري(17 م.).

تقييد أحمد ابن القاضي القلعي: هي أهم المصادر المحلية الوحيدة في موضوعها، وعليها ارتكز تركيب الفصول المؤلفة للقسم الثالث، لما تضمنته من الصور الحية الخاصة بالمقاومة وتنظيمها ورجالها في أواخر القرن الحادي عشر الهجري.

مجموعة العقود والرسوم العدلية: جمعنا منها قدرا لا يستهان به مما احتوته خزانات بعض الأسر القلعية، وهي الوثائق الوحيدة التي يمكن جمعها من المنطقة رغم الحصار الأسري المضروب عليها. وقد استفدنا من المقارنة التي عقدناها بين ما جاءت به وبين ما قدمه تقييد قبيلة قلعية،علاوة على ما أدلت به من المعلومات عن التسلسل النسبي لكل أسرة ودرجة أقدمية استقرارها بقلعية. ومن جملة تلك الوثائق رسوم أولاد داود التازوطيين وأولاد القاضي الكعداويين والحدادين الشكريين وتيلزارت والهاديين السيداليين والرتبيين المزوجيين.

الوثائق المخزنية: اعتمدنا سواء على المجموعة التي توصلنا إليها من خلال التجول بين الأسر أو ما حصلنا عليه من خزانة المخطوطات بتطوان أو الخزانة الحسنية بالرباط. وكل الوثائق المحصل عليها من خزانة تطوان تخص

النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجر(18م)، بخلاف وثائق الخزانة الحسنية والخزانات الخاصة التي تهم النصف الأول من القرن الثالث عشر(19م.).

المصادر الأجنبية

دلتنا معاناة البحث عن المصادر الوطنية على ضرورة اللجوء إلى استغلال المصادر الأجنبية، والإسبانية بصفة خاصة، علما بأن المصادر الأجنبية لا تفي بجوهر ما تحتاج إليه الدراسة من التعريف بعمق ما كان يجري وراء أنظار المراقبين والإخباريين الأجانب من التنظيمات والتحركات وسط المجتمع الجهادي بقلعية. فهناك:

مصادر التاريخ العام: استند البحث إلى استشارة عدد لا يستهان به من المصادر الإسبانية ما بين مطبوع ومخطوط، حرصنا أن تغطي مراحل الفترة كلها مع قبول تفاوت قيمة الاستفادة، منها ما يهم فترة الملكين إيسبيلا وفيرناندو ودوقية مدينة صيدونيا وعهد كارلوس الخامس. وتظهر بعض تلك المصادر في شكل مذكرات وسجلات كنيسية وتقاييد حربية، مما هو مفصل في مكانه.

وثائق الأرشيف التاريخي الوطني بمدريد: وهو يعد ثروة هائلة لتاريخ المغرب السياسي والاقتصادي، شكل المستفاد من الأرشيف أهم مصادر القسمين الرابع والخامس الخاصين بالفترة الممتدة ما بين 1767 و 1859. وتضم رفوف الأرشيف ملفين خاصين بمليلة ما بعد القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر الميلاديين. وزعت وثائق الأرشيف على أقسام إسطادو (Estado) بلغ عدد الملفات التي استوقفتنا واحدا وثلاثين ملفا، تغطي محتوياتها الفترة الممتدة من 1767 إلى 1848.

الأرشيف العام بسيمنكاس: المحفوظ بمدينة بلد الوليد (Balladolid) وهو ذخيرة وثائقية أخرى لتاريخ المنطقة المدروسة، سايرت الدراسة بتقديم أمثلة المقاومة الخاصة بما سميناه بالحد الأدنى من الجهاد. ويوجد العديد من تلك الوثائق بمجموعة دو كاستري.

يضم الأرشيف مجمل الوثائق التي كنا في حاجة إليها بمجموعات:
Guerra antigua و Contaduria del sueldo و Estado و Negociado de Mar y Tierra و
Noticias y Confedencias.

ويتضمن نفس الأرشيف الوثائق التي أدمجناها في بحث فصل مليلة بفصل قمة القضايا الوطنية على عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، خاصة أثناء حصار مليلة، منها يومية خوان كابايرو التي قمنا بترجمتها ونشرها أخيرا ويومية فرانسيسكو دي ميراندا المعاصرة للحصار المغربي لمليلة، ثم مراسلات مليلة المنشورة في أعداد جريدة Gazeta de Madrid ويومية وهران أدرجناها مفصلة ضمن كتابنا الصادر أخيرا عن الحصار المغربي.

وهناك جملة من مراسلات القنصل الفرنسي ببلادنا خلال الربع الأول من النصف الثاني من القرن الثامن عشر لوي شيني المقتبسة من كتاب La Correspondance du Consul Louis Chénier وهو من نشر Pierre Grillon بباريس سنة 1970. وتغطي المراسلات في مجموعها الفترة الممتدة بين 1768 و1781.

التحري الميداني: نعطي الأهمية القصوى للتحري الميداني فهو الوسيلة الوحيدة لفهم النصوص وتقويم المستفاد منها، لتفسير ما تعلق بمصادرنا الوطنية خاصة. وتختلف مناطق التحري بميادينها.

فبالنسبة لمدينة مليلة تطلب منا البحث استعادة صورة مليلة الإسلامية قبل الاحتلال الإسباني وتتبع مراحل البناء والتعمير بعده وملاحقة التغييرات الطارئة على الشكل العام منها. وتعلق الأمر كذلك بالتجول في مختلف أرجاء المدينة بغية تعيين المواقع الحربية المشار إليها من طرف النصوص المدروسة وتعيين موقع رباط مليلة بصفة خاصة.

وقمنا في نفس الوقت بعدة زيارات بالنسبة لكل من خرائب قلعة تازوطا وغساسة وتيميزار وقلعة أزغنغان وقصبة سلوان، وهي مختلف القلع التي كان لها دور في المقاومة طوال الفترة المدروسة.

النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجر(18م)، بخلاف وثائق الخزانة الحسنية والخزانات الخاصة التي تهم النصف الأول من القرن الثالث عشر(19م.).

المصادر الأجنبية

دلتنا معاناة البحث عن المصادر الوطنية على ضرورة اللجوء إلى استغلال المصادر الأجنبية، والإسبانية بصفة خاصة، علما بأن المصادر الأجنبية لا تفي بجوهر ما تحتاج إليه الدراسة من التعريف بعمق ما كان يجري وراء أنظار المراقبين والإخباريين الأجانب من التنظيمات والتحركات وسط المجتمع الجهادي بقلعية. فهناك:

مصادر التاريخ العام: استند البحث إلى استشارة عدد لا يستهان به من المصادر الإسبانية ما بين مطبوع ومخطوط، حرصنا أن تغطي مراحل الفترة كلها مع قبول تفاوت قيمة الاستفادة، منها ما يهم فترة الملكين إيسبيلا وفيرناندو ودوقية مدينة صيدونيا وعهد كارلوس الخامس. وتظهر بعض تلك المصادر في شكل مذكرات وسجلات كنيسية وتقاييد حربية، مما هو مفصل في مكانه.

وثائق الأرشيف التاريخي الوطني بمدريد: وهو يعد ثروة هائلة لتاريخ المغرب السياسي والاقتصادي، شكل المستفاد من الأرشيف أهم مصادر القسمين الرابع والخامس الخاصين بالفترة الممتدة ما بين 1767 و 1859. وتضم رفوف الأرشيف ملفين خاصين بمليلة ما بعد القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر الميلاديين. وزعت وثائق الأرشيف على أقسام إسطادو (Estado) بلغ عدد الملفات التي استوقفتنا واحدا وثلاثين ملفا، تغطي محتوياتها الفترة الممتدة من 1767 إلى 1848.

الأرشيف العام بسيمنكاس: المحفوظ بمدينة بلد الوليد (Balladolid) وهو ذخيرة وثائقية أخرى لتاريخ المنطقة المدروسة، سايرت الدراسة بتقديم أمثلة المقاومة الخاصة بما سميناه بالحد الأدنى من الجهاد. ويوجد العديد من تلك الوثائق بمجموعة دو كاستري.

يضم الأرشيف مجمل الوثائق التي كنا في حاجة إليها بمجموعات:
Negociado de Mar y Tierra و Estado و Contaduria del sueldo و Guerra antigua و Noticias y Confedencias.

ويتضمن نفس الأرشيف الوثائق التي أدمجناها في بحث فصل مليلة بفصل قمة القضايا الوطنية على عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، خاصة أثناء حصار مليلة، منها يومية خوان كابايرو التي قمنا بترجمتها ونشرها أخيرا ويومية فرانسيسكو دي ميراندا المعاصرة للحصار المغربي لمليلة، ثم مراسلات مليلة المنشورة في أعداد جريدة Gazeta de Madrid ويومية وهران أدرجناها مفصلة ضمن كتابنا الصادر أخيرا عن الحصار المغربي.

وهناك جملة من مراسلات القنصل الفرنسي ببلادنا خلال الربع الأول من النصف الثاني من القرن الثامن عشر لوي شيني المقتبسة من كتاب La Correspondance du Consul Louis Chénier وهو من نشر Pierre Grillon بباريس سنة 1970. وتغطي المراسلات في مجموعها الفترة الممتدة بين 1768 و1781.

التحري الميداني: نعطي الأهمية القصوى للتحري الميداني فهو الوسيلة الوحيدة لفهم النصوص وتقويم المستفاد منها، لتفسير ما تعلق بمصادرنا الوطنية خاصة. وتختلف مناطق التحري بميادينها.

فبالنسبة لمدينة مليلة تطلب منا البحث استعادة صورة مليلة الإسلامية قبل الاحتلال الإسباني وتتبع مراحل البناء والتعمير بعده وملاحقة التغييرات الطارئة على الشكل العام منها. وتعلق الأمر كذلك بالتجول في مختلف أرجاء المدينة بغية تعيين المواقع الحربية المشار إليها من طرف النصوص المدروسة وتعيين موقع رباط مليلة بصفة خاصة.

وقمنا في نفس الوقت بعدة زيارات بالنسبة لكل من خرائب قلعة تازوطا وغساسة وتيميزار وقلعة أزغنغان وقصبة سلوان، وهي مختلف القلع التي كان لها دور في المقاومة طوال الفترة المدروسة.

وشمل التحري الميداني القيام بجولة استطلاعية للوسط الجغرافي السكاني في قبيلة قلعية بمختلف أخماسها، مستفيدا مما قدمه تقييد نسب قبيلة قلعية ومختلف الرسوم والعقود التي جمعناها. وضم برنامج تلك الزيارات تحقيق ما جاء في الوثائق والعقود والتقاييد، وذلك باستجواب أكابر الناحية وشيوخها.

والخلاصة أن كل ما ورد من تحقيق المواقع وأسمائها المغربية وكل الرسوم والخرائط المدرجة بهذه الدراسة هي نتيجة من نتائج التحري الميداني، وأثره ظاهر في التوصل إلى توضيح بعض الغموض الوارد بمختلف النصوص الوطنية منها والأجنبية.

الاحتفاظ بأصالة أسماء الأعلام المغربية: لا نعتبر هذا من جملة الحفاظ على الأمانة التاريخية فقط، بل الغاية منه الحفاظ على أصالة أعلامنا بصفتها جزءا من تراثنا الثقافي الوطني. ولا يخفى على أحد مدى التشويه الذي أحلقه الوجود الإسباني بأعلامنا بتحريف اسم المدينة المحتلة من اسمها الأصلي **مليلة** إلى المحرف الإسباني **مليلية**، إلى درجة وجود صعوبة كبرى لتقبل رد الاسم إلى أصله في كتاباتنا المعاصرة وحتى على الألسن أيضا. وشمل هذا التحريف أسماء المواقع والأماكن التي سنقف عندها بردها إلى أصلها المغربي، هذا إلى جانب استرجاع جملة من الأسماء المغربية التي توارت خلف مقابلها الإسباني.

أقسام الدراسة

صبت محتويات البحث في قالب مؤلف من خمسة أقسام يميز بعضها البعض اتباع النسق الزمني والترتيب المرحلي الذي درجت فيه مقاومة الوجود الإسباني.

خصص المدخل للتعريف بالخطوط التاريخية الكبرى التي أبرزت تاريخ قلعية ما قبل القرن العاشر الهجري. ويشمل التعريف تتبع مكانة كل من مليلة وتازوطا وغساسة خلال تاريخنا الوسيط، علاوة على بيان تعمير البوادي القلعية قبل موعد الاغتصاب الإسباني.

واهتم القسم الأول بمعالجة مشكل التسرب الإسباني إلى مليلة عام 1497/903 وإلى غساسة عام 1506/912 بالبحث جهد الإمكان عن عوامل التسرب ونتائجه الأولى كخطوة أولى.

وتضمن القسم الثاني تقديم المرحلة الأولى من المقاومة المغربية خلال الفترة الممتدة من نزول الإسبان بمليلة إلى حوالي سنة 1767/1181، وهي سنة افتتاح العلاقات المغربية الإسبانية على عهد السلطان محمد بن عبد الله العلوي. ويدخل ضمن البحث دراسة الوسط الجغرافي والبشري ونموذج التنظيم الحربي، ليتأتى إثر ذلك تقديم نماذج المقاومة الموضوعة وجعلها رهن إشارة هذه الفترة.

وسطرت فصول القسم الثالث للقيام بجولة زمنية ممتدة من سنة 903/ 1497 إلى 1767/1181 بغاية تقديم نماذج من مقاومة الوجود الإسباني خلال المرحلة الأولى، موازاة لفصول القسم السابق له.

وعالجنا في القسم الرابع موضوع المقاومة المغربية لبحث نماذج المرحلة الثانية في حد زمني متراوح بين 1767/1181 و 1775/1189، سنة الحصار المغربي لمليلة.

خصصنا القسم الخامس والأخير لتحليل مسألتين متناقضتين ظلتا تتنازعان الرأي الحكومي الإسباني خلال الفترة الممتدة بين 1775 و 1859: بحث مسألة التخلي الإسباني عن مليلة لقاء منح المغرب لإسبانيا امتيازات جديدة خاصة بتعزيز مكانة سبتة. ومسألة ضغط الدواليب السياسية والعسكرية للاحتفاظ بالمدينة، ذلك الضغط الموجه نحو تحقيق أول امتياز ترابي على حساب الأراضي القلعية المغربية سنة 1859.

مدخل عام

قلعية والخطوط التاريخية الكبرى قبل القرن العاشر الهجري

(1)

أوضــاع قـلــوع كـــرط

قبل القرن السابع الهجري

إذا كانت الفترة الزمنية السابقة للقرن العاشر الهجري (16م.) مرحلة أساسية في تاريخ قلعية فهي أيضا معبر ضروري إلى الحلقة التاريخية الموضوعة رهن إشارة هذه الدراسة. فمن المؤمل أن تضع بين أيدينا عناصر البحث الرئيسية التي لا غنى لنا عنها.

يستجيب هذا المدخل لمحاولة اقتفاء أثر العوامل المساهمة في رسم بصمات الخطوط التاريخية الكبرى إلى غاية عتبة القرن العاشر الهجري. وسنسعى من خلال البحث فيها إلى إزاحة الستار عن الغموض المرافق لظهور كل من مدينتي مليلة وغساسة وقلعة تازوطا، أي المثلث الجهادي الذي سيظل بؤرة هذه الدراسة.

وللوصول إلى تلك الغاية تبين لنا أن أي تحليل تاريخي خاص بناحية قلعية لا يمكن أن يتخطى أهمية الموقع الجغرافي في النطاق الإقليمي الذي يمثله الريف الشرقي أولا، وفي المجال الجهوي الذي يتجلى في الرقعة الجغرافية المحددة لأرض قبيلة قلعية ثانيا.

وحرصا على صبغة المنهجية التاريخية لهذا المدخل اكتفينا بتقديم خلاصة ما أسفر عن تحليل المصطلحات المتداولة قبل القرن العاشر الهجري، بدءا من ألفاظ كرط وبلد النكور، مما يوافق إقليم الريف الشرقي أو إقليم الناظورالحال، ثم قلوع كرط وهو ما يوازي مدلول لفظ قلعية. وقد قسمنا هذا المدخل

التمهيدي إلى عنصرين وفترتين زمنيتين: ما قبل القرن السابع، ثم ما بعده، قبل الوصول إلى التاريخ المحدد للفترة المدروسة بمستهل القرن العاشر الهجري.

كرط بلد النكور

تنبغي الإشارة في البداية إلى أن الفرق الدقيق بين مصطلحي كرط وبلد النكورغير ملموس من الوجهة الجغرافية، إذ أن حدود كل من الإقليمين متطابقة لبعضها البعض، غير أن الفرق موجود إذا راعينا فترة تداول المصطلحين من الزاوية التاريخية.

ساد استعمال مصطلح بلد النكور خلال حكم الأسرة الصالحية النكورية في نطاق ممتد بين واد النكور غربا إلى واد ملوية شرقا[1]. لكن باختفاء الإمارة من المسرح السياسي وانطماس معالم عاصمتها مدينة النكورعلى يد العبيديين ومكناسة لم يعد هناك مبرر للاستمرار في تداول المصطلح. واختفاء إمارة النكور هو الذي فسح المجال لتداول مصطلح كرط الإقليم ليدل على نفس الحدود الإقليمية السابقة، إذ أن الثقل السياسي كان قد تركز في قلوع كرط منذ بداية العصر المريني.

ومن الواضح أن مصطلح كرط أكثر ارتباطا بقلوع كرط أو قلعية القرن السابع الهجري، ليس من حيث العلاقة الاسمية فقط، بل من حيث الروابط الطبيعية والبشرية والتاريخية أيضا. ويحتل الإقليم بامتداد رقعته وارتمائها على مشارف واد ملوية وساحل البحر المتوسط، المنطقة البارزة من الشمال الشرقي المغربي[2]. اهتم البكري بتعيين حدوده الجغرافية ومجالاته البشرية بالإشارة إلى امتداد مجرى واد النكور في الغرب ونهر ملوية في كل من الشرق والجنوب، مع وجود البحر المتوسط بالشمال[3].

---

(1) ح. الفكيكي، "بني صالح". **معلمة المغرب**.1540/5.

(2) مساحة الإقليم حسب الحدود الحالية هي 5000 كلم^2، حدد الحسن الوزان أبعاده بمقياس 50×40، بينما خفضها مارمول كارباخال إلى مقدار 16×10.

(3) **المغرب في ذكر إفريقية والمغرب**، الجزائر، ص.89.

ويعد الحسن الوزان الجغرافي الوحيد السباق إلى الاهتمام بإقليم كرط وتقديم وصفه الجغرافي والبشري والاقتصادي، إذ جعل منه سادس أقاليم مملكة فاس، وقسمه إلى مدن: مليلة وغساسة وتازوطا وأبجاو، وإلى جبال: أزغنغان وبني سعيد ووردان وبني توزين، وأطلق عليها جبال بطوية. بينما عين بصحراء كرط بمجموعة من الأحواض والمرتفعات الواقعة بين جبال بطوية ومجرى ملوية، ممثلة حسب التحديد الحالي في سهب القارب وجباله الشمالية وأحواض المطالسة وأكرواو وجبال القارب الجنوبية على التوالي ثم جبال كبدانة المنزوية في الجنوب الشرقي(4).

والكتلة بحدودها الطبيعية رابطة بين الريف الغربي الأعلى والهضاب الشرقية المغربية والغربية الجزائرية ونقطة التقاء بين الكتلتين الأطلسية الكلسية والوهرانية البركانية (5). وإقليم كرط منطقة الحدود المفتوحة من جميع الجهات، مما ينفي عنه أي درجة من درجات العزلة.

فمن الحدود الجنوبية لا يشكل مجرى واد ملوية أي عقبة للمرور إلى قلوع كرط ومليلة. والوضع مماثل بالنسبة لحدود إقليم كرط الشرقية بمجرى واد ملوية الأدنى، وهي حدود مفتوحة تجاه الجزائر الغربية نحو بلد القلوع ومليلة خلال العصور المتوالية.

وعلينا أن نقدر للواجهة البحرية حق قدرها، فالمميزات الطبيعية البارزة على الساحل الممتد من مصب واد ملوية إلى مصب واد النكور كانت مجال الروابط التجارية بين الأندلس الإسلامية طوال مدة تسعة قرون متوالية لم تتوقف إلا بانتهاء إمارة بني الأحمر الغرناطية. وكانت قلعية خلال حقبة من تلك الفترة هدف السياسية الأندلسية في بداية القرن الرابع الهجري ومحط أنظار الأطماع القشتالية في مستهل القرن العاشر الهجري.وإذا كنا متأكدين من ظهور مصطلح كرط وإطلاقه على الحدود التي تم رسمها خلال العهد

---

(4) **وصف إفريقيا** 1، الرباط 1980 صص، 265 - 270.

(5) Comision historica de Marruecos, *Geografia de Marruecos*, Madrid 1915, t. 2, p. 212

المريني، فإننا من جهة ثانية لا نعرف متى كان ذلك بالتحديد الزمني، ولو أن وروده جاء على لسان ابن خلدون.

ونجمل القول إن هذا الظهور مرتبط باختفاء مصطلح بلد النكور وآنذاك ناب عنه مصطلح كرط ذو الدلالة الجغرافية ومصطلح بطوية ذو الدلالة البشرية(6). وبحثا على دلالة مصطلح كرط نؤكد أننا لم نتوصل من أي مصدر بالأصل المشتق منه. فالمصطلح يظهر شكله على هيأة مجموعتين:

- **جارت أو كارت أو قارت** الموضوعة للدلالة على المجال الإقليمي من بلد النكور، **وجارة** إذا أريد الإشارة إلى القلعة أوالقلاع البارزة بالشمال الشرقي من ترابه(7).

- **كرط أو كرت** للإشارة إلى واد كرط، أهم مجاري الإقليم، حسب الكتابات المعاصرة. أما السكان فينطقون بلفظ **يارت** إذا رغبوا في التلميح إلى الأراضي المرتبطة به أو إلى الإقليم وبالمصطلح **شارت أو شارض** حينما يريدون الإشارة إلى واد كرط.

ويقودنا الفضول العلمي إلى البحث عن أصل لفظ كرط واشتقاقه، مشجعنا على ذلك وجود وثيقة وحيدة أدلت بعبارة " المحروشة جارت" التي

---

(6) الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، نابلي 1975، ص.171 ؛ ابن الأحمر، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، الرباط 1972، ص.37؛ **روضة النسرين في دولة بني مرين**، الرباط 1962، ص.14؛ ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، ص.207 ؛ عبد الحق البادسي، **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في ذكر صلحاء الريف**،الرباط 1982، ص.51؛ ابن خلدون، **ديوان العبر** 226/6.

(7) جارة اختص بها البكري في **مسالكه**، ص.89 وابن حيان الأندلسي في **المقتبس**، ص. 262؛ جارت حسب : محمد بن عبد القادر الكردودي، **الدر المنضد الفاخر فيما لأبناء مولانا علي الشريف من المحاسن والمفاخر**، ص.138؛ العشماوي، **التحقيق في النسب الوثيق**، ص.11؛ وثيقة أولاد القاضي ببني سعيد بتاريخ 3 جمادى الثانية 1172؛ كارت حسب : ابن خلدون، **العبر** 226/6؛ الناصري في **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، 117/8؛ قارت عند : أكنسوس، **الجيش العرمرم**، ص.178؛ الضعيف الرباطي **تاريخه**، ص.366، مخطوط خ.ح.ر.؛ بالوثائق المخزنية الصادرة على عهد المولى الحسن.

أراد بها صاحبها توجيه أنظارنا إلى طبيعة سطح الإقليم المتحجر الجاف، إحدى خصائص الإقليم الطبيعية.

وإذا اعتبرنا الاستنتاجات التي توصل إليها بعض الباحثين الإسبان فإن ما عنوه بلفظ Garet قد حول اشتقاق المصطلح إلى لفظ جارة أو الكارة. وبالفعل فإن الإقليم هو بلد الكارات المعروفة محليا بالكعدة وتاعرورت وتاوريرت.

ورغم هذه التفاسير المغرية فإننا نميل إلى ترجيح رأي آخر لاعتقادنا أن هناك صلة أكيدة بين المصطلح الدال سواء على الإقليم أو على قلوع جارة من جهة، وبين اسم واد كرط من جهة أخرى، ذلك أن واد كرط هو المجرى المائي الوحيد المميز للإقليم، لاختراقه قسما من مرتفعاته ومنخفضاته من جنوب غرب الإقليم إلى شمال شرقه.

فبعد انحداره من منابعه بأرض أكزناية يصل إلى بلد توزين الرحيل ومنخفض أزلاف. وحينما يصل إلى عزيب ميضار، عند التقائه برافده واد ملول لاحظنا أن التاجر الفرنسي رولان فريجوس قال في مذكرته سنة 1666م. عند خروجه من تافرسيت متجها إلى عزيب ميضار: " إننا دخلنا في سهل كرط" (Garet)، معنيا بذلك حوض واد كرط الأوسط[8].

يجتاز واد كرط منبسطا ممتدا على مدى نحو سبعين كيلومترا إلى أن يتصل برافده واد إيغان المنحدر من جهة المطالسة. وابتداء من هذا الحد يغير الواد اتجاهه نحو الشمال ليصب بالمتوسط بين بني بوكافر قلعية وأمجاو بني سعيد. ويبدو من المسافة الأخيرة التي يقطعها واد كرط أن مجراه يحتضن كتلة مخروطة الشكل بارزة العلو تتألف من قمم موزعة على طول استدارة المخروط البركاني، وكل تلك القمم تبدو من بعيد مثل القلع الشامخة. وهذا في نظرنا هو الذي دفع من أرخ للفترة النكورية إلى إطلاق اسم "قلعة جارة" إشارة

---

(8) Comision Historica de Marruecos, *Geografia*, t. 2, p.112; A. Gherilli, « Apuntes historicos sobre las ruinas de Tazuda », *Africa*, Abril 1930, p. 81; « Relation de Roland Frejus », S.I.H.M. série France, t.1, p. 121.

منه إلى القلع الجبلية المشرفة على مجرى واد كرط من جهة الشرق، مما يدعونا إلى الإعتقاد باشتقاق كل من اسم الإقليم كرط وقلوع جارة من اسم الواد الذي هو أهم مصدر للمياه والخصب بالمنطقة.

ومما يزيد مصدر الاشتقاق تأكيدا أن المصطلحين واد كرط وقلوع جارة أسبق في الظهور على لسان البكري من مصطلح جارت المنطقة أو الإقليم، إذ أنه لم يتحدث عن غيرهما. كما أن الشريف الإدريسي لم يخبرنا بشيء من ذلك وكان علينا الانتظار إلى إعلان ابن خلدون عن تداوله. كما أننا لم نسمع من جهة ثانية عن مصطلح "صحراء جارت" إلا بعد دخول عرب بني المعقل وبعض عشائر بني هلال إلى جنوب الإقليم خلال العصر المريني. تلك هي الدواعي التي جعلتنا نميل إلى أن لفظ كارط أو ما سار على شكله لا يمكن رده إلا إلى أصل واد كرط تبعا لقاعدة اتباع الفرع لأصله(9).

قلوع كرط

ليس هناك أدنى شك من أن مصطلح قلوع جارة الوارد في مسالك البكري كان القصد منه ما عرف خلال العصر المريني بقلوع كرط وقلعية فيما بعد، أي الكتلة الجبلية الممتدة في أقصى الشمال الشرقي من إقليم كرط. عرفت الكتلة أقوى اندفاع لها في القسم الأوسط حيث تنفتح فوهة بركان أكركور الخامد، وعملت القوة نفسها على إبراز عدد من القمم الناتئة في السفحين الشمالي والشرقي (10)،وعدد آخر من الهضيبات المعروفة محليا بالكعدات (11). وأجل تلك المواقع على الإطلاق هي هضبة تازوطا بفضل مركزها الأوسط وبارتفاعها (730 مترا) وسطحها المستوي على طول مساحة

---

(9) يسمع مصطلح كارت أو يارت في الوقت الراهن بصعوبة، فهو في نظر السكان المنطقة الممتدة بين واد إيغان إلى سهب سلوان، مرورا بتيستوتين وعروات(أعروي)، أي ما يعرف في الوقت الراهن بسهب القارب.

(10) القمم المقصودة هي: جبل ويسان، تيذينيست، تازوطا، أحمد الحاج، السبت، متابل والقلعة، وكلها مجتمعة في كتلة مخروط بركان قلعية.

(11) الكعدات المقصودة هي: كعدة ثلاث وأيت فكلان وجواوة الجبلية وإرغمان.

ألفي وخمسمائة مترمربع، وحافاتها الشديدة الانحدار، وستصبح بإحداث قلعة جارة قلب قلوع قرط وأمنع مواقـع الهضبة.

من "رس أ د ر" إلى مليلـة

وقبل أن نتأكد من وجود قلعة كرط على هضبة جبل القلوع بنحو ألف وخمسمائة سنة كانت المميزات الطبيعية قد استأثرت بانتباه الملاحين الفينيقيـين واستوقفتهم لإطلاق اسم "**رس أد ر**" (RSADR) على المركز التجاري المحـدث بالساحل الشرقي من قلوع كرط، وعنوا بذلـك " الـرأس الأكـبر"، إشـارة إلى اندفاع كتلة شبه جزيرة هـورك وتوغلهـا نحـو الشـمال في البحـر علـى شـكل لسان صخري مثلث الشكل بارتفاع متوسط يقف عند ثلاثين مترا فوق سطح البحر[12].

اختار الفينيقيـون من ساحل شبة جزيرة هورك موضع الصخرة الكلسـية الواقعة عند الحد الجنوبي من نفس الكتلة بجوار مصـب واد ينسـاب مـن جبـل القلوع المعـروف بعـد ذلـك بـواد المـدور[13].وكـان لهـذا الاختيـار مـا يـبرره، فالصخرة شبه جزيرة صغـيرة محيطهـا ألـف ومائتـان وأربعـة وعشـرون مـترا، متوفرة على جـون صغير محيطه نحـو ثلاثمائـة مـتر، ومدخلـه مـن جهـة الشـرق متعمق في البر بنحو سبعين مترا[14].

لم يـكن هـذا الإختيـارالفينيقي بعيـدا عـن الأهـداف الاقتصادية الـتي كانت الباعث الأساسـي على الاستقرار بصخرة رس أدر والتعامل مع الخلايـا

---

(12) جاءنـا ما نعرفه عن الوجود البونيقي بساحل جبل القلوع على لسان الكتاب الرومانيين أمثال بوليبيو Polibio وكايو بلينيو Cayo Plinio وبتولومي Ptolomeo الذي عـاش حـوالي عام 225 ميلادية.F. de Castro, *Melilla Prehispanica*, Madrid, 1945, p.87.

(13) اقتبست المعلومات من بحث أنجـزه الأب "فيضـل فيتـا " (Fidel Fita)، مديـر الأكاديميـة الملكية بمدريد عام 1914، مما نقلـه عنـه فيرنـاندو دي كاسـترو(Fernando de Castro) صاحب *Melilla Prehispanica*. ص.147 وما بعدها.

(14) أخذت هذه المعلومات من جملة الخرائط سواء المنشور منها بالمجلات الإسـبانية وخاصـة منها *Africa revista de las tropas coloniales* أو المنقول من معروضات متحف مليلة.

البشرية القديمة المستقرة بشعاب جبل القلوع. وقد دلت الحفريات التي أجريت بمصب واد المدور عن تقدم المركز الفينيقي نحو الغرب واستقرار تجاره على كدية مزوجة أو تينرت، الواقعة على الضفة اليمنى من نفس الواد (Cerro de San Lorenzo)[15].

والظاهر أن النفوذ الروماني كان أكثر توغلا في قلوع كرط، مما يسمح بترجيح اتساع نفوذ رس أدر بسبب إلحاق الوظيفة العسكرية بالدور الاقتصادي، مما جعل الرحالة الروماني بارتولومي (Bartolome) يعد المركز البونيقي بساحل القلوع بمرتبة مستعمرة، وهو ما كرره الإمبراطور فاسباسيانوس (Vespasianos) سنة 70 ميلادية[16].

والجديد الذي نبحث عنه أن الرومان أحدثوا ربما لأول مرة برجا بالمدينة وأحاطوا حدود الصخرة بسور، وسيكون هذا أول علمنا بتأسيس حصن مدينة رس أدر[17]، مما لا يحول دون تصور اتساع الخصائص العمرانية والاقتصادية فيما بعد ذلك، وظهور سكة المدينة الخاصة بها[18]، غير أن زحف الوندال نحو مضيق جبل طارق سيضع النهاية لتلك المزايا كلها[19].

لم تر مدينة رس أدر النور من جديد إلا بعد قرن ونيف إثر محاولة البيزنطيين استعادة السيطرة على المدن الرومانية[20]، فبعد حملة ترميم المدن المخربة بساحل الشمال الإفريقي جاء في سنة 534 م. دور رس أدر، حين حل بها جوان الأرميني بجيش وعدة سفن وعمال لإعادة بنائها[21].

---

(15) ح. الفكيكي، مادة "تينرت"، **معلمة المغرب**، 2756/8. بدأت الأعمال الحفرية بها سنة 1904، ولكنها كانت متقطعة ولم تستأنف إلا سنة 1940، كشف أثناء ذلك عن مقابر جماعية وعثر على نماذج من الخزف البونيقي.

(16) F. de Castro , *Melilla* , p. 87.

(17) **المرجع السابق**، صص. 221-236.

(18) R. Rézette , *Los enclaves españoles en Marruecos.*

(19) اقتحم جنود جينصريق مدينة رس أدر سنة 430 ميلادية، فتم تخريبها بصورة شاملة على يد عشرين ألف جندي.

(20) F. De Castro , *Melilla* , p. 254

(21) **المرجع السابق**.



رأس شبه جزيرة هورك

نجهل كل شيء يمكن لنا التعلق به لتوضيح المدة الفاصلة بين استقرار البيزنطيين بمدينة رس أدر ووصول أول حملة عربية إلى المغرب الأقصى. كما لا يمكن لنا الحصول على نتيجة واضحة إذا ما تتبعنا حركة المد والجزر الإسلامية وحاولنا اقتفاء أثر جيوش الفتح التي طردت البيزنطيين من مراكزهم الساحلية فمتى تراجع البيزنطيون عن رس أدر؟ وقبل ذلك ماذا كان موقف ورتذى أهل قلوع كرط آنذاك من الوجود البيزنطي؟

إننا نعلم أن الوالي البيزنطي كان مستقرا بقرطاج ومنها أشرف على تدبير شؤون مراكز النفوذ الساحلية الممتدة من طرابلس إلى طنجة[22]، ومن ضمن تلك المراكز مدينتا سبتة و رس أدر. ويمكن لنا أن نستنتج أن الصعوبات التي واجهها البيزنطيون في مصر وطرابلس وإفريقية هي التي أرغمت جيوشهم على التراجع والانسحاب من الغرب نحو الشرق، مما ترتب عنه الجلاء عن مراكزهم بساحل المتوسط.

وأمامنا مثال سبتة التي استقل بها يوليان الغماري، مما يدعونا إلى تطبيق ما حدث بغمارة على ما لجأ إليه ور تدى بقلوع كرط. فالذي حدث على وجه الترجيح أن تراجع البيزنطيين عن رس أدر قد أخلى المكان لور تدى، سكان جبل القلوع الأوائل، وكان هذا الحدث المناسبة التي أطلق فيها السكان على المدينة المحررة اسم "مليلت" أي البيضاء[23]، ليظهر بعد ذلك محولا إلى صيغته العربية "مليلة"[24].

---

(22) ابن عذاري، **البيان المغرب**، 4/1.

(23) نرفض ما خاض فيه الإسبان حينما حاولوا تفسير اسم مليلة، فقال بعضهم باشتقاق الاسم من الحمى، (G. Morales, *Datos*, p. 89-94) وتمسك آخرون بما جاءت به الترجمة الأولى لكتاب **وصف إفريقيا** للحسن الوزان، ص.265، مستدلين أن اسم مليلة مشتق من العسل المعروف في اللهجة الأمازيغية بتامنت، مما لا أساس له من الصحة.

(24) لعل تتبع تاريخ المدينة منذ القديم بكاف لرد ما أدلى به أبو القاسم الزياني حين رد تأسيسها إلى من اسمه أمليل اليفرني، أحد قواد إدريس بن صالح النكوري عام 92 هـ. **الترجمانة الكبرى**، ص.79، مع ملاحظة أن الأمير النكوري حكم بين 132 سنة هـ. وسنة 143 هـ.

تؤكد المعطيات التاريخية المستقاة من مصادر القرن الرابع الهجري أن استرجاع مليلة من الأسر الأجنبي كان حدثا هاما في تاريخ قلوع كرط، لبست به حلة جديدة وحققت انتعاشة اقتصادية جد مثمرة، بفضل ارتباط قنوات التجارة الصحراوية بشرايين التجارة الأندلسية، بعد أن انضافت إليها قلعة جارة التي تحول اسمها، بناء على ما سبق تقديمه إلى قلعة كرط.

قلعة كرط

يعود أول تصريح بوجود قلعة كرط، إلى سنة 250 هـ. بمناسبة الإعلان عن التجاء سعادة الله، أخي سعيد بن صالح أمير النكور إلى" قلعة جارة"، حصن ورتدى أهل قلوع كرط[25].

ينتمي ور تدى إلى بطوية من الفصيلة المستقرة منذ ما قبل الفترة الإسلامية بجبال كرط الشمالية المساحلة للبحرالمتوسط[26]. ويفهم من البكري أنهم كانوا يمثلون العنصر الغالب، فهم سكان قلوع كرط وأهل قلعة كرط ومليلة ونواحيها. وهذه الكثرة والقوة هي التي مكنتهم من تقديم المعونة لسعادة الله وإجارته ضد أخيه وإدخالهم أياه قلعتهم في منتصف القرن الثالث الهجري، وهي نفس القوة التي دفعتهم إلى السطو على جمال أمير مكناسة موسى بن أبي العافية حوالي سنة 319 هـ[27].

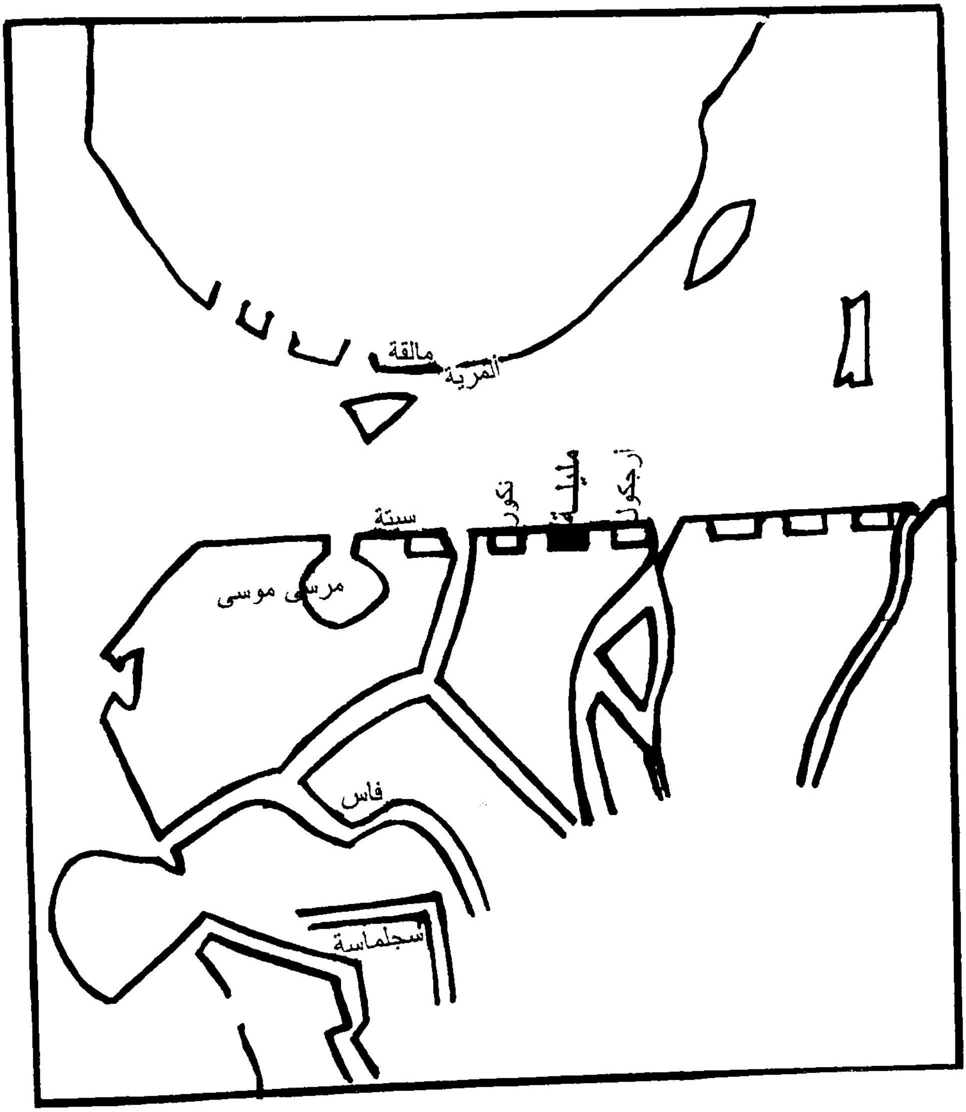
وإلى جانب ور تدى كانت تعيش جماعات أخرى أقل قوة، نعرف منها غساسة (إغساسن أو إخساسن) وهي من نفزة، احتكرت سكنى الساحل الغربي من طرف هورك، ومع كل أولئك فل من مطماطة[28]، انتقلت إلي بلد

(25) أبو عبيد الله البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، ص. 94. ربما كان الاسم الأصلي الأمازيغي هو "أر ن تدى" من أراو، أي ذرية تدى، بعد تحويل الألف إلى واو وإضافة الكاتب العربي بني إلى المقابل له من اللهجة المحلية، مما جرت به العادة في عدد من الأمثلة: ور صطيف، ور تناج، ور يكول، ور شيك، ور نيد، ور ماكسن.

(26) ح. الفكيكي، مادة "بطوية" **بمعلمة المغرب** 1271/4.

(27) البكري، **المغرب**، ص.94؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**، 265/1.

(28) ما يزال اسم إمضماضن متداولا في قلعية بجبل القرمود، فرقة فرخانة مما يجاور قمة متابل دالا على تجمع قروي.



جزء من خريطة ابن حوقل يظهر به موقع مليلة

القلوع من حوض واد ملوية الأدنى على الأرجح[29]، وبشعاب واد المدور الأعلى استقرت جماعة بني يطوفت (إكطوفن) وهم من بني يفرن جيران غساسة[30]. ثم فلول من غمارة سكنت شمال هضبة القلوع وهم المعروفون في الوقت الراهن ببني واغمارن[31]. تلك هي الجماعات البشرية التي شاهدت عودة مليلة وظهور قلعة كرط إلى الوجود.

ولما كانت قلعة كرط ثابتة الوجود قائمة البنيان حوالي سنة 250 هـ. صعبة الاقتحام موصدة الأبواب في وجه أمير النكور سعيد بن صالح حتم علينا ذلك الوجود بتلك الصورة إلى التفكير في سابق عهد للقلعة قبل التاريخ المعلن عنه. ومن الجائز القول إن بناء قلعة كرط كان على يد أهلها ور تدى، ربما على أنقاض أسس قديمة تعود إلى ما قبل العهد الإسلامي وإلى العهد الروماني بصفة خاصة[32]. فموقع القلعة الهام يفرض علينا تصور ذلك. ولا يحول دون تأكيد هذا الأصل القديم سوى صمت آثار القلعة، إذ لم يسبق للإسبان أو أن مسوا حجرا واحدا منها. وحسبنا التعرف على المستوى الذي ظهرت به القلعة في منتصف القرن الثالث الهجري.

فقلعة كرط بالنسبة للبكري حصن منيع. وقد قمنا بمحاولة إبراز المعالم العمرانية للقلعة، بناء على معرفتنا القديمة للمكان وزيارتنا للميدان رغبة في تعزيز الدراسة بالمزيد من المعلومات الأثرية، ووضعنا في النهاية تصميما للقلعة المرينية[33]. يكفي إذا لم يسمح المجال الأثري بعد من الإدلاء برأيه في الموضوع أن نلاحظ أن هناك حقلا أثريا واسعا يشغل القسم الشرقي من الهضبة لا ندري شيئا عن قيمته التاريخية. رغم كل ذلك فإننا ملزمون على موافقة

---

(29) البكري، **المغرب**، ص. 80.

(30) تعرف الرواية الشفوية بقلعية انتماء إكطوفن إلى بني يفرن.

(31) يستند إدراج الغماريين ضمن سكان قلوع كرط الأقدمين إلى إشارة من ابن خلدون أولا واستمرار وجود الاسم إلى وقتنا الراهن ثانيا. **ضابط الأمور الوطنية**، تطوان 1951، ص. 103.

(32) Angelo Gherill, « Apuntes sobre las ruinas de Tazuda », *Africa revista de las Tropas Coloniales*, Abril , Mayo 1930

(33) أعرف المكان منذ الصغر لكونه موطن أسرة والدتي.

البكـري في زعمه، إذ أن القلعة كانت فعـلا ملتقـى القوافـل التجاريـة، سـواء الآتي منها من سجلماسة أو من مراسـي النكـور أو تلـك الـتي كـانت تقصـد مراسي قلوع كرط من الأندلس[34].

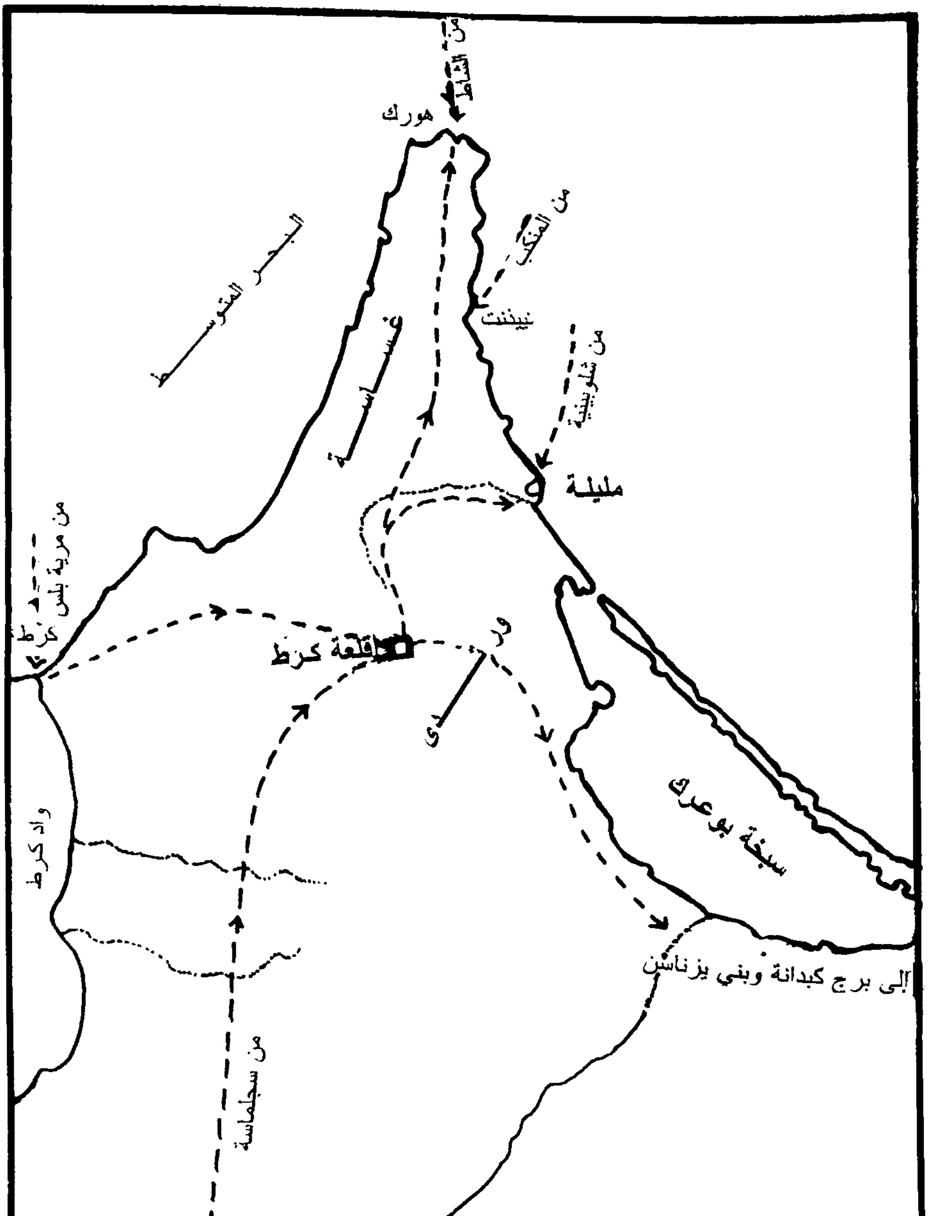
عواقب التنافس العبيدي المرواني على قلوع كرط

إذا كانت قلوع كرط لم تتأثر كثـيرا علـى مـا يظهـر بـأحداث مـا قبـل القرن الرابع الهجري، مما سمح لها ببناء كيانها العمراني وتصور مجالها التجـاري باستثناء الهجوم المفاجئ الذي تعرضت لـه مليلـة علـى يـد النورمـاند[35]، فـإن معاناتها من جراء التنافس العبيدي المرواني كان لـه أكـبر العواقـب. فـالصراع كان على أشده استمر خلال النصف الأول من القرن الرابـع الهجـري تعـاقبت خلاله عمليـات التدمير والبناء على كل من مليلة وقلعة كرط، وأسفر التنـافس في الأخير على استقرار النفوذ الأندلسي بالقلوع.

ففي الوقت الذي كان فيه العبيديون يهددون قلوع كرط مـن حدودهـا الشرقية على طـول مجرى ملويـة الأدنـى انحـاز إليهـم أهـل تخوم إقليـم كـرط الجنوبيـة بظهـور مصالـة بـن حبـوس وابـن عمه موسـى بـن أبـي العافيـة المكناسيين بجهة أكرسيـف[36]، وبدا من الواضح أن قلوع كـرط قـد أصبحـت مطوقة من طرف العبيديين. ويسجل البكري في مسالكه أولى لحظات التدخل العبيدي بمنطقة، وهي أيضا أولى تدخلاتهـم بقلوع كرط بدءا من سنـة 305 هـ لتتوالى خلال سنوات 308 و309 و310.

لم يخبرنا أحد بنتائج تلك الحملات باستثناء الكـاتب الإسباني مـارمول كارباخال (Marmol Carbajal) بدون إطلاعنا على مصـدره. ذكـر أن العبيديـين اتخذوا من مليلة قاعدة بحرية وبرية لهم. وهذا خبر جد محتمل الوقوع ليس فقط لكون بلد القلـوع ممـرا مفتوحا في اتجاه النكـور فحسب، بل للمزايا البحرية

(34) ح. الفكيكي :"مليلة حاضرة قلوع كرط". **دار النيابة،** 49/7 ؛ 25/9.
(35) كان ذلك سنة 244 هـ. وقد نالت المدينة نصيبها من الهدم والحرق والسبي.
(36) ابن عذاري، **البيان المغرب**.230/1.



قلوع كَرط في القرن الرابع الهجري

المتوفرة بها ولأنها كانت سوق البضائع الصحراوية والأندلسية على السواء[37]. ومما يرجح الخطر المهدد لقلوع كرط من طرف العبيديين شروع الناصر الأموي في تدبير خطة الاستيلاء على مدينة مليلة وناحيتها، وهذا ما تم بصورة مفاجئة عام 314 هـ[38].

ويوازي ما حققه الناصر على الصعيد الحربي ذلك الفوز الذي ناله بانحياز موسى بن أبي العافية إلى جانبه. وتبين لموسى منذ ذلك أن الحاجة إلى تعزيز جانبه العسكري تفرض عليه عاجلا الاندفاع في اتجاه قلوع كرط. غير أن السياسة العبيدية سبقته بهجوم القائد ميسور على مليلة وقلعة كرط وتخريبهما ما بين سنوات 321 و 323 بناء على ما يمكن استنتاجه من إشراف موسى بن أبي العافية على إعادة بناء القلعة سنة 324 هـ. وما تم إثر ذلك من وصول الأسطول الأندلسي بالعمال والمهندسين[39].

ولعل الوصف العمراني الذي خص بها مليلة كل من ابن حوقل[40] ومحمد الوراق على لسان البكري[41]، وهما من المعاصرين للفترة، علاوة على ما ذكره الشريف الإدريسي[42]، وما عكسه الحسن الوزان، كل ذلك يعود إلى فترة الهيمنة الأندلسية[43]. ويخبرنا ابن حوقل بعودة الخراب إلى مليلة سنة 347 هـ. نتيجة حملة العبيديين بقيادة جوهر الصقلي وزوال ما كان بها من الأجنة والزروع والغلات الجسيمة[44].

---

(37) **إفريقيا**، 2/ 256.

(38) ابن عذاري، **البيان المغرب**.89/1.

(39) حل الأسطول بنحو أربعين قطعة وعلى ظهرها ثلاثة آلاف جندي وعدد من البنائين والنجارين والحفارين والجيارين والأشارين والحدادين والحصارين، رئيسهم محمد بن وليد بن فشتيق. ابن حيان الأندلسي، **المقتبس**، صص. 382. 387. 388.

(40) محمد بن حوقل النصيبي البغدادي، صاحب كتاب **صورة الأرض**، بدأ رحلته إلى شمال المغرب الكبير سنة 331 هـ. تعرض في كتابه لتخريب المدن المغربية من طرف العبيديين.

(41) **المغرب**، صص. 89. 94.

(42) **نزهة المشتاق**،نابلي، 1975، ص. 533.

(43) **وصف إفريقيا**، 266/1.

(44) **صورة الأرض**، ص. 79.

وبهذا الخبر احتجبت عنا أخبار قلوع كرط خلال قرن ونصف من الزمن، كان أهلها ور تدى قد عادوا إلى الظهور بعد زوال نفوذ مكناسة. والبارز من تاريخ قلوع كرط في منتصف القرن الخامس الهجري طرح مسألة إمارة مليلة الحمودية الإدريسية. قدم لنا البكري المعاصر للحدث أول إشارة لقيام الإمارة عام 454 هـ. ثم توقف، وهي الإشارة التي رددها ابن عذاري.

تعلقت تلك الإشارة بخبر استدعاء زعماء جماعة ور تدى، أهل قلوع كرط لمحمد بن إدريس، آخر ملوك بني حمود الأدارسة المالقيين المستقر آنذاك مغمورا بألمرية الأندلسية[45]. وحينما نبحث أسباب تلك الدعوة فإننا لا نجد من العلة لها سوى ما لاح في الأفق من خطر الزحف المرابطي نحو الشمال الشرقي المغربي[46].

حل محمد بن إدريس بمليلة في شوال عام 459 هـ. وقام أهل القلوع بحركته وكان لا يزال بالمكان في سنة 460 هـ. وعلينا أن نتصور بقاءه بمليلة إلى غاية سنة 473 هـ. وهي السنة التي احتلت فيها جيوش يوسف بن تاشفين المدينة[47].

ولاستكمال الإطار التاريخي المميز لهذا القسم الأول من المدخل نشير فقط إلى عودة احتجاب أخبار قلوع كرط وندرة الأخبار التي نعرفها عن العصرين المرابطي والموحدي. فلا نعرف عنهما سوى:

- ابتداء العصر المرابطي بقلوع كرط من سنة 473 هـ. واستمراره إلى سنة 536 حين تغلب قائد الموحدين عبد الرحمان بن زكو على ماكسن بن المعز، حاكم مليلة المرابطي.[48]

---

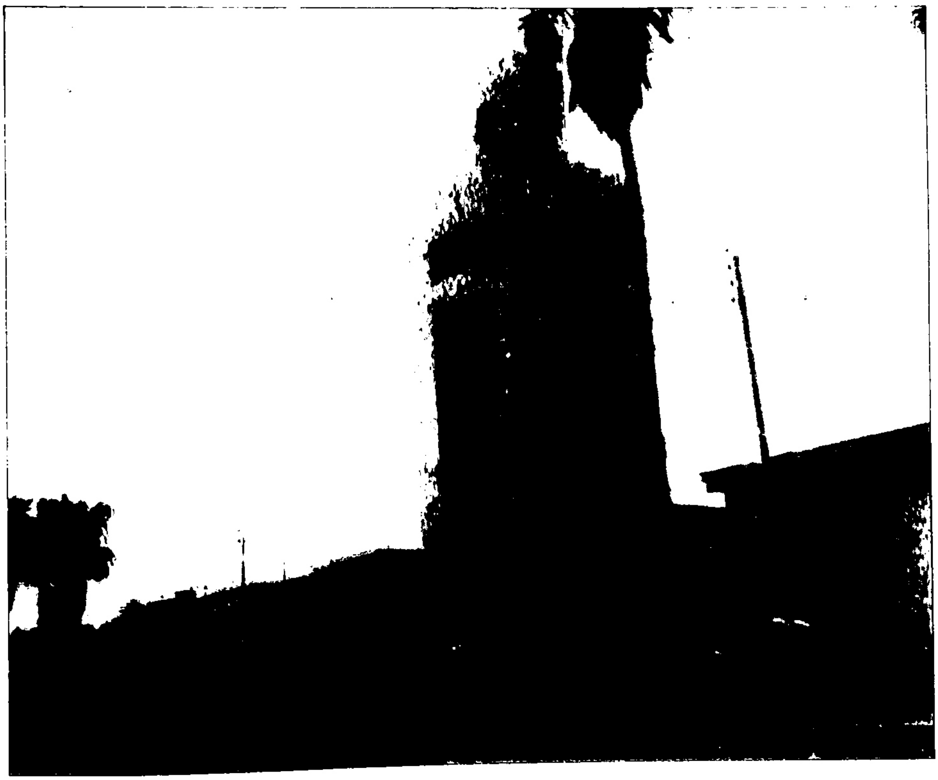
(45) البكري، **المغرب**، ص. 134؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**.429/1.

(46) كان يوسف بن تاشفين ما بين 454 و 459 متقدما في فتح الريف الغربي ووصلت جيوشه إلى تازا. الناصري، **الاستقصا**. 26/2. 29.

(47) ربما كان لمسجد مولاي إدريس العتيق القائم بفرخانة علاقة بتلك الفترة الإدريسية القصيرة.

(48) البيذق، **أخبار المهدي**. صص. 53. 56.

- ابتداء العصر الموحدي من سنة 536 هـ. إلى سـنة 610 هـ. وهـي سـنة سيطرة بني مرين على قلوع كرط.



مسجد مولاي إدريس بفرخانة في الوقت الراهن بعد ترميمه

(2)

الوجـود المـريني بقلـوع كـرط

تكمن الأهمية التاريخية التي نوليها لهذه الفترة الممتدة من مستهل القرن السابع الهجري إلى بداية القرن العاشر الهجري في عدة خصائص، أهمها الانقلاب الطارئ بقلوع كرط من الوجهة الاجتماعية.

ويظهر أن مستهل القرن السابع الهجري هو بالفعل بداية حد فاصل بين مرحلتين:

مرحلة العهد القديم المتسم بسيادة العناصر البشرية الأصلية المتحكمة في المجال السياسي والتعامل التجاري.

وعهد جديد عمل على تغيير المعطيات القديمة في مجملها بتوالي الهجرات إلى ربوع الريف الشرقي، نتيجة الاندفاع الزناتي المريني.

هكذا لم نعد نسمع شيئا عن استمرار وتداول اسم ور تدى بعد انصهار الجماعة وسط التجمعات الجديدة الوافدة على قلوع كرط التي أصبحت تدعى بلاد القلاع أو قلاع الريف[49]، إلى أن استقر الاصطلاح في آخر المطاف على اسم قلعية. وشمل التحول أيضا اسم قلعة كرط التي أصبحت تدعى قلعة تازوطا. كما أن مكانة مليلة في التجارة البحرية أصبحت هامشية لظهور مدينة غساسة كمنفذ أول بإقليم كرط.

تلك هي التجمعات التي ستشاهد عودة مدينة مليلة إلى الأسر الأجنبي الأسباني وهي التي ستتكفل بتنظيم مقوماتها الدفاعية والهجومية المتوفرة وتعبئتها لمواجهة مضاعفات الأزمة الجديدة.

---

(49) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**. 28/1؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**. 392/3

تازوطا حصن بني مرين

يستفاد من إشارة قصيرة واردة عند ابن عذاري المراكشي وتأكيد غيره لها[50]، أن دخول المرينيين إلى إقليم كرط قد تم فعلا قبل التاريخ المحدد من طرف إجماع مؤرخيهم على سنة 610 هـ، إذ لم يكن القصد من تعيين تلك السنة سوى التعبير عن دخول زناتة الرسمي الجماعي الذي لم يكن هو الأول.

ويعبر عن تلك الجولات التمهيدية ربط المرينيين صلاتهم بقبيلتي المطالسة واكزناية المشرفتين على حوض أكرواو، مركز تجمع رحل زناتة منذ القديم، ثم اتصالهم ببني توزين التي أصهر شيخها علي أمحلي إلى عبد الحق المريني في ابنته أم أيمن، والدة يعقوب المنصور المولود سنة 609 هـ. وعلى أقل تقدير يكون بنو مرين قد اخترقوا أجواء كرط الشمالية بزعامة عبد الحق في حدود سنة 607 أو608 هـ. كان هذا الدخول المبكر هو الذي عرف بني مرين بموقع قلعة كرط وأهميته[51].

أصبحت قلعة تازوطا طوال القرن السابع الهجري، على الأقل ما بين 610 و692 هـ. عاصمة الريف الشرقي برمته بزعامة قواد بني وطاس أولا ثم بقيادة الأمراء المرينيين منذ عام 645 هـ. ثانيا، إذ أنها كانت علاوة على المركز الحربي في الصدارة مخزن الحبوب ومستودع الجبايات[52].

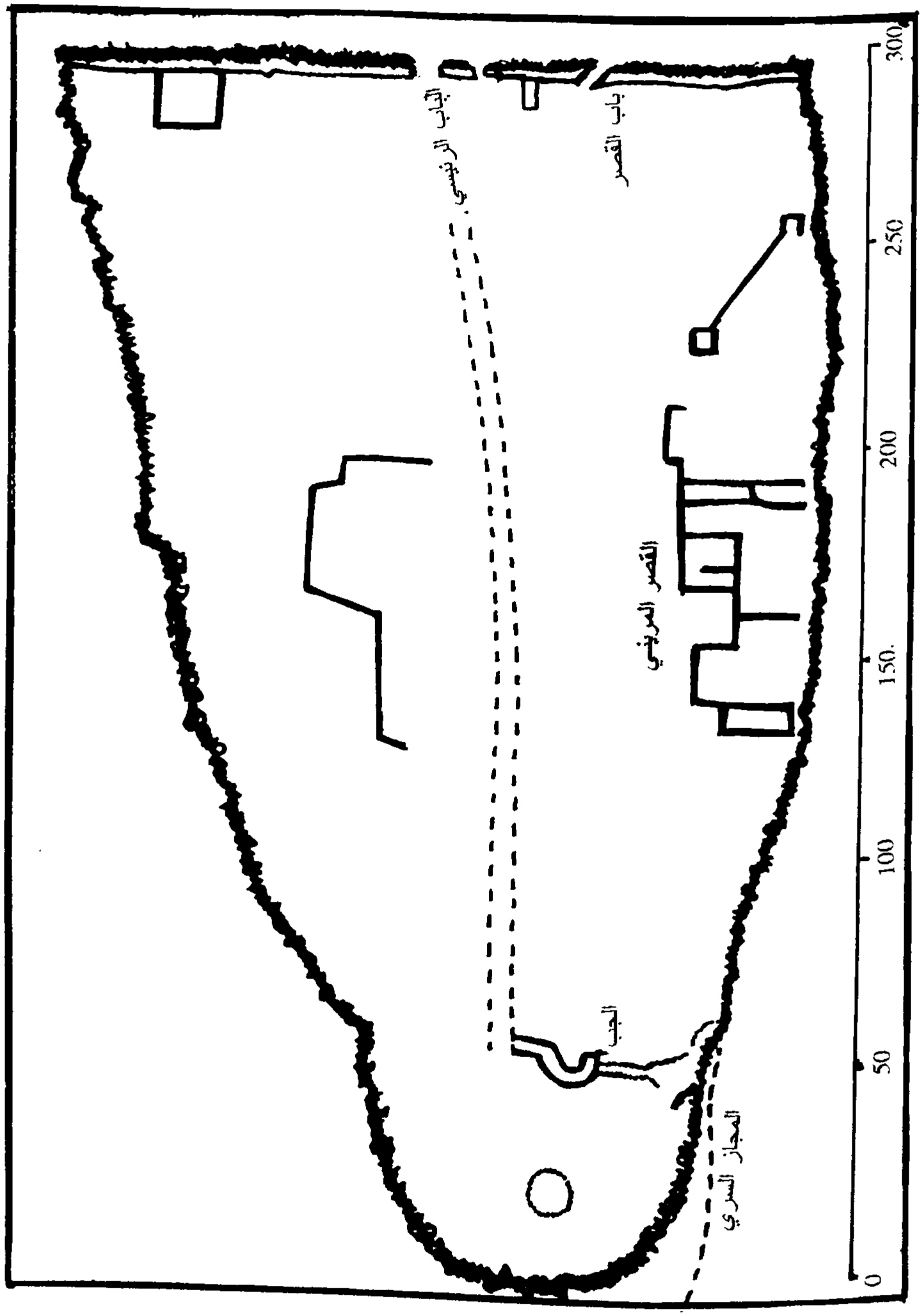
إلا أن الحصن القلعي كان مصدر قلق للسلطة المرينية المركزية منذ سنة 645 هـ. حينما انتزعت القيادة من يد بني وطاس لتوضع بيد أمراء الأسرة المرينية. وهذا هو ما عبر عنه الأخوان الوطاسيان عامر وعمر ابنا يحيى بن الوزير أثناء تمردهما الفاشل بحصن تازوطا سنة 691 هـ.

---

(50) **البيان المغرب**، 244/3؛ محمد الكزنائي، **جني الآس في بناء مدينة فاس**، ص. 136

(51) لم يشر أحد من المؤرخين إلى تأسيس قلعة تازوطا من طرف بني مرين باستثناء الحسن الوزان. ولا يخفى علينا الآن قدم وجود القلعة، فلا يعبر زعم الوزان سوى عن الاستقرار الزناتي بالقلعة.

(52) ابن خلدون، **العبر**. 215/7.



تازوطا حصن بني مرين

لم يكن هذا الفشل ضربة للوطاسيين فقط بل كان أيضا نقطة النهاية بالنسبة لقلعة تازوطا التي أشرف يوسف بن يعقوب على تخريبها، إلى درجة أننا لن نسمع عنها شيئا زهاء ثلاثة قرون تالية، إلى حين العود لتشييدها في بداية القرن العاشر الهجري على يد القائد الأندلسي علي العطار، مما سنراه في مكانه.

غساسة أهم منافذ إقليم كرط

لسنا ندري الأسباب التي دفعت بني مرين إلى صرف النظر عن مليلة بشكل ملحوظ وتخصيص مدينة غساسة بأوفر العناية، إذ أنها كانت المركز البحري المفضل لدى حكام قلعة تازوطا. ويكفي للاستدلال على ذلك أن تواريخهم المعروفة لم تتحدث عن مليلة سوى في ظرفين اثنين، أولهما حين أخرج يحيى بن عبد الحق المريني منها الفقيه أبا بكر بن عبد الرحمان المليلي، بعد أن كان أبوه انتقل إلى المدينة زمن الموحدين، حيث ولد له هناك ابنه أبو بكر. وثانيهما بمناسبة استيلاء يعقوب المنصور على مليلة، إثر عودته من غزوة تلمسان سنة 670 هـ[53].

والإشارتان هما في حد ذاتهما نقطة استفهام، تنبئان أن مليلة كانت مصدر إزعاج للأسرة المرينية وإن كنا نجهل طبيعة ذلك الإزعاج، على خلاف ما يمكن التوصل إليه بالنسبة لكدية غساسة.

وبحثا عن مجمل العوامل المؤثرة في تفضيل المرينيين لموقع غساسة لا يسعنا سوى الالتفات إلى التحول الطارئ على انحراف الطريق التجارية المرينية الرابطة بين بلاد القلاع ومدينة فاس. ففي الوقت الذي كانت الطريق الموحدية قبلهم تقتفي أثر المسلك القديم، فضلت القوافل المرينية المرور بجبال اكزناية والمطالسة والدخول بعد ذلك إلى حوضي واد كرط الأوسط منه والأدنى للوصول إلى غساسة عبر خمس بني بوكافر القلعي. ولا بد من إعطاء

(53) أحمد بن القاضي المكناسي، **جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس**، ص. 506، مخطوط؛ محمد بن جعفر الكتاني، **سلوة الأنفاس**، الطبعة الفاسية، ص.347.

عامل الباب المفتوح مع مراسي الساحل الأندلسي الأهمية القصوى التي يستحقها، إذ أن غساسة كانت المرسى المفضل للتبادل التجاري مع المقابل لها من مراسي الساحل الأندلسي[54].

ويمكن أن نجد أمثلة تفوق مكانة غساسة ببلاد القلاع والريف الشرقي كله في المصادر المغربية والربائد الأراغونية. وفي وسع هذه الأخيرة التأكيد على زعامة غساسة في الشؤون التجارية خلال القرنين السابع والثامن الهجريين (13و14م.) وفتح مرساها للقاطالونيين والجنويين المتهافتين على الذهب السوداني[55]. ويقابل التهميش الذي تعرضت له مليلة وإعادة بناء قلعة تازوطا وظهور غساسة ما طرأ على بلاد القلاع من التحول في المجال السكاني والاجتماعي، موضوع له أهميته في نطاق هذه الدراسة.

الطارئ من التحول الاجتماعي

هناك أكثر من دليل على أن الدخول المريني إلى الريف الشرقي وإلى بلاد القلاع بصورة خاصة كانت له عواقب على المستوى السكاني عددا وتنظيما. والواقع أنه حينما أشعرتنا المصادر التي تناولت مسألة دخول بني مرين إلى ربوع الريف الشرقي بحدوث انهيار عددي في ساكنة قلوع كرط[56]. اعتقدنا أن ذلك من قبيل المبالغة المفرطة في الغلو.

غير أنه منذ أن وقع العثور على وثيقة نسب بعض قبائل الريف الشرقي العائدة إلى تاريخ 939 /1533[57]، اعتبرنا ما رددته تلك المصادر لم يكن بعيدا كل البعد عن واقع الخبر المذكور، مع قبول مناقشة فكرة الانهيار تلك[58].

---

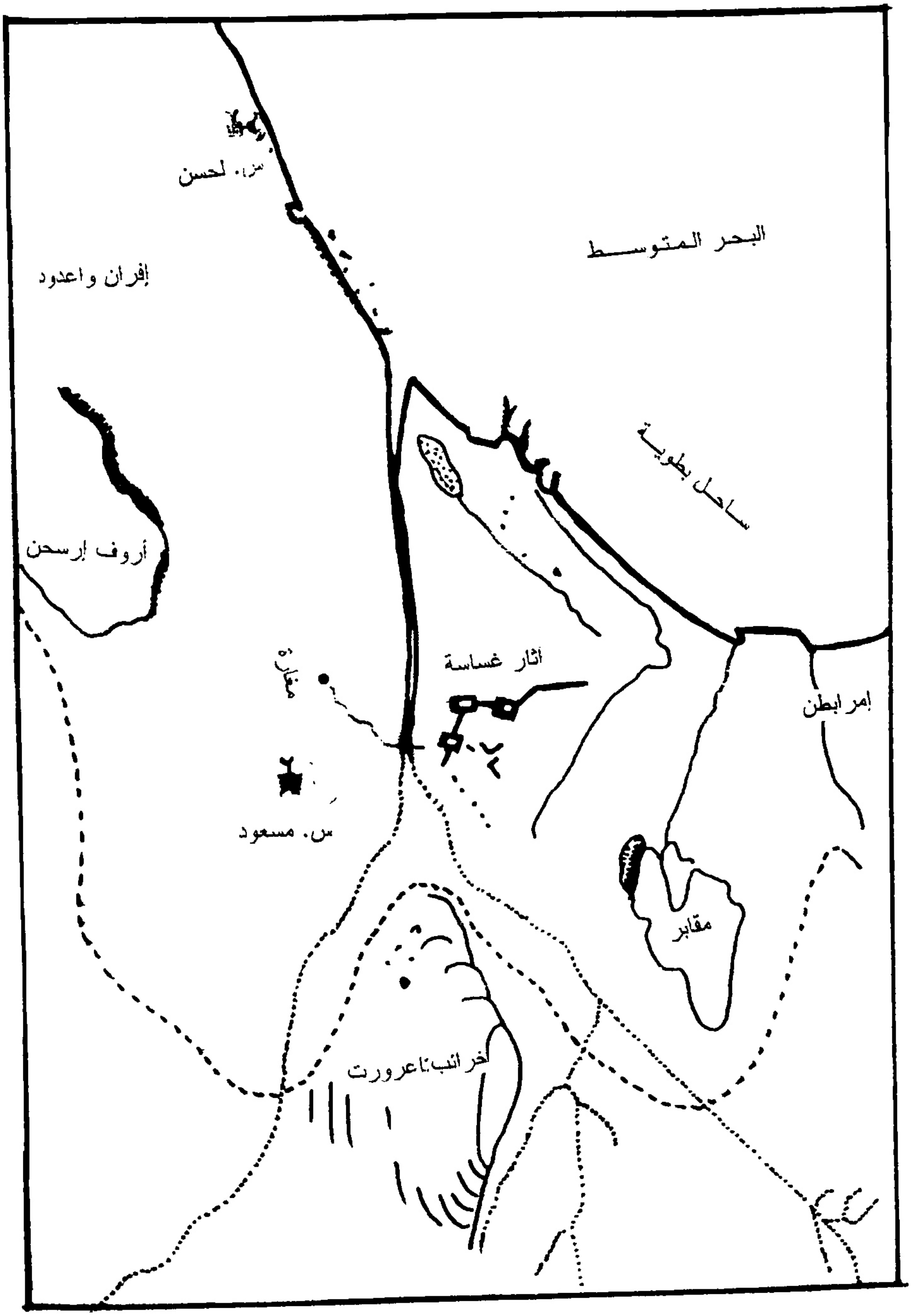
(54) ابن خلدون، **العبر**.215/7.

(55) Cha. E. Dufourq. *Espagne Catalane et le Maghreb au 12 et 14 siècle*. Paris 1966. pp. 344. 391. 465. 464.

(56) الإشارة إلى كل من **الذخيرة السنية** و**الأنيس المطرب وروضة النسرين**.

(57) مخطوطة خ.ع.ر. ضمن مجموع 1275 ك. تتألف من سبع ورقات.

(58) قد يكون الانهيار السكاني متعلقا بالمشاركة المكثفة في معركة العقاب. ولماذا لا نقول أيضا إن تحركات المرابطين والموحدين نحو الأندلس والمغربين الأوسط والأدنى كان لها تأثير أيضا على تناقص السكان.



موقع كدية غساسة

ومما يؤيد هذا التحول ما ورد في ثلاثة مخطوطات، ظهر الأول منها سنة 737 هـ. في أنساب الشرفاء[59] وآخر مجهول الاسم والمؤلف، آخر تاريخ مقروء به هو سنة 903 هـ[60]. أما الثالث فيتضمن رسائل مرينية وسعدية، يعود تاريخ تأليفه إلى بداية القرن الحادي عشر الهجري[61].

تعرضت هذه المخطوطات لهجرة بعض الأسر الإدريسية إلى بلاد القلاع مثل سيدي ورياش، صاحب الضريح المشهور بفرخانة من خمس مزوجة، وأسرة اللحاينة بخمس الكعدة وأولاد داود بهضبة تازوطا[62]. وهو ما ذكرته أيضا وثيقة "نسب قبيلة قلعية". ومما شجعنا على قبول فكرة الهجرات إلى الريف الشرقي وجود تكرار في أسماء الأعلام البشرية والجغرافية بين ما هو موجود بالغرب الجزائري مع نظيره المعروف ببلاد القلاع والريف الشرقي عامة[63]. مما تمكنا فقط من الإطلاع عليه.

وفي إمكاننا الآن رسم خطوط ذلك التحول بتقديم بعض الإيضاحات من حيث الوسيلة وتتبع الفترات التي تمت فيه الهجرات واقتراح بعض الأسباب فمن الطبيعي أن يكون عرب المعقل العنصر الغالب في الركب من ذوي عبيد ا لله وذوي منصور، بما كانوا أحلافا لزناتة سائر أيامهم.

فذوو عبيد ا لله بعد استقرار ناجعتهم على طول الهوامش الجنوبية بين بني يزناسن وواد زا الممنوحة إقطاعا لهم، قطعت جماعة منهم مياه ملوية إلى أراضي كرط الجنوبية، ومن هناك كان الزحف نحو الشمال الشرقي إلى بلد القلاع[64].

---

(59) مخطوط خ.ح.ر. تحت رقم 1220.

(60) خ.ح.ر. تحت رقم 2040.

(61) خ.ح.ر. رقم 3289.

(62) حسبما توفر لدينا مما جمعناه من وثائق الأسرتين.

(63) فمليلة والناظور وتاسكدالت وماسين وترارة واكزناية وورادنة وأبجاو، أسماء معلومة بقلعية القرن العاشر الهجري.

(64) يدل لفظ الحرائك، من مفرد الحركة حسب النطق المحلي، على التعبئة المعقلية الموجهة لصالح بني مرين. وموضع الحرائك اليوم واقع بناحية بني بو يحيي، فرقة إخيانن، جوار أولاد عسو.

ونافست جماعات ذوي منصور أخواتها فرق ذوي عبيد الله في توسيع مجالاتها. فبعد أن كانت تجمعاتها بحوض كرط الجنوبية ما بين تازا وأكرسيف وأوطاط الحاج اخترقت حدود كرط في اتجاه بلاد القلاع أيضا خلال القرن الثامن الهجري[65]. وهناك أيضا من سار في أثر المرينيين من الأفراد والأسر والجماعات لدواعي مختلفة، لدينا بعض الأمثلة على ذلك مما سندرجه ضمن محاور الهجرات الثلاثة، حسب التفاصيل الآتي ذكرها.

ويمكن لنا ترجيح زمن الهجرات بوضع القرن السابع الهجري كنقطة البداية وتحديد القرن الثامن الهجري بفترة ارتفاع كثافة تلك الهجرات المتمثلة في اندفاع موجة عرب المعقل والهلاليين، لتستمر خلال القرن الموالي إلى القرن العاشر الذي هو زمن استقرار السمات السكانية الأساسية لبلد القلاع.

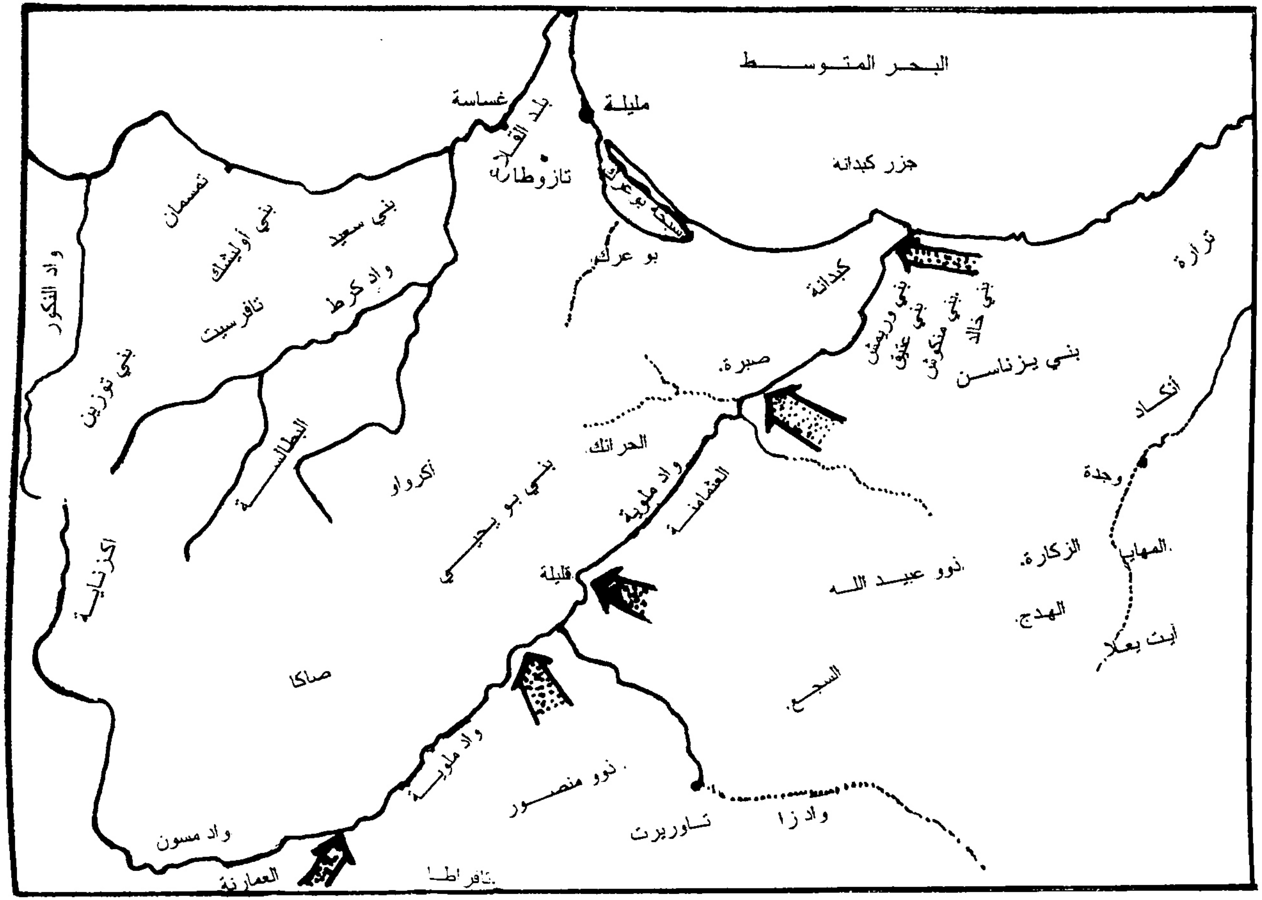
لن نتمكن من التوصل لمعرفة عدد المهاجرين الجدد إلى بلاد القلاع مهما تكلفنا ذلك. غير أنه إذا أدخلنا في الاعتبار فقط ما تطرحه الوثيقة، فإن عدد الأسر الوافدة يصل إلى ما تراوح بين خمس وخمسين وثلاث وستين أسرة. ونطاق محاور تلك الهجرات واسع في العمق والعرض مما سيتبين كالتالي.

1 - محور جنوبي شرقي

قاعدة هذا المحور متمثلة في واحات فكيك، فمنها انتقل ورياش بن عيسى الذي تناقلت الإشارات عنه في مخطوطات عديدة مرورا بترارة وبني يزناسن[66]. وكذلك اللحاينة الذين نزل جدهم بخمس الكعدة المدعو محمد بن عبد الله بن علي بن منصور قبل 635 هـ ومنها ببلاد القلاع قرية إكسريون وهم أدارسة من وداغير فكيك بالانتساب إلى جمال بن محمد بن كثير، وكذلك إسلطانن، وهم بنو عزوز أسلطان المنتسبون بالموطن إلى فكيك وسيدي علي الحساني الفكيكي صاحب الضريح بسلوان، وكذلك المعازيز

(65) ابن خلدون، **العبر**، 233/6.

(66) يوسف التادلي، **التشوف إلى رجال التصوف**، ص. 82؛ العشماوي، **التحقيق في النسب الوثيق**، ص. 18، نسخة برقم 1439؛ مخطوط خ.ح.ر. رقمها 2040 ز.



محاور الهجرات إلى بلاد القلاع

الزناتيون الذين من قصر المعيز بالوداغير وهم ببني شكر، موطنهم القديم داخل في الحدود المحتلة(67)، ثم جماعة مشعلت أو إشعالن حسن النطق المحلي الحالي.

الناحية	عدد الأسر
فكيك	6 أو 8
الجميع	**6 أو 8**

2 - محور شرقي

يتألف من جهات الغرب الجزائري وما اتصل به من هضاب نواحي المغرب الشرقي.

- **فمن تلمسان:** نزح عن طريق المحور الشرقي **أيت يعلا** فرارا من هجمات العبيديين إلى جهات مختلفة، وصل منهم إلى بلاد القلوع **إزكرياتن** (أولاد زكري) الذين ببني بو يفرور(68). ومن نفس المكان وصل إلى بني بو كافر طائفة من بني وعزان المعروفين ب**إعزانن**، وأسرة من بني ورنيد وهم **إورنيدن** بخمس الكعدة. ونضيف إليهم جماعة **إرحين** الهلاليين (أولاد رياح) المستقرين بمقربات تازوطا. ومن أحواز تلمسان أيضا هاجر إلى بلاد القلاع المسمون **إحشرن وإمجاض** وهم بخمس الكعدة.

- **ومن جبال ترارة** بالغرب الجزائري: وصلت منها إلى بلاد القلاع أسرة **إيحياون** (أولاد يحيى) وهي من بَني بو يدير من ضمن الجماعة المعروفة هناك بإبجوعن. كما انتقلت من واد الريحان التراري أسرة تدعى **إفنطراس** وهم ببني سيدال الكعداويين، ثم أسرة **بني يخلف** الذين من بني خالد التراريين

(67) مجهول، **أنساب الشرفاء** ؛ التادلي، **التشوف**. صص.33. 40؛ القادري، **الدر السني في بعض من بفاس من النسب الحسني**، ص. 59؛ العشماوي، **التحقيق**، ص. 20، وثيقة نسبهم بيد الإدريسي السيد حد اللحياني، موظف بوزارة العدل بالرباط. وثيقة نسب **قبيلة قلعية**؛ مجهول يعود إلى 1009 مخطوط خ.ح.ر. رقم 2389.مخطوطان، خ.ع.ر. رقم 1351، ص. 11 ورقم 3269.

(68) **المصدر السابق.**

وهم ببني شكر. وتضيف وثيقة النسب أسرة **إنـزارن** المعروفين بالزغـاديد مـن بني بو يدير، وهم ببني شكر أيضا، كما وجدت بفحص مليلـة مـا قبـل القـرن العاشر الهجري جماعة **توارة** المستقرة بجـوار كديـة تيـنرت المزوجيـة. ولا تـزال فرقة ترارية معروفة إلى الآن ببني شكر.

- **ومن وهران:** سجلت وثيقة قبيلة قلعية انتقال **بـني عـامر** الهلاليـين مـن نسب سليمان بو راس. ومنهم انحدرت **عدوية** (إعدويـن) **وجـواوة** (إجـواون) الذين بالكعـدة.

- **من بني يزناسن:** كانت هذه الجبال معبر الأسر المنطلقة من هـذا المحـور بحكـم موقعهـا المتصـل في العمـق بكـل مـن تلمسـان وفكيـك. ولهـذا السـبب شاركت بأكبر حصة من الهجرات الوافـدة إلى بـلاد القـلاع، رتبهـا صـاحب وثيقة النسب على النحو التالي:

فمن بني منكوش انتقل **أيت فكلان** من الحوز القـارب وهـم مـن جماعـة سيدي علي البكاي إلى الكعـدة، **وأولاد غانم** بالكعدة أيضا مـن فرقـة إجدايـن اليزناسنية. وكذلك **إبعبدلاتن** (أولاد عبد الله) أصلهم من أغيل أدراز اليزناسني وهم بالكعدة.

وانتقلت من فرقة بني خالد أسرة **إرتبون** الذين ببني انصار مزوجـة، وهـم من أغبال، وحسب الوثيقة من بني يفرن. **وأولاد حمو يش** من أولاد الصغير من عـرب سهل طريفة يقال لهم هناك إزدرات، وهم ما يزالون بـالقرمود بجماعـة فرخانة. ثم **إبعلوتن** (أولاد بوعلو) الذين ببني بو يفرور وهـم من أولاد الصغـير أيضا.

أما جماعة **إلحفظا** فهم من بني محفوظ الذين بـالكعدة، انتقلـوا إليهـا مـن إغزر نْ أشريك. وكذلك **إوهذانن** المستقرون ببني انصار، هم من قصبـة زناتـة اليزناسنية من موضع خليفة سيدي العربي[69].

(69) كل البيانات التوضيحية مأخوذة عن المرحوم قدور الورطاسي من كتابه **بني يزناسن**.

ووصل إلى بلاد القلاع من فرقة بني عتيق اليزناسنية **إمعتوكن** بني بو يفرور وإياسينن (أولاد ياسين) المستقرون بفرخانة وبني شكر والكعدة وهم حسب الوثيقة من أولاد علي بن ياسين الذين بتيفزوين المجاورين لتافوغالت. ثم **أولاد داود** أهل تازوطا، وهم أدارسة هاجروا إلى **قلعية** من موطنهم ببني توكة. وبناء على ذلك فإن العدد البالغ مما تلقته بلاد القلاع من الأسر عبر المحورين السالفي الذكر وصل إلى ما تراوح بين ثلاثين وأربع وثلاثين أسرة موزعة على الشكل التالي:

الناحية	عدد الأسر
فكيك	6 أو 8
تلمسان	7 7
وهران	3 أو 4

الناحية	عدد الأسر
جبال ترارة	5 أو 6
بني يزناسن	9 9
الجميع	**30 أو 34**

3 - محور جنوبي

يتألف من ناحية ملوية الوسطى الممتدة على حدود إقليم كرط الجنوبية ونضيف إليها ناحية أنكاد التي مخرجها إلى جهة تلك الحدود. بلغ عدد الأسر المهاجرة على طول وعرض هذا المحور ما تراوح بين اثنتي عشرة وثلاث عشرة أسرة مبينة على الوجه التالي:

- **من جهة أنكاد**، موطن أحلاف بني مرين من عرب المعقل خاصة ومنها تسربت بعض الجماعات من المعقليين والهلاليين، وهي:

- **إخرباشن**، وهم من السجع الهلاليين المستقرين ببني بو يفرور، منهم القائد المشهور عمر بن مسعود بن خرباش المكلف من طرف السلطان يوسف بن يعقوب المريني بحصار الوطاسيين عمر وعامر المتمردين بقلعة تازوطا عامي 691 و692 هـ[70].

(70) تضيف وثيقة **نسب قبيلة قلعية**: "وإخوانهم في أولاد الهداف، أهل رحو بن أحمد وهم رعايا الملوك".

- **إمهياتــن** وهـم المهايـا المعقليـون، ناجعـة أنكـاد خـلال القـرن الثـامن الهجري، كان استقرارهم ببني بو كافر في آخر القرن الثامن الهجري[71].

- **العثامنة** وهم من أولاد عثمان المعقليين، مـن نسـل عثمـان بـن خـراج رفقاء الأحلاف العمارنة إلى سهوب إقليم كرط، إخوتهم **إجعونــن** (الجعاونـة) **والمطارفـة وإهداجـن** (الهـداج) المستقرون بحوض واد كـرط الأوسـط، ولجـوا حدوده من واد زا الذي كان منتجعهم خلال القرن العاشر الهجري.

- **المسامير وإحفطلاين** الذين بمزوجة، هاجروا من أولاد بوسمير المعروفـين بأنكاد.

- **وبراقة** من الهلاليين أيضا وهم بمزوجة.

- **إعمرانن** (العمارنة) الذين ببني شكر من الأحلاف، أشار ابـن خلـدون إلى موطن استقرارهم هناك[72].

- **وإمشـروبن،** سمتهـم وثيقـة نسـب قبيلـة قلعيـة " المشـاربا مـن قبيـل الأحلاف الأدنى".

- **من غياثة،** انتقلت إلى بلاد القـلاع مـن غياثـة أسـرتان، سـلكتا طريـق حدود كرط الجنوبية هما:

- **القيطونيون** الأدارسة أولاد عمر بن عيسى المستقرين بخمـس الكعـدة. وربما كان عمر جـد الأسـرة المهـاجرة إلى بـلاد القلـوع أواخـر القـرن التاسـع الهجري على الأرجح، بناء على اقتفاء أثر القيطونيين المطرودين من فـاس عـام 875 هـ من طرف الوطاسيين.

- ومن **غياثة** أيضا هاجر المدعوون **بالمزالط،** نسبة إلى بني زليطن.

- من **واد ورغة،** وتلقت قلعية من نواحي واد ورغة أسـرة **أولاد العربـي** وهم من فرقة أولاد أزرار (زرارة).

---

(71) ابن خلدون، **العبر**.712/7.

(72) قال: "وفي مجالاتهم وبتل ملوية وقصور وطاط وتازا وبطوية وغساسة". **العبر** 233/6.

الناحية	عدد الأسر
أنكاد	9 أو 10
غياثة	2 2
ورغة	1 1
الجميع	**12 أو 13**

4 - من محور غربي

تتمثل الهجرة عن طريق هذا المحور في عدد من الأسر التي قصدت قلعية من نواحي الريف الغربي ومن مصمودة الشمال.

- فمن **بني جميل** انحدر المدعوون **بإبعجاجن** المندرجين ضمن بني بو يفرور خلال القرن العاشر الهجري.

- من **بني يطوفت** هاجرت أسرة **إعراصن** (أولاد أعراص) الذين من قرية العرص(ببني)يطوفتية، ربما كان انتقالهم مع بداية العهد الوطاسي إلى سكنى بني بو يفرور.

- **من بقوية**، وندخل ضمن هذا المحور توافد أسرتين من بقوية اختارتا الاستقرار محتفظة باسم **إبقوين** في بني بو يفرور وهضبة تازوطا.

- ومن **بني ورياغل** هاجرت إلى بلاد القلاع أسرة **لعرنت** التي لا وجود لها اليوم حسبما توصلنا إليه.

- ومن **مصامدة رهونة** انتقل بنو **محمد** إلى بني بو يفرور، وهم من بني مسارة، ومنهم انحدر أولاد **يعيش** أيضا.

الناحية	عدد الأسر
بني كميل	1
بني يطوفت	1
بقوية	2
بني ورياغل	1
رهونة	2
الجميع	7

5 - من داخل إقليم كرط

ومن المعطيات التي جاءت بها وثيقة نسب قبيلة قلعية تقديم الخبر عن الهجرة الداخلية في إطار الريف الشرقي، يلاحظ من خلال تلك المعطيات زحف فصائل بني بو يحيي التدريجي للسيطرة على مجرى واد كرط الأوسط، في وقت حاول فيه البطالسيون شق الطريق نحو الشرق وجهة بلاد القلوع. وعن هذا الاتجاه نشأت تحركات بعض الأسر:

- فمن **المطالسة** هاجرت أسرة **إبقرنن** إلى :بني بو يفرور(أولاد بوكرين أو أيت جرين أيضا) وهم من البرانس، من أولاد مجد بن طالس، جد البطالسة.

- **أولاد حمو** البطالسي وهم من الأسرة السليمانية التلمسانية استقرت بمزوجة.

- **إقلوشن** أسر عربية الأصل تابعة بالخدمة لأولاد علي السليمانيين منذ هجرة هؤلاء إلى البطالسة، وهم ببني بو يفرور.

- **إحبصاتن**، وهم من عرب المعقل حسب الوثيقة من أولاد أحصين، فرقة من ذوي منصورالمعقليين، مستقرون ببني بو كافر.

- ومن **بني توزين** انتقلت إلى بلاد القلاع أسرة منها: أولاد يحيى **إعلاتن** وهم مستقرون ببني بو يفرور.

- ومن **بني سعيد** انحدر من سمتهم الوثيقة **أولاد يوسف.** لا نعرف مكان استقرارهم ببلاد القلاع حاليا، اللهم إذا كان قصد صاحب الوثيقة الإشارة إلى الأسرة التي يحمل اسمها مدشر مستقر بكهف الدنيا من رأس هورك.

القبيلة	عدد الأسر
البطالسة	4
بني توزين	1
بني سعيد	1
الجميع	6

هناك مجموعة من الأسر لم تحظ بعناية صاحب الوثيقة، إذ أنه لم يوجهنا إلى الموطن الذي انحدرت منه، واختار تقديمها بطريقة مخالفة لما سبق وهي مجموعات:

- قدم البعض منها حسب نوع حرفها: **إحدادن** (الحدادون) وهم ببني شكر بهضبة تازوطا.

- من تلك الأسر ما رده إلى الأصل الأمازيغي مثل **إفهاتن** الذين يفهم أنهم من غمارة، أما أسرة **إرهوانن** الذين ببني أنصار فقد قالت الوثيقة عنهم إنهم صنهاجة يوسف بن تاشفين، أي من المرابطين الذين استقروا بقلعية خلال عهدهم على الأرجح. ويمكن إضافة **إكزولن** أو كزولة التي من المرجح أنها رافقت الموحدين إلى بلاد القلاع(73).

- مجموعة قالت الوثيقة إنها من جملة الإسلاميين منها: **إشعبانن وإقنباع وأيت عمورت** وهم ببني شكر إلى وقتنا الراهن.

- **وإجهليون وأيت بوحجر** من أولاد سيدي أحمد بن بو حجر ببني شكر.

- مجموعة وضع فيها: **إزعطانن لعسارى وإبوين** ضمن جماعة الحراطين أي سكان الواحات الجنوبية، وهي ببني بو يفرور، **وإبرداعن** من صانعي البرادع، مستقرون بثلاث خمس الكعدة.

الانتماء	عدد الأسر
حراطين	4
مرابطون	1
إسلاميون	3

الانتماء	عدد الأسر
حدادون	1
موحدون	1
؟	2
الجميع	**12**

(73) قدمنا بحثا **لمعلمة المغرب** في شأن تاريخ هذه الجماعة، مشيرين إلى احتمال أصلها الموحدي.

وخلاصة الجزء الثاني من هذا المدخل أن الجماعات التي اختارت سكنى جبل القلاع تمكنت من توزيع المجال الحيوي المحدود جبلا وسهلا في إطار يخضع لمصدر الهجرات والقرابة والعصبية. ولم تلبث تلك التجمعات أن انتظمت في شكل قبائل موزعة على خمسة أقسام من الوجهة الجغرافية والانتماء العصبي، مما سيأتي بيانه.

هناك السؤال المستفسر عن عدم ظهور أي أثر بارز للهجرات الأندلسية خصوصا وأننا لم نصادف في المصادر المكتوبة ما يدلنا صراحة على استقبال بلاد القلاع للأسر الأندلسية. ولربما نكون مخطئين إذا نفينا ذلك بالمرة استنادا فقط إلى غياب شهادات المصادر. فالهجرة ظاهرة حتمية إذا ما قدرنا الأزمة السياسية التي اجتازتها الأندلس آنذاك، تلك الأزمة التي لم ينج من عواقبها المغرب، والشمال الشرقي المغربي بصورة خاصة، مما سنتعرض له.

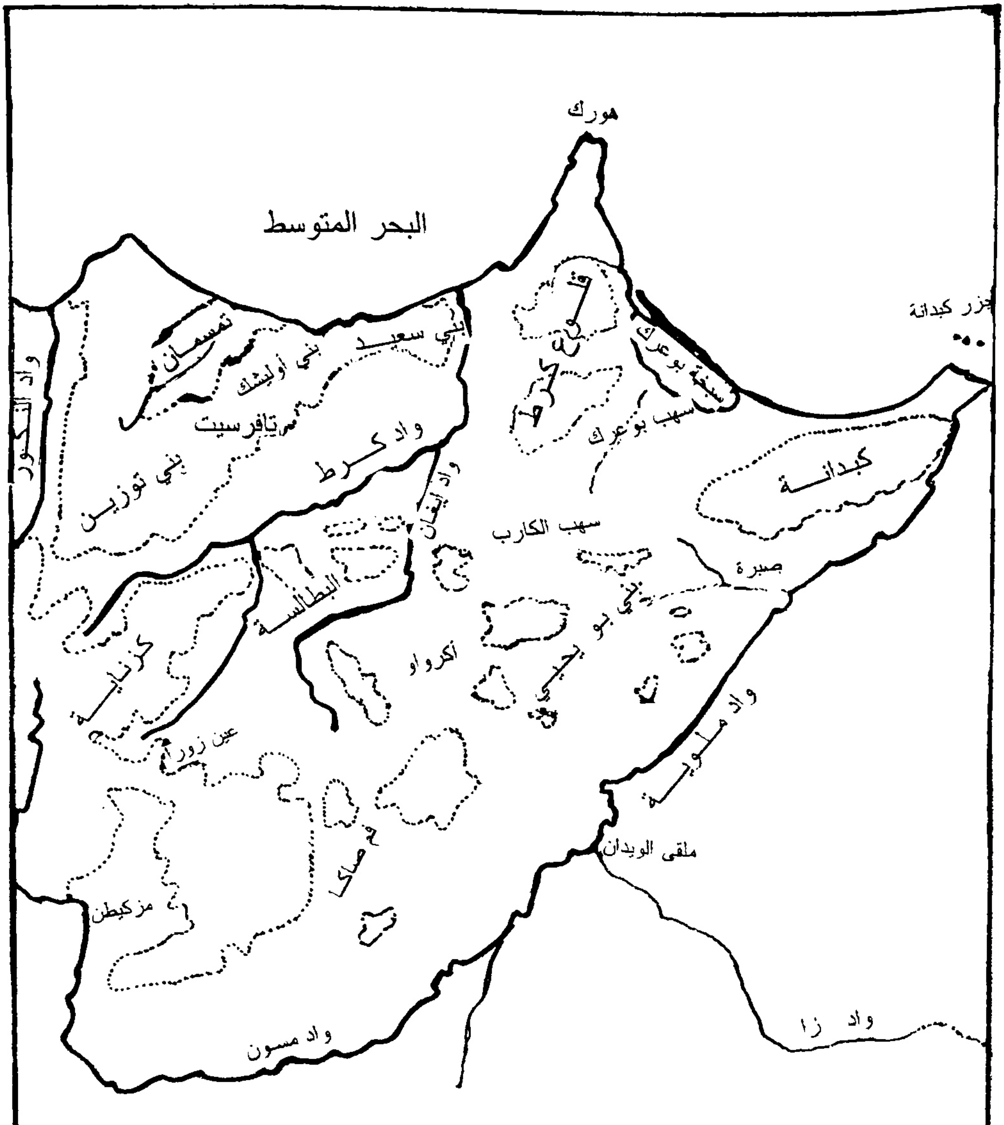
سيبقى التعرف على مصادر هذا التنظيم وعوامله البشرية فراغا في تاريخ بلاد القلاع ما قبل القرن العاشر الهجري، والتوصل إلى ملئه رهين بمزيد من البحث والاكتشاف. وما يهمنا الآن هو الانصراف إلى التعريف بموقفه من التسرب الإسباني إلى مدينة مليلة وأشكال التعبئة المعدة لمقاومته.



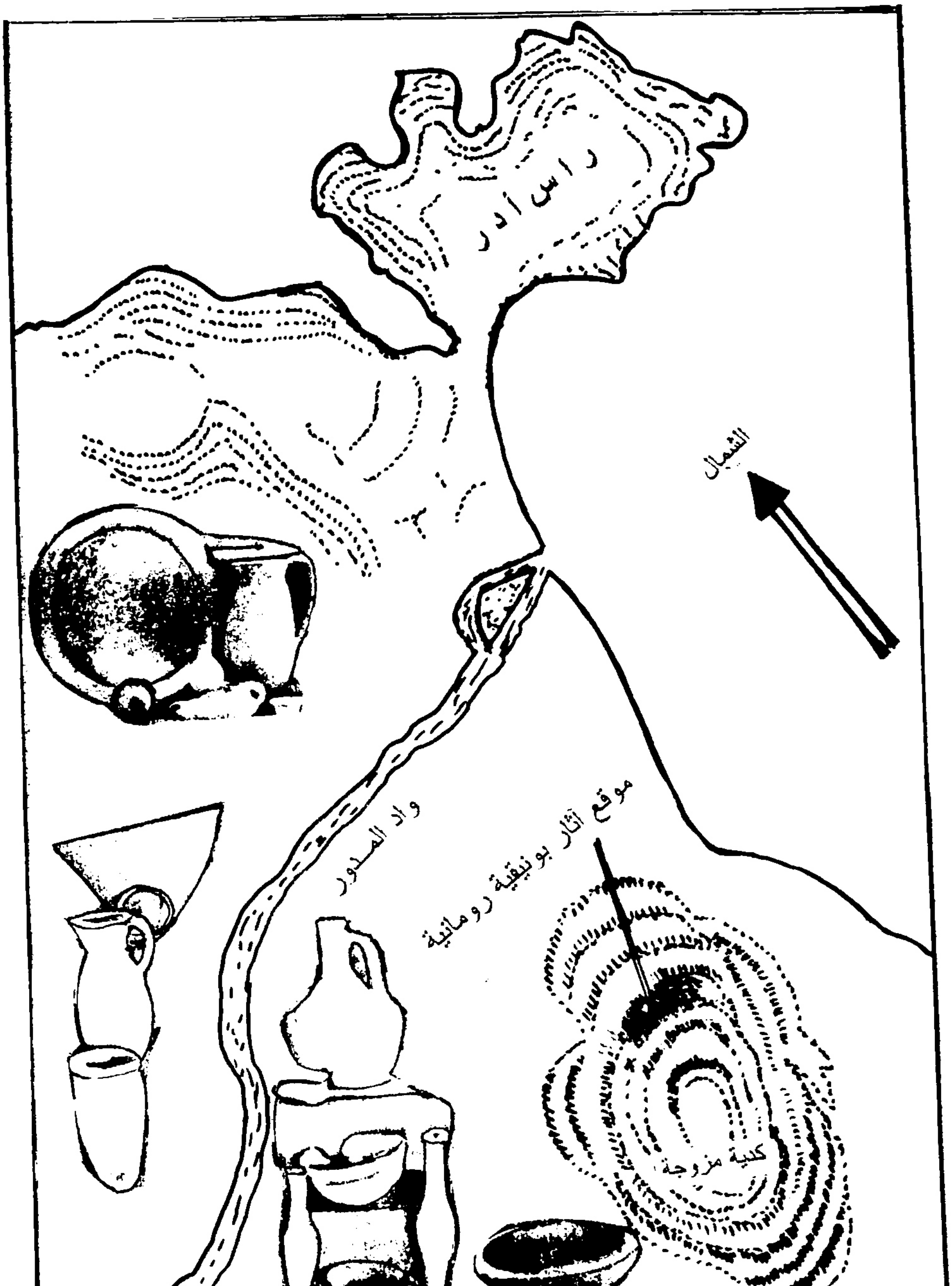
من الخزف الفينيقي المكتشف بكدية مزوجة

جدول يلخص المعلومات السابقة بناء على وثيقة نسب قبيلة قلعية

مصدر الهجرة	الجماعات والأسر المهجرة	زمن الهجرة
مرابطون	إرهوانن	القرن 5 ؟
موحدون	إيكزولن	القرن 6 ؟
فكيك	ورياش. اللحاينة. علي الحساني. المعازيز. إكسريون. إسلطانن. أيت مشعلت. إزرارن.	القرن 7
ترارة	إيحياون. إفنطراس. أولاد يخلف. إنزارن. ترارة. أيت عمور	القرن 7
تلمسان	أولاديعلا. إزكرياتن. إعزانن. إورنيذن. إرحين إحشرن إمجاط.	القرن 8
وهران	أولاد عامر. إعدوين. إجواون.	القرن 8
بني يزناسن	إرتبون. أولاد حمو يش. إبعلوتن. إلحفظا. إوهذانن. إمعتوكن. إيسينن. أولاد داود. أيت فكلان. أولاد غانم. إبعبلاتن.	القرن 8
أنكاد	إخرباشن. إمهياتن. العثامنة إبراقن. إعمرانن. إمشروبن. أولاد الزهرا.	القرن 8
غيائة	أولاد عمر بن عيسى القيطوني. المزالط.	القرن 9
ورغة	أولاد العربي	؟
الريف الغربي	إبعجاجن. إعراصن. إبقوين. أيت لعرنت.	؟
رهونة	بني محمد. أولاد يعيش.	؟
حراطين	إبرداعن. إزعطانن. لعسارى. إبوين.	؟
إسلاميون	إشعبانن. إقنباع. أيت عمورت.	؟
؟	إحدادن. إفهمن. إجهلون. أولاد بوحجر	؟



قلوع كرط في إطار الريف الشرقي



نتائج الحفريات بكدية مزوجة

القسم الأول

التسرب الإسباني إلى قلعية

(1)

اغتصاب مليلة

تتضاعف صعوبة البحث في هذا الفصل بسبب الغياب الكلي للمصادر والمراجع المغربية المساعدة على ما كنا نأمله من التقاط الصور عن أحداث بلاد القلاع في مستهل القرن العاشر الهجري (آخر15 م.). وعلى خلاف تاريخ سبتة فإن مليلة لم تستحق من مؤرخينا ولو مجرد نقل الخبر عن حدث وقوعها بالأسر الأجنبي.

ولربما وجدنا بعض التبرير فيما نقله صاحب تاريخ الدولة السعدية المجهول. وهو المؤرخ الوحيد الذي أشار إلى الوجود الإسباني بمليلة ولو بعد مضي أكثر من القرن عن سنة الاحتلال[1].

وإذا كان اعتمادنا الكلي على المصادر الإسبانية خاصة، فإنها هي بدورها تسد علينا الباب لفهم مجريات الأحداث بوضوح مما يفيد تاريخ بلاد القلوع وما كانت عليه وقت التسرب الإسباني. ومن شأن غياب مصادرنا وعدم كفاية مثيلاتها الأجنبية أن تفرض الكتابة علينا بعض العجز لتقديم جميع حيثيات مشكل التسرب الإسباني إلى مليلة ثم إلى غساسة.

وقد بذلنا كل الجهود الممكنة للحصول على أكبر قدر من أمثلة المقاومة ونماذجها مما يوافق المرحلة الأولى الممتدة من سنة التسرب الإسباني إلى غاية حدود المرحلة الموالية المحددة بسنة 1767/1181. وبناء على ذلك فقد تم جمع

(1) مجهول، **تاريخ الدولة السعدية الدرعية التاكمادرتية**، ص. 6، ذكر أن المؤرخين يتحاشون في أواخر العصر المريني تقييد ما ذاع في تلك المدة. وقال عن مليلة: "خرج (أبو حسون الوطاسي) هاربا من الريف إلى أن وصل مليلة"، ص. 16.

أربع مجموعات من الأمثلة يربط بينها الهدف المتوخى من المقاومة، مما سنطلع عليه في مكانه.

يظهر أن كل تقييم للوضع بقلعية أواخر العصر المريني وخلال الحكم الجوطي الإدريسي بفاس ليس الآن في متناولنا، كما أننا لن نطمح للتوصل إلى شيء ذي بال خلال السنوات الأولى من حكم محمد الشيخ الوطاسي. وكل ما أمكن استنتاجه أن الوطاسيين لم يجدوا صعوبة تذكر أثناء محاولتهم بسط النفوذ على إقليم كرط وقلعية التي نحن بصددها[2]. وفي وسعنا التوقف على العامل الداخلي المساعد على التسرب الإسباني.

اختلال الوضع العسكري بقلعية

هناك من الشهادات الدالة على أن الوطاسيين كانوا فعلا سنة 1490/897 أسياد قلعية، حتم عليهم ذلك موقعها المتقدم في الشمال الشرقي المغربي، فمن أراضيها يمكن مراقبة تطور أحداث الأندلس حيث كان الوجود الإسلامي يلفظ بها أنفاسه الأخيرة. ومن قلعية كانت تعطى الإشارات الأولى عن تحركات جيش تلمسان الزيانية نحو الغرب، خاصة وأن قواتها كانت متحفزة بكل من مدن هنين وتاونت وتابحريت الجزائرية، وهي من المراسي الواقعة على خط مليلة البحري والبري معا[3].

وما يمكن إبرازه الآن عن أحوال قلعية في بداية حكم محمد الشيخ الوطاسي قراره الخاص بإسناد القيادة إلى شخص مجهول الاسم لدينا، لا نعرف سوى أنه كان معروفا بشيخ بطوية، مستقرا بغساسة يمتد نفوذه إلى واد ملوية[4]. كما يفهم أيضا وجود حاكمين عسكريين خاصين بمدينتي مليلة وغساسة، وهما في الغالب من القرابة الوطاسية.

(2) *Colecciõn de Documentos para la Historia de España*, t. 8, pp., 11.14.29.51

(3) H. du Castries , Introduction : « Melilla au 16 siècle », S.I.H.M. Série Espagne, t. 1.

(4) فيرناندو ذي ثافرا يوم 25 أبريل 1494. A. G. S. Negociado Mar y Tierra , L. 1315

وتمثلت نقطة ضعف قلعية الوطاسية في غياب القوة الدفاعية، فكل ما كان مع شيخ بطوية، وهو شيخ الشيوخ منحصرا في خمسة آلاف من الرجالة والفرسان أغلبهم من قلعية حسبما يفهم من مصدر الخبر[5]. أما القوة الدفاعية الحضرية التي كانت بمعية كل من حاكمي مليلة وغساسة فلا يسعنا سوى أن نعتبر أنها كانت لا شيء بدليل تمكن أهل مليلة الموتريليين المهاجرين الأندلسيين من طرد القائد الوطاسي خارج أبواب المدينة سنة 900 هـ (1494م.)[6]. وإذا كنا قد قدمنا وضعية قلعية العسكرية لتفسير سهولة التسرب الأجنبي فإن الباحث في هذه الفترة لا تخفى عنه الوضعية العامة التي كانت عليها السلطة المركزية الوطاسية، ولم تكن حالة قلعية سوى نموذج من نماذج ضعف السلطة في المناطق البعيدة عن المخزن المركزي.

حظ قلعية من أحداث الأندلس الإسلامية

برزت انعكاسات أحداث الأندلس على قلعية منذ أن تجاوزت تقديراتها سنة 886 هـ(1481م.) في استقبال الأسر الأندلسية المهاجرة وانسداد أبواب المراسي في وجهها، مما كان له أبلغ الأثر على الوضع العام[7]. فبعد زحف التحالف القشتالي الأراغوني على طول الساحل الجنوبي، اقتصر النفوذ الغرناطي على الساحل الممتد بين مدينتي ألمرية وموتريل، أي مجموع المراسي التي كانت على اتصال مستمر عبر القرون السابقة بالساحل القلعي.

وبتوالي الضغط الإسباني عليها لم يسع سكان تلك الجهات سوى التفكير في العبور إلى الساحل الريفي المقابل. فمن مراسي موتريل وأندراش والمنكب انطلقت المراكب وعلى ظهرها الأندلسيون المطرودون لتحط بمرسى

---

(5) **المصدر السابق** .

(6) فيرناندو دي ثافرا إلى الملكين يوم 12 فبراير 1494 م. , A.G.S. Negociado Mar y Tierra L. 1315

(7) بدأت أحداث الأندلس الأخيرة قبل سقوط غرناطة النصرية بعودة الحرب بين محمد السابع وخوان القشتالي.

مليلة أو غساسة. ويستفاد من رسالتين صدرتا عن سكرتير الملكين الكاثوليكيين[8]، أن جماعة من الأثرياء منتمية إلى مدينة موتريل الأندلسية[9]، هاجرت إلى مليلة واستطاعت في وقت وجيز أن تحتل مرتبة عليا بالمدينة وتتزعم هناك التمرد ضد الحاكم الوطاسي وطرده منها في محرم 900 هـ.(فبراير 1494)

وإذا كنا نجهل تاريخ هجرة جماعة موتريل، فإننا نرجح أن الهجرة تمت قبل سنة 1489/895، وهي السنة التي وقعت فيها المدينة في قبضة الإسبان. كما أنه لا يمكن الجزم بقدمها في المكان لأنها عبرت عن حنينها ورغبة حيازة أملاكها المتروكة بموطن الهجرة. وربما كان ذلك الحنين نفسه هو الذي فرض عليها البقاء بمليلة لتراقب عن قرب تطور الأحداث بالساحل الأندلسي.

ونعتقد أن عددا آخر من الأندلسيين فضل الاستقرار بغساسة. ويمكن الإشارة إلى أسرة أيت وارث الصنهاجيين الذين منهم الصالح مسعود الغساسي وعدد من القضاة ولكننا غير واثقين من تاريخ تلك الهجرة، ربما كانوا أقدم من الموتريليين بحكم توارث منصب القضاء بالمدينة[10].

وبقلعية عدد آخر من الأسر الأندلسية حسبما رددته الرواية الشفوية ومن المنطق أن يكون كذلك بسبب عبور العدد الكبير من المهاجرين بأراضيها بعد سنة الهجرة العامة خاصة. لكن العلة في عدم إدماجها من ضمن مهاجري بداية القرن العاشر هو جهلنا بالتاريخ التقريبي لتلك الهجرة. ونجد من تلك الأسر جماعة مندرجة ضمن فرقة إحجيون بفرخانة تؤكد الرواية الشفوية أصلها الأندلسي. اكتست حركة الهجرة الشاملة صبغتها الرسمية الأخيرة إثر اتفاق غرناطة، عينت لها مراسي أندراش والمنكب وشلوبينية وموتريل، وبه

(8) 12 فبراير 1494 و 25 أبريل 1494 .A.G.S. Negociado Mar y Tierra, L. 1315

(9) موتريل مرسى بساحل البشرات واقع بمصب Guad alfeo بين عذرة وشلوبينية، يمتد فحصها الخصب على مسافة عشرين كيلومترا.

(10) لا تزال البقية الباقية من قرية أيت وارث بخمس بني بوكافر في قلعية. أشار إليها عيسى البطوئي، صاحب كتاب **مطلب الفوز والفلاح في آداب طريق أهل الفضل والصلاح**.

تلقت غساسة هجرات جماعية متوالية منذ خريف 1493/899 تقدمها السلطان ابن الأحمر أبو عبد الله بعد إقامة قصيرة بأندراش[11].

ويمكن لنا الوقوف على أهمية تلك الهجرة، إذ أن السلطات الإسبانية وضعت رهن إشارة ابن الأحمر عشر سفن، وهو العدد النازل بمرسى غساسة صبيحة يوم 23 ذي الحجة عام 4/899 أكتوبر 1493، كان من بينها سفينة الملكين الكاثوليكيين المسماة "كاراكاس" (Caracas) المخصصة لنقل ابن الأحمر وقواده ومن كان معه من القضاة والفقهاء والأطباء والعلماء والحكماء.

بلغ ما نقلته السفينة الإسبانية على ظهرها نحو ألف ومائة وثلاثين شخصا، بينما بلغ العدد الكلي المرافق للسلطان من مرسى عذرة نحو ألفين وتسعمائة وتسعة عشر شخصا. وأبحر في نفس الوقت من مرسى المنكب نحو ألف ومائة وستة وستين مهاجرا. هكذا نجد أن من بين ما يزيد على ستة آلاف مهاجر تلقت غساسة وحدها أربعة آلاف وخمسة وثمانين مهاجرا[12].

تفيد الوثائق الإسبانية القليلة أن نتائج أحداث الأندلس كانت وخيمة على قلعية بصفة خاصة، وهذا جد طبيعي بسبب العلاقات القديمة المستديمة مع الساحل الأندلسي[13].

وقلعية معدودة من المناطق التي أسقطت الإدانة على رأس محمد الشيخ، ليس فقط لعجزه عن انقاذ ما تبقى من الوجود الإسلامي بالأندلس بل لأنه لم يقدم أي مجهود لحماية السواحل المهددة بالغزو الإسباني، إلى درجة لم يكن هناك أي عنصر إيجابي يبعث على الشعور بالأمن، إذ أن ترقب السكان الوقوع في قبضة الأجنبي كان شعورا عاما.

---

(11) أخبر ابن عاصم الأندلسي في كتابه **جنة الرضى** أن نزول ابن الأحمر كان بمليلة، ولا شك أنه كان يعني جهة مليلة. أحمد المقري، **نفح الطيب**. 225/4.

(12) رسالة فيرناندو ذي ثافرا إلى الملكين بتاريخ أوائل أكتوبر 1493. A.G.S. Negociado Mar y Tierra, L. 1315.

(13) مجموعة رسائل ثافرا لسنتي 1493 و 1494.

ويوازي هذا التأزم المعنوي الخلل الحاصل في الحركة التجارية مع الأندلس وهي المورد الأساسي بالنسبة لقلعية كوسيط بين فاس وغرناطة. ولا شك أن حصار الأسطول الأراغوني للساحل الأندلسي الجنوبي منذ استئناف الحرب الأخيرة كان من نتائجها شل حركة المواصلات مع المراسي الأندلسية خاصة بعد أن أصدرت الكنيسة قرار حذر الاتجار مع السواحل المغربية سنة 1489/895، خدمة لاستراتيجية حرب غرناطة[14].

ومن النتائج المباشرة لهذه الأزمة الاقتصادية على قلعية ظهور المجاعة التي كانت أولياتها قد بدأت بالأندلس وتأكدت سنة نزول ابن الأحمر بكدية غساسة[15]، وهذه هي حقيقة الوضع التي تعكسها الوثائق الإسبانية الصادرة بين 1493 و 1497، بناء على الأنباء التي كان يتلقاها سكرتير الملكين الكاثوليكين من مراسي الساحل القلعي.

وليس هناك دليل واضح على شمولية أزمة قلعية من سياق رسالة السكرتير الملكي حين كتب : " تأكدوا جلالتكم بأن هذا البلد البراني يوجد بحال يكفي معه استخدام عمارة قوية، ولن يكون آنذاك على الساحل من غساسة إلى وهران من يقوى على المواجهة، فجميعهم يموتون جوعا وكل أولئك السكان لا يرون في غير الاستسلام سبيلا"[16]. وتوالت الأحداث منذئذ بسرعة نحو اغتصاب مدينتنا مليلة.

من المعلوم أن أصل فكرة الاستيلاء على مليلة لم يكن وليد ظروف أوائل القرن العاشر الهجري(أواخر 15م.)، بل نشأت مع تطورات حركة الاسترداد الإسبانية. فقد وضع زعماء الحركة مشروع السيطرة على كل

---

(14) قرار البابا إيرنيست الثامن بمنع تسويق الحديد والفولاذ والخيول والخشب والمسامير والحبال والذهب والفضة .14 يناير 1493. A.G.S. Negociado Mar y Tierra, L. 131

(15) حسب أحمد المقري التلمساني في **نفح الطيب** " فحين جوازه لبر العدوة لقي شدة وغلاء ووباء ." 525/4 ؛ مجهول، **نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر**. ص.46.

(16) رسالته بتاريخ 12 فبراير 1494. A.G.S. Negociado de Mar y Tierra, L. 1315

المناطق التي توصلت الدولة الإسلامية بالأندلس إلى بسط النفوذ عليها بالداخل والخارج. وكان من جملة ما يشمله المشروع استرداد مليلة بدعوى أنها كانت أندلسية فيما قبل[17]. وسبق أن بدت الفكرة قابلة للتنفيذ للملك الأراغوني جاك الثاني سنة 1309 (709هـ.)[18]، حينما اشترط على السلطان أبي الربيع سليمان المريني تمكينه من مدينة مليلة رهينة لقاء إمداده بقطع بحرية لمحاربة ابن الأحمر. هذا هو موضوع سفارة "أغوسطي" (Agusti) الذي نزل بغساسة قبل التحاقه بفاس. وحينما قوبل العرض الأراغوني بالرفض عقد التحالف القشتالي الأراغوني العزم على احتلال غساسة، ولم يحل دون ذلك سوى التوجه لاحتلال مدينة ألمرية النصرية[19].

وتعكس تلك الأطماع قبل قرنين من الزمن توجه أنظار الإسبان نحو المدينتين القلعيتين وبقاء الفكرة محفوظة في ذهن السياسة الكاثوليكية، وما كان ليتسنى لها العودة إلى التنفيذ قبل إنهاء مسألة الاسترداد الأندلسية. وحينما اطمأن الساسة إلى نتائجها سنة 1492 م. خطوا الخطوات الجادة لتحقيق المشروع القديم. تبنى مشروع الغزو كل من السكرتير الملكي فيرناندو دي ثافرا (Fernando de Zafra)، وقسيس غرناطة بتركيز نشاط البحرية الإسبانية أول الأمر على نطاق ساحلي واسع يشمل ما بين مصب واد كرط غربا وواد تافنا شرقا، أي المنطقة المستوعبة لأكبر قدر من المهاجرين الأندلسيين وهم في اتجاه نحو فاس أو تلمسان، وهي المنطقة نفسها التي كانت تعاني من الاضطرابات وغياب السلطة المركزية[20].

---

(17) على عهد عبد الرحمان الناصر ما بين 314 و 347 هـ.

(18) Ch. E. Dufourq, *L' Espagne Catalane et le Maghreb au 13 et 14 siècle* , p. 394

(19) **المرجع السابق**، ص. 396.

(20) رسالة 25 أبريل 1494 تقول: "فالطاعون منتشر بفاس (مملكة) وكل يوم يموت نحو 1200 شخص، وبلغ عدد الموتى حتى الآن نحو 2000، وقد استأصل هذا الداء سكان تلك النواحي وهذا من نعم الله الفضلى". A.G.S. Negociado Mar y Tierra, L. 1315، مما أكده صاحب **نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر**. ص.46 .العرائش، 1940.

شحذ فيرناندو ذي ثافرا عزائمه لإنجاح المشروع بأكبر قدر من السرعة معتمدا على مركز أسرته الاقتصادي، وعلى عدد من أفرادها المنضوين تحت لواء البحرية الملكية أولا، وعلى معرفة الإسبان بالساحل الشرقي المغربي بواسطة التجار وتقارير فيالق البحرية المرافقة للمهاجرين الأندلسيين عن الوضعية الطبيعية والبشرية والقدرة الدفاعية بالشمال الشرقي المغربي ثانيا.استغل السكرتير الملكي حالة الانهيار المعنوي السائدة بالمنطقة مستميلا بعض الأندلسيين الذين كان لهم نفوذ في الدولة النصرية، أمثال محمد البوكيني قاضي القضاة بغرناطة وإبراهيم الزيات أحد القواد المقربين لدى السلطان أبي عبد الله. وكان أمثال هؤلاء لدى جهاز ثافرا أدوات التأثير على الأندلسيين المستقرين بالساحل المغربي[21].

ومنذ سنة 1494/900 كانت المراكب الإسبانية سائرة نحو الشرق بين جبال ترارة الجزائرية وشبه جزيرة هورك القلعية في جولات استكشافية. وقد استخلص ثافرا من محاولاته الفاشلة ضد تاونت وتابحريت ضرورة تحويل الاتجاه نحو ساحل قلعية تبعا لما بشرت به الاتصالات مع جماعة موتريل الأندلسية المستقرة آنذاك بمليلة، فسرعان ما أصبحت الجماعة أمل المشروع الإسباني المرتكز على الاستفادة من تشبثها بالعودة إلى موطنها طبق شروط اتفاق غرناطة. كان على جماعة موتريل العمل بسرعة من أجل العودة، إذ أن نهاية الأجل المحدد كانت قريبة جدا غايتها يوم 25 نوفمبر 1495[22].

ولما كانت العرقلة الأساسية التي واجهت الجماعة هي عدم حيازتها لما سماه الاتفاق " بطاقة التصريح " وهي الإذن المكتوب المسلم للمهاجرين أثناء

---

(21) يضيف صاحب *Melilla Prehispánica* إلى قائمة المتعاونين من سماهم: الوزير يوسف بن كميخة وإبراهيم القيسي شروط وأبي القاسم بن السراج ومنصور الجياني.

(22) نص الشرط الثاني من الاتفاق على تسهيل عودة المهاجرين إلى مواطنهم بالأندلس خلال أجل ثلاث سنوات. المقري، **نفح الطيب**. 525/4.

العبور في أوائل أكتوبر 1493م. فقد اشترط السكرتير الملكي لتسهيل عودة الجماعة تقديم بديل، و لم يكن هذا البديل سوى تسليم مقاليد مليلة.

تمت الاتصالات مع الجماعة بواسطة الفقيه المسمى يوسف المدجن، فهو الذي كلف أحد المهاجرين بربط اتصالات أولى مع الجماعة، انتهت بوصول رسائل سرية إلى ثافرا مفيدة بتمهيد الطريق[23].

وكل ما تعبر عنه الوثائق الدائرة حول موضوع الاتصالات ونتائجها هو ثبوت النتيجة الأخيرة. فقد سخر السكرتير الملكي للمهمة في طورها الثاني جماعة من التجار الوافدين على مليلة. وفي بداية سنة 1494 كانت الاتصالات قد أعطت ثمارها الأولى، بدت في تدبير جماعة موتريل تمرد مليلة على الحاكم الوطاسي في بداية جمادى الأولى عام 899،بداية فبراير 1494[24].

وبعد هذا الاتفاق الذي لا نعرف عنه غير هذا الخبر الغامض سيطر المتمردون على الوضع بالقصبة والمدينة، وعلى الرغم من انشقاقهم إلى فئتين متنافستين إلا أن الهدف كما تصورته الرسائل كان واحدا: التسابق إلى نيل الحظوة لدى السكرتير الملكي واسترجاع الأملاك التي كانت لكل فريق منهما بجهة موتريل. مكث ممثلا الوفدين بقرطبة رهينة إلى أن تمكن السكرتير الملكي من إيجاد نقطة التوافق بين الطرفين، مما قدم له أكبر نصيب من الحظوظ.

وسرعان ما جاء دور غساسة، إذ أن التجار الإسبان أعلنوا للمسئولين أنهم بصدد الاتفاق أيضا مع شيخ شيوخ بطوية المشار إليه سابقا. قيل عنه إنه كاتب هو بدوره فيرناندو دي ثافرا معبرا عن رغبته للعبور إلى الأندلس موعدا بتقديم غساسة واثنين من أبنائه رهينة[25].

والحق أننا إذا كنا قد تقبلنا حكاية جماعة موتريل لأن لها ما يعززها من الافتراضات، فإن مسألة شيخ شيوخ بطوية لمما يبعث عن التساؤل. فلا يدل

(23) حسبما ما جاء به فيرناندو دي كاسترو في كتابه *Melilla Prehispánica*، ص. 460.

(24) رسالة ثافرا: 12 فبراير و 25 منه سنة 1494.

(25) **المصدر السابق.**

أي شيء على أنه أندلسي حتى يطمع في العودة. ولن نتمكن أيضـا من فهم تلك الردة الشاملة ضد الوطاسيين التي سيغدو الإقليم كله من "غساسة ومليلة وبطوية وكل مملكة ملوية ضحية لها"[26]. ومنذ وصول تلك الأنباء عن مليلة وغساسة قوي حماس ثافرا للاستيلاء على قلعية بأسرها بإعداد التقارير حول الحالة الدفاعية عموما، بينما راح من جهة أخرى يحث مسئوليه للإسراع بتنفيذ المشروع وتلبية رغبة جماعة موتريل.

وبدا من جهة أخرى أن جهاز فيرناندو الكاثوليكي الحربي لم يكن متعجلا أكثر من اللازم لتلبية طلب جماعة الأندلسيين المليلين. وظهر في الأخير من سياسة التماطل أن حظوظ الرفض كانت أرجح بكثير من فرص قبول العرض مما سيبعث في نفوس زعماء التمرد اليأس والخيبة بعده واللجوء إلى تخريب مليلة في الأخير. ليست المرة الأولى التي علمنا فيها بتخريب مدينة مليلة، فقد ألفنا أن يقال إن التخريب كان على يد أجنبية. سبق أن فعل ذلك الوندال والنورمانديون والعبيديون، ويختلف الأمر هذه المرة عن سابقه، إذ أن التدمير كان على يد سكان المدينة أنفسهم خلال فترة زمنية قصيرة بلغت أثناءها الأزمة المعنوية قمتها بين سنتي 1495/901 و 1496/902.

اختفت عنا أخبار مليلة خلال السنتين، وهي المدة التي تم أثناءها تخريب المدينة. وليس لنا من محيد عن إيجاد صلة الوصل بين الأحداث السابقة واللاحقة لسنة 1497/903 م. أي السنة التي وقعت فيها المدينة في قبضة الإسبان. وهنا فقط نعثر على أولى الإشارات التاريخية الوطنية الخاصة بدواعي تخريب مدينة مليلة. نصنف تلك الأسباب إلى مجموعتين:

- رأي يلتقي فيه الحسن الوزان مع مارمول كارباخال ولورينثو دي باضيبيا[27] يشير إلى أن التخريب تم بأمر من محمد الشيخ الوطاسي على يد قائد

---

(26) **المصدر السابق** ورسالة 2 أبريل عام 1494.

(27) الوزان، **وصف إفريقيا**، ص. 266؛ مارمول، **إفريقيا**، 259/2، Lorenzó de Padia, *Cronica de D. Felipe I*, p. 48

الجيش المبعوث إلى قلعية. وكانت جماعة موتريل مثلما سبقت الإشارة إليه قد طردت القائد الوطاسي والتحق بمدينة فاس، وليس ببعيد أن يكون هو أوغيره عاد إلى قلعية ليجد المدينة فارغة من أهلها مهجورة.

- رأي ثاني مستخلص من كتابات اثنين من مؤرخي أسرة مدينة صيدونيا التي تحملت نفقات السيطرة على مليلة، وهما الإخباريان بيدرو مالدونادو دي برانتس[28] وبيدرو دي مدينا[29]. خلاصته أن النزاع كان مستحكما بين مملكتي فاس وتلمسان على مدينة مليلة مما حث السكان على مغادرتها حفاظا على أرواحهم وأملاكهم وهدمها إثر ذلك.

ويمكن لنا بكل سهولة استبعاد ما جاء به الرأي الأخير، إذ أن مليلة لم تدخل البتة في دائرة النزاع الوطاسي الزياني بصفة مباشرة، سواء في البر أو البحر. فقد سأل الإسبان سكان المدينة عام 1494 عما إذا كانت مليلة في يوم من الأيام تابعة لمملكة تلمسان فأجابوا بالنفي. فما هي الحقائق المستخلصة من مصادر الرأي الأول؟

فحسب رأينا أن جماعة موتريل التي ظلت متزعمة حكم مليلة منذ فبراير 1494 لم تحصل على طائل مما كانت ترجوه من الاتفاق مع الإسبان، بعد مرور ما لا يقل من السنة عن الاتصالات والانتظار غير المجديين، فسرعان ما تبينت لها حقيقة غاية الإسبان بحشد قواتهم للاستحواذ على مليلة بدون الحاجة إلى مساعدتهم. والأمثلة على ذلك عديدة : تدخل الأسطول الإسباني بوهران وتاونت وتابحريت ووردانة.[30]

وليس ببعيد أن تفسر الجماعة تماطل الإسبان من قبيل تلك السياسة. والراجح أن ثافرا كان يعد للتدخل في صيف سنة 1494، وفي ماي السنة صدر

---

(28) Pedro Maldonado de Barrantes , *Ilustraciones de la Casa de Niebla*, Mns. B.R.A.H. Madrid, B. 19.

(29) Pedro de Medina , *Crónica de los Señores de la Casa de Medina Sidonia*, C. D. I. H. E, t. 39.

(30) مراسلات : 28 يوليوز و 28 غشت 1493 ورسالة 25 فبراير و 25 أبريل 1494.

الأمر الملكي بتجهيز السفن والتحضير للزحف[31]. فهل كان في وسع سكان مليلة مدافعة المغيرين عن مدينتهم؟

لا ننسى أيضا أن جماعة موتريل كانت قد ذهبت بعيدا بإعطاء تمردها صبغته الحادة. فهل من المتوقع استمرار تلك الجماعة في تحمل مسئولية المدينة بل والنجاة بنفسها من أي عواقب؟[32]

وربما نجد الجواب في المثال المقدم من طرف الحسن الوزان حين أشار إلى أن السكان بعد التأكد من استعدادات الإسبان لغزو مليلة بعثوا لطلب النجدة من محمد الشيخ الوطاسي[33]،وهذا بالطبع لا يمكن أن يتم إلا في ظروف استرجاع الطاعة للوطاسيين، وبالتالي إبعاد جماعة موتريل.

والذي نعلمه أن حكام مليلة الجدد كانوا قد علقوا آمال الدفاع على وصول المساعدة الوطاسية المنتظرة. وبما أننا نعلم أولا بتذمر السكان من تأخر وصولها في وقت كانت أهبة الأسطول الإسباني جارية على قدم وساق، ثم بضآلة قيمة المساعدة التي لم تتجاوز خمسمائة جندي ثانيا[34]، حق علينا التفكير في مغادرة السكان لمدينتهم قبل وصول المدد الوطاسي وهدمها وحرق كل ما بها، كرد فعل طبيعي يفرضه قانون سياسة الحروب.

ونحن متأكدون من أن مغادرة المدينة وهدمها كان قبيل وصول المدد المخزني وهو الذي استكمل عملية الهدم والحرق، محاولة منه لتثبيط عزائم الإسبان على الاستقرار من جهة، وعقابا في نفس الوقت للسكان المتخاذلين عن الدفاع. ونرجح أن التخريب تم خلال الأشهر الأخيرة من سنة 1496/902،

---

(31) مراسلة 25 أبريل 1494.

(32) هناك رواية شفوية سنتعرض لها لاحقا تخص أيت مليلي التي تجعل المطلع عليها يعتقد أنهم إن لم يكونوا من جماعة موتريل فهم على الأقل من مناصريهم.

(33) **وصف إفريقيا**، ص. 266.

(34) العدد مقترح من مارمول. **إفريقيا** ص. 284. أما الوزان فقد اكتفى بقوله: "فأرسل إليهم كتيبة خفيفة "**وصف إفريقيا**، ص. 266.

اعتمادا على الجولة الاستطلاعية التي قام بها قائد البحرية الملكية القبطان " مارتين كاليندو"(Martin Galindo) في ديسمبر السنة عائدا بخبر تخريب المدينة[35].

كل شيء كان ينبئ أن الوضع بالشمال الشرقي المغربي جد ملائم للتدخل الإسباني منذ عام 1495/900، و لم يحل دون قيادة الحملة الصليبية آنذاك سوى انشغال الساسة الإسبان بمسألة نابلي المحتدة بسبب منافسة شارل السابع الفرنسي وحينما انفرجت تلك الأزمة عادت مليلة إلى ذهن العاهل الإسباني بمجرد وصول خبر تخريبها. ومرة أخرى لم يقف دون التدخل السريع سوى تقرير رئيس البحرية القبطان كاليندو المتشائم.

لم تكن الفكرة المتشائمة متعلقة بصعوبة الاستيلاء على المدينة أو من وجودها مخربة، بل كانت منبعثة من وجود عدد كبير من السكان بالمقربات وهذه كلمات القبطان: " إذا تمكن الإسبان من احتلال المدينة فإنها ستغدو مقبرة لا محالة للجنود إذ أنهم سيتعرضون بصفة مستمرة لغارات السكان، وبالتالي فإن جميع التكاليف التي ستنفق من أجل المحاولة وتلك التي ستترتب عن تهييئ وسائل الدفاع كلها ستذهب سدى"[36].

كان رأي كاليندو صادرا عن رجل ذي خبرة بالشؤون الحربية، سرعان ما وافقه عليه كريستوف كولومب، مفضلا تحويل اعتمادات الحملة لحساب مصاريف رحلته الثالثة إلى جزر الهند الغربية، ومنبها في نفس الوقت إلى عدم صلاحية مرسى مليلة لإيواء السفن الكبرى[37]. وهذا كان كافيا لعدول الملك فيرناندو عن مشروع غزو مليلة.

غير أن المشروع لم تتح له فرصة الركود مثلما كان منتظرا، فسرعان ما تلقفه دوق مدينة صيدونيا أمير طريف وجبل طارق وهو من أشد المتحمسين

---

(35) P. M. Barrantes , *Ilustraciones de la Casa de Niebla*, C.D.I.H.E. t.39, p.479

(36) المصدر السابق .

(37) Jeronimo Zurrita , *Historia del Rey Don Fernando* .t. 4 p.153

لنقل حرب الاسترداد خارج إسبانيا. وقد كشف لنا الإخباري لورنثو ذي باضيا عن الوسيلة التي توصل بها الدوق بأنباء مليلة وهدمها ومهاجرة أهلها لها على لسان مخبر من المهاجرين إلى المدينة يدعى Mebil(؟) من أعمال دوقيته سابقا، كاشفا له عن عورات المدينة وعن سهولة الترميم والدفاع[38].

وقبل أن يضرب الدوق موعدا لغزو مليلة أنفذ إلى عين المكان خبراءه للمعاينة لتقدير ترتيبات الغزو النهائية، ونتيجة لتلك الزيارة تحقق التسرب في ليلة 19 محرم 17/903 شتمبر 1497. وقبل إنهاء هذا الموضوع نتساءل عن مصير سكان مليلة الذين غادروا مدينتهم قبل ظهور الأسطول الإسباني بنحو تسعة أشهر؟

الواقع أن جهودنا الحالية للرد على نفس الجواب تبدو جد قاصرة وأملنا يكاد يكون من المستحيل تحقيقه مع بقاء العقبة الكأداء التي يضعها أمامنا فراغ خزاناتنا التاريخية من مادة الإجابة. وسنكتفي الآن بتقديم المتوفر من بعض الإشارات المتواضعة.

إن الصورة التي التقطها القبطان مارتين كاليندو الزائر لمليلة المخربة في آخر ربيع الثاني عام 902/آخر ديسمبر 1496 كافية للدلالة على أن عدد السكان المقيمين بمقربات المدينة كان كبيرا جدا. غير أنه لا يفهم من الملاحظة أنه يعني سكان المدينة الخارجين منها فقط[39]. وعلى الأرجح كان يقصد مجموع السكان المستقرين بالمقربات من أهالي بني شكر ومزوجة.

وعلى الرغم من افتراض بقاء السكان بقلعية فإن هذا لا يجد سندا له فيما أدلت به وثيقة نسب قبيلة قلعية التي لا يبعد تاريخها عن الحدث إلا بسبع وثلاثين سنة فقط. فصاحب الوثيقة المجهول وهو من أبناء إقليم كرط لم يخبرنا بوجود أي أسرة من أسر مدينة مليلة المحتلة، على الرغم من أن هذا موقف غريب منه، إذ أنه كان معاصرا للحسن الوزان الذي لاحظ أن سكان مليلة

---

(38) Lorenzo de Padia , *Crónica de Felipe I° llamado El Hermoso*, Chap. 12, p.48.

(39) P.M. Barrantes , *Ilustraciones de la Casa de Niebla*, D.I. H.E. 39/479.

انتقلوا إلى سكنى جبال بطوية التي يعني بها ناحية الريف الشرقي. وجبل قلعية جزء من تلك الجبال، وهو أحق باحتضان جزء من أهل المدينة المهجورة.

ومثال واحد أمدنا به فرانسيسكو دي ميراندا في الربع الأخير من القرن الثامن عشر. فالملاحظ في يومياته أنه يذكر، وهو يعد المواقع الحربية المرابطة حول المدينة المحاصرة من طرف الجيش المغربي[40]، موقعا سماه كدية ترارة[41]. ولا يبعد الموقع عن المدينة إلا بنحو ستمائة متر فقط، في وقت سجل فيه صاحب وثيقة قلعية وجود جماعة ترارية (إثرارن) بالمكان المعروف بتيزا من بني شكر مكتفيا بالإشارة إلى أصلها من ترارة الجزائرية، وهذا بالطبع لا ينفي بتاتا أن تكون قد انتقلت من ميدان مليلة. وأستحضر الآن ما قيل ويقال عن أيت مليلي الكبدانيين القاطنين بفرقة أولاد الحاج، إذ أن قصة تلك الجماعة شائعة في عموم الإقليم منذ أن رددتها الرواية الشفوية في بداية القرن الحالي.

وخلاصة الرواية الشفوية التي قمنا شخصيا بتسجيلها[42]، أن الذكريات المتوارثة ترد أصل كنية أيت مليلي إلى سبق سكنى أجدادها بمليلة منذ أن استقروا بها بعد انتقالهم من الأندلس خلال القرن الثامن الهجري، وأن سبب خروجهم من المدينة هو ثورتهم على السلطان. تستمر الحكاية عن أيت مليلي قائلة إن أهل مليلة حينما غادروا المدينة ظلوا مخيمين بالمقربات مدة (قارن هذا بما ذكره القبطان كاليندو)، حيث تقع اليوم كدية سيدي ورياش بفرخانة. ومن هذا المكان تفرق الجميع إلى جهات متعددة، (استرجع ما قاله الوزان أيضا) وقد أطلق على هذا المكان اسم " لعري ن لعزا "، أي باحة العزاء تعبيرا عن ذلك الفراق الأليم الذي تم في ذلك المكان.

---

(40) إشارة إلى الحصار المغربي لمليلة. عنه كتابنا **سيدي محمد بن عبد الله وقضية مليلة المحتلة.**

(41) F. de Miranda , *Diario*, p. 35

(42) زيارة للمكان يوم 14/ 1975/8 والتسجيل من حديث الشيخ المسن محمد بن محمد الشلحي من أولاد حمو وعمر والمدغري محمد بن البشير من أولاد يوسف.

كانت أسرة أيت مليلي إحدى الجماعات التي غادرت المكان إلى قرية أركمام أولا ثم التحول منها إلى سكنى موضع أكديم أو البرج من رأس كبدانة والاندماج ضمن جماعة أولاد الحاج.

إذا كان التحري المنهجي يتطلب منا عدم تقبل قصة يفصل بينها وبين تاريخ الرواية الشفوية مدة غير قصيرة، فإننا نرى فيها احتفاظ الذاكرة الشفوية المتوارثة منذ خمسة قرون ببعض ما يشبه الحقيقة التاريخية.

فانظر مثلا بقاء السكان بمقربة من المدينة مخيمين على السفح الغربي المقابل للمدينة في انتظار القرار الإسباني النهائي بالاحتفاظ بالمدينة أو الانسحاب منها مثل ما كانوا يتوقعونه بعد هدم المدينة، ومثل هذا حدث لسكان سبتة المحتلة سنة 1415/818.

ونلاحظ أيضا ما ذكرته القصة من تمرد تلك الجماعة على السلطان الوطاسي مما تعرضت له الوثائق الإسبانية بجلاء مثل ما مر بنا. ونرى أخيرا أن كنية أيت مليلي من المحال أن تكون من اختلاق العصور المتوالية. فهل يكون أيت مليلي من أهل جماعة موتريل، أو على الأرجح من مناصريهم؟

مليلة والعمران

نعتقد أن هناك ميزة ينبغي على الباحث في تاريخ مدينة مليلة الاهتمام بها غاية الاهتمام، مما قد لا تحتاج إليها المدن المغربية الأخرى. فمدينتنا ما زالت محتلة من طرف الأجنبي ومنذ خمسة قرون مضت، مما جعلنا نجهل عنها كل شيء في وقت يوهم لنا التاريخ الإسباني على أنها من خلقه وبنائه وكل شيء فيها إنما هو راجع إليه وليس للفترة المغربية الإسلامية منها شيء.

والنتيجة أننا نكاد نفقد كل الروابط التاريخية باستثناء الجغرافية منها عن حضارة مدينة مغربية أصيلة يحاول الأجنبي المحتل طمس معالمها الوطنية. هذا هو ما حدا بنا إلى عدم تجاهل عمران المدينة وحضارتها اللذين ميزا مليلة منذ استرجاعها من البيزنطيين.

لاحظت في الصفحات السابقة تألق مكانة مليلة خلال القرون الماضية وامتداد سيادتها على إقليم كرط كله، وبلغت أثناء ذلك أقصى اتساعها وازدهارها الاقتصادي إلى أن انتزعت منها تلك السيادة مدينة غساسة، فإلى أي حد يمكن لنا استرجاع تلك الصورة السابقة للوجود الإسباني بها.

يجبرنا التأمل في الشكل الحالي للصخرة التي حملت مباني مليلة خلال المدة السابقة للوجود الإسباني أن رسمه لن يختلف عما هو عليه في الوقت الراهن، فقد صرح الإسبان إثر نزولهم بالمدينة أنهم أعادوا بناء الأسوار على نفس النمط وبنفس الأحجار التي بقيت متراكمة بالمكان بعد تعرض المدينة للهدم الأخير[43].

لم يشرع المحتلون في إحداث بعض التغييرات إلا في منتصف القرن السادس عشر، مع العلم أن التغييرات لم تمس سوى بعض الزوايا من الشكل العام، مثل خلق الأبراج في نقط دفاعية بارزة على طول خط السور الخارجي. أنجز حكام المدينة خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر عدة تقارير عن حدود مليلة ومقاييسها. ومن تلك التقارير وما جمعناه من الرسوم القديم منها والحديث نستطيع استنتاج مختلف المقاييس الخارجية بصفة عامة[44].

إن ما يميز المدينة هو محيط الكتلة الصخرية المطابق لسير خط الحافات المشرفة من علو متفاوت أقصاه ثلاثون مترا فوق سطح البحر، إذ أن الشكل العام للصخرة يكاد يصبح جزيرة صغيرة لولا وجود برزخ قصير ضيق الجانبين ممتد جهة الغرب، متصل بسطح آخر أصغر حجما ملحق بالأول. ويقدر المحيط الكلي الحالي للصخرة بنحو ألف ومائتين وأربع وعشرين مترا.

---

(43) P. M. Barrantes , *Ilustraciones de la Casa de Niebla* . مخطوط B.P A.H. بمدريد.
مسجل تحت رقم. B19

(44) تقارير 1555 و 1565، و 1575.

وربما لم تبلغ المدينة المغربية المعروفة خلال القرن الرابع الهجري المساحة التي كانت عليها خلال القرن السادس عشر، نتيجة ما أضافه الإسبان باستغلالهم الحافات الأقل علوا لبناء الأبراج والشرفات، مثل ما يمكن ملاحظته بالمنحدر الواقع بالشمال الغربي المطل على مرسى المدينة، وعلى القسم الجنوبي بصفة عامة ولكن الفرق بين ما كانت عليه وما تمت إضافته كان طفيفا.

ويمكن الترجيح أن القسم الشرقي من محيط المدينة هو الذي ما زال محتفظا بأصالة سور مليلة الإسلامية، نظرا لارتفاع الصخرة من هذا الجانب ونزول الحافات على شكل شبه عمودي. وتنقسم تلك المساحة إلى قسمين نقطة الفصل بينهما رأس صخري صغير يوحي بإمكان استغلاله منذ القديم لبناء برج بسيط الشكل والحجم.

ونقول نفس الشيء عن الجانب الغربي من سور المدينة المشرف بارتفاعه القائم الزاوية على المرسى. وهذا خلاف ما نراه بالنسبة للسور الجنوبي نتيجة ما أدخل عليه من الإصلاحات المشار إليها قبل قليل. ويرغمنا وجود البرزخ وامتداده الغربي على الاعتقاد بوجود باب المدينة الإسلامية في المكان المخصص له في القرن السادس عشر. ولا يمكن تصور اتصاله بالقسم الخارجي بالقنطرة المتحركة مثلما كان آنذاك منذ عهد الاحتلال، فذاك من جملة التغييرات الإسبانية المحدثة. وهذا هو المعروف لدى الإسبان بالمحاط الأول[45].

ويمتد خارج المحاط الأول قسم آخر ملحق به غربي الوجهة يتألف من ساحة صغرى مرتفعة الجوانب من الجهات الثلاث، تشرف حافتها الشمالية على مرسى المدينة، بينما يحجزها عن فحص المدينة خانق شكلته مياه مجرى السيل المنساب من كدية المرسى.

وهذا هو المحاط الثاني من المدينة، المعروف منذ القرن السادس عشر بساحة الأسلحة (Plaza de Armas) يفصلها عن الأول البرزخ وجسره المتحرك.

---

(45) هو الباب المعروف باسم "سانتيياغو" (Santiago).

ولا يمكن تصور باب هذا المحيط إلا من جهة الغرب، مثلما كان عليه الوضع في القرن السادس عشر وفي الوقت الراهن، وهو المعروف آنذاك بباب البادية. ذلك هو الشكل العام الذي كانت عليه مدينتنا في القرن الرابع الهجري حسبما أشار إليه أبو عبيد الله البكري حين قال: "وهي مدينة مسورة بسور حجارة"[46]، أو مما أومأ إليه ابن حوقل النصيبي بقوله: "كانت مليلة ذات سور منيع وحال وسيع وكان ماؤها يحيط بأكثر سورها"[47]. أو مما ذكره الشريف الإدريسي عن حالها: "ومدينة مليلة مدينة حسنة ذات سور منيع وحال حسنة على البحر، وكان لها قبل هذا عمارات متصلة"[48]. وكل إشارات أولئك مردودة إلى القرن الرابع الهجري الذي بلغت فيه مليلة أوسع مساحة من عمرانها إلى أن تم هدمها سنة 347 هـ. مثلما مر بنا.

وقد انفرد أبو عبيد الله البكري بتقديم إشارة عن بعض المرافق الداخلية القائمة آنذاك بالمحاط الأول، فقد تحدث عن وجود قصبة مانعة بالمدينة، بيد أننا لا نتوفر على ما من شأنه أن يساعدنا على تحديد مكانها بواسطة النصوص التاريخية مما يحتم علينا اللجوء إلى دراسة طبيعة السطح بحثا عن تقديم حل في نطاق الاحتمال بطبيعة الحال.

لقد دلت التجارب على أن المنشآت الحربية تختار من السطح المشارف العليا لتضيف بعلوها مناعة وحصانة، كما جرت عادة المحتلين الاستقرار بنفس المنشآت السابقة لنفس الأسباب. وإذا حاولنا تطبيق هذا على مليلة فإننا نجد المكان الذي يجمع بين العلو داخل المحاط الأول هو نفسه الذي اختاره الإسبان لمهمة التحصن والمراقبة خلال القرن السادس عشر وما تلاه[49].

(46) **المغرب في ذكر بلاد المغرب**، ص. 89.

(47) **صورة الأرض**، ص. 89.

(48) **نزهة المشتاق**، ص. 171.

(49) الأمثلة بقلعية كثيرة: استقرار الإسبان بقلعة غساسة وبتازوطا خلال الفترة الاستعمارية؛ تحصنهم بمختلف المواقع المحصنة خلال نفس الفترة.

احتل موضع القصبة الإسلامية بناء على ذلك التصور القسم الشمالي الغربي من مساحة المحاط الأول بموقع يشرف على عرض البحر من جهة الشرق وعلى المرسى من جهة الشمال، وأخيرا على فحص المدينة وواد المدور.

وبناء على ذلك فإننا نقترح أنه المكان المناسب للقصبة المشار إليها من طرف البكري، وهي التي كانت مقر الحامية الوطاسية المطرودة من طرف جماعة موتريل الأندلسية[50].

ومن المعلوم أن مدينة مليلة لم تكن نقطة حربية بالدرجة الأولى، لغلبة الطابع التجاري على معاملاتها. فالبكري يتحدث عن وجود عدة أسواق كانت تستقبل البضائع الصحراوية السجلماسية بعد مرورها بقلعة كرط المعروفة الآن لدينا بقلعة تازوطا. وإلى المدينة كان يصل أيضا تجار مراسي الساحل الأندلسي[51]. وفي اعتقادنا أن تلك الأسواق اختارت لها من المواضع سطح المحاط الثاني المتصل مباشرة بمرسى المدينة بارتفاع غير كبير ينحدر الطريق منه من الزاوية الشمالية الغربية، هي التي كانت مأوى التجار الصحراويين والأندلسيين.

تحدث ابن حوقل البغدادي وتبعه الشريف الإدريسي عن وجود الأجنة بمليلة بالقدر الذي سدد حاجات السكان الغذائية "من الزروع الكثيرة والحبوب والغلات الجسيمة"[52]. ولا شك أنه كان يقصد بوجودها المساحة الواقعة حول المجرى الأدنى من واد المدور الممتدة بطول ألف متر غربا حدها الغربي كديتا الرباط وتينرت، وعرضها متراوح بين ستمائة وسبعمائة متر، حده التلال الشمالية المعروفة بهوركا. وعلاوة على مياه واد المدور فقد أشار ابن حوقل إلى وجود "بئر فيها عين ماء عظيمة". وهذا هو ما تؤكده الوثائق

---

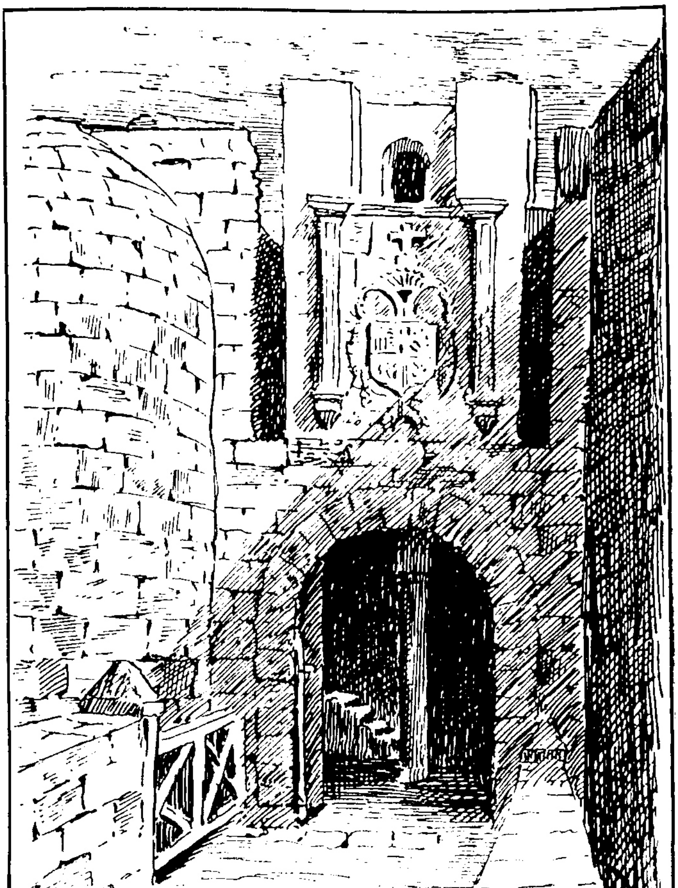
(50) الموضع مستغل في الوقت الحالي لبناء متحف المدينة القديمة.

(51) قدمنا بمزيد من التفاصيل بحثا في الموضوع نشر في مجلة **دار النيابة** عدد 49/7 من سنة 1985، وعدد 25/9 من سنة 1986.

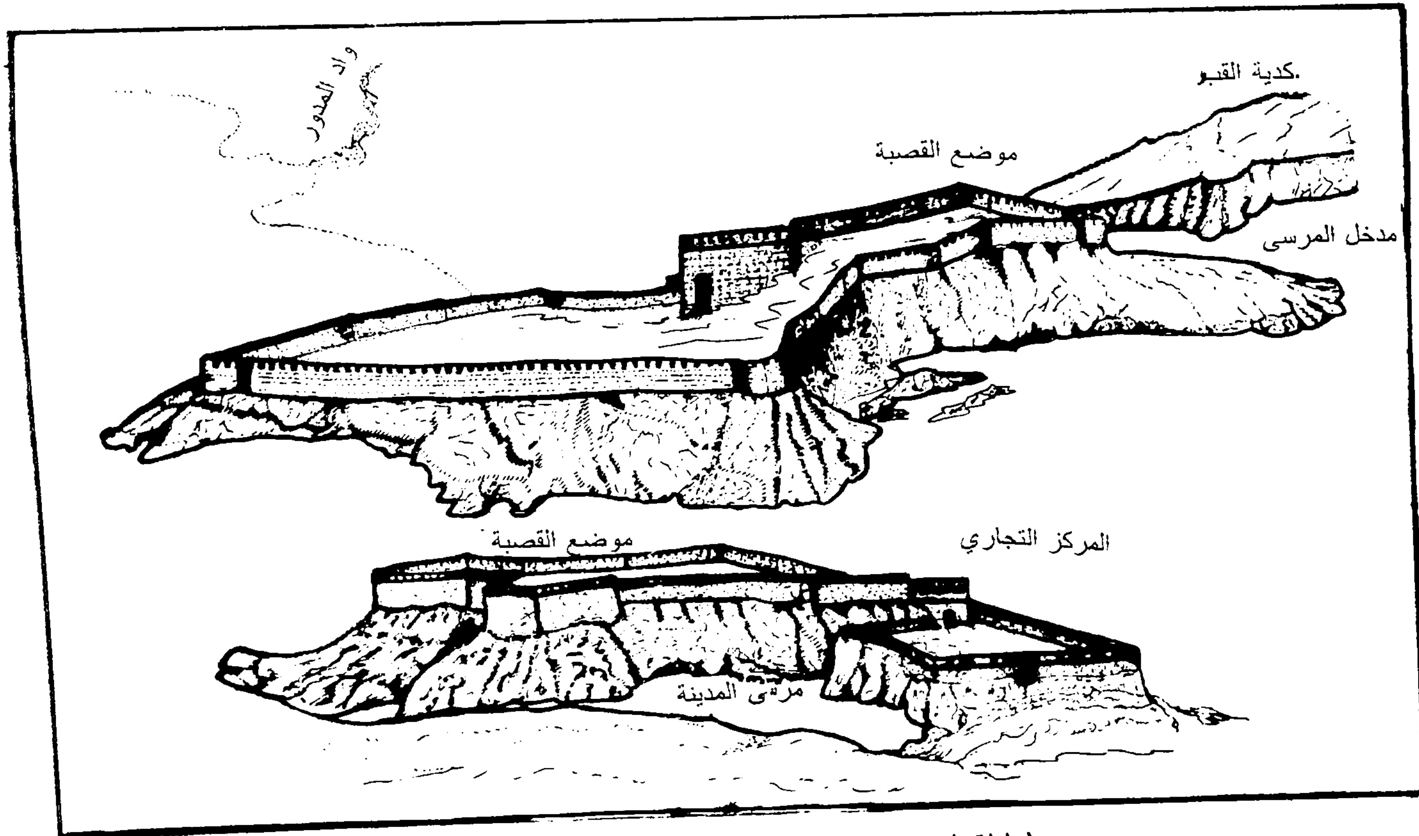
(52) **صورة الأرض**، ص. 79، **نزهة المشتاق**، ص. 335.

المعاصرة للوقت الذي نؤرخ له كانت العين واقعة على بعد ثمانية وعشرين مترا من جهة البـاب الغربي.

تلك هي المدينة التي أسلمها سكانها والجيش الوطاسـي ليـد التخريـب، وتـلك هي عينها التي تسرب الغزو الإسباني خلسة إليها. وكيفما كـان الأمـر فإن خطر الوجود الإسباني بقلعية لم يتوقف عند استقرارهم بمدينة مليلـة، بـل إن آمالـهـم كانـت متعلقة بثاني مدن قلعية، وأعني بذلك مدينة غساسة.



باب حصن مليلة



مليلة القرن الرابع الهجري مثلما توحي به المصادر

(2)

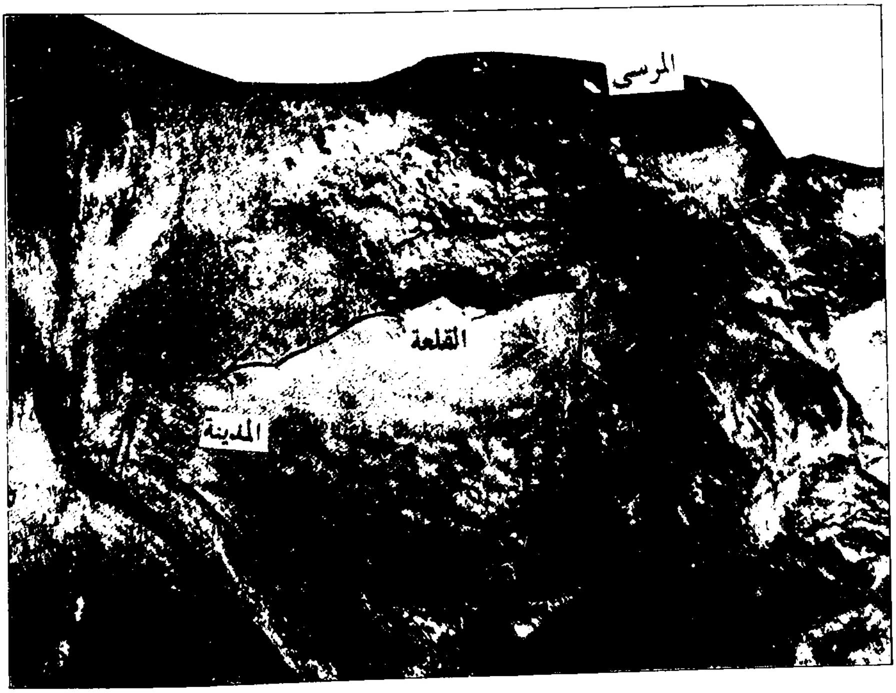
التسرب الإسباني إلى غساسة

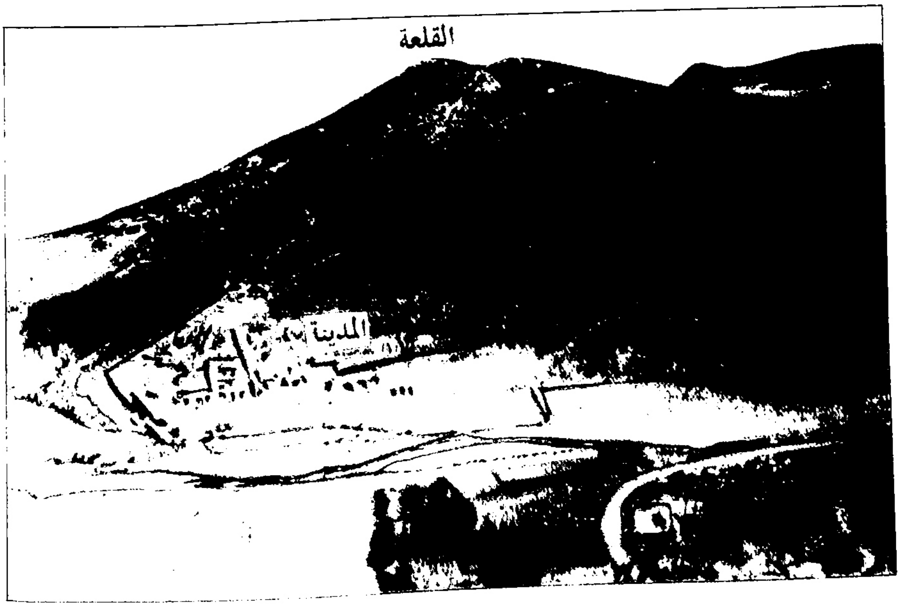
إذا علمنا أن الفرق الزمني بين احتلال مليلة والتسرب إلى غساسة لم يتجاوز تسع سنين علمنا مدى اتساع نطاق المخطط الأصلي الإسباني، ذلك أن أهمية غساسة فاقت ما كان يرمي إليه الساسة من وجودهم بمليلة، نتيجة علو شأنها خلال العصر المريني. ولا شك أن ما صرف الإسبان في البداية عن التفكير في غساسة هو احتفاظها بحاميتها وسلامة تحصيناتها. ولا ريب أيضا أن احتضانها لحركة المقاومة ضد مليلة سيزيد في إقلاق راحة الوجود الإسباني بها، مما استلزم العمل السريع لاغتصاب المدينة. فماذا نعرف عن عمران المدينة المحتلة أولا؟

ستتعرف على عمران المدينة الثانية المغتصبة بالاعتماد، علاوة على ما بيدنا من النصوص المتوفرة، على نتائج البحث الأركيولوجي وبعض الصور والرسوم والزيارة الميدانية[53]، مما لم يتوفر لدينا بالنسبة لمليلة. وتبرز السمات العمرانية العامة أن مدينة غساسة كانت بالفعل أوسع مساحة من مليلة، إذ بلغ طول أسوارها ما زاد على ألفي متر. وإلى غاية أوائل القرن العاشر الهجري تكونت من قسمين:

القلة: لفظ محول عن أصله القلعة ليفيد ما معناه بالأمازيغية المحلية الكدية، وبهذا الاسم الأخير عرفت غساسة منذ القديم، وأضيفت إليه صفة

(53) عن R. F. de Castro y Pedreda في *Historia y exploracion de las ruinas de Cazaza* Madrid 1943





صورتان جويتان لمحيط خرائب غساسة

اختير لهذا الباب الاتجاه الجنوبي المقابل لالتقاء واد حلوبة بواد غساسة وهو منفتح بانفراج قدره ثلاثة أمتار. وهناك رسم يمثل هذا الباب وجانبا من السور يعود إلى فترة الوجود الإسباني بالمدينة.

يبدو أن المرينيين اعتنوا بتحصين المدينة من حده الجنوبي الموازي لمجرى واد حلوبة بالإكثار من الأبراج والزيادة في عرض السور وعلوه. وقد تمكنت الحفريات لحسن الحظ من استعادة رسم السور.

ويستمر رسم البناء ابتداء من نقطة مائة وخمسين مترا في اتجاه القمة من الجهة الشرقية بامتداد السور الجنوبي إلى أن يتصل بالقلعة عند تمام الزاوية الشرقية وتتوزع بموازاة هذا السور بعض المباني المتفرقة التي لا نستطيع التكهن بوظائفها الموضوعة من أجلها.

والجدير بالملاحظة أن التحريات الأثرية كشفت النقاب عن وجود قرية صغيرة تقع خرائبها مقابل كدية غساسة، تدعى محليا بتاعرورت، وهو ما يوازي الكدية بالأمازيغية، لا يفصلها عن المدينة سوى مجرى واد حلوبة، بينما تشرف من ناحيتها الغربية على واد غساسة. والمعتقد أن الموضع كان امتدادا لمساحة غساسة على العهد المريني، إذا لم يكن النواة الأولى للمدينة.

تلك هي النظرة المخصصة لمدينة غساسة وتحصينات الكدية التي قال عنها ابن خلدون: "ومنهم غساسة وبقية منهم لهذا العهد بساحل بطوية، حيث القرية التي هناك حاضرة البحر ومرسى لأساطيل المغرب وهي مشهورة باسمهم"[58]. وهي في نفس الوقت المدينة التي ستتحمل مسئولية الدفاع عن ساحل قلعية، ولهذا السبب دبرت مليلة وسيلة اغتصابها في أقرب الآجال.

ولا بد من العودة إلى تصور الظروف الوطنية والمحلية المساهمة في تسهيل مهمة الإسبان. ونحن نعلم أن الأجنبي كان حريصا على اغتنام فرصة وفاة السلاطين، وفي حال غساسة كان محمد الشيخ قد توفي سنة 1504/910 دون اليوم والشهر. ولو كنا متمكنين من التاريخ الكامل لقلنا إن إسناد

(58) المجلد 6، ص. 233.

القلعة



خرائب غسانة مثلما أظهرتها الحرفيات

غساسة للدوق لم يكن بعيدا عن خبر تلك الوفاة وأنه كان أول رد فعل مباشر لها. بدت الفرصة المواتية بوصول الخبر إلى حاكم مليلة بضعف عدد الحامية بالقلعة الغساسية إذ أن أغلب الرجال كانوا خارج أسوار المدينة وعلى بعد منها. ففي يوم من أيام ذي القعدة أو ذي الحجة من سنة 911/ أبريل 1506 استولى حاكم مليلة على حين غفلة من أهلها على القلعة والمدينة معا[59].

وبالطبع وددنا لو أتاحت لنا المصادر مناقشة النصوص الإسبانية عن أسباب مغادرة الرجال للمدينة، فليس في مستطاعنا ولو بمجرد ربط خروج الغساسيين بحدث محلي أو إقليمي. أما الحسن الوزان فسرد علينا طريقة الاستيلاء بما يشبه احتلال مليلة، متعللا بانشغال السلطان المريني بثورة أحد أقربائه. وربما كان يعني مشاكل أقرباء محمد البرتغالي الحديث العهد آنذاك بالتولية[60].

نريد في ختام هذا القسم التعرف على ما قاله الإسبان عن الأطماع التي تسبق كل غزو، فما هي أبعاد تلك الأطماع التوسعية التي انبنى عليها احتلال كل من مليلة وغساسة حسب معطيات أواخر القرن الخامس عشر؟

تبين المصادر المعتمدة أن الأطماع تركزت على مزايا مليلة من ناحية الأهداف الاقتصادية والاستعمارية والدينية:

- أهمية الموقع الجغرافي: فمليلة تعد بموقعها بالشمال الشرقي من أهم أقاليم مملكة فاس، كما أنها مقابلة لمدينة ألمرية من ساحل الأندلس، وهي مجاورة في نفس الوقت لمملكة تلمسان[61].

---

(59) Pedro de Medina, *Cronica*, 51; J. Zurita, *Anales*, p. 321; A. Bernardes, *Historia de los Reyes Católicos*, chap. 104, p. 347.

(60) **وصف إفريقيا**. ص. 266. لا تختلف النصوص كثيرا فيما بينها. فالداعي إلى خروج الغساسيين من المدينة هو تارة للعمل وإلى أغراض أخرى، وتارة إلى البادية فقط، ومرة ثالثة إلى جهات غير معلومة.

(61) رسالة ثافرا، 25 أبريل 1494 AG.S. Negociado de Mar y Tierra I 1315
J. Zurita, *Historia del Rey D. Hernando* t. 5, p. 136.

ومليلة نقطة الجذب للتجارة الصحراوية، فهي واقعة على طريق تافيلالت، منطلق القوافل التجارية المتجهة نحو مدينتي فاس ومراكش أو إلى تلمسان وبجاية والجزائر. فبالقرب من مليلة تمر البضائع الصحراوية، كما أنها المحطة التي تفرغ فيها أحمال التمور وجلود الغزلان.

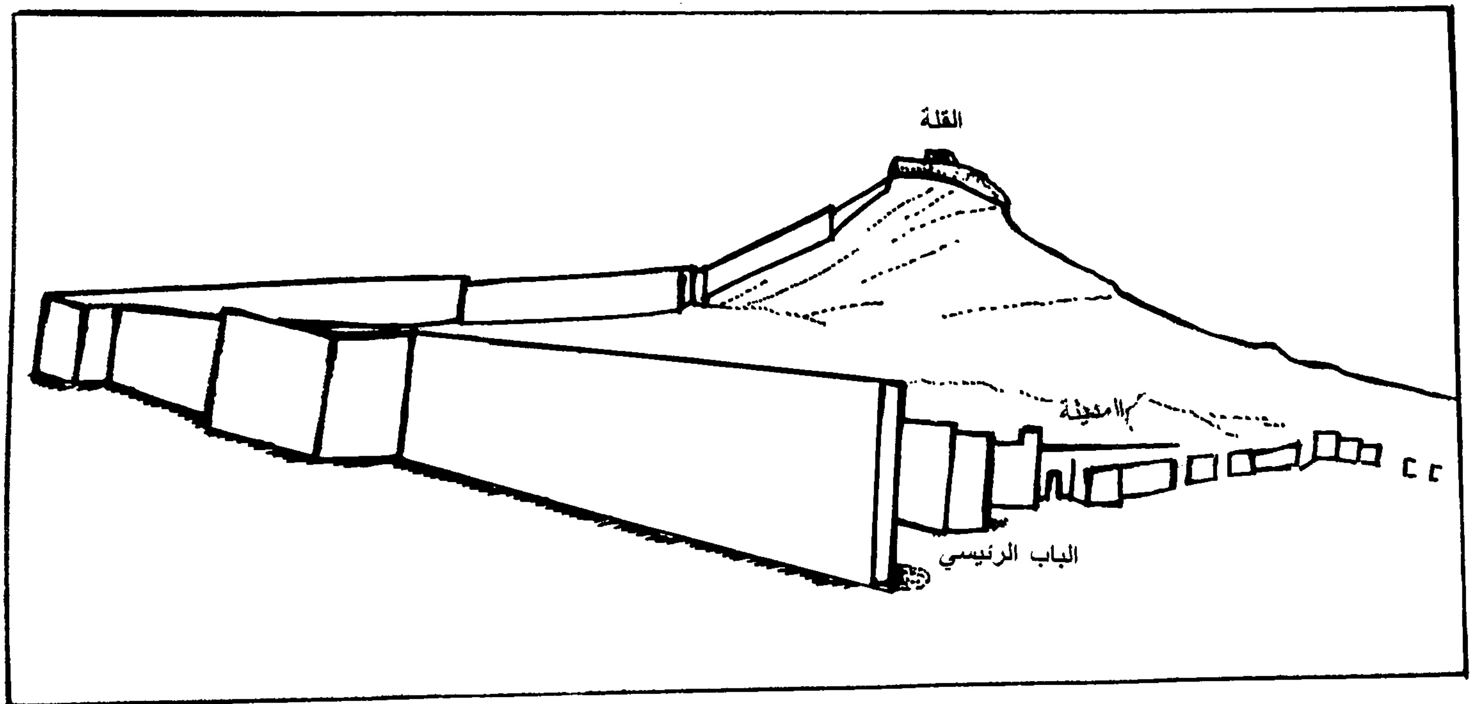
- البدء باحتلال مليلة ثم غساسة وباقي جبل قلعية، بل وجميع أراضي ملوية التي منها الزحف نحو تازا وفاس، وبذلك يتم الاستيلاء على أراضي المسلمين مثلما حدث لمملكة غرناطة[62].

- وتعمير مدينة مليلة بالمسيحيين سيساعد على جعل مرساتها قاعدة بحرية للسيطرة على ساحل تلمسان، علاوة على أنها ستكون ملجأ السفن والأسرى الفارين من الأراضي المغربية.

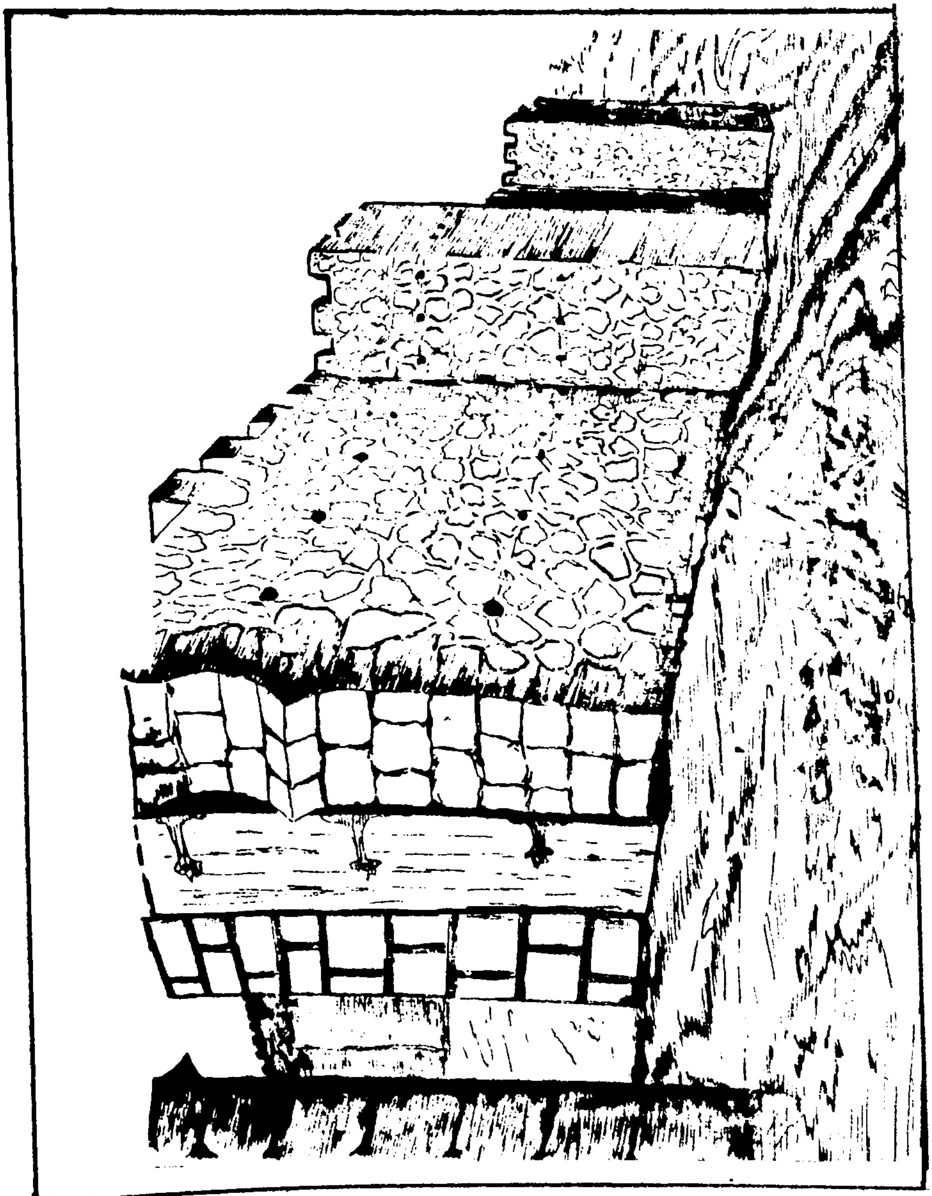
- سيكون احتلال مليلة درعا واقيا للسواحل الأندلسية، إذ أنها سترد أضرار القرصنة الموجهة ضد ساحل غرناطة. ولن يتأتى هذا إلا بالانقضاض منها على النقط الساحلية التي هي ملجأ رؤساء البحر.

ورغم ما اتسمت به هذه الأطماع من الخيال الواسع والأمل العريض، فإن الجزء الرئيسي من المخطط كان قد تحقق بالاستحواذ على كل من مليلة وغساسة. وبه تعرضت قلعية بأسرها لحصار بحري وتهديد بري مستمرين. فما هي الاستعدادات المغربية المحلية منها والوطنية للوقوف في وجه تلك الأطماع؟ الجواب عن هذا السؤال هو الذي ستتناوله المباحث المتبقاة من هذه الدراسة.

(62) رسلة ثافرا السابقة ؛ Barrantes , *Ilustraciones*, p. 479



محاولة استعادة رسم محيط غساسة



غساسة : باب المدينة

القسم الثاني

مقاومة الوجود الإسباني في مرحلتها الأولى

(1767–1497/1181–903)

(1)

المقاومة واجب يقع على عاتق قلعية

سيفضي بنا مثال مقاومة الوجود الإسباني بمليلة المحتلة إلى تلمس ظهور ميلاد الشعور الوطني المناهض للوجود الأجنبي بالريف الشرقي، لينضاف موازيا إلى ما لمسناه أثناء محاربة الوجود البرتغالي بالشمال الغربي المغربي[1]، دحضا للأطروحة الاستعمارية القائلة بتأخر ظهور الشعور الوطني إلى أواخر القرن الماضي[2].

لم يكن الإسبان بالنسبة للقلعيين عدوا جديدا يجهلون عنه كل شيء، بل وجدوا أمامهم خصما تقليديا تمرسوا على حربه قبل ذلك بالمشاركة في خوض المعارك الأندلسية الكبرى وانتظامهم في سلك الغزاة وحروب غرناطة فمنذ الوهلة الأولى وطدت قلعية عزمها على مقاومة الدخيل المعتدي[3]. فكيف استطاع أهل قلعية الصمود في وجه الغزاة والتمكن من إحباط مساعيهم

(1) أنظر في هذا الموضوع الأخير أطروحتنا: **مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور المغربية الشمالية المحتلة**، مرقونة، الرباط 1991.

(2) عد إلى ما ذكره جرمان عياش عن: "الشعور الوطني في مغرب القرن التاسع عشر"، جريدة **العلم** 1990/2/19 و 1992/3/12. وقد قدمنا التفاصيل عن موضوع "الوعي الوطني بالشمال الشرقي المغربي" بندوة المقاومة بالمغرب الشرقي بوجدة عام، 1995 وفي العرض الخاص "بالشمال الغربي المغربي" المقدم ضمن أعمال ندوة المنطقة الشمالية والكفاح الوطني المنعقدة بتطوان، أيام 4 -5 -6 ديسمبر 1996.

(3) كان مرسى مدينة غساسة محطة لنقل رجال الريف الشرقي إلى الأندلس خلال العصر المريني، نعرف منهم أبناء علي أمحلي التوزاني والحاج علي ماخوخ التوزاني. ابن خلدون، **العبر**، 7 /750. F. de Pulgar, *Crónica de los Reyes Catolicos*, p. 145

التوسعية؟ نعلم أن المقاومة لم تكن حدثا عشوائيا أو ظرفيا ومؤقتا، بل خلقت لنفسها هيكلا تنظيميا قارا مستندا إلى قاعدة شعبية متماسكة حرصت كل الحرص على عدم تمكين الأجنبي من التوغل في ترابها. فما هي خصائص المقاومة المغربية بقلعية؟

بدراسة موضوع المقاومة القلعية وتصنيف مختلف أمثلتها والتعرف على مراحلها وتنظيماتها خلال الفترة المدروسة حاولنا استخراج بعض الخصائص العامة المميزة لها. فالسند الشعبي هو الذي شكل قاعدة المقاومة وحامي نظامها وضامن استمرارها. فلم يسبق أن علمنا ابتداء من ميلاد المقاومة بإدخال أي تغيير على نظام القاعدة الجهادية، أو أنها تعرضت لتوجيهات خارجية عن الإطار المحلي فلا أثر بتاتا لتدخل الزوايا في نشاطها، بل كان هذا وذاك منضويا تحت لواء القاعدة الشعبية القلعية، دون استثناء الحامية المخزنية نفسها.

ومن المعلوم أن دور المخزن لم يكن غائبا عن الميدان الحربي بقلعية من عهد الوطاسيين إلى السعديين، إذ أن القائد المخزني القائم بقلعة تازوطا كان عليه أن يزاول مهمتين ووظيفتين متكاملتين: تمثيله للسلطة المخزنية المركزية ونيابته عنها في الدفاع عن التراب الوطني إلى جانب مشاركته بني قبيلته في تنظيم حركة المقاومة. ورغم نمو دور المخزن في حركة المقاومة منذ بداية الدولة العلوية، فإن الدور الشعبي بقي محتفظا بسماته الأساسية.

وتبين منذ الوهلة الأولى أن للمقاومة هدفها المعين لها. فبعد فشل التجربة الحربية الرامية إلى إيجاد وسائل طرد الأجنبي من وكره وإجلائه عن نقطة احتلاله اقتضى واجب المقاومة تركيز جميع الجهود لمنعه من التقدم خارج أسوار مليلة وغساسة داخل التراب القلعي،[4] وكلما حدث هذا فإن العبء الحربي كان يفرض التعبئة لإعادة الغزاة إلى مواضعهم داخل محيط الأسوار[5].

---

(4) الأمثلة التي جمعناها تحت عنوان الحد الأدنى من الجهاد الآتي الذكر.

(5) أدرجنا أمثلة هذا الصنف تحت عنوان: جهاد الأبراج الآتي.

بقي هذا الهدف ماثلا بذهن القلعيين متوارثا خلال الأجيال المتعاقبة دون أي تبديل، و لم تجبر قلعية عن التراجع عنه إلا في منتصف القرن الثالث عشر الهجري (19 م.)[6]. تجلى الهدف الراسخ في الثبات بمواقع الحراسة والمراقبة بصفة دائمة منتظمة. لقد كانت المقاومة مبدأ وشعار الحياة اليومية، لم تتخل عنه أخماس قلعية حتى في الظروف الوطنية الحرجة[7].

ولحركة المقاومة نظامها الحربي المميز لها، متمثلا أولا في خلق مركز قار للقيادة العليا بقلعة تازوطا ومراكز للمراقبة البعيدة المتمثلة في القمم الجبلية المشرفة على المدينة المحتلة[8]، ثم اختيار مركز للحراسة دائم دعي رباط مليلة. كان هذا النظام أس الحركة وعمادها. وبطبيعة الحال لم يكن هناك أي تقارب بين السلاح الأجنبي والمستعمل من طرف المجاهدين القلعيين، فلم يكن لهم من بد لاستعمال ما يعوض التفوق الإسباني باستغلال معرفة الوسط الطبيعي للميدان الحربي واستغلال عنصر مفاجأة العدو.

وعرف القلعيون أهمية الحصار الاقتصادي في الشؤون الحربية. فالخطة الحربية الأولى كانت اقتصادية الأصل، استهدفت حرمان الإسبان من الحصول على أدنى الضروريات من ماء وعشب وحطب وأقوات، نلمس آثاره في تقارير القرنين السابع والثامن عشر[9].

ولتقديم التفاصيل عن تلك الخصائص أفردنا لها كل القسم الثاني من هذه الدراسة وسنحاول من أجل ذلك سرد أمثلة المقاومة البارزة خلال القرن

---

(6) نقصد بذلك سنة 1859 حينما انتقل مغاربة قلعية بالنضال ضد الوجود الإسباني بمليلة إلى محاربة مشكل توسيع الحدود بمقتضى اتفاق تلك السنة.

(7) نشير إلى ما اتسمت به العلاقات المغربية الإسبانية نتيجة لاتفاق 1767 والسياسة المتخذة بعد فشل محاولة استرجاع مليلة ما بين 1774 و 1775. أنظر كتابنا: **سيدي محمد بن عبد الله وقضية مليلة المحتلة**، الرباط 1996، وما جاء بعد ذلك من استمرار جهاد قلعية.

(8) قمم سيدي أحمد الحاج ومتابل والقلعة والقرمود.

(9) رسائل حكام المدينة المحفوظة بأرشيف سيمنكاس وتقرير توفينيو إلى فليب الخامس بتاريخ 3 يناير 1659 م. والتقارير المقدمة لكارلوس الثالث خلال سنوات 1763 و 1764 و 1765.

الحادي عشر الهجري (17م.) والنصف الثاني من القرن التالي له، تمييزا لها عن أمثلة النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري (18م.)، تتصدر قمتها محاولة السلطان سيدي محمد بن عبد الله العلوي لاسترجاع مليلة[10]. وحرصا على إبعاد نمط التسلسل الزمني فضلنا تصنيف تلك الأمثلة حسب غاياتها وأساليبها بناء على التقسيم الآتي بيانه.

قلعية أحد ثغور المقاومة

أصبحت كدية غساسة منذ الوهلة الأولى نقطة الجهاد والمقاومة ضد الوجود الإسباني بمليلة، فبها شكلت بعض الجماعات الخارجة من مليلة بانضمامها إلى جماعات بني شكر ومزوجة نواة الحركة الجهادية الأولى تحت قيادة العدو شيخ بجوية.

كلفت أول ما كلفت به الجماعة بمراقبة تنقلات الإسبان خارج أسوار المدينة. وأفرادها هم الذين نظموا أول هجوم مغربي ضد الإسبان في شهر ديسمبر من سنة الاحتلال استشهد على إثره شيخ بطوية وحاكم غساسة من قبل الوطاسيين[11].

تضاءلت كل فرصنا للتعرف على هوية رئيس المجاهدين شيخ بطوية، وقد سبق أن قلنا إننا نعتقد جازمين أنه من أهل الريف الشرقي حسبما يفيد به إطار بطوية آنذاك، إن لم يلبث حاكم غساسة قبل احتلال مليلة فقد أصبح بعد الحدث الشخص الوحيد البارز بالمنطقة من قبل الوطاسيين.

وكان استشهاد شيخ بطوية في شهر جمادى الأولى عام 903/ديسمبر1497 سببا لازدياد قلق محمد الشيخ الوطاسي على الوضع بقلعية المهددة بتفاقم خطر الوجود الأجنبي، ومن أجل ذلك بعث إليها في غضون الأشهر التالية من نفس السنة على أغلب الترجيح اثنين من أشهر قواده:

---

(10) الحصار المغربي لمليلة بين 9 ديسمبر 1774 و 16 مارس 1775.

(11) يساوي الفرسخ الإسباني 5572،70 متر، فالمسافة المعنية هي 8258،85 متر.

- ابن الفيلالي الذي لا نعرف دوره داخل البلاط الوطاسي. تحصن بقلعة تازوطا بنحو أربعمائة من الفرسان ونحو ألف من المشاة. وسيكون هذا أول علمنا بعودة الحياة إلى قلعة تازوطا بعد قرون ثلاثة من الاختفاء والخمود أي منذ تخريبها عام 692 هـ.

- علي العطار الأندلسي قال عنه الإخباري لورينثو دي باضيا السابق الذكر إنه ابن قائد مدينة لوشة [12]. وبناء على ذلك فهو علي بن إبراهيم العطار، كان أبوه أشهر قواد ابن الأحمر أبي عبد الله المخلوع، وهو معروف بأعماله الحربية أثناء الدفاع عن غرناطة ولوشينة [13]. كان من أولئك المرافقين للسلطان ابن الأحمر المار بغساسة، قبل انتقاله إلى فاس. ومن هناك اختار محمد الشيخ ابنه علي لتفقد أحوال تدهور الجهاد بقلعية. استقر علي العطار بغساسة لتنظيم ما اختل من شؤونها وإصلاح الضروري من التحصينات.

وإلى قوات القائدين الوطاسيين انضافت لفوف من المجاهدين القلعيين بزعامة من سماه "خير ونمو ثوريتا" أحمد مزوتيين (Maçotebin)، ومعه خمسمائة من الفرسان وستمائة من الرجالة. اعتقدنا فيما سبق أن الاسم المقدم لنا موافق مع كنية المزوجي، ولكننا وجدنا اسم Maçote شائعا بشرق الأندلس في أواخر القرن التاسع الهجري، مما جعلنا نميل إلى أندلسيته [14].

والمفهوم من تعبئة القوة الجهادية الحاضرة بقلعية بعدد يزيد من الفرسان عن ألف فارس وعدد من الرجالة يفوق ألف وستمائة راجل أن تعليمات محمد

---

(12) *Cronica de D. Felipe I°*, p. 49.

(13) J. Zurita, *Anales de la Corona de Aragon*, pp. 11. 28. 71. 226; F. de Pulgar, *Cronica del Rey D. Hernando*, p. 136.

(14) وذلك بالنسبة لحوليات سنة 1491 أمثال: Maçote el Cabri و Maçote Goçey و Maçote Alandaraxi و Maçote Aben çafi. حسب صاحب « Estudios Mudejares y Moriscos »، بمجلة *Sharq Al- Andalus* عدد 12/1995، صص. 113. 114. 121.
والاسم نفسه مدرج ضمن قائمة كييرمو كوثالبيس بوسطو الموريسكية في كتابه: *Los Moriscos en Marruecos*، غرناطة 1992، ص. 80.

الشيخ كانت تهدف إلى العمل لاسترجاع مليلة. فبتلك القوات تقدم القواد الثلاثة نحو أسوار مليلة، غير أنه سرعان ما تبين أن المهمة لم تكن سهلة بسبب مناعة تحصينات المدينة بعد أن متن منها الإسبان الواجهة الغربية بالأحجار والعوارض الخشبية التي جاءوا بها خصيصا لذلك، بالإضافة إلى فعالية الأسلحة النارية التي لم يكن بيد الوطاسيين شيء منها.

وبناء على ذلك انتقل الموقف الوطاسي إلى مرحلة اتخاذ التدابير الدفاعية أولا ومنع الحامية الإسبانية من التسرب خارج الأسوار بضرب الحصار على المدينة المحتلة ثانيا. ومن أجل ذلك رد محمد الشيخ الجواب إلى علي العطار يأمره بتحصين كل من غساسة وتازوطا، وأن يقوم بالمثل بإعداد قوة أخرى بوادي بطوية تدعيما لحركة الجهاد[15].

ونعتقد أن من جملة الترتيبات المعدة للحصار، تلك التي تمثلت في انضمام الفارس قائد حصن أمجاو إلى القوة الجهادية في بداية الفترة وبعد سقوط غساسة عام 1506، بمن كان معه من رجال بني سعيد وبني توزين[16]، مما يفهم من أمر محمد الشيخ بإعداد قوة حربية ببطوية[17]. ونقف هنا على ظهور فكرة العودة إلى اتخاذ قلعة تازوطا قاعدة عامة للجهاد وقد سبق تقديم مزايا الموقع وأهميته. والجديد في التنظيم هو تأسيس نقط المراقبة والحراسة الدائمتين:

ـ تمثلت نقط المراقبة في إعداد القمم المشرفة على مليلة من سفح جبل قلعية الشرقي، وتوجد في مقدمة تلك النقط القمة المعروفة منذ ذلك الوقت باسم متابل الناتئة بجبل القرمود (حاليا باسبيل) ثم قمة القلعة، المعروفة حاليا بالقلة[18].

(15) بطوية القرن العاشر الهجري كانت تعني الأراضي الممتدة بين واد كرط ونهر النكور، وما يندرج ضمنها من قبائل بني سعيد وتافرسيت وتمسمان وبني أوليشك وبني توزين. أنظر حسن الفكيكي، مادة "بطوية" **بمعلمة المغرب**، 1271/4.

(16) ح.الفكيكي، مادة "أمجاو" **بمعلمة المغرب**، 688/8.

(17) L. de Padia , *Crônica de D. Felipe I°*. Chap. 12 p. 49.

(18) J. Zurita , *Anales de la Corona de Aragon*, p. 136.

- رباط جهادي قار مكلف بحراسة الحدود الخارجة عن أسوار المدينة، أي منع الإسبان من الخروج إلى الفحص الغربي للتزود بالماء والحطب وحاجات أخرى. غير أن تنفيذ الفكرة لم يتضح إلا بعد اغتصاب غساسة.

وأغلب الاعتقاد أن تلك التنظيمات لم تتح لها فرصة النضج والاستقرار بصورة رسمية، إذ أن علي العطار لم يدم مكثه بالناحية طويلا، نتيجة حاجة محمد الشيخ الوطاسي إلى كفاءته لمواجهة الخطر البرتغالي المهدد للسواحل الأطنتيكية.

وليس في إمكاننا ضبط تاريخ العودة إلى فاس ولكننا نعلم أن سياسة البرتغاليين كانت قد اتخذت صورتها الجديدة منذ بداية القرن السادس عشر ضد مدن أسفي وأزمور وإمازيغان[19]. وسيكون هذا التخلي الذي قدرنا له تاريخ ما قبل عام 1504/910 فرصة ثمينة للإسبان لضبط مناورات اغتصاب غساسة، مما ترتب عنه تنظيم المقاومة بشكل أكثر جدية.

أسس تنظيم المقاومة

نصادف في التعريف بمنظم حركة المقاومة بالشمال الشرقي المغربي إشكال عدم التصريح باسمه، مما حملنا على البحث للترجيح ورفع الالتباس فالذي وجدناه عند الحسن الوزان ينحصر في قوله:

" فطلب أحد قواد ملك فاس، وهو من أصل أندلسي وعلى جانب كبير من الشجاعة أن يأذن له بإعادة بناء تازوطا، فأذن الملك له بذلك وأعاد بناء المدينة"[20]. فمن سيكون القائد الغرناطي المشار إليه؟ وبحثا عن الجواب نضع نصب أعيننا عدة اعتبارات:

- من الضروري أن يكون القائد الأندلسي المطلوب الكشف عن هويته من الجماعة التي حظيت بمزيد من الثقة لدى البلاط الوطاسي، إذ ليس من

---

(19) عن موضوع التدخل البرتغالي أنظر أحمد بوشرب، **دكالة والاستعمار البرتغالي**، البيضاء 1984، ص. 173 وما بعدها.

(20) **إفريقيا** ص. 266.

الحكمة وحسن التدبير السياسي إسناد حكم إقليم كرط المتطرف في الشمال الشرقي إلى من لا يطمأن إلى جانبه[21].

- كان الشخص الحائز على موافقة محمد البرتغالي ورضاه من القواد المشهورين في الشؤون الحربية الغرناطية، بناء على أصله الأندلسي وممن رافق ابن الأحمر إلى مدينة فاس.

- واستنتاجا من تطوع القائد الأندلسي لتحمل مسئولية تنظيم الجهاد بقلعية نفترض أن يكون من العارفين للمسألة والبلاد. وانطلاقا من مرافقته لأبن الأحمر سيكون حتما من المطلعين على أحوال قلعية أثناء الاستقرار القصير بها خلال سنة 1493 م.

وإذا كانت عملية إزاحة الستار عن وجه القائد الأندلسي من الأمور العسيرة فإننا نرجح أن يكون من أسرة العطار قائد لوشة المعروف إبراهيم العطار مستندا إلى بعض الملاحظات:

- لقد كانت أسرة العطار الأندلسية سندا هاما للسلطان أبي عبد الله أثناء حروب غرناطة إلى نهايتها. وبمجرد ما علم محمد الشيخ الوطاسي بنزول الإسبان بمليلة بادر إلى إرسال علي بن إبراهيم العطار، مثلما أسلفناه، برفقة ابن الفيلالي وأحمد مزوتبين الأندلسي في محاولة لاسترجاع المدينة.

اهتم علي العطار خلال إقامته القصيرة بقلعية ما بين آخر 1497 وما قبل 1504 بوضع القواعد الأولى للمقاومة فتم تحصين غساسة وقلعة تازوطا وخلق محطات للمراقبة والحراسة. غير أن مهام أخرى أستدعي من أجلها بفاس حالت بينه وبين استكمال عمله بقلعية.

والملاحظ أنه بعد سبع وعشرين سنة من احتلال الإسبان لغساسة بعث أحمد الوطاسي قائده المشهور أحمد العطار الأندلسي إلى قلعية بمناسبة استرجاع القلعيين لمدينة غساسة عام 1532/940. أليست هذه شهادة نستدل بها على

---

(21) سبق لمحمد الشيخ الوطاسي أن فوض أمور الجهاد لرؤساء المقاومة بالشمال مما يماثل شأن قلعية. أنظر أطروحتنا: **مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور الشمالية المحتلة.**

احتكار أسرة العطار شؤون الجهاد بقلعية خلال فترة 1497و1532 وتبعا لذلك لماذا لا يكون المتطوع لتنظيم شؤون المقاومة إثر احتلال غساسة سنة 1506 هو علي العطار لتتميم عمله السابق؟

استقر القائد علي العطار في منصبه كقائد الجهاد بقلعة تازوطا برفقة من جلبهم معه من الأندلسيين، فانشغل أول الأمر بإعادة بناء القلعة ثم بإعداد أسس المقاومة الشعبية.

لا نعرف شيئا عن عدد الأندلسيين المرافقين لعلي العطار، غير أن المعلومات التي تكونت لدينا خلال المرحلة التأسيسية بينت أن الطاقة الإيوائية للقلعة لم تقل على ما يظهر عن الستين و لم تتجاوز المائة فارس[22]. ولا شك أن القائد الغرناطي استند كل الاستناد إلى القوة التي وفرتها له أخماس قبيلة قلعية. ونقدر أن المدة التي استغرقها تنظيم المقاومة وبقاء علي العطار بقلعية قد تراوحت بين 1506، سنة احتلال غساسة وسنة 1516 م. وهي سنة أهبة صاحب الخبر الحسن الوزان لمغادرة المغرب نحو الجزائر فتونس وبالتالي انقطاع أخبار قلعية عنه ، وكان آنذاك بدبدو من المغرب الشرقي.

واعتمادنا في استخراج هذا الموضوع على مجمل الاستنتاجات المستخلصة من جميع المصادر المشاركة في تركيب أجزاء هذا لقسم وهو القليل النادر مما كنا نطمح للوصول إليه[23]. وتأتي أهمية هذا التنظيم من ثبات أساسه وصلابة هيكله أمام كل صعوبات القرون التالية إلى حدود سنة 1859/1276، مما يجعل منه أبرز أنواع التنظيمات في تاريخ المقاومة المغربية للوجود الإيبيري على الإطلاق، إذ أن صموده امتد على مدى ثلاثمائة واثنتين وستين سنة من العمل الجهادي المتواصل.

---

(22) الستون فارسا هي التي كانت بمعية القائد أعراص سنة 1550. رسالة مليلة 3 فبراير 1550. والمائة فارس كانت رفقة القائد بوعلو سنة 1552. رسالة مليلة 27 يناير 1552.

(23) كان آخر ما كتبه عن غساسة: "وتقوم اليوم بين نصارى غساسة ومسلمي تازوطا حرب دائمة وغارات متوالية، تكون الدائرة يوما فيها على هؤلاء ويوم أخر على أولئك". **وصف إفريقيا**. 267/1.

تتجسم الأسس التنظيمية في مختلف وظائف رباط مليلة الذي كان منوطا بمهمة الحراسة عن قرب من مدينة مليلة ومن ورائه مختلف المواقع التي سيتم التعرف عليها في مكانه فيما يأتي ضمن الوسط الجغرافي لحركة المقاومة وحسبنا الآن التعرف على مختلف التنظيمات الهيكلية.

النوبة: لم يكن نظام التناوب أسلوبا جديدا على قلعية فهو مندرج ضمن الحلول الوسطى التي تلجأ المجتمعات السكانية إليها لحسم خلافات الجوار وتوزيع المياه والأراضي الجماعية واقتسام مسئوليات الدفاع عن الجماعات المعرضة لخطر مشترك. وقد احتلت درجة مسألة الوجود الإسباني بقلعية قمة تلك الأخطار.

حث الشعور الجماعي أخماس قلعية على توزيع مسئولية الدفاع في شكل التناوب ليشمل بني شكر ومزوجة وبني بو يفرور والكعدة وبني بو كافر. إلا أننا لاحظنا أن أقساط النوبة كانت تأتي على أربع دفعات بدل الخمس. ويعود التقسيم الرباعي إلى ضآلة عدد سكان خمس بني بو كافر، فهو لم يتجاوز ست قرى، مما اقتضى ضم حصته من الرجال إلى خمس الكعدة المجاور. ولم نستطع التعرف بوضوح على الترتيب المتبع في تقديم الحصص الواجبة على كل قسم من الأقسام الأربعة. وكل ما توصلنا إليه أن تسلسل تلك الأقساط لم تتبع الخط الجغرافي الدائري، بل أختير له السير على خط منكسر. فمن خمسي مزوجة وبني شكر الواقعين على خط المواجهة تنتقل النوبة إلى بني بو يفرور الواقعة جنوب أراضي قلعية، ومنها أخيرا إلى الكعدة وبني بو كافر الواقعين بالجهة الغربية خلف خط المواجهة.

وفي أغلب الاعتقاد أن القلعيين لم يراعوا نسبة الفرق المكونة لكل قسم أثناء تقديم حصة المشاركة لرباط مليلة، إذ أن التفاوت الفعلي موجود بينها فأصغر المجموعات هي بني شكر(20 مدشرا) تليها مزوجة (24 مدشرا) ثم بنو بو يفرور(27 مدشرا) وأخيرا اتحاد الكعدة وبني بو كافر (30 مدشرا)[24].

(24) كل المعلومات مقتبسة من وثائق القرن الثاني عشر الهجري.

لم نقف على الحصة المفروضة على كل قسم من الأقسام عدا ما ذكره أحمد بن القاضي الكعداوي في آخر القرن الحادي عشر الهجري، مشيرا إلى حصة بلغت العشرين فارسا المخصصين للحراسة اليومية، وهو عدد قريب من المتوسط الحسابي الناتج عن تقسيم عدد المداشر البالغ مائة وأربعة مداشر على الأقساط الأربعة[25].

وبالطبع لا نقصد سوى الحصة اليومية الواجبة كحد أدنى. ويمكن التحدث عن المجموعات الاحتياطية التي كانت تظهر بالميدان وقت الأزمات، مما سيتبين لاحقا في عدد من المناسبات طوال الفترة المدروسة.

والمعلومات غير كافية للتوصل إلى المدة الزمنية المخصصة لحراسة كل فريق. ونرجح أنها كانت متباينة حسب فترات السنة تبعا للأشغال التي كان يتطلبها الموسم الفلاحي. فقد وجدنا أن مدة الحراسة في شهر أبريل لم تتجاوز الثلاثة أيام[26]، اعتبارا لاقتراب موسم الحصاد، بينما امتدت الفترة إلى أكثر من ذلك في شهر يونيه[27]. ونقدر أن مدة الحراسة ستتناقص أيضا خلال موسم الحرث إلى ما يماثل المقرر في موسم الحصاد. وقد قمنا بتحديد ترتيب الحراسة ومدتها خلال القرن النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري وقدمنا النتائج في جدول عام.

تأطير الحراسة: للحراسة برباط مليلة أطرها الممثلة أولا في شخص رئيس المجاهدين المدعو بالمقدم، وهو المشرف على العمل الجهادي ورئيس الفرقة التي يمثلها من التقسيمات القلعية الأربعة خلال مدة النوبة ويساعده المجاهدون المعروفون بالغزاة. يتمتع المقدم أثناء رئاسته بالرباط بكامل السلطة في تدبير أعماله الجهادية، ولم يكن من شأن باقي الأقسام وحتى قائد قلعية التدخل في

(25) **تقييده**، مخطوطة خ.ح.ر.

(26) *Diccionario Geografico de Espana y sus Posiciones de Ultra-Mar*, Madrid 1848, t. I, p. 59

(27) أخذت المعلومات من وثائق يمتد تأريخها بين 1790 و 1797.

مهامه. ولا ضير على مقدم الحراسة من مخالفة عمل المقدمين الآخرين، فله الحرية في تنظيم الغارات أو الإحجام عنها[28].

وكانت مهمة المقدم دقيقة، إذ أنه يضع نصب عينيه كل الخطط الكفيلة بمنع الإسبان من تجاوز الأسوار إلى الميدان المجاور والحيلولة بينهم وبين استيفاء أغراضهم من المحيط الخارجي. وعلى الرغم من أننا لا نتوفر على وثائق المجاهدين فإن قراءة الوثائق الإسبانية وما تسمح به من تتبع الأعمال الجهادية يوحي بأن مقدم الرباط كان على علم في غالب الأحيان بما يعتزم حاكم المدينة القيام به في اليوم أو الأيام الموالية. وعلى ضوء ذلك كان يعد رسم الخطتين الدفاعية والهجومية معا[29].

وأغلب الأخبار كانت تصل إلى مقدم الرباط ليلا، ويبادر حسب معطياتها إلى توزيع المهام قبل طلوع فجر اليوم الذي يراه ملائما لاقتحام الميدان وقبل حلول موعد خروج الإسبان اليومي المعتاد ما بين الساعة الرابعة والخامسة صباحا تبعا للفصول السنوية[30]. وكان من واجب مقدم الرباط الإسراع لإخبار قائد تازوطا وقبيلة قلعية في نفس الوقت بكل وضع جديد مرتقب يتجاوز طاقة رباط الحراسة، فمما أدهش الإسبان في كثير من الأحيان سرعة انحدار الإغاثات القلعية من الشعاب المجاورة[31].

وقد قدم لنا أحمد بن القاضي في تقييده مثالا حيا عن بعض مقدمي الربع الأخير من القرن الحادي عشر الهجري (17 م.)، منهم محمد بن مسعود القيطوني وابن عمه محمد بن سعيد القيطوني، وهما نموذجان من النباهة والفضائل الشخصية.

(28) المراسلات: 6 و 16 يونيه 1790؛ 14 مارس و 26 يوليوز 1791؛ 4 يوليوز و 10 غشت 1793؛ 24 يناير. 1 فبراير 1794؛ 27 يونيه 1797.

(29) على سبيل المثال ما قدمته الرسائل التالية من تلك المعلومات: 5 يونيه 1549؛ 14 شتمبر 1550؛ 1 يونيه 1551.

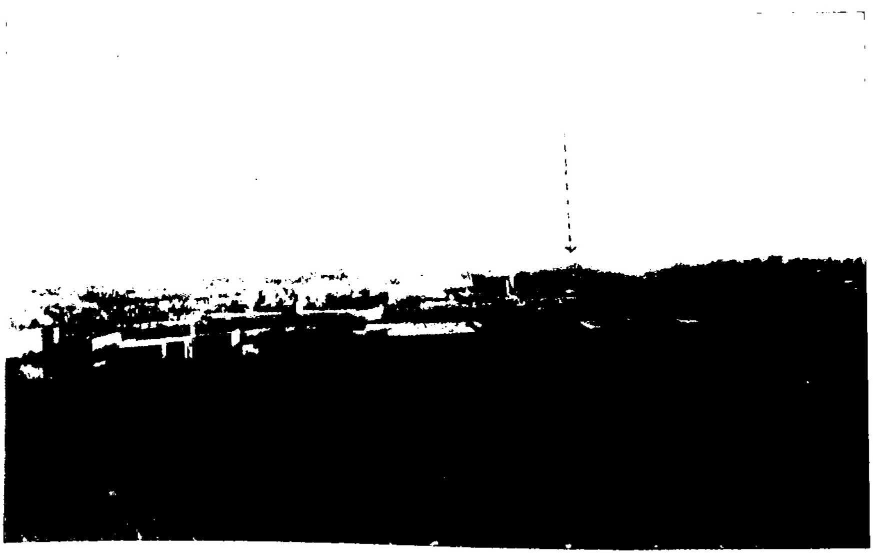
(30) حددت رسالة 15 أبريل 1564 الساعة الخامسة. S. I.H.M. Série Espagne, t. I p. 51.

(31) مثال ما تقدمه رسائل مليلة: 16 مارس 1555 ؛ و Zurita في كتابه: *Historia* I/51

المستوى الحربي: لم يكن هناك أي مجال للمقارنة بين سلاح الإسباني ونظيره المغربي، سواء كان ذلك في التقنيات الحربية أو الأسلحة غير أن ذلك التفوق الكلي لم يمنعه من التصدي برمحه لأفواه البنادق والمدافع خلال ما يزيد عن نصف القرن.

تألف سلاح القلعي من الأدوات الحربية التقليدية، لذا ركز اعتماده على استغلال الوسط الطبيعي الذي وضع بين يديه مبادرة الهجوم المفاجئ والتراجع السريع. ولم يتعرف المجاهد القلعي على السلاح الناري الخفيف إلا في منتصف القرن العاشر أثناء قيادة علي أعراص الثانية(32).

تعزز موقف رباط مليلة منذ التعرف على السلاح الناري، غير أنه لم يتمكن من مجاراة الأجنبي في تنويعه وتطوير فعاليته، فلم يدخل المدفع إلى الميدان من طرف المغاربة إلا بعد مضي قرن ونصف القرن على عهد المولى إسماعيل.



مليلة كما تشاهد من بني انصار

(32) رسالة 16 مارس 1555 هي التي أعلنت عن استعمال القلعيين البنادق لأول مرة.

(2)

الوسط الجغرافي لحركة المقاومة

لن يخل ما قدمناه في القسم الأول من الوصف الطبيعي لقلعية لصالح أرضية الخطوط التاريخية الكبرى بما نعتزم على بسطه في مستهل هذا القسم خدمة لإطار حركة المقاومة وحده، إذ أن ميادينها ومختلف مواقعها الحربية ستظل بؤرة هذه الدراسة ومدارها.

قلعة تازوطا قلب المقاومة

كانت قلعة تازوطا مع تعدد الأسماء التي عرفت بها ملجأ السكان وقت الأزمات، يدعوهم إلى ذلك استراتيجية الموقع وحصانته الطبيعية. وقد مرت بنا الأمثلة على ذلك خلال فترة ما قبل المرينيين الذين أعادوا الخراب إلى القلعة مرة أخرى. ولم تتأت فرصة استعادة عمرانها إلا في بداية القرن العاشر الهجري على يد الأندلسيين المنظمين لحركة الجهاد بقلعية.

ولا شك أن القلعة وهي تستقبل الأندلسيين الموالين لمحمد الشيخ الوطاسي ثم ابنه محمد البرتغالي كانت رسومها المرينية آنذاك بارزة. ومهما تكن الابتكارات التي سيلجأ البانون الجدد إلى إحداثها فإنها لن تتمكن من تقديم تغييرات جوهرية عن المعروف من تقاسيم العمران الرئيسية.

تشغل الخرائب الحالية المرينية الوطاسية الشكل مساحة تصل بالتقريب إلى خمسة وعشرين ألف متر مربع، يحتل رسمها العام القسم الغربي من الهضبة الممتدة مسافة كيلومترين ونصف. ويفرض امتداد الهضبة نحو الشرق أن تكون وجهة القلعة شرقية يحميها من تلك الجهة سور تصل نهايته إلى حافتي الهضبة، شمالها بجنوبها بطول يصل إلى مائة وتسعين مترا، وهو بدون شك أهم رسوم

القلعة كلها بامتداده وعلوه الذي يدل عليه الجزء القائم الماثل للعيان في بداية الفترة الاستعمارية، حسبما دلت عليه الصور الملتقطة[33].

ويطل من السور الشرقي بابان، يقع الأول منهما وهو الثانوي على مسافة نحو خمسين مترا من نقطة ابتداء السور من الجهة الجنوبية. والملاحظ أن الباب أقيم على شكل مخالف للمعهود، إذ أنه أعطي لانفتاحه الوجهة الجنوبية الشرقية بدل الشرقية الموافقة لخط امتداد السور.

والظاهر أن الباب كان محميا بواسطة برج، وهناك من الأنقاض ما يدل على سبق وجوده. وفي أغلب الاعتقاد أن هذا الباب الثانوي كان موضوعا رهن إشارة أهل المرافق العمرانية المشيدة بالقسم الداخلي الجنوبي من القلعة المعروف بالقصر المريني.

والملاحظ كذلك أن المرينيين لم يختاروا لباب القلعة الرئيسي المسافة الوسطى من امتداد السور، إذ أنه يبعد عن حده الجنوبي بنحو سبعين مترا. وربما عاد انزواء الباب إلى عدم ملاءمة سطح المسافة الوسطى للتحرك السهل نتيجة بروز الصخور الصماء من الحجم الكبير. والدال على أنه المدخل الرئيسي يبينه اتساع عرضه المقدر بنحو أربعة أمتار ووجود برج مستطيل الشكل كبير، علاوة على أنه منفتح على الممر الواسع الفاصل بين المرافق الشمالية والجنوبية.

وقد تطلب وجود عدة فجاج على المنحدر الصخري الذي ينتهي إليه امتداد السور الشرقي من الزاوية الشمالية تقوية تحصينات ذلك الجانب ببناء برج كبير قريبا من تلك الزاوية، وهو مربع الشكل قدرت مساحته بنحو مائة متر مربع. وتمتد الحافة الغربية على شكل نصف دائري ارتفاعها يزيد على

(33) لم يسبق لأحد أن قدم دراسة أركيولوجية عن القلعة، وكل ما نقدمه هنا معتمد على المحاولة الفردية، كنتيجة من نتائج زيارتنا للمكان عامي 1975 و 1976. ويعود المستخرج من المقاييس إلى استعمال الخطوة كوحدة والاستعانة بسلم الخرائط والرسوم. أما الصور فقد نقلت من مجلة *revista de las tropas coloniales* . *Africa*، عددا أبريل وماي 1930.

عشرين مترا يجعل منها حاجزا طبيعيا، غير أن هذا لم يمنع من إقامة سور منخفض مساير لخط الحافة الجنوبية المشرفة على الفوهة البركانية بانحدار عمودي الشكل.

وتتوارى خلف السور الشرقي أطلال الحصن الداخلية التي لا يظهر منها سوى ركام من الأحجار. ويظهر مما تبقى منها أن المساحة كانت مقسمة إلى قسمين:

شمالي: يظهر من شكله الحالي أنه لم يكن مخصصا للسكنى. فامتداد المباني على شكل مستطيل من الشرق نحو الغرب، ووجود الواجهة الجنوبية منها منفتحة، يحمل على الاعتقاد أن المساحة كانت حضيرة للدواب. ومثل هذا لا يمكن أن يخلو منه حصن من الحصون، سيما وأننا نعلم أنه كان يأوي نحو مائة من الخيل.

جنوبي: تمتد مبانيه بشكل مواز للحافة الجنوبية. ومن قبيل الجزم نقول إنها المرافق التي أشار إليها ابن خلدون بالقسم المريني، مقر إقامة منصور بن أبي مالك قائد تازوطا المريني المطرود من طرف الأخوين عامر وعمر الوطاسيين خلال اعتصامهما بالقلعة [34].

يتألف القصر المريني من مجموعة من الغرف ذات الحجم المتوسط والكبير، ولا تسمح حال الاندثار التي توجد عليها حاليا سوى بالتعرف على عشر منها. وتنتهي المباني القائمة في جهة الشرق بباب ذي وجهة شمالية، ومنه يستمر خط السور لينحرف نحو الجنوب الشرقي ويتوقف ابتداء من نقطة خط السور الخارجي بعد انطلاقه من الزاوية الغربية لينحرف هو بدوره نحو الجنوب الغربي في اتجاه مدخل القصر من الباب الغربي السري.

وإلى هذا الباب السري أشار الحسن الوزان الذي كان على اطلاع جيد بالمسلك وبمزاياه الحربية. شق المسلك على الجانب الغربي من الهضبة عند استدارته نحو الشرق وسط صخور صماء، ولا يسمح بالمرور إلا لشخص

---

(34) سبقت الإشارة إلى حصار المرينيين للمتمردين بحصن تازوطا. ابن خلدون، **العبر** 6، 311.



الباب الرئيسي

واحد فقط، وهو متدرج على مسافة نحو ستين مترا. وتوجد بالمسلك آثار درج مبلطة بالحجر الجرانيتي. ومع صعود الدرج نصل إلى الباب السري المحمي ببرج صغير. وهذا الباب هو الذي استعمله الأخوان عامر وعمر للفرار إلى تلمسان من نقمة يوسف بن يعقوب المريني بعد تمردهما عامي691-692 هـ.

كان من الضروري أن يحسب المرينيون الحساب لتوفير المياه داخل الحصن. وقد وجدت خارجه عين غزيرة على بعد منه بنحو أربعمائة وخمسين مترا مما يلي الشرق. والمنبع مصدر من مصادر واد إزرورن، رافد واد المدور، وإليه أشار البكري[35].

غير أن خزن المياه كان ضروريا، ولتلك الغاية أنشئ خزان ماء كبير عميق يوجد حاليا في حال ردم تام، يصل عمقه إلى خمسة أمتار[36]، وهو واقع بجوار الباب الغربي السري، شيدت بمقربته قناة طولها نحو ثلاثة أمتار منحدرة بوجهتها الجنوبية نحو فوهة الجب. وإلى هذا الخزان أشار الحسن الوزان بقوله: "وليس بداخل المدينة ماء غير ماء الخزان"[37].

ذلك هو حصن تازوطا الذي سيظل مريني الشكل رغم استعادة حياته العمرانية في أوائل القرن العاشر الهجري. ووقوعه في مستوى وسطي بجبل قلعية أو أكركور كما يسمى حاليا يجعله مرتبطا بكل من مليلة شرقا وغساسة شمالا.

مراكز المراقبة

تطلب الحذر من جانب حاكم تازوطا تنظيم مراقبة دائمة وجعله من المهام الأكيدة لرصد تحركات جنود مليلة وغساسة، لذلك أعيد اختيار القمم المقابلة للمدينتين المحتلتين لتلك الغاية:

---

(35) **المغرب**، صص. 89. 90.

(36) A. Ghirilli, « Apuntes historicos sobre las ruinas de Tazuda », *Africa*, Mayo 1930, p. 36

(37) **وصف إفريقيا**، ص. 267.



حصن تازوطا: جانب من السور الشرقي

متابل: هكذا سماه الإخباري الإسباني خيرونمو دي ثوريتا[38]، وهو اسم محلي لا شك فيه، غير أن التحويل الطارئ على نطقه لم يسمح لنا برده إلى أصله[39]. تتألف القمة من مساحة مسطحة صغيرة معلقة بسبب الانحدار الشديد من جهات ثلاث، ولا يمكن الصعود إليها إلا من جهة الغرب وتكفي المساحة لبناء برج صغير، كان قائما في بداية القرن العاشر الهجري حين أمر ابن الفيلالي السابق الذكر بتحصينه.

ووكلت مهمة المراقبة عن طريق النوبة إلى رجال المداشر المجاورة التي يمكن ترشيح الموجود منها بالمقربات أمثال إحبصاتن المستقرين بالمنحدر الجنوبي من القمة وإحدادن السبت الذين بالجانب الغربي وأهل جبل القرمود الواقع جهة الشمال.

تظهر القمة من مليلة وكأنها قلعة شاهقة بعلو نحو ثمانمائة متر. وترجع أهميتها إلى إشرافها على مليلة بمسافة خمسة كيلومترات، وإمكان مراقبة اقتراب السفن إلى الساحل القلعي الممتد من البحر الصغير إلى رأس هورك.

القلعة: سماها ثوريتا أيضا كذلك وهي القمة المعروفة حاليا بالقلة يختلف شكلها الطوبوغرافي عن شكل قمة متابل بالارتفاع (514 م.) ورقعة سطحها الواسع المستوي، وهي ترتفع بجوار القمة السابقة ولا يفصلها عنها سوى مجرى واد تاغزوت. أقيم البرج لمراقبة منخفض بني أنصار المتصل بفحص مليلة وساحل البحر الصغير، ابتداء من ممر تاليوين. ولا تظهر اليوم آثاره. ويقيم بجوار القلعة مدشر الرتابة وأولاد صالح وأولاد ميمون، فعلى أهل تلك المداشر كانت ترتب النوبة[40].

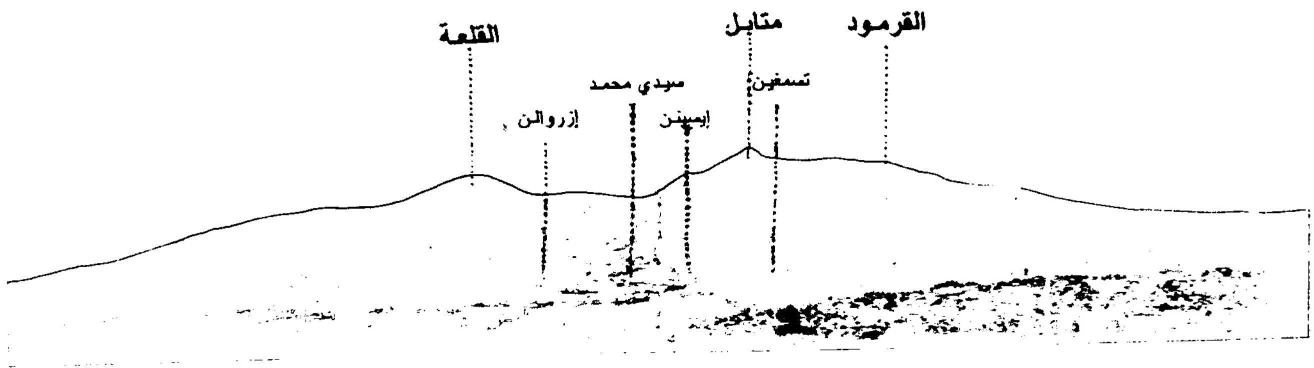
كانت قمتا متابل والقلعة عبون قلعة تازوطا المحدقة نحو مليلة، كثيرا ما أثارتا حفيظة الإسبان وتخوفاتهم حسبما هو مندس في تعابير ثوريتا حين

---

(38) J. Zurita , *Historia del Rey Don Hernando El Católico , de las Empresas y Ligas*, 5/136.

(39) تحمل القمة اليوم آثار بناء برج وتعرف أيضا باسم: باسبيل (أبو السبيل) وباربييس.

(40) هو التل الذي يدعوه الإسبان بعد التحريف Talayon.



قمتا متابل والقلة مثلما تظهران من مليلة

قال: " تازوطا ومتابل والقلعة موقعان جد محصنين وقريبين من مليلة بمكانهما عند قدم الجبل، فمن هناك أمكن للمسلمين ضرب الحصار على مليلة بعد شحنهما بالأقوات والرجال، وبذلك غدتا محطتين مسلطتين علينا لمراقبتنا"، مضيفا أن الإشارات كانت تنطلق منها للإعلام بخروج فارس واحد من المدينة[41]. وإلى نفس المعنى أشار مارمول كاربخال حين أطلق على جبل قلعية Padrastro de Melilla أي الجبل المهيمن على مليلة الذي هو في نفس الوقت بمثابة ذؤابة لحم الظفر الموجعة[42].

ويكتنف الغموض ما يخص مراكز المراقبة الموجهة نحو مدينة غساسة مع أننا متأكدون من وجودها بناء على إشارة صادرة من حاكم المدينة أثناء وجوده على شرفة مقابلة لكل من مدشر إعزانن البوكافري الواقع في الجنوب الغربي من الكدية وقرية أيت وارث الواقعة من جهة الجنوب. وهذا هو الذي دفعنا إلى الاعتقاد بإسناد مهمة المراقبة والحراسة لآيت وارث الغساسية البوكافرية لتوفرها على الشروط الطبيعية المطلوبة، إذ أنها على بعد خمسة كيلومترات من غساسة وقرب اتصالها بقلعة تازوطا. وفوق ذلك فإن أهل آيت وارث من سكان المدينة المحتلة. ولا أدل على ذلك من القيام بمهمة الحراسة والمراقبة معا وجود مقبرة المجاهدين بجوارها دعيت بالمنصورة[43].

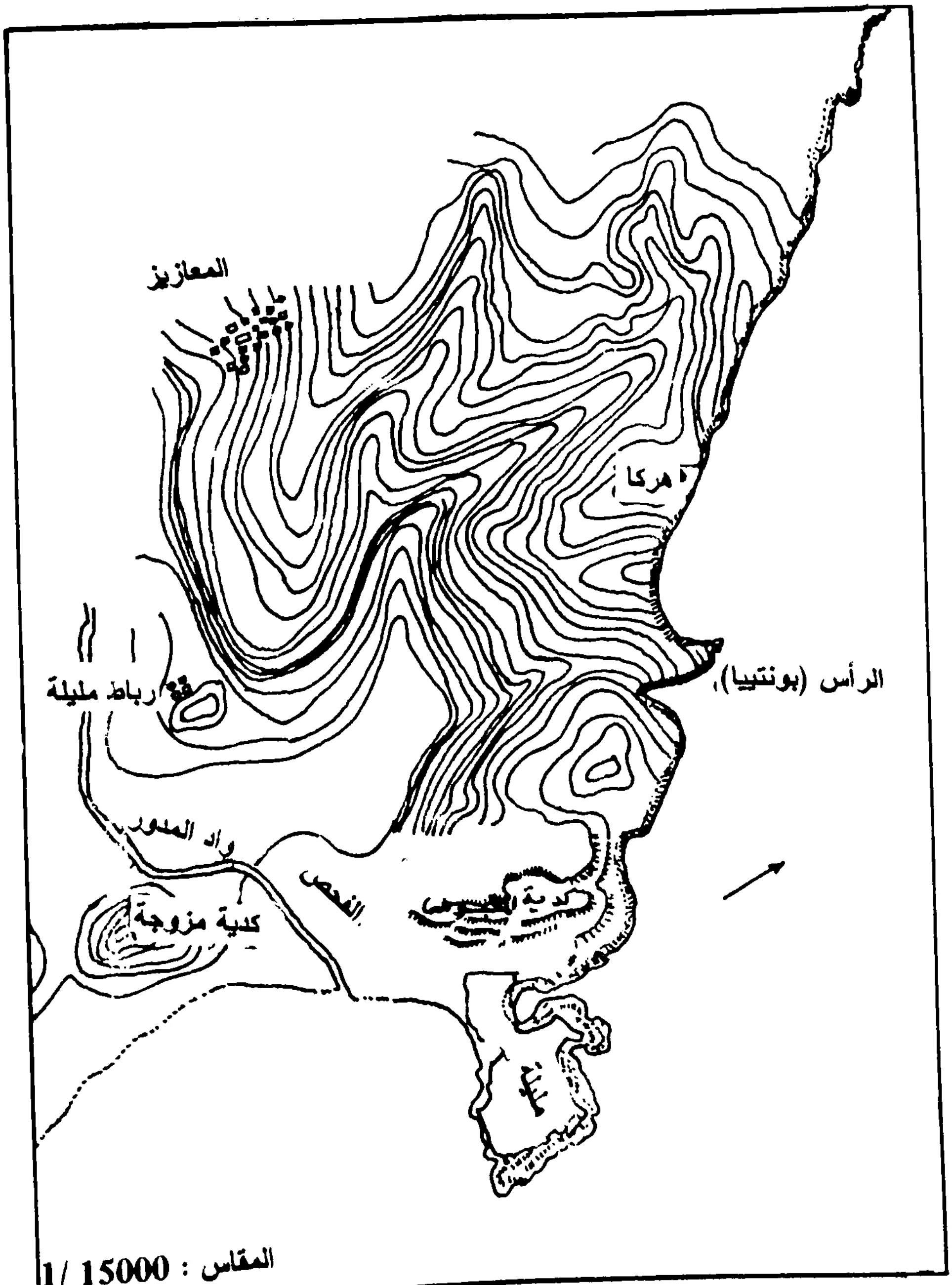
رباط مليلة

تحتم على حاكم قلعة تازوطا إيجار محطة للحراسة الدائمة بمقربة من مليلة لتلقي الإشارات الأولى والأخيرة عن تحركات الإسبان بالميدان الخارج عن الأسوار. وإلى غاية ربيع الثاني 903/نوفمبر1497 لم يكن القلعيون قد

(41) *Historia* , 5/136 .

(42) **إفريقيا**، 258/2.

(43) ما تزال المقبرة معروفة بهذا الاسم إلى الوقت الراهن، أول من أشار إليها عيسى بن محمد البطوئي السعيدي في كتابه **مطلب الفوز والفلاح في طريق أهل الفضل والصلاح** خلال القرن الحادي عشر الهجري. مخطوط خ.ح.ر.



موقع رباط مليلة

وفقوا لاختيار المكان المناسب. لكن أمر الاختيار أصبح ملحا إثر غزوة شيخ بطوية واستشهاده. يظهر هذا من قول خيرونمو ثوريتا (Jeronimo Zurrita) مشيرا إلى أعمال علي العطار الغرناطي وابن الفيلالي: "أعدوا أماكن أخرى بالجبل الذي كان خلف أظهرهم"[44].

أصبح رباط مليلة حقيقة وواقعا إثر وصول علي العطار إلى قلعة تازوطا للمرة الثانية. ولا شك أن الاختيار تطلب مراعاة عدة شروط طبيعية أولا واستراتيجية ثانيا، منها ضرورة احتجابه عن مليلة وراء حاجز. وقد ظل المكان غير محدد بدقة إلى أن ظهر في منتصف القرن الثامن عشر على رسم أعده القبطان فرانسيسكو دي ميراندا الفينيزويلي[45].

يقع رباط مليلة على بعد قريب من ألف وأربعمائة متر داخل الحدود المحتلة عند آخر منحدرات كدية المعازيز السفلى (Cabrerizas Bajas)، وهو يحتل المكان المعروف حاليا باسم Parque Eventual غير بعيد عن مجرى واد المدور عند قنطرة تيسوريو(Tesorio) بطريق فرخانة، وهو بالفعل يوجد مختفيا وراء كدية علوها نحو عشرين مترا. ورغم اختفاء معالم الرباط في الوقت الحالي فقد لاحظنا استمرار وجود سور صغير مربع الشكل أبعاده 36×40 مترا (1440م^2.)، تبرز منه شجرة باسقة ولكنها على كل حال ليست تين المعروفة بالمكان خلال القرون السالفة[46].

ووافق هذا الاختيار وجود مجرى واد المدور وغابة القصب المنتشرة حول ضفتيه على مسافة ستمائة متر من موضع الرباط إلى حدود كدية تينرت أو مزوجة التي يسميها الإسبان كدية سان لورينثو (Cerro de San Lorenzo). وتوجد بحقل غابة القصب أغلب كمائن أهل الحراسة القلعيين التي سنطلع

---

(44) **المصدر السابق.**

(45) ح. الفكيكي، **سيدي محمد بن عبد الله وقضية مليلة المحتلة**، الرباط 1996، ص. 14.

(46) قمنا بالبحث عن مكان الرباط في المكان المعين له داخل مليلة خلال صيف 1975 و 1976، ومن تلك الزيارة المتسترة حصلنا على المعلومات المذكورة. ويعود اختفاء معالم الرباط إلى قرار الهدم الذي تعرض له نتيجة اتفاقية سنة 1859 وما بعدها.

عليها أثناء استعراض مختلف الأمثلة الجهادية. عرفنا أحمد بن القاضي الكعداوي بعد ذلك ببعض أسماء تلك الكمائن. كانت المواقع المرتبطة بحراسة رباط مليلة مصدر تفوق المغاربة، ومن تلك المواقع راقبوا خروج الإسبان من باب الحصن الغربي الوحيد في كل يوم جديد.

وإلى جانب مواقع واد المدور أضاف رباط مليلة إليه مواقع التلال الشمالية المشرفة على الفحص، سيما بعد دخول الأسلحة النارية الخفيفة إلى قلعية في منتصف القرن العاشر الهجري. ولا نعرف أسماء تلك المواقع إلا بأسمائها الإسبانية، مثل بونتيبا أو الرأس الصغير(Puntilla) وكدية هوركا(Horca) وكدية القبو (Cerro del Cubo).

ويقف خلف هذا التنظيم والحرص على استمراره تجمعات بشرية كانت قد استكملت تشكيلاتها الاجتماعية منذ بداية العصر المريني. وقد حان الآن دور التعرف على تلك التجمعات بكل التفاصيل الممكنة.



ظهر القرمود مثلما يشاهد من مليلة

(3)

الإطـار البشري لحركة المقاومــة

لا ريب أن التنظيم الاجتماعي المميز لقلعية القرن العاشر الهجـري كـان الدعامة الأساسية لحركة المقاومة. فقد تـم توزيع المجال الحيوي الجغـرافي منـذ استقرار الوفود المهاجرة بها، فكان مما ترتب عنـه إحـداث تقسـيمات خمسـة، عد كل قسم منها تارة بمثابة قبيلة مستقلة، وأدخلت جميع الأقسام تارة أخـرى في إطار قبيلة واحدة[47].

ولا بد من الإشارة إلى أن اسم قلوع كرط ما قبل القرن السابع الهجري لم يتغير سوى من الناحية الشكلية، إذ أن الاسم بشكله الجديد حول إلى صيغة قلعية خلال القرن العاشر الهجري ليفيد جمع القلوع.

وعلـى الرغـــم مـــن اهتمـــام الحســـن الـــوزان بـــالجوانب الاجتماعيـــة والاقتصادية والسياسية لإقليـم كـرط، فإنـه لم يكشـف لنـا النقـاب عـن تلـك التقسيمات، سواء كان ذلك عن اسم قلعية أو عن التقسيمات الخمسة المميزة لها. فلم يظهر لنا سوى أن المساحة التي تشغلها كانت مجزأة إلى:

- مـدن: عد منها مليلة وغساسة وتازوطا. ولا تدل كتاباتـه عنهـا أنهـا مستمدة من مصادر عصره أو مـــن مشـاهداته، إذ أنـه اكتفـى بعـرض تاريخهـا القديم إلى حدود استيلاء الإسبان على كل من مليلة وغـــساسة. أمـا تازوطـا فقد تتبع تاريخهـا إلى أواخر القرن السابع الهجـري وبقائهـا مخربـة إلى أن أعيـد بناءها في مستهل القرن العاشر الهجري.

---

(47) وبناء على ذلك فإن مفهوم القبيلة هنا أو القبائل ليس له من مدلول سوى ما يفهـم من الجانب الجغرافي، وليس له من المدلول البشري أي شيء.

- جبال، اعتبر منها جبل أزغنغان الذي أراد به جبل ويسان، مضيفا إليه حوض إثلاثن المتشكل من آخر منحدرات السفح الجنوبي من جبل قلعية أو أكركور مثلما يدعى حاليا.

ومن حسن الحظ أن جهلنا بموضوع تقسيمات قلعية لم يطل كثيرا بعد غياب الحسن الوزان، فبعد سبع عشرة سنة من مغادرته أرض المغرب الشرقي كان مؤلف مجهول قد أنهى تقييده سنة 1533/939 عن نسب قبيلة قلعية موضحا التشكيلة التي كانت عليها قلعية القرن العاشر الهجري، ذلك التقسيم الذي لا زال قائما إلى وقتنا الحاضر.

وبالطبع لن نفهم من هذا الخبر أن تلك التقسيمات هي وليدة القرن العاشر، فهذا بعيد كل البعد عن الاحتمال. ولن نجد السبيل إلى تمهيد البحث عن قدم التقسيم إلا بفحص أسماء التقسيمات ومدلولاتها. وتظهرلنا بعض الملاحظات من فحص كل مدلول على حدة، أولها:

بني شكر حسب المسجل كتابة عند صاحب وثيقة النسب المجهول وكذا بالمراسلات الإسبانية وأيت **شيشر** بناء على النطق الحالي المحلي. غير أن هناك أمرين:

أحدهما أننا لا نعثر عن الخلية الأولى التي حملت الاسم بمدلوله البشري قبل تحول بني شكر إلى مجرد إطار جغرافي للجماعات الوافدة على مجاله قبل القرن العاشر الهجري. وثانيهما أننا لا نعرف العلاقة الاسمية بين أيت شيشر القلعية واسم "شيشر"، الجبل والسهل الغرناطيين[48].

بني بو كافر حسب الوارد في نسب قبيلة قلعية وبالوثائق المخزنية وما عند ابن القاضي الكعداوي، **وأيت بو يافر أو بو جافر** حسب النطق المحلي. ولا يؤدي بنا فحص مدلول اللفظ إلى نتيجة بينة[49]. ونكرر نفس الملاحظة السابقة من أننا لم نتوصل إلى معرفة الخلية الأولى التي حملت هذا الاسم قبل

---

(48) Marmol Carbajal . *Historia del rebelion y castigo de los Moriscos del Reino de Granada*, Madrid 1797, pp. 75. 84.

(49) لفظ "أفار" يعني الجناح أو ما في معنى الجانب المتطرف.

التاريخ المحدد بالقرن العاشر الهجري، مما يطرح علينا أسئلة أخرى لا نستطيع الإجابة عنها في الوقت الراهن.

بني بو يفرور، يظهر على الأرجح أن الاسم مشتق من لفظ "أفرور" الذي يراد به في الأصل التربة الرقيقة الحمراء المتشبعة بأكسيد الحديد السائدة بجوار المجاري المنسابة من جبل الحديد ويسان. فالواضح إلى الآن أن خمس بني بو يفرور مشهور بصناعة القدور وأصنافها من تربة أفرور. واشتهار تلك التربة هي التي ميزت التجمعات القائمة بالمكان وبالمجال الذي مثله جبل ويسان بعد ذلك.

واسم **الكعدة** ذو الأصل العربي مدلوله جغرافي صريح مستمد من مساحة الهضيبات الممتدة على السفح الغربي من جبل قلعية، قبل أن يغلب عليها اسم **أيت سيدال** ابتداء من أواخر القرن الثاني عشر الهجري.

والملاحظ على اسم **مزوجة** أن الأصل الموضوع للدلالة على السكان هو إمزوجن من مفرد أمزوج. ويبقى اللغز مختفيا إذا ما حاولنا اكتشاف المعنى. فحسب المتوصل إليه أن الاسم مشتق من تيمزوجين، أي عيون الماء المتدفقة من الجبال وهي ظاهرة يمتاز بها السفح الشرقي من جبل قلعية أكثر من نظيره الغربي(50).

وهناك أيضا ما أشار إليه مارمول كاربخال من وجود سابق لمدينة مشوشة بالسفح الشمالي من جبل كبدانة بفرقة لهدارة، تم بناءها خلفا لمشوشة القديمة التي كان موضعها بأكديم رأس كبدانة بعد تخريبها على يد العبيديين خلال القرن الرابع الهجري(51).

غير أن انفراد مارمول بهذا الخبر لا يسمح لنا بتقديم رأي خاص بنا ونتساءل فقط هل اسم مزوجة مشتق من مشوشة كبدانة بعد رحيل السكان إلى السفح الشرقي والجنوبي من جبل قلعية.

---

(50) جميع المعلومات المطروحة للتأمل في أصول الأسماء مستمدة من الرواية الشفوية، أقدمها لعدم وجود البديل.

(51) **إفريقيا**.265/2.

وإذا أردنا الخروج بنتيجة أولية عن المسألة فإننا نعود إلى ملاحظة أن حوض واد المدور الأوسط الذي تحققنا من ساكنيه ما قبل القرن السابع الهجري من مطماطة وغمارة وبني يفرن كان إطاره البشري قد تشكل في وقت لاحق للقرن الرابع الهجري ليعرف بأيت شكر أو أيت شيشر.

ونتيجة لاستقبال هذا الإطار الوفود المهاجرة ما قبل القرن العاشر الهجري اندمجت مختلف التجمعات في الوسط الطبيعي تحت ظل الاسم البشري الذي لم يعد له معنى بتغلب الجماعات الوافدة. ويمكن تطبيق هذا أيضا على أيت بو كافر التي كانت تضم جماعات غساسية قديمة.

أما مساحات الكعدات وجبل ويسان وساحل سبخة بوعرك فلم يكن بها ما يميزها من التجمعات البشرية، حسبما نعلمه من مصادر القرن الرابع الهجري، فاستحقت من الوافدين عليها انتقاء دلالات التجمع السكاني من خصائص السطح الطبيعي وفرص استغلاله. وينطبق هذا على كل من مزوجة وبني بو يفرور والكعدة. فما هي صورة التوزيع الجغرافي الذي رسمته التقسيمات السكانية؟

التوزيع الجغرافي لتجمعات السكان

سنعتمد اعتمادا شبه كلي لتوزيع ساكنة قلعية القرن العاشر الهجري على وثيقة نسب قبيلة قلعية المجهولة المؤلف والمؤرخة بسنة 1533/939، وهي أول من أعلن لحد الآن على التقسيم القبلي القلعي الذي ذكره أحمد بن القاضي القلعي في النصف الثاني من القرن العادي عشر الهجري (18م.)، وهو في نفس الوقت التقسيم السائد في الوقت الحالي بجميع سماته.

يتألف التقييد من ست ورقات استعرض فيه صاحبه أنساب سكان إقليم كرط، من البطالسة وبني بو يحيي وبني توزين وبني سعيد وقلعية التي اعتنى بها أكثر من غيرها لسرد أصول مختلف أسرها وفرقها وجماعاتها موزعة إلى خمسة تجمعات.

وفي صدد الكشف عن شخص الكاتب المجهول يمكن لنا في البداية ملاحظة أنه من أبناء إقليم كرط، يبدو ذلك من اهتمامه أولا ومن معرفته الحسنة بالوضعية السكانية، ومن تعاليقه على بعض الفرق التي كانت مثيرة لاستيائه أو مصدر تقديره. وبناء على ما يظهر من تحامله عن بعض الفرق القلعية نشير إلى أنه لم يكن من أهلها، كما أنه لم يكن من بني سعيد ولا من بني توزين، إذ أن خبرته بتوزيع سكان القبيلتين لم تكن ذات بال. ويبقى احتمال انتمائه موجها إلى تجمعات قبيلة البطالسة.

كان الكاتب المجهول طالب علم من المتأثرين بأحمد بن يوسف بن عبد السلام الكزنائي، أحد الصلحاء المشهورين قبل القرن العاشر الهجري باكزناية المجاورة، ومن المشيدين بسيدي ورياش صالح الريف الشرقي منذ ما قبل القرن الثامن الهجري.

ودلت معرفته بسكان المنطقة على أنه من المتجولين وبقلعية خاصة، وليس ببعيد أنه اتصل بإزكرياتن (أولاد زكري) ببني بو يفرور وبإجواون (جواوة) من فرق الكعدة، بما ظهر من عدم رضاه عن تصرفاتهم، وإبوين من بني بو يفرور الذين رفع من قدرهم.

استعرض الكاتب المجهول في تقييده أقسام قبيلة قلعية الخمسة المعروفة متبعا الترتيب التالي: الكعدة، بني بو يفرور، بني شكر، مزوجة وبني جافر وأنهى التقييد بقوله: "وتوقف المؤلف في أمرهم لكثرة التطويل في الخبر وما سطرته يكفي عما بقي. ومن أراد التطويل لينظره في ابن خلدون وثبت هذا الرسم بعد تسعمائة وتسعة وثلاثين سنة"[(52)].

1 - خمس بني بو يفرور

يتضح من التقييد أن عدد المداشر المكونة لخمس بني بو يفرور البالغة سبعا وعشرين مدشرا كان في مستهل القرن العاشر الهجري أكثر أخماس قلعية

(52) لا يتوفر كتاب **العبر** لابن خلدون عن التفاصيل المحال عليها.

سكانا. وإلى هذه الكثرة والقوة أشار الحسن الوزان وعدها مارمول كاربخال بنحو أربعة آلاف محارب إلى جانب عدد آخر من الفرسان والرماة[53].

ويخبرنا صاحب التقييد لأول مرة باسم جبل أزغنغان كما سماه الحسن الوزان، حين ذكره باسمه الحالي جبل ويسان، وهي صيغة يراد بها ما يعرف حاليا بأذرار نْ ويسان (إكسان أيضا)، أي جبل الخيل والفرسان، إشارة إلى المكانة المتفوقة التي كان رجال بني بو يفرور يمثلونها في قلعية وفي حركة المقاومة إلى جانب قواد قلعة تازوطا. وعن تلك القوة يعبر اتساع حدود بني بو يفرور خلال القرن العاشر الهجري كما صورتها وثيقة النسب. والظاهرة الأساسية أن قلعة تازوطا كانت مندرجة ضمن تلك الحدود لاحتضانها لجماعة أيت واغمارن.

رسمت حدود بني بو يفرور مع خمس مزوجة من طرف جماعة إحدادن السبت وإمعزوزاتن وإبقوين. وتقف من جانب بني شكر شمالا جماعة إبعجاجن البو يفرورية آنذاك. ويحد الخمس من جهة الكعدة مدشر إرحين ومن هناك يصبح السفح الجنوبي ضمن حدوده إلى جبل ويسان حيث تتصل الحدود مرة أخرى بخمس الكعدة، على طول خط واضح يربط ممر إيشورن عند جبل إثلاثن بواد كرط غربا.

ويضايق حدود بني بو يفرور الشرقية امتداد حدود مزوجة على ساحل سبخة بوعرك عند خط جبل أفرا[54]، تل تينيمارت (تينغمارت أيضا) وواد تياوت (واد سلوان). أما الحدود الجنوبية فتقف عند نهاية الكتلة الجبلية واتصالها بسهب كرط (القارب)، حيث تتوزع عزائب البو يفروريين لتجاور هناك أحلاف بني المعقل، وفي مقدمتهم أولاد شعيب.

وقد قدرنا مما أمكن لنا استنتاجه أن قيادة قلعية كانت بيد فرسان بني بو يفرور أواخر القرن التاسع الهجري (15 م.)، حين تم تخريب مليلة وما تلاه من

---

(53) **وصف إفريقيا** ص. 258 و **إفريقيا** ص. 293 على التوالي.

(54) اسم البحر الصغير Mar Chica الذي تعرف به السبخة إسباني الأصل، وذلك منذ القرن العاشر الهجري.

تسرب الإسبان إليها وإلى غساسة، ضمن نطاق حكم شيخ بطوية لإقليم كرط حسبما تمت الإشارة إليه سابقا. ويتوزع سكان بني بو يفرورخلال القرن العاشر الهجري ضمن جماعات نبرزها بالشكل التالي:

فرقة أيت واغمارن الغمارية الأصل كما يدل عليه اللفظ، وهي أهم جماعات بني بو يفرور. تتألف من الجماعات الآتية:

إبعجاجن، الجماعة المشار إليها من طرف صاحب وثيقة النسب، وموطنها أسفل هضبة تازوطا مما يلي الشمال بجوار واد إزرورن، رافد واد المدور، جعل منها أربعة أقسام: أولاد سعيد، أولاد ملوك، أولاد يعقوب وإفوهاتن. غير أنه لا يظهر من تلك التجمعات اليوم سوى إبعجاجن وإفهاتن وما تزال إلى يومنا مجموعة مستقرة بإبعجاجن الجبل مما يلي الشرق تدعى إغمارين.

إحدادن السبت (الحدادون) استقرت الجماعة بجوار جبل السبت، القمة الجنوبية من جبل سيدي أحمد الحاج، كانت خلال القرن العاشر معروفة مما جعل صاحب وثيقة النسب يتخلى عن المزيد من التعريف بها. ويعود لقبهم إلى احترافهم صناعة الحديد. وقد أكدت إحدى وثائقهم في القرن الثالث عشر احتكارهم لتلك الحرفة واستمرارها بأيديهم[55].

إرحين (أولاد رياح) الهلاليون استقروا عند قاعدة هضبة تازوطا الغربية بجوار منبع واد إزرورن بمقربة من إبعجاجن الجبل. ويعود وجودهم هناك على أغلب الاعتقاد إلى تقديم الخدمة العسكرية لحاكم تازوطا المريني أول استقرارهم، فهذا ما يفهم من قول صاحب الوثيقة عنهم "إنهم رعايا الملوك" ثم ساروا على نفس المسلك مع الوطاسيين.

---

(55) الوثيقة بتاريخ 19 رمضان 1267 هـ. والجماعة مندرجة في الوقت الحاضر ببني شكر. ولسنا ندري متى نزلت كل الجماعة أو بعضها إلى الموطن الحالي الكائن بآخر منحدرات السفح الجنوبي من جبل أكركور عند حدود سهل براقة شمالا على واد إنخشامن، مجاورين بذلك جبل ويسان الحديدي.

أولاد داود التازوطيون[56]. استقروا منذ نزولهم بقلعية في القرن السابع كما هو مقترح، إذ أننا وجدناهم بتازوطا سنة 730 هـ. أحد أعمدتهم آنذاك المدعو بلقبه الجروم (أيروم) الوغمارني الداودي كان يملك أراضي بحوز تازوطا في مساحة شرقية تبدأ من باب الحصن وتنتهي إليه[57]. فكان الداوديون سند قائد تازوطا خلال القرن العاشر وما بعده.

تيغانيمين، لم يذكر صاحب الوثيقة هذه الجماعة ولكن الدال على وجودها القديم أصلها الزناتي المريني. استقرت عند القاعدة الجنوبية من هضبة تازوطا بإزاء منبع واد إخشامن.

المعازيز، جماعة زناتية ذات قوة وعصبية[58]، يوجد منها جماعات أخرى بإقليم كرط[59]. استقرت بجوار كل من بقوية وتيغانيمين وإبعجاجن. وربما انفصلت منها أسر لسكنى هضبة شمال غرب فحص مليلة على بعد ثلاثة كيلومترات من المدينة لتكون سندا لرباط مليلة منذ تأسيسه في بداية القرن العاشر الهجري. وقد حدد موقع استقرارهم القبطان الفينيزويلي فرانسيسكو دي ميراند (Francisco de Miranda) في رسم أعده يومئذ، يظهر أن الجماعة تكونت آنذاك من اثنتين وعشرين دارا[60].

---

(56) انتقلوا إلى قلعية من بني يزناسن من جهة ورغة. ومن مخطوط لدى أحمد البوعياشي، صاحب **حرب التحرير الريفية** أن أولاد داود من ذرية إدريس من ابنه داود بعضهم نزل بقلعية والآخرون بتمايت بني سعيد وبني بوعياش الورياغليين ص. 293.

(57) حددت الملك بغينوس وعين عيسى وإزي ونيف وتيسمغايت والمقبرة وإفري ن يفيس وحجرة العشب ومقطع الصلاليح وأغبار أزوزف. الوثيقة بتاريخ ربيع الثاني عام 730 هـ. من وثائق محمد الوردة بالناظور.

(58) من مفرد المعيز، وذكر مخطوط **ذكر الشرفاء حسب عهود السلاطين** المنسوب حسب نفس المخطوط لابن خلدون أن المعيز أصلهم من زناتة المستقرين بفكيك خ.ح.ر. رقم 1220.

(59) ما تزال الجماعة ببني توزين محتفظة باسمها الأصلي المعروفة به في فكيك.

(60) صاحب **يوميات حصار مليلة** عامي 1474 و 1775 من طرف السلطان سيدي محمد بن عبد الله.

بقوية، شاركت هذه الأسرة البقوئية البادسية الأصل جماعة المعازيز في الموطن الكائن عند منابع واد نويات بالقرب من ظهر تينرت الجبل وقد أفصح لنا صاحب الوثيقة عن حرفة السكان حين قال في حقهم: "خدامين الدوم أصلا "[61].

وتحمل نفس الاسم جماعة أخرى ببني بو يفرور مستقرة عند سوق خميس جزولة بجوار إبدورن وإرزوقن. وفي أغلب الاعتقاد أنها تأصلت من الجماعة التازوطية، بعد خضوعها للهجرة المحلية خلال الأزمنة التالية للقرن العاشر.

إزرارن (الزراريون)، حضور هذه الجماعة من ضمن ساكنة قلعية خلال القرن العاشر الهجري لا غبار عليه. ويعود إدماجها ضمن جماعة أيت واغمارن إلى ما ذكره أبو القسم الزياني عنهم، حيث قال: " الزراريون بتزوطا من قارت بعين شربانة"[62].

ولا نعلم بوجود جماعة إزرارن بالمكان الذي أعدهم لهم الزياني بجوار عين إمشروبن، موطن الأحلاف المعروفين بنفس الاسم. كما أننا نجهل تاريخ الهجرة و موطنهم الأصلي باستثناء ربط نسبهم بزرارة الشبانات المعقليين، وإذا تم التأكد من تلك الصلة أمكن لنا بحث تاريخ تلك الهجرة وجودهم بالمكان وبجوار الأحلاف دل على خدمتهم لحكم تازوطا[63].

إبوين، مستقرون حاليا بجوار أولاد داود وإحدادن السبت بالقرب من عين ماء جيدة . غير أننا لا ندري ما إذا كانت البقعة التي يحتلونها هي التي نزلوا بها عند حلولهم بقلعية. ونعلم أن المجهول، صاحب وثيقة نسب قبيلة قلعية كان قد زارهم أو التقط عنها من الأخبار التي استحقوا بها ثناءه وإطراءه.

---

(61) ربما كان لاستقرارهم بالمكان علاقة بانتشار نبات الدوم على السفح الجنوبي الأعلى من المخروط البركاني، على ظهر تغاغت خاصة.

(62) **تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب**. مخطوط خ.ح.ر.

(63) من المعلوم أن زرارة الشبانيين تم نقلهم إلى جهة أنكاد في آخر القرن الحادي عشر.

والخلاصة أن أيت وغماران كانت عمدة حاكم تازوطا قبل 939 هـ. وبعدها وسند حركة الجهاد التي أشرف على تنظيمها علي العطار الغرناطي وانتشار مجموعاتها حول هضبة تازوطا دليل على ذلك الالتفاف.

فرقة أزغنغان، لم يميزها صاحب وثيقة نسب قبيلة قلعية بالاسم المقدم، فاسم أزغنغان لم يرد بتقييده مع سابق علمنا من طرف الحسن الوزان بوجوده،مما دفعنا إلى جمع ثلاث مجموعات ضمن إطاره[64]. يحد محيط جماعة أزغنغان بالحوض الفاصل بين كتلتي أكركور، وويسان ويجري به واد إحركاشن من مبدئه بجنوب هضبة تازوطا ليدعى في مجراه الأدنى بواد أزغنغان المتصل بواد خميس جزولة الويساني. وداخل تلك الحدود نجد:

إجهرتن (جواهرا أيضا) الذين يعود أصلهم العربي إلى بني عامر الهلاليين من ذرية سليمان بوراس، إخوة إعدوين وإجواون العامريين المستقرين بالكعدة. تتوزع دورهم على الجانب الأيمن من مجرى واد إحركاشن.

وحسب وثيقة كانت بيد أحد قضاتهم أن جد جواهرة هو المدعو مصطفى بن يحيى بن أحمد الجواهري الملقب "قرايين الجنون"، ويدعى أيضا بوجلاب، نزح إلى قلعية من ناحية معسكر الغرب الجزائري خلال القرن التاسع الهجري، كما أن أفراد الأسرة احتكرت منصب القضاء بأيت بو يفرور لعدة قرون خلت[65].

إكسرون، رددت إسمهم عدة مصادر مرجحة أصلهم الإدريسي، نزلوا أولا ببني سعيد بربع تشوكت قبل التحاقهم بحوض أزغنغان، وهم باستقرارهم على الجانب الأيمن من واد إحركاشن يحرسون ممر إثلاثن المتصل بتازوطا إلى جانب إجهرتن.

---

(64) **وصف إفريقيا**، ص. 268.

(65) اتصلنا بالقاضي المسن الحاج عمر بن البشير البو يفروري الجواهري فأطلعنا على الوثيقة ولكنه مانع من إتاحة فرصة تصويرها، مما اضطرنا إلى الاكتفاء بتسجيل ملخص لها.

إمشروبن، أو كما سمتهم وثيقة النسب " المشاربا من قبيل الأحلاف الأدنى". استقرارهم الحالي على الجانب الأيمن من واد ويسان.

فرقة جبل ن ويسان، يفهم من وثيقة النسب ضمنيا أن صاحبها أراد إخبارنا بوجود أربعة مداشر كانت تعيش منعزلة حول استدارة قمة جبل ويسان. وإليها أضفنا ثلاثة أخرى اعتقدنا أنها كانت تعيش بمحيط الجبل خلال الفترة المدروسة، وهي جميعها من عناصر الهجرة الداخلية بإقليم كرط: بطالسيون وزناتيون وأحلاف بني المعقل.

أولاد إبقرنن (إبكرنن)، بطالسون استقروا شمال غرب قمة جبل ويسان على مقربة من سيدي بوصبار ومنبع واد تيفسي.

أولاد حمو البطالسي، شاركوا أولاد بوقرين موطنهم بجوار سيدي بوصبار.

أولاد بو لحياو (إلحيانن)، يشير عدد من المصادر إلى الأصل الإدريسي لهذه الأسرة، سبق لها أن خرجت من فكيك إلى جبال ترارة الجزائرية فبني يزناسن، لتستقر بقلعية في فترة ما قبل القرن العاشر الهجري غرب جبل ويسان في منخفض يجري فيه واد يعرف باسمهم (واد تالا ن وإعرابن أيضا).

وإذا كنا نقترح لأسرة اللحاينة استقرارها ضمن جماعة ويسان، فإننا لاحظنا من جهة أخرى أن قسما منها يوجد بخمس الكعدة يدعى بإلحيانن الجبل، تمييزا له عن مجموعة الوطأ التي بجبل ن ويسان. لم يشر صاحب الوثيقة إلى وجودهم بالجبل مثلما يبدو اليوم.

العساري، تستقر المجموعة بالمنحدر الشرقي من الجبل بجوار إحدى منابع واد ويسان. لم يشر صاحب الوثيقة إلى الأصل المنحدر منه، ولكن هناك من سمي عساري بني وكيل من أحلاف سهب كرط على الضفة اليمنى من واد تياوت.

إمرابضن تيلزارت، نعرف بوجود الأسرة من شجرة نسبها المحررة سنة 1068هـ.(1657 م.) جدها القلعي المرابط عزوز بن الحاج الدراجني القلعي

المتوفى بأربعاء ثلاث من خمس الكعدة، مما دفع بأبنائه الأربعة إلى الاستقرار بأيت بو يفرور بالموضع المعروف باسمهم إلى يومنا هذا[66].

إحبشاتن، أضيفهم إلى القائمة لما يفهم من أصلهم بني يحبش الزناتيين المرينيين[67]. تحتل الجماعة منابع واد إبو غردايين على سفح أدرار أمقران جنوب جبل ويسان.

أغمير، أهله زناتيون مثل أتحبشتن تم إدماجهم لمثل السبب[68]، تخيروا من المواقع واديا جليديا معلقا بالسفح الجنوبي من جبل ويسان، يشاركهم المكان كل من إبدورن وإرزوقن وإبرشيون، ويشرف على الجميع جبل تزقان أزرو.

فرقة خميس كزولة (إيكزولن)، ندخل ضمن هذه الجماعة عددا هاما من الأسر تصل إلى أحد عشر أسرة. ومجموع القائمة يوضح سيادة العنصر العربي المعقلي والهلالي:

إخرباشن (الخرباشيون)، جماعة هلالية من قبيلة السجع، كانوا أحلاف بني مرين منذ بداية أمرهم ودخولهم إلى إقليم كرط. استقروا بجانب واد الخميس جنوب واد إدمراون.

أحمري (الحميان)، من زغبة إخوة رياح، وهم بتحاضيت **وإهداجن (الهداج)** إخوة الخراج من بطون ذوي عَبيد الله، وهم بجوار إحبشاتن **وإجرمونن (الجرامنة)** من قبيلة جشم الهلالية، **وإكانونن (الكانونيون)**[69]. جميع تلك الأسر المستقرة بجماعة كزولة لا يمكن إنكار أصلها العربي المعقلي أو الهلالي وقدم استقرارها ببراقة، على الرغم من أن صاحب الوثيقة لم يتعرض لها بالذكر.

---

(66) قدمنا نظرة موسعة عن الأسرة **بمعلمة المغرب** 2739/8.

(67) بنو يحبش وبطوية والكزناية، إسماعيل ابن الأحمر، **روضة النسرين**، ص. 3.

(68) ابن خلدون، **العبر**. 130/7.

(69) **المصدر السابق**. 6/1.

إعراصن (أولاد أعراص) البادسيون، سيلعبون دورا سياسيا هاما مع الوطاسيين بقلعية في آخر أيامهم، ثم مع السعديين بقيدومهم علي أعراص استوطنوا موضع أفرا واحتلوا منخفضا صغير المساحة منحصرا بين تل العمال وجبل العافية أو أفرا، مستأثرين بأهم بقع وادي الخميس بحكم زوقعهم السياسي بقلعية(70).

أولاد يحيى إعلاتن، التوزانيون الأصل(71)، استقروا على واد الخميس بإكزولنْ، حيث نجدهم اليوم جنوب أفرا.

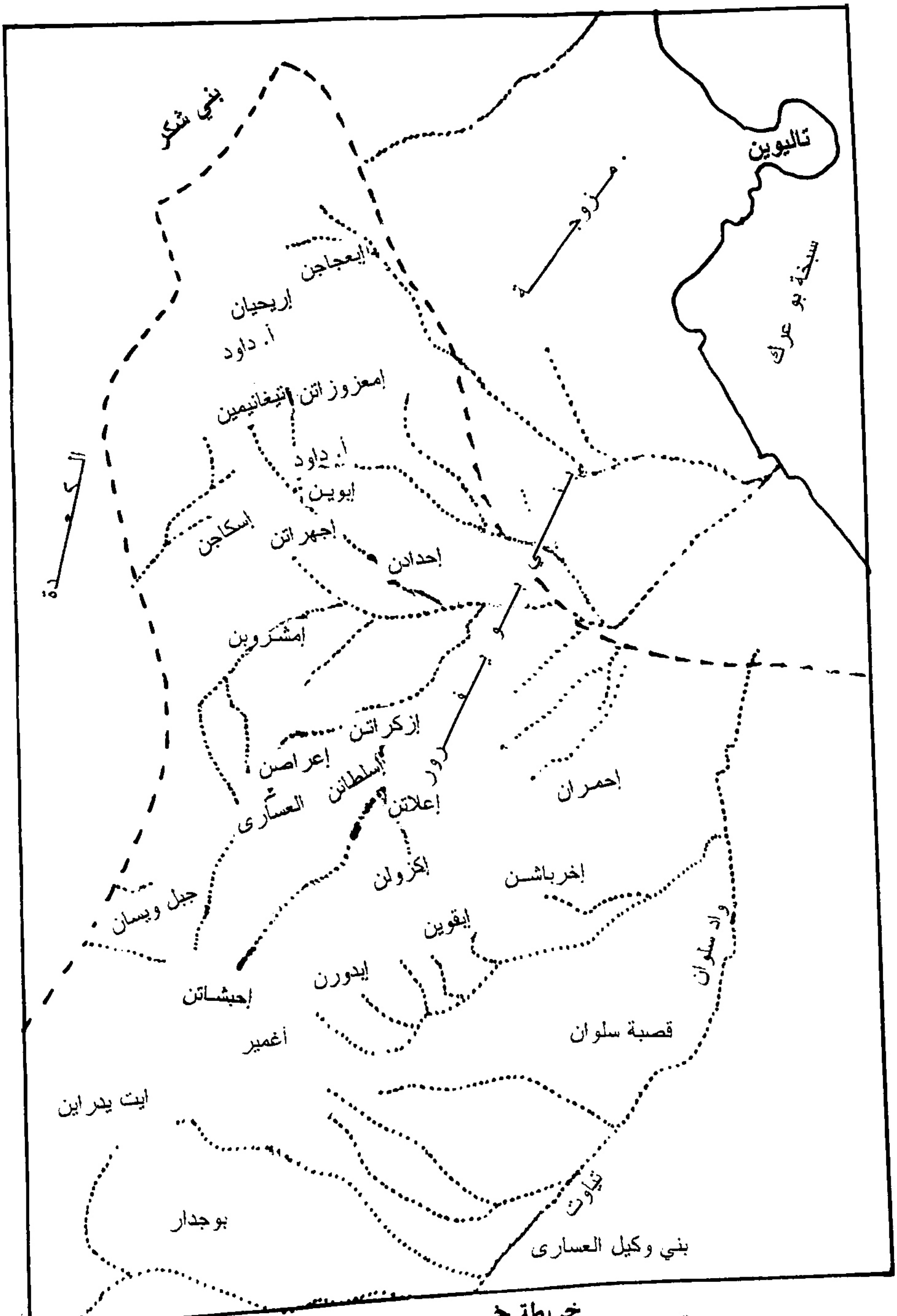
جدول إحصائي لجماعات خمس بني بو يفرور

الجماعة	الأسر أو جماعات الأسر	الأسر
بني وغمران	إحدادن السبت. إبعجاجن.أولاد داود. إرحين. تيغانيمين. المعازيز. إجهرتن. إبقوين. إزرارن.	9
أزغنغان	إبوين. إكسرون. إمشروبن	3
جبل ويسان	. أولاد حمو البطالسي. إبقرنن. إحبشاتن. لعسارى. إلحيانن. أغمير. إمرابضن تيلزارت.	7
خميس إكزولن	إحمرين. إخرباشن. إعراصن. إزكرياتن. إعلاتن. بني بو محمد. إسلطانن. أولاد يعيش.	8
	المجموع	**27**

إزكرياتنْ (أولاد زكري)، أضاف إليهم الكاتب المجهول صاحب الوثيقة لفظ إعداسيينْ ولو أننا لا نعرف معنى اللفظ، و لم يكن راضيا عن تصرفاتهم. موطنهم الحالي بأفرا.

(70) ما زلنا نسمع بإشعالن خمس مزوجة وبني انصار وفرخانة وبني سيدال عن مواقع تحمل اسم أعراص.

(71) من أيت علاتن، فرقة إغربين. **ضابط الأمور الوطنية**،تطوان، 1951، ص. 91.



خريطة خمس بني بويفرور

إسلطانـنْ (سلطانة)، أشرنا إلى أصلهم الفكيكي، قرارهم بموضع إبركانن بالمكان المعروف بتالا نْ يجْضاضْ.

بـني بـو محمـد، ذكرهـم صاحب الوثيقـة وعـاودت ذكرهـم وثيقـة الحدادين في القرن الماضي[72]، وعلى الرغم من أن التقسيم الإداري الحالي لم يذكرهم إلا أن اسمهم ما زال يسمع بأفرا.

أولاد يعيش، المساريون يشاركون بني بو محمد موطنهم. ما زلنا نسمع عن أسرة منهم بالمكان.

يتضح من تتبع مواطن الجماعة أنها اختصت بسكنى وادي خميس إكزولن من لدن منبعه بعين بوهراوة إلى دخوله أرض براقة، ما بين جبل العافية وجبل العمال بأفرا. وخمس بني بو يفرور، أقوى أخماس قلعية رجالا وفرسانا. وباع أهله في التجارة واسع. ولا يمكن استثناء استغلال الطفوح السطحية من معدن حديد جبل ويسان خلال القرن العاشر الهجري، فوجود جماعة أسرة الحدادين ومدشر العمال دليل على ذلك وإن كنا نجهل الآن كل شيء عنه.

2 ـ خمس الكعدة

يقصد بالكعـدة مجموع الهضيبات الممتدة غرب هضبة تازوطا، لا يفصلها عنها سوى مجاز إرحيين، وهي تتجزأ بدورها إلى أقسام تعرف باسم الجماعة الرئيسية المستقرة بها، بحيث نجد كعدة ثلاث بالجنوب الشرقي من المساحة المحددة وكعدة أيت فكلان بالغرب وأيت ياسين وإجواون وإرغمان.

ومن الملاحظ أن مدلول المصطلح انتقل من الدلالة الجغرافية المفيدة عامة لمعنى الهضبة إلى تعميمه من الوجهة الإدارية على الأراضي الوطئة المجاورة للضفة اليمنى من واد كرط، ليشمل امتدادها الأراضي المجاورة لإغزار أماسين[73].

---

(72) بتاريخ 19 رمضان عام 1267 هـ.

(73) واد ماسين أيضا بساحل ندرومة الجزائري. البكري، **المغرب**. ص. 79.

ومن التجول بالمساحة المحتلة من طرف الكعدة نقف على حدودها مع باقي أخماس قلعية. فمن جهة بني بو يفرور كان خط الربط بينهما ممتدا بالحدود المشار إليها سلفا. أما حدود الكعدة مع بني شكر وبني بوكافر فواضحة تكلفت طبيعة السطح برسم معالمها الأساسية بحافات الهضيبات الداخلة في مساحتها عند إشرافها على حوض واد المدور بالنسبة لبني شكر وعلى منخفض شمالي غربي عميق يجري فيه واد بو حمزة بالنسبة لبني بو كافر. ويمكن ملاحظة أن أغلبية الجماعات المهاجرة قصدت الكعدة من بني يزناسن، إذ بلغ عددها ثمانية، وهي نسبة لا نجد لها مثيلا في قلعية برمتها.

فرقة الكعدة، ونعني بها الكعدة الجبلية التي نالت استحسان صاحب وثيقة النسب وإطراءه حين نعتهم بأجواد قلعية، وربما كان يعني خاصة أهل كعدة أيت فكلان. لكن هذا لم يمنعه من ذم إجواون التحتيين وإبعلوتن (أولاد بوعلو) أهل الوطأ ومعهم إبرداعن الذين بمدشر ثلاث. وإليك أهم التجمعات السكانية المتوصل إليها وعددها واحد وعشرون أسرة أو جماعات الأسر.

إمجاط، سبقت الإشارة إلى هجرتهم من بني سنوس التلمسانيين. استقروا من الكعدة بالسفح الغربي من أدرار أزواغ في أقصى العلو الشرقي كان لهم إخوان بقبيلة بني سعيد مستقرون بفرقة تمايت بالقرب من منبع واد القضيا.

إياسينن من بني عتيق اليزناسنيين، يجاورون إجواون عند منبع واد تييا رافد واد بوحمزة بشرق الكعدة.

إجواون كان استقرار الجماعة الأول بالجبل، حيث احتل أفرادها حافة واقعة شمال الكعدة يشرفون من هناك على حوض واد المدور الأعلى، وهم ينقسمون هناك إلى إجواون إقديمن (القدامى)، حيث المدشر الأصلي عند منبع واد غساسة، وإجواون ن تازروت وإبرحوتن (أولاد بن رحو).

وهناك **إجواون الوطأ** أو إجواون التحتيين، مجالهم أوسع موزع على التلال الواقعة على السفح الجنوبي الغربي من كتلة جبل ويسان بجوار الضفة

اليمنى من مجرى واد كرط يتوسط موطنهم هناك الواد المالح. لا ندري تاريخ النزول من الجبل إلى الوطأ، ونقدر أنه محدد بما قبل القرن العاشر الهجري بناء على المستنتج من وثيقة النسب التي أشارت إلى موطن جواوة بالوطأ.

إورياشين (أولاد ورياش)، استقروا من الكعدة بالمكان المعروف هنالك بتاميمونت(74)، مجاورين لإجواون ن تازروت شمال غرب أدرار أزواغ وقد لاحظ صاحب الوثيقة مؤكدا أن ما يدعيه الورياشيون من انتسابهم لسيدي ورياش الداخل إلى قلعية في آخر القرن الثامن الهجري على أكثر تقدير خبر لا أساس له من الصحة لكون ورياش لم يعقب.

أولاد عمر بن عيسى القيطوني، استقرت الأسرة الإدريسية أولا على سفح صغير واقع بين إمجاط وتيميزار ثم ابتعدت إلى موضع بالناحية الغربية من الكعدة، حيث يظهر اليوم مدشر **إورنيدن (بني ورنيد)** المشرف على خانق واد تيبيا.

استطاعت هذه الأسرة كسب شهرة واسعة بقلعية النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري، بما أبدته من حماس كبير في حركة الجهاد وبعث الروح في نظامها خلال قرن تال من الزمن لم ينته إلا في آخر القرن الثاني عشر الهجري مما سنقف عليه ضمن فصل حركة جهاد الأبراج وحصار مليلة على عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله.

إعدوين (عدوية)، العامريون الهلاليون كانت سكناهم بالقرب من مكان تيميزار الحالية مما يلي الشمال الغربي بجوار أحد روافد واد بحوا المعروف باسمهم(75).

---

(74) هنا يقع صاحب الوثيقة في التباس بالفصل بين أدرار أزواغ وتاميمونت، وهما اسمان لمكان واحد. وجدنا المكان عند زيارتنا خرابا بعد انتقال الأسرة إلى عبدونة بني شكر.

(75) حسب الرواية الشفوية التي نقلناها عن المرحوم الفقير ميمون أجواو عام 1975 فإن إعدوين تعرضوا لنقمة القلعيين أواخر القرن الماضي على عهد القائد الخضر بن محمد وتم إجلاؤهم إلى جبل ويسان بسيدي بوصبار، ولم يعودوا إلى المكان إلا حوالي سنة 1939.

القضيا (القضاة)، ذكرت الوثيقة أنهم من أيت عيسى المستقرين على الضفة اليسرى من مصب واد كرط بربع أمجاو السعيدي، وهو ما تؤيده الرواية الشفوية أيضا وبعض الوثائق التي بين أيدينا. وذكرت الوثيقة أن جدودهم كانوا قضاة بغساسة لذا استحقوا كنية القضاة.

تقع مساكن الأسرة في مرحلة وسطى من الكعدة بمكان متحجر بين تيميزار وأيت غانم وأولاد عمر بن عيسى القيطونيين. نعرف منها أحمد بن محمد بن أبي القاسم بن القاضي الكعداوي، صاحب تقييد عن جهاد القلعيين آخر القرن الحادي عشر الهجري ضد مليلة[76].

أيت غانم، يقع مدشر الأسرة بالقرب من قرار أولاد عمر بن عيسى جنوبا يسار مجرى واد إعدوين. وتوجد قرارات أخرى لها في الوطأ غرب جبل ويسان بالقرب من منبع إغزر أماسين، غير أننا لم نقف على تاريخ انتقالها إلى الوطأ، وربما كان ذلك خلال توسيع الكعدة حدودها إلى التلال المجاورة لضفة واد كرط اليمنى خلال القرن الحادي عشر أسوة بما فعلته أيت إدراين وإبعلوتن وإجواون وإياسينن.

أيت فكلان، اليزناسنيون. لم يبق منها في الوقت الحالي سوى الدلالة الجغرافية المشتملة على عدة أسر، دون أن نعلم بمصير النواة المهاجرة إلى الكعدة قبل القرن العاشر الهجري.

أغيل أمطغر، ربما كان الموضع موطن أسرة مطغرية ما قبل القرن السابع الهجري، واقع على الحافة الشمالية الغربية من الكعدة بارز بإشرافه على خانق أيت بوكافر. ففي القرن العاشر الهجري لم يعد اسم أغيل أمطغر مثل ما هو الآن سوى علم جغرافي، لم يشر إليه صاحب الوثيقة إلا عرضا حينما أراد الإعلان عن استقرار أسرة من العسارى جبل ن ويسان المشار إليها سلفا بنفس المكان.

---

(76) سنتعرض لتلك التقاييد في فصل جهاد الأبراج مما سيأتي.

إبعلوتن (أولاد بو علو)، لم تحدد الوثيقة موطنهم ما إذا كان بالجبل أو الوطأ ولكن قراراتهم الحالية توجد شمال قمة جبل ويسان بكعدة الوطأ بجوار أغيل بو فرحة وإمرابضن تيلزارت(77). ونعرف من الأسرة القائد القلعي المدعو من طرف الوثائق الإسبانية بوعلو المعين من طرف محمد الشيخ السعدي مثلما سنقف عنده لاحقا.

إمهياتن (المهايا)، أحلاف بني مرين وهم من سكان الدير استقروا بالمكان المعروف في القرن العاشر باسم باركوال المجاور لمسارح إغزر أماسين.

إبرداعن، وهم صانعو البرادع، جيران المهايا السابقي الذكر، مستقرون بين رأس مضوع في الجبل وإغزر أماسين في السهل، وهم حسب الوثيقة من الحراطين. عدت وثيقة النسب جملة من الأسر التي لا نعرف مكانها بالكعدة أو أنها خارجها عن حدودها:

إرتبون (رتابة) وضعهم صاحب الوثيقة بالكعدة وهو ما أشارت إليه الرواية الشفوية.نجدهم بجماعة بني انصار قبل منتصف القرن الثاني عشر(78).

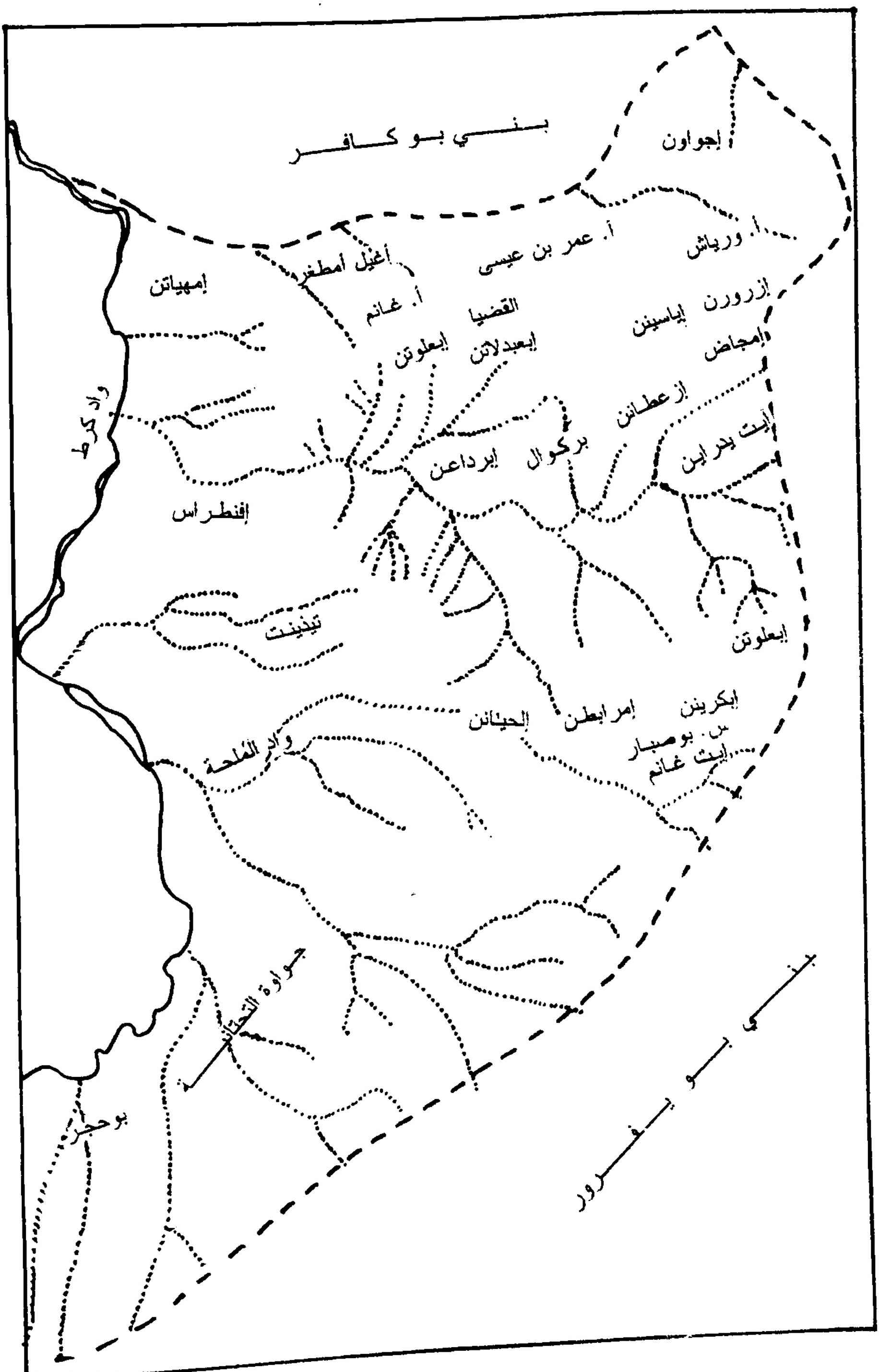
إعزانن (بني وعزان)، جعلتهم الوثيقة بالكعدة ونجدهم اليوم ببني بو كافر.

إلحفظا وإبعبدلاتن، موضع استقرار الأسرة الأولى غير معروف، بينما أشارت إلى الثانية وثيقة من وثائق رتابة.

فرقة ثلاث، ونعني بها ما هو معروف اليوم بأربعاء ثلاث بني سيدال. تحتل الجماعة من الوجهة الجغرافية واديا عريضا حفرته مياه واد تازوطا أهم روافد إغزر أماسين. تألفت الجماعة خلال القرن العاشر الهجري من أربع أسر

(77) بفرقة عدوية بجوار أغيل بو فرحة وإمرابضن تيلزارت. **ضابط الأمور الوطنية**، ص. 98.

(78) رواية محند أرتبي ببني أنصار أولاد الزهرة. ومن المعلوم أن جماعة رتابة توجد أيضا بتافيلالت، ولكننا لا نعرف العلاقة الموجودة بين الجماعتين.



خريطة خمس الكعدة

فقط، وبأرضها يعقد سوق الخميس وهو سوق أهل الكعدة كلها وجيرانها(79). والأسر هي:

جدول يبين جماعات الكعدة وأسرها

الجماعة	الأسر التابعة لها	عدد الأسر
الكعدة	إمحاض.إياسينن.إجواون.إورياشين.أولاد عمر بن عيسى. إعدوين.القضيا.أيت غانم.أيت فكلان.أغيل أمطغر. أبعلوتن.إمهياتن.إبرداعن.إرتبون.إعزانن.الحافظا.إبعبدلاتن	17
ثلاث	إمعتوكن.إزعطانن.إحشرن.إدراين	4
إماسينن	إفنطراس. إبحجرن. إجواون التحيين	3
	الجميع	24

إمعتوكن (العتيقيون) وإزعطنن، ممن لا يعلم بوجودهم بالمكان في الوقت الراهن.

إحشرن (بني حشير)، اكتفى في حقهم صاحب الوثيقة بقوله: "جيران سوق الخميس". وما زالوا بنفس المكان، يسار مجرى واد تازوطا.

أيت يدراين (إدراجن)، المدشر المستقر على الجانب الأيسر من واد تازوطا عند تمام مخرجه من خانق الجبل إلى المنخفض. ونعرف من المكان المرابط الحاج عزوز بن الحاج الدراجني القلعي في القرن الحادي عشر، وهو جد مرابطي تيلزارت(80).

إفنطراس، التراريون وهم من الثلاث الوطأ، كانت مجالاتهم بالضفة اليمنى من واد كرط عند التقائه بإغزر أماسين.

أيت بوحجر، يتعلق الأمر بجماعة صغيرة مستقرة داخل مجالات إجواون عند نقطة انحراف واد كرط نحو الشمال، وهي معروفة حاليا باسم إبحجرن.

---

(79) تحول موعد السوق في الوقت الراهن إلى يوم الأربعاء.

(80) عن الحاج عزوز الدراجني، أنظر ح. الفكيكي، **معلمة المغرب**، 2739/8.

3 ـ خمس بني بوكافر

دلت وثيقة نسب قبيلة قلعية على أن خمس بني بو كـافر كـان أضعـف الأخماس سكانا وأقله مسـاحة ومجـالا. ومـع كـل ذلـك فقـد احتفـظ بسـماته الشخصية كاملة. ويؤلف مجاله الطبيعي مجموعة من الأودية العميقة المترتبة عـن جريان قوي سابق لمياه كل من أودية إغساسـن وبو حمزة وبـو حـوا. ويندفـع السطح نحو الشمال بهضبة تاغزوت ورأس تاكونت.

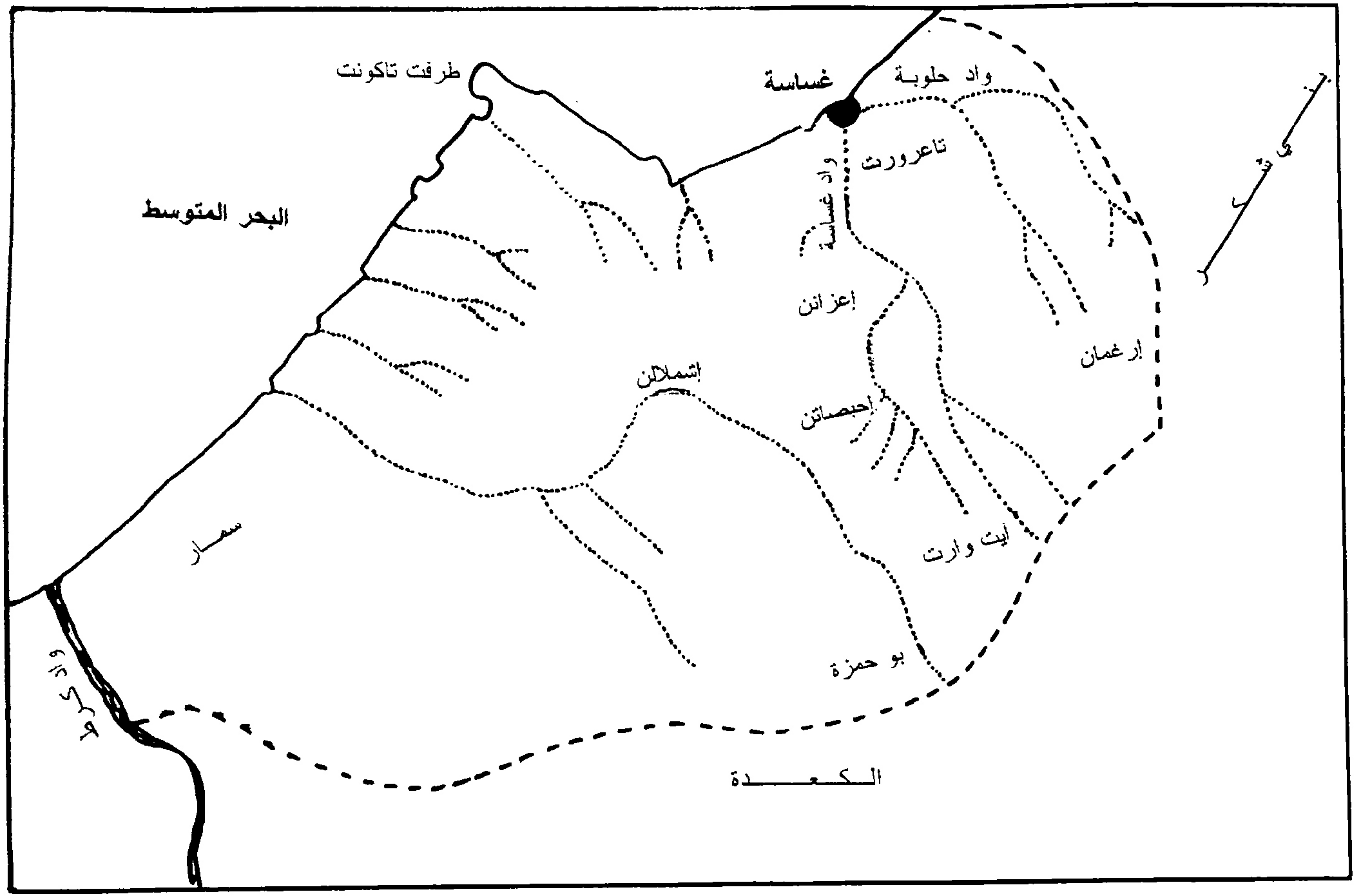
ويقع عند الحافة الغربية من الهضبة مرسى أيت بو كـافر. وبـالقرب منـه توجد عددة كهوف كانت فيما مضى ملجأ رجال البحر، تدعى حاليا إفـران ن واروي. (مغارات الأروى) وتتمازج العناصر السكانية المعروفـة لدينـا عنـد ذكر كل من بني بو يفرور والكعدة في تجمعات أسرية صغيرة لم تكن في القرن العاشر الهجري منتظمة في جماعات مثلما تظهر اليوم وأهم الأسـر:

إعزانن، المذكورين من طرف الوثيقة بالكعدة، فـإن لم يكـن قـد أخطـأ صاحبها في تحديد موقع الاستقرار تكون الأسرة قـد انتقلـت برمتهـا منهـا إلى أيت بو كافر المجاورة، لتستقر في موقع مشرف من هضبة أروف إرسحن على بعد ثلاثة كيلومترات من ساحل ومدينة غساسة.

إحبصـاتن، قدمهـم صـاحب الوثيقـة بكونهـم مـن أصـل عـرب المعقـل الأحلاف من أولاد الحسين وفخذ ذوي عبيد الله المعروفين في البطاسة بـأولاد حصين. وهـم يعرفون حاليا في موطنهم جنـوب إعزانـن بـأولاد عمـر أحبـص، نسبة إلى جدهم المستقر ببني بو كافر حسب الرواية الشفوية.

أيت وارث الغساسيون، هــي الأسـرة الوحيـدة الـتي تمكنـا مـن التعـرف عليها من بقايا سـكان مدينـة غساسـة المحتلـة عـام 1506/912. أول مـن أخبرنـا بوجودها هو عيسى بن محمـد البطوئـي السـعيدي أثنـاء التحـدث عـن الشـيخ المجاهد علي وارث الغساسي[81]. ولم يشـر إليهـا صـاحب الوثيقـة، ربمـا كـان السبب أنها كانت حديثة التكوين والاستقرار لقرب عهد الاحتلال.

(81) في تأليفه **مطلب الفوز والفلاح في طريق أهل الفضل والصلاح**.



خريطة خمس بني بو كافر

إمهياتن (المهايا)، بمجالات المعقليين ببني بو كافر بالضفة اليمنى من مجرى واد كرط ما بين قمة ثوميات ووواد بو حوا[82].

إعمرانن (العمارنة) المعقليون، لا نجد لهم أثرا ببني بو كافر، مثلما نجدهم بفرخانة وبني شكر.

المزالط، غير معلومين في الوقت الحاضر بمحيط الخمس.

جدول إحصائي لأسر بني بو كافر

أسماء الأسر	عدد الأسر
إعزانن. إحبصاتن. أيت وارث. إمهياتن. إعمرانن. المزالط.	
المجموع	6

4 - خمس بني شكر

تأثر خمس بني شكر أكثر من غيره من جراء الوجود الإسباني بمليلة وغساسة نتيجة واجهته البحرية الطويلة الممتدة بين المدينتين المحتلتين. وتنعكس تلك الأضرار في انسحاب السكان من الساحل والتخلي عن القالات والفجاج المجاورة بحثا عن مجالات داخلية متمثلة في هضبة شبه الجزيرة القاحلة وفي حوضي واد المدور الأعلى والأوسط.

وتوضح لنا وثيقة النسب أن أقصى حدود بني شكر الجنوبية الملامسة لقلعة تازوطا كانت تقف عند مدشر إرهوانن الشكريين المقابلين لإبعجاجن البو يفروريين. وفي أغلب الاعتقاد أن حدود الخمس مع بني بو كافر كانت مرسومة على خط مجرى واد غساسة من جهة الضفة اليمنى. أما حدوده مع

(82) لا ينبغي اعتبار مكان استقرار إمهياتن في الوقت الحالي جنوب واد تيفسور على أنه القرار القديم، إذ أنهم لم يغيروا مجالهم القديم بالمعاصر إلا أثناء فترة الحماية الإسبانية، وهناك خريطة تعود إلى بداية القرن العشرين تثبت ذلك.

إمزوجن (مزوجة) فيرسمها من جهة الشمال واد فرخانة، لتستمر تلك الحدود من جهة الشرق بمجرى واد المدور الأدنى إلى أسوار مليلة المنتصبة بين الحدين.

وفي صدد البحث عن العناصر المتساكنة داخل تلك الحدود إلى غاية القرن العاشر الهجري، فإننا لاحظنا وجود بعض التوازن بين الجهات الخمس المساهمة في تعمير بادية بني شكر، ربما مع رجحان طفيف كان لصالح جماعة ترارة. ولأول مرة يمكن لنا ملاحظة وجود عناصر من أصل يهودي اعتنقت الإسلام في وقت سابق للقرن العاشر الهجري. ويبرز تعمير أراضي خمس بني شكر في أربع فرق:

حوض المدور الأعلى، ويقصد به حوضه الواقع بين ظهر القرمود وكعدة كل من إجواون وإرغمان، ويعرف واد المدور في تلك الجهة بواد إزرورن، وتنحدر مياهه بسرعة إلى منخفض تيزى. ففي هذا المجال الأول نجد من التجمعات:

إرهوانن، على الرغم مما يوحي بالاشتقاق من قبيلة رهونة، فإن صاحب وثيقة النسب المعتمدة رجح انتماءهم إلى صنهاجة المرابطين. احتلت مساكنهم مدرجات الضفة اليمنى لواد إزرورن، مجاورين هناك مدشر ترارة.

ترارة (إثرارن)، اندفعت إلى قلعية من جبال ترارة الواقعة بالغرب الجزائري عدة أسر حازت منها خمس بني شكر الأغلبية. وربما كانت أقدمها تلك التي وصلنا خبر سابق استقراها في آخر القرن الثاني عشر مما قدمته الوثائق الإسبانية، حين عينت لها موضعا على مصب واد المدور بالقرب من كدية أو مزوجة[83]. اختارت ترارة من بني شكر النزول بجانب عين غزيرة المياه تبلغ سرعة تدفقها خمس لترات مكعبة في الثانية، شبيهة بالعين الكبيرة المعروفة بترارة الجزائرية المدعوة بعين الحوت.

---

(83) Juan Caballero, *Diario.* ؛ أنظر ح. الفكيكي **سيدي محمد بن عبد الله وقضية مليلة المحتلة**، الرباط 1996، ص. 29.

العثامنة (أولاد عثمان)، المعقليون استقروا على واد المدور بمنخفض تيزى. وقد أضاف صاحب الوثيقة بأنهم معروفون أيضا بأولاد سالم وربما تعلق الأمر بنسب الداخل منهم إلى قلعية. وتوجد جماعة أخرى تحمل نفس الإسم مستقرة حاليا بجبل هورك لا نعرف شيئا عن انتقالها إلى ذلك الموطن.

إقنباع، من الأسر التي عبرت عنها الوثيقة بقول صاحبها: " لا حسب ولا نسب لهم، وقيل جدهم إسلامي" ، مثلهم مثل إشعبانن وأيت عمورت ويفهم من هذا أمرين: إما أنها من بقايا الأسر السابقة للقرن السابع الهجري، أو أنها من الأسر اليهودية التي اعتنقت الإسلام قبل القرن العاشر الهجري بالمدة التي يكفي الاشتباه في أمرها. استقرت الأسرة بمنخفض تيزى على الضفة اليمنى من من واد المدور.

إجهلون، اشتبه الأمر على صاحب الوثيقة فردهم إلى أبي جهل، أقاموا مساكنهم بتاغروط من منحدرات جبل القرمود، مما يقابل أولاد حمو يش، أهل جبل القرمود.

حوض المدور الأوسط: نعين به الحوض الممتد من منخفض تيزى إلى تيغورفاتين المشرفة على واد المدور بتاوريرت الباز. ففي هذا المجال يتجمع أغلب سكان الخمس ضمن فرقة عبدونة بإشارة من وثيقة النسب. ويضم الحوض من الأسر:

إورياشين، حددت الوثيقة موضع إقامتهم بفرقة عبدونة دون تحديد ونجدهم في الوقت الراهن مستقرين بعدد قليل على واد المدور بالقرب من سيدي بو زيد[84].

أولاد عامر، الهلاليون ويظهرون اليوم في التقسيم الإداري باسم أولاد عمر المجاورين لمدشر إبقديدن[85].

---

(84) أولاد ورياش بقلعية قبل القرن الثالث عشر فرقتان: فريق محمد بن علال وأخيه أحمد بن علال. وثيقة بتاريخ 10 ربيع الأول 1857/1274.

(85) **ضابط الأمور الوطنية**، ص. 100.

أولاد يعلا، ربما يعني صاحب الوثيقة أولاد علا الحاليين المستقرين ضمن فرقة أولاد عثمان بموضعي هيدون و كعدة تامزونت.

إزمورن، لا تدخل هذه الأسرة ضمن قائمة صاحب الوثيقة، ويعود إدراجها إلى ما ذكرته الوثائق الإسبانية عن الفقيه أزمور الذي كان مكلفا بافتداء الأسرى الشكريين من مليلة في منتصف القرن العاشر الهجري. وذكر الفقيه باسم أزمور يعني أنه من أسرة إزمورن[86]. ويظهر مدشر إزمورن في الوقت الراهن حسب التقسيم الإداري بفرقة أولاد عثمان بين أدار أوراغ وأولاد لحسن، جنوب هضبة تامنزوشت يجاورهم هناك مدشر إكطوفن.

إكطوفن، سبقت الإشارة إلى أنهم أقدم من نعرف من سكان قلعية منذ ما قبل القرن الرابع الهجري، وإلى غاية الوقت الحاضر ما زالوا يدعون بأيت إفران إشارة إلى بني يفرن الزناتيين. يستقرون حاليا ضمن فرقة أولاد عثمان على ساحل البحر من كدية تامنزوشت.

إبراقن أفرح، حسب الوثيقة من السجع الهلاليين إخوة الذين بسهب براقة من بني بو يفرور. يندرجون اليوم في فرقة بجيوة (إبجيون) ومدشرهم بين إددوحن وأولاد علا هيدون[87].

إشعبانن، من الإسلاميين حسب الوثيقة، مدشرهم على واد تيغورفاتين الأوسط.

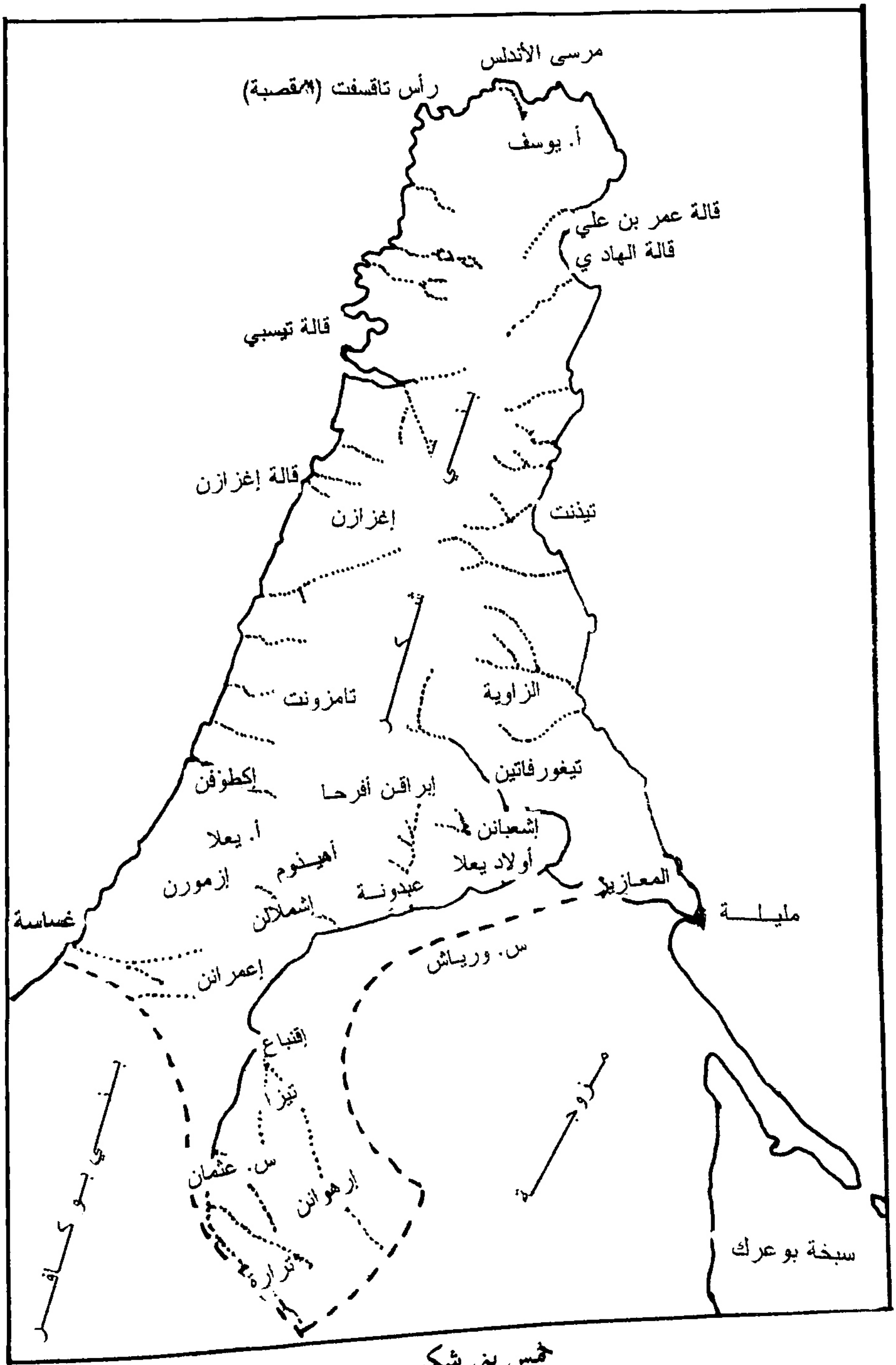
هناك مجموعة من الأسر لم نتوصل إلى معرفة مكانها لتضاؤل أمرها في الوقت الراهن، منها: **إنزارن** ربما هم في ترارة، **وإقلوشن** البطاسيون **وأيت عمورت** الإسلاميون **وبني عمر وإيحيون (أولاد يحيى)**.

حوض واد المدور الأدنى، ليس من الغريب ألا يلتفت صاحب الوثيقة إلى ساكني حوض واد المدور الأدنى، ففي وقته كان خاليا من أهله بسبب الوجود الإسباني بمليلة.

---

(86) رسالة مليلة بتاريخ 3 مارس 1551.

(87) **ضابط الأمور الوطنية**، ص.100.


مرسى الأندلس
أ. يوسف
قالة عمر بن علي
قالة الهادي
قالة تيسبي
قالة إغزازن
إغزازن
تيذنت
تامزونت
الزاوية
تيغورفاتين
إكطوفن
إبراقن أفرحا
إشعبانن
أ. يعلا
أهينوم
أولاد يعلا
إزمورن
عبدونة
المعازيز
مليلة
غساسة
إشملالن
س. ورياش
إعمرانن
إقنباع
تيزا
س. عثمان
إرهوانن
ترارة
سبخة بو عرك

خمس بني شكر

غير أنه تبين من خلال رسم يعود إلى الربع الأخير من القرن الثاني عشر الهجري أن هناك جماعة هامة من السكان محتلة لبقعة بالتلال الشمالية الغربية المشرفة على صخرة مليلة تحمل اسم Cabrerizas، وهو ما يوافق بالترجمة اسم **المعازيز**، وتوجد الأسرة ضمن قائمة سكان قلعية خلال القرن العاشر الهجري. ومن الجائز الاعتقاد أن أفراد هذا التجمع لم يعووا إلى الاستقرار بالمكان إلا بعد تأسيس رباط مليلة وانتظام الحراسة الدائمة به إثر احتلال الإسبان لغساسة سنة 1506/912. وهم بذلك السكان الوحيدون العائدون إلى ميدان مليلة بعد الاغتصاب.

جبل هورك (أورك ـ ورك)، اسم هورك قديم ذكره البكري ربما كانت الجذور عائدة إلى ما قبل الفتح الإسلامي، يقصد بالجماعة مجموع المساحة الممتدة بشبه جزيرة هورك أو طرف أو رأس أو جبل هورك، قاعدتها الجنوبية عند خط هضيبات تيغورفاتين وتافراست وتامزونت.

والسطح عبارة عن كتلة هضبية تنتهي جوانبها الثلاثة الشرقي والغربي والشمالي بحافات متقطعة بالمسيلات مكونة هناك بالساحل عدة قالات أو مرسات صغيرة، مثلما تدعى محليا. كان جبل هورك منذ ما قبل القرن الرابع الهجري آهلا، وأهله على جانب من الخبرة في الميدان التجاري[88].

لم يختلف مصير أهل جبل هورك عما رأيناه من التعرض للخطر الإسباني، وهذا هو ما يفسر خلو تلك المساحة من أغلب سكانها. والدليل على ذلك أن صاحب وثيقة النسب لم يذكر أي أسرة من التجمعات الهوركية. وما ندرجه هنا مستمد من الوثائق الإسبانية، فقد لاحظنا أن خلو الجهة لم يكن شاملا، وكانت السفن الإسبانية تحتاط من الوقوع بيد أهل الناحية. وهذا هو ما وقع خلال عدد من المرات. وفي اعتقادنا أن تجمعين على الأقل كانا موجودين بالمكان[89].

---

(88) ح. الفكيكي، "مليلة حاضرة قلوع كرط". **دار النيابة**، 1985/7 و1986/9.

(89) مثال ذلك رسالة مليلة بتاريخ 30 ماي 1554.

أولاد يوسف، عدهم صاحب الوثيقة من ضمن سكان خمس مزوجة. ولما كانت الأسرة غير معروفة به وتوجد ببني شكر جاز لنا أمران: وقوع صاحبها في خطأ أو أن الأمر متعلق بهجرة الأسرة إلى حيث نجدهم اليوم مستقرين مكونين المدشر المعروف باسمه الأمازيغي " إفري ن الدونشت" (كهف الدنيا)، بأقصى شمال جبل هورك.

إغزازن، على الرغم من وجود التشابه بين لفظي إغزازن وإغساسن مما يدفعنا إلى التفكير في الأصل الغساسي، فإن صعوبة تحويل اللفظ شكلا ونطقا جعلنا نتراجع عن عدم الإعلان عن التطابق. يعيش أهل مدشر إغزازن في تجمع صغير على الساحل الغربي من شبه الجزيرة بفرقة بجيوة، بين ثلاث سيدي موسى وميسيديت بالداخل وقالتي إغزازن وبو عمر على الساحل.

جدول إحصائي لتجمع خمس بني شكر

الجماعات	الأسر	العدد
المدور الأعلى	إرهونن.ترارة.العثامنة.إجهليون. إقنباع	5
المدور الأوسط	إورياشين.أ. عامر.أ. يعلا.أ. عامر. إزمورن.إكطوفن.إبراقن أفرح.إنزارن.إقلوشن. إشعبانن.أيت عمروت.بني عمور.	12
المدور الأدنى	المعازيز	1
جبل هورك	أولاد يوسف. إغزازن	2
	الجميع	20

5 - خمس مزوجة

لا يمكن استنتاج أي شيء من كتابات الحسن الوزان لصالح مزوجة، إذ أنه أضاف السفح الشرقي من جبل قلعية إلى جبال كبدانة. فجبال كبدانة حسب رأيه ممتدة من غساسة إلى ملوية، في وقت نجد الأراضي الفاصلة بين قلعية

وكبدانة سهلية وليست جبلية تشغل سبخة بوعرك جل مساحتها. ويقدم لنا مارمول كاربخال ما يثير رأيا آخرسبق لنا طرحه(90).

وحسبنا أن الكاتب المجهول وضع في اعتباره لتحديد إطار مزوجة كل المساحة الممتدة جنوب واد المدور من مصبه إلى اتصاله بواد فرخانة، ومن هناك يتبع خط الحدود مجرى الواد الأخير إلى منبعه بجبل السبت، إحدى قمم كتلة أكركور ثم الانحدار من ذلك العلو عبر ظهر تينرت والاتجاه جنوبا إلى مصب واد سلوان بسبخة بو عرك.

والملاحظ أن اسم مزوجة الأصلي تحمله الفرقة التي كانت تجمعاتها منتشرة حول ساحل شمال سبخة بوعرك والجبل المتصل به من جهة الشمال وقد استطاعت هذه الفرقة أن تضم إليها وتحت اسمها الفرقتين الباقيتين: أيت انصار وفرخانة، وذلك بالطبع قبل القرن العاشر الهجري.

وكان محيط مزوجة في بداية القرن العاشر آهلا بالسكان تؤلفه ثلاث جماعات متوازنة الأعداد معلومة باسمها الخاص بها، وهو ما لم نعرفه في جهات أخرى بقلعية سوى بصورة جزئية، مما يدفعنا إلى القول أن مزوجة كانت قد استكملت إطارها الذي بقيت عليه من الوجهة الإدارية إلى وقت قريب. وما يزال اسم فرقة مزوجة العالق بذهن هذا الجيل دالا على إطارها الجغرافي الأصلي المعروف لدينا في القرن العاشر الهجري ونسير الآن على منوال هذا التقسيم(91).

فرقة فرخانة، تشغل القسم الشمالي من خمس مزوجة، وتنطبق المساحة على الفراغ الواقع بين وادي فرخانة من لدن منبعه إلى اتصاله بواد المدور، بمقربة من سامار ومدشر إورياشين شمالا إلى ظهر إزروالن جنوبا كحد فاصل بينها وبين أيت انصار. وداخل هذا الإطار نجد التجمعات الأسرية التالية:

---

(90) **إفريقيا**، 291/2. زرنا تيمزوجين بفرقة الشراويط كبدانة وهي بالقرب من مزارة سيدي ميمون، قيل إنها محطة كانت لبني مرين وبني وطاس. زيارة 22 غشت 1975.

(91) حلت خلال الفترة الاستعمارية مكان فرقة مزوجة كل من فرق الناظور وبراقة والمسامير.

أولاد يوسف، عدهم صاحب الوثيقة من ضمن سكان خمس مزوجة. ولما كانت الأسرة غير معروفة به وتوجد ببني شكر جاز لنا أمران: وقوع صاحبها في خطأ أو أن الأمر متعلق بهجرة الأسرة إلى حيث نجدهم اليوم مستقرين مكونين المدشر المعروف باسمه الأمازيغي " إفري ن الدونشت" (كهف الدنيا)، بأقصى شمال جبل هورك.

إغزازن، على الرغم من وجود التشابه بين لفظي إغزازن وإغساسن مما يدفعنا إلى التفكير في الأصل الغساسي، فإن صعوبة تحويل اللفظ شكلا ونطقا جعلنا نتراجع عن عدم الإعلان عن التطابق. يعيش أهل مدشر إغزازن في تجمع صغير على الساحل الغربي من شبه الجزيرة بفرقة بجيوة، بين ثلاث سيدي موسى وميسيديت بالداخل وقالتي إغزازن وبو عمر على الساحل.

جدول إحصائي لتجمع خمس بني شكر

الجماعات	الأسر	العدد
المدور الأعلى	إرهونن. ترارة. العثامنة. إجهليون. إقنباع	5
المدور الأوسط	إورياشين. أ. عامر. أ. يعلا. أ. عامر. إزمورن. إكطوفن. إبراقن أفرح. إنزارن. إقلوشن. إشعبانن. أيت عمروت. بني عمور.	12
المدور الأدنى	المعازيز	1
جبل هورك	أولاد يوسف. إغزازن	2
	الجميع	20

5 ـ خمس مزوجة

لا يمكن استنتاج أي شيء من كتابات الحسن الوزان لصالح مزوجة، إذ أنه أضاف السفح الشرقي من جبل قلعية إلى جبال كبدانة. فجبال كبدانة حسب رأيه ممتدة من غساسة إلى ملوية، في وقت نجد الأراضي الفاصلة بين قلعية

وكبدانة سهلية وليست جبلية تشغل سبخة بوعرك جل مساحتها. ويقدم لنا مارمول كاربخال ما يثير رأيا آخرسبق لنا طرحه(90).

وحسبنا أن الكاتب المجهول وضع في اعتباره لتحديد إطار مزوجة كل المساحة الممتدة جنوب واد المدور من مصبه إلى اتصاله بواد فرخانة، ومن هناك يتبع خط الحدود مجرى الواد الأخير إلى منبعه بجبل السبت، إحدى قمم كتلة أكركور ثم الانحدار من ذلك العلو عبر ظهر تينرت والاتجاه جنوبا إلى مصب واد سلوان بسبخة بو عرك.

والملاحظ أن اسم مزوجة الأصلي تحمله الفرقة التي كانت تجمعاتها منتشرة حول ساحل شمال سبخة بوعرك والجبل المتصل به من جهة الشمال وقد استطاعت هذه الفرقة أن تضم إليها وتحت اسمها الفرقتين الباقيتين: أيت انصار وفرخانة، وذلك بالطبع قبل القرن العاشر الهجري.

وكان محيط مزوجة في بداية القرن العاشر آهلا بالسكان تؤلفه ثلاث جماعات متوازنة الأعداد معلومة باسمها الخاص بها، وهو ما لم نعرفه في جهات أخرى بقلعية سوى بصورة جزئية، مما يدفعنا إلى القول أن مزوجة كانت قد استكملت إطارها الذي بقيت عليه من الوجهة الإدارية إلى وقت قريب. وما يزال اسم فرقة مزوجة العالق بذهن هذا الجيل دالا على إطارها الجغرافي الأصلي المعروف لدينا في القرن العاشر الهجري ونسير الآن على منوال هذا التقسيم(91).

فرقة فرخانة، تشغل القسم الشمالي من خمس مزوجة، وتنطبق المساحة على الفراغ الواقع بين وادي فرخانة من لدن منبعه إلى اتصاله بواد المدور، بمقربة من سامار ومدشر إورياشين شمالا إلى ظهر إزروالن جنوبا كحد فاصل بينها وبين أيت انصار. وداخل هذا الإطار نجد التجمعات الأسرية التالية:

---

(90) **إفريقيا**، 291/2. زرنا تيمزوجين بفرقة الشراويط كبدانة وهي بالقرب من مزارة سيدي ميمون، قيل إنها محطة كانت لبني مرين وبني وطاس. زيارة 22 غشت 1975.

(91) حلت خلال الفترة الاستعمارية مكان فرقة مزوجة كل من فرق الناظور وبراقة والمسامير.

جماعة القرمود، دعي به السفح الشمالي الشرقي المتصل بجبل سيدي أحمد الحاج، ابتداء من قمة متابل المعروفة لدينا ومنبع واد فرخانة. والاسم معروف عند صاحب وثيقة النسب ومارمول كاربخال دون الحسن الوزان ورسائل مليلة الصادرة خلال الفترة المدروسة(92). ويندرج في محيطها البشري:

مطماطة (إمضماضن)، من سكان قلعية الأقدمين يحتلون القسم الأعلى من القرمود، ما يزالون إلى الوقت الراهن معروفين بنفس الاسم رغم تعاقب القرون.

حمو يش (يوسف)، من أصل السجع الهلاليين حسب وثيقة النسب استقروا بالمدشر المعروف بالقرمود بالقرب من منبع واد فرخانة. كان منهم الطالب عبد الله بن يش أحد مجاهدي رباط مليلة على عهد المولى رشيد(93).

إشاوين (أولاد الشاوي)، استنتجنا وجودهم من تقييد ابن القاضي الكعداوي، جيران أولاد حمو يش، كان منهم الطالب بلقاسم الشاوي، أول قائد قلعي من طرف المولى الرشيد ورئيس مرابطي رباط مليلة(94).

جماعة فرخانة (إفرخانن)، يستند توزيع مداشرها إلى الخصوبة التي يوفرها واد فرخانة في حوضه الأوسط، وهي منتظمة من الغرب إلى الشرق:

أيت يخلف، التراريون يستقرون بأعلى الوادي من جهة اليمين بجوار إعمرانن.

إعمرانن (العمارنة)، المعقليون استقروا بالمكان الموازي لأيت يخلف على الضفة اليمنى من واد فرخانة.

إحجيون، من الأسرة التي لم يلتفت إلى وجودها صاحب الوثيقة، ووجودها بفرخانة لم يشبه أي شك بشهادة رسائل حكام مليلة. كان منهم في القرن العاشر الهجري الفقيه المكلف بافتداء الأسرى الفرخانيين من مليلة،

(92) مارمول، **إفريقيا**، 2/ 258 رسائل مليلة أولاها بتاريخ 10 ماي 1551.

(93) **تقييد** أحمد بن القاضي الكعداوي. مخطوط خ.ح.ر.

(94) حاليا بفرقة فرخانة بعد دمج القرمود بها. **ضابط الأمور الوطنية**، ص. 101 .

عرفت به المراسلات باسم كنيته "حجي"[95]. يمتد موقع المدشر الحالي على حوض واد فرخانة المنحصر بين نقطة الحدود ومركز الإدارة الفرخانية.

إجهراتن، هم إخوة المشار إليهم بجماعة أزغنغان من بني بو يفرور، استقروا على الجانب الأيمن من وادي فرخانة غرب المركز الإداري، مقابلين هناك إحجيون مما يلي الشرق[96].

أولاد يوسف، عين صاحب الوثيقة موطنهم بجماعة فرخانة، إلا أننا لم نقف عن ذكرهم، وسبق أن وضعناهم ببني شكر جماعة جبل هورك.

إياسينن (أولاد ياسين)، من الفرقة الكعداوية السابقة الذكر. وعلى الرغم من صعوبة الإشارة إلى النواة السباقة للاستيطان بقلعية إلا أنه يمكن الترجيح بانفصال إياسينن فرخانة من الكعدة مثلهم مثل إياسينن الكعدة الوطاوية. استقرت الأسرة بجوار واد ينساب من قمة متابل يدعى باسم الأسرة.

سيدي محمد المجاهد، ليس هذا اسم الأسرة المكونة للمدشر، استمد التجمع السكاني باسم أحد رجاله المجاهدين في ميدان مليلة قبل القرن الثاني عشر الهجري (18 م.) إلى درجة احتجاب اسم الأسرة أو الأسر المكونة له. ويعود كل ما نعرفه عن المدشر إلى الوثائق الاسبانية بدءا من حصار مليلة على عهد سيدي محمد بن عبد الله، والمكان معروف بقبته البيضاء اللون من برج مراقبة مليلة[97].

جماعة بني انصار، تشكل تجمعاتها الفرقة الثانية من خمس مزوجة بمحيط جغرافي واضح، إذ أنه يشمل السفح الشرقي من جبل قلعية، يبدو على شكل مثلث رأسه عند قمة متابل والقلعة، بينما يمثل ضلعه الأيمن من أدار أحرذوف، ويكون الضلع الأيسر ظهر أيت وغماران إلى اتصاله بتل تاليوين عند ساحل سبخة بوعرك.

---

(95) منها المؤرخة في 2 غشت 1551.

(96) **ضابط الأمور الوطنية**، ص. 101.

(97) نشك في اسم محمد المجاهد أن يكون محمد الكزنائي، صاحب مسيرة مليلة الآتي بيانها.

إحبصاتن، سبق أن قدمت ما قاله صاحب وثيقة النسب عن جماعتهم المستقرة ببني بوكافر. استقرارهم في مزوجة بجوار منابع واد تاغزوط الذي تجري مياهه بين خانق القلعة ومتابل.

القلعة، استنتجنا وجود المدشر دون معرفة الأسرة القائمة هناك مما قدمه الإخباري الإسباني خيرونمو ثوريتا حسبما سبق. ما يزال المدشر محتلا نفس الموقع القديم على السفح الشرقي من كتلة القلة بمقربة من عدة عيون تغذي واد سيدي موسى وواد رتابة الجنوبية(98).

رتابة (إرتبون)، سبق أن لاحظنا أن صاحب وثيقة النسب وضعهم بالكعدة ولم يشر إليهم بمزوجة، مما حملنا على الاعتقاد بهجرة الأسرة إلى بني أنصار بعد ذلك في ظرف نجهله، ربما كانت لها علاقة بتنظيم الجهاد خلال القرن الثاني عشر، سيما أثناء حصار سيدي محمد بن عبد الله لحصن مليلة على يد المقدم أحمد الرتبي وابنه محمد بعده مما سنتعرض له، وكانت لهم قصبة بني أنصار التي هي قصبة رتابة في نفس الوقت.

أولاد صالح، استفدت وجودهم من وثائق رتابة ورسوم عقارية أخرى، مستقرهم عند منبع الواد المعروف باسمهم بين القلة وإحبصاتن وإغمارين. كان منهم في مستهل القرن الثالث عشر ملازم مسجدهم الفقير محمد بن أحمد بن عيسى النصري، والفقيه محمد بن العربي الشرقاوي(99).

أولاد الزهرة، ذكر صاحب الوثيقة هذه الأسرة، كما ورد اسمها في عدة رسوم عقارية. يلتف السكان حول قبة سيدي رحمون في موضع واقع بجوار قصبة رتابة مما يلي الشرق(100).

أولاد العربي، مستقرون على الكعدة الموالية لأولاد الزهرة وأولاد سالم بجوار إوهذانن.

---

(98) Jeronimo Zurita , *Historia del Rey D. Hernando*, t. 5, p. 136

(99) وثيقة بتاريخ أوائل شعبان 1217 هـ.

(100) **ضابط الأمور الوطنية**، تطوان 1951، ص. 101

أولاد سالم العثامنة المعقليون الأحلاف، تنتظم دورهم حول مجرى واد تاغزوط مما يقابل قبة سيدي ميمون.

إوهذانن، اليزناسنيون سكناهم أسفل قصبة رتابة مما يلي الشرق عند نقطة اتصال كل من واد إقبوزن وواد مرزوق.

إغمارين، يجاورون من علو موقعهم جماعة أيت واغماران.

فرقة مزوجة، تمتد حدودها الشمالية بأراضي أيت أنصار وتستمر جنوبا لتحد أيضا من الجهة الغربية بأراضي بني بو يفرور إلى أن تتوقف الحدود الجنوبية عند مجرى واد سلوان جنوب سبخة بوعرك حيث مبدأ أراضي كبدانة. كان هذا الفراغ من نصيب جماعات عربية الأصل قصدته من سهل أنكاد، وهي:

أيت ختلان، لم يشر إليها صاحب الوثيقة، والجماعة مستقرة في الهامش الجبلي المشرف على ساحل تيرقاع من سبخة بوعرك.

براقة (إبراقن)، من السجع الهلاليين تجدهم في السهل الواقع بين أزغنغان وإشعالن. وقد أخبرنا الإسبان بوجود اسم سهل براقة في منتصف القرن السادس عشر[101].

المسامير، يشغلون من جماعة مزوجة الفراغ الواقع بين جبل العافية أو أفرا وساحل سبخة بوعرك إلى موقع كدية تينكمارت (تينيمارت أيضا).

إحفطلاين، إخوة المساير في الأصل والجوار، يستقرون في أقصى حدود مزوجة بين تينكمارت ومصب واد سلوان.

أيت مشعلت (إشعالن)، قال عنهم صاحب الوثيقة إنهم إخوة المشعلة ولسنا ندري ما إذا كان يقصد أن الاسم له علاقة بمعركة المشعلة التي جرت بين الموحدين والمرينين بناحية النكور كما ذكرته المصادر. ربما كان الأمر

---

(101) رسالة مليلة بتاريخ 25 يناير 1554.

كذلك، غير أن المسألة في حاجة إلى تمعن وبحث أكثر، وآنذاك يمكن إثبات وجود اسم إشعالن في غضون القرن السابع الهجري[102].

أيت الناظور، ربما كان الحديث عن أيت الناظور ما زال مبكرا، غير أن الاسم وما جاء في وثيقة مؤرخة بمستهل القرن الثالث عشر الهجري (19 م.) عن موثق يدعى محمد بن عمروش الناظوري دفعنا إلى الاعتقاد بوجوده خلال القرن الثاني عشر الهجري[103]. فالمعتقد أن أهل مزوجة خاصة كانوا يتخذون التل المشرف على سبخة بوعرك من جهة إشماي نقطة مراقبة دخول السفن الأجنبية التركية والإسبانية إلى السبخة من الفتق الجنوبي[104].

ولما كانت تلك المراقبة قد بدأت خلال القرن العاشر الهجري، فإننا نعتقد أن مداومة الحراسة حول المكان هو الذي ميز أيت الناظور من مزوجة بتجمع جديد لم يظهر جليا إلا في الربع الأخير من القرن الثاني عشر الهجري وما يليه.

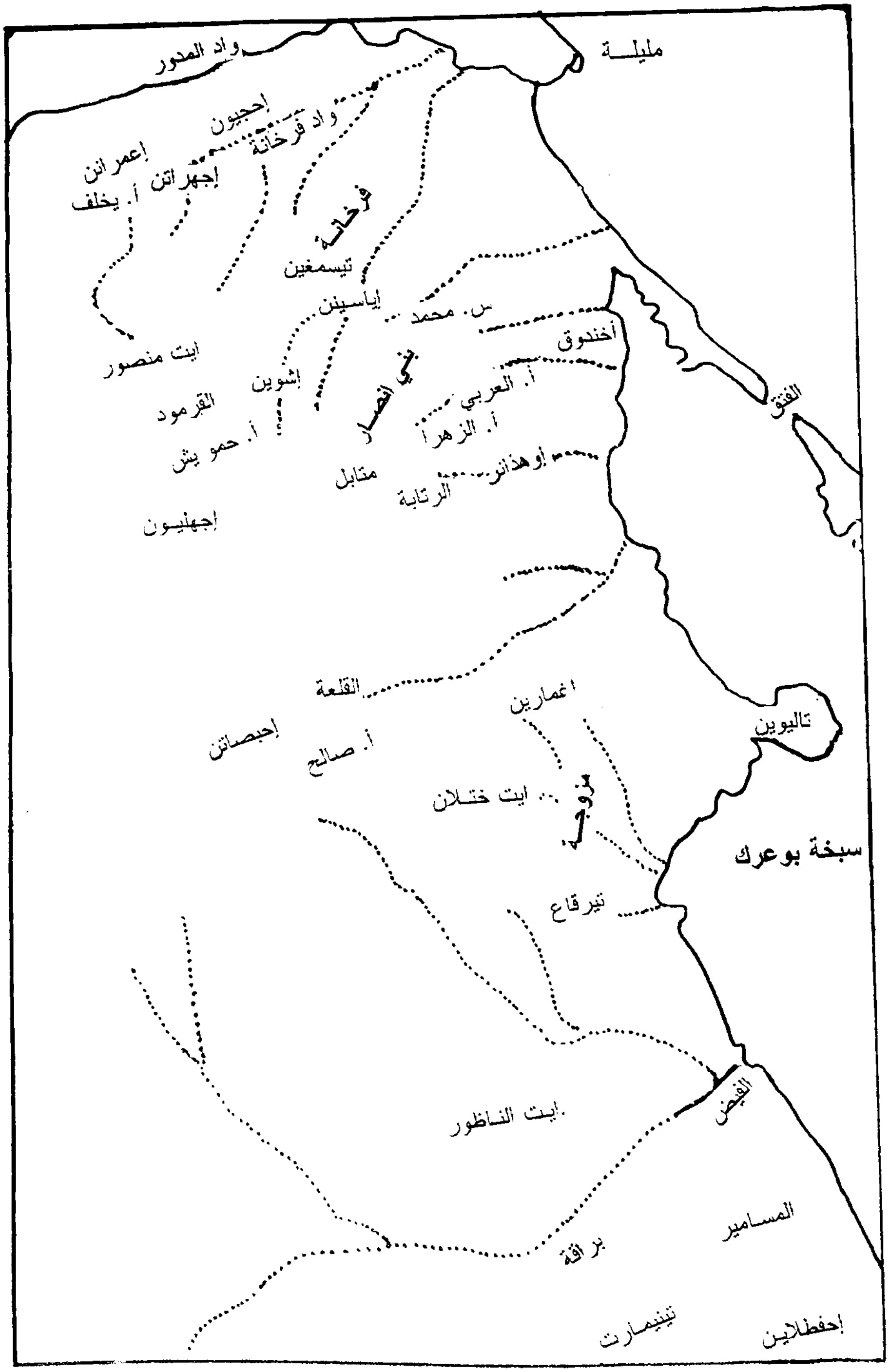
هكذا تكونت جماعة أيت الناظور بالفراغ المتواري حول تل الناظور الحالي، مما يقابل إحدادن السبت الشكريين، وكانت المناسبة خلق سوق جديد دعي سوق الجمعة القديمة بالمكان الذي كان معروفا منذ وقت قريب بسيدي بغداد حول بئر ذي ماء جيد.

---

(102) نميل إلى الأخذ بكون المشعلة المقصودة هي أيت مشعلت أو إشعالن.

(103) **وثائق رتابة:** أوائل شعبان 1217 هـ. و أواخر رمضان 1218 هـ. ليس اسم الناظور مقتصرا على قلعية، بل هو معروف بجهات من المغرب الكبير وبنواحي من المغرب والريف الشرقيين.

(104) تتسرب مياه البحر المتوسط إلى سبخة بوعرك عن طريق مضايق حفرتها المياه في جسم الشريط الرملي الحاجز المعروف لدى القلعيين بالجزيرة ولدى الإسبان باسم ريستينكا (Restinga) . وتعرف المضايق أو المجازات المائية محليا بالفتاك (الفتق)، أهمها الفتق الجنوبي المعروف بالمهندس منذ وقت قريب.



خريطة خمس مزوجة

جدول إحصائي لتجمعات خمس مزوجة:

الفرق	الجماعات	الأسر	عددها
فرخانة	**جماعة فرخانة**	إعزانن. إجهرتن. إحجيون. العمارنة أولاد يخلف أولاد يوسف. أيت لعرنت. إيسينن. سيدي محمد	9
	جماعة القرمود	مطماطة. أولاد حمو يش. إشوين. أيت القرمود	4
بني انصار		إحبصتن. القلة. إرتبون. أولاد صالح. أولاد الزهرة. أولاد العربي. أولاد سالم . إوهذانن. إغمارين	9
المسامير		المسامير. براقة. إحفطلاين. أيت مشعلت أيت الناظور	5
		الجميع	**27**

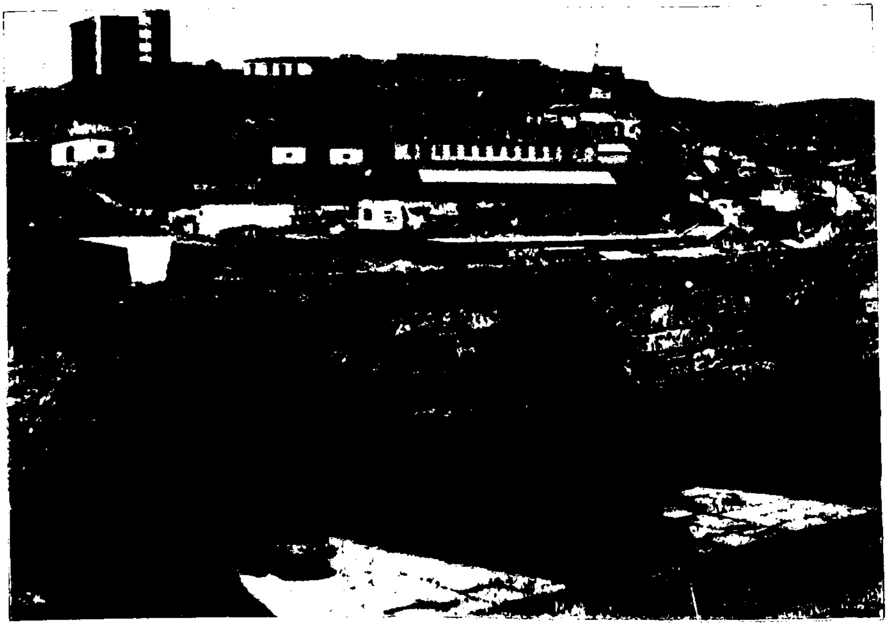
تمكننا قرءة هـذا الفصـل عمـلا بالغايـة المتوخـاة منـه مـن تصـور كـامل للإطار البشري المسـاهم في حركـة المقاومـة القلعيـة بـأقصى الشـمال الشـرقي المغربي. وعلى الرغم من الحجم المستفاد من المصادر المستعملة فإننا نجد أنفسنا مجبرين على الصمت عاجزين عن تقديم تفاسـير أخـرى نحـن في أمـس الحاجـة إليها.

وكل ما يمكن قوله عن موضوع التكيف السكاني أن السنوات السـابقة للقرن العاشر الهجري كانت كافية لإيجاد أرضية الوحـدة الاجتماعيـة بالنسـبة لكل خمس على حدة. ولكن عنصـر الوحـدة الشـاملة بالنسـبة لكـل الأخمـاس القلعية مجتمعة هو قرار التضامن لمواجهة الحامية الإسبانية بمليلة.

والخلاصة الأساسية للتجمع البشري الجديد المناهض للوجود الأجنبي هو التقسيم الخماسي. ولا شك أن الفواصـل الطبيعيـة البـارزة بالسـطح هـي الـتي

ساعدت على تمييز حدود الاستيطان بين مختلف الأخماس، خاصة ما توفره مجاري المياه وحافات الهضاب في هذا الباب.

والنتيجة ظهور حدود مصطنعة قارة على سطح المخروط البركاني. وهكذا يمكن القول عن بني شكر إنهم أهل جبل هرك وعن مزوجة أهل سبخة بوعرك وعن بني بو يفرور أهل جبل ويسان وعن بني بو كافر والكعدة أنهم أهل الهضاب والكعدات. فما هي مظاهر التضامن القلعي لمناهضة الوجود الإسباني؟



ساحة الأسلحة (المخاط الثاني) في مقدمة الصورة وكدية القبو في أعلاها





غساسة: ما تبقى من درج القلعة (الصورة العليا) ومن باب المدينة (الصورة السفلى)

القسم الثالث

نماذج من المقاومة خلال المرحلة الأولى

(1767/1181–1497/903)

(1)

عـودة غسـاسـة

يرمي ما قدمناه في المبحث السابق إلى تسهيل مهمة بسط الحديث عن شؤون المقاومة خلال مرحلتها الأولى المخصصة للفترة الزمنية الفاصلة بين سنتي 1497 و1767، أي خلال قرنين وثلاثة أرباع القرن. ونشير إلى أن النماذج التي سيجري تقديمها مصنفة حسب أهدافها.

فمن تحرير مدينة غساسة إلى طرح محاولة المرابط محمد الكزنائي. وكان لابد من جمع جهود رباط مليلة لبيان دوره في الحراسة والجهاد، لنفضي في الأخير إلى عرض موسع لمجال جهود المقاومة خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر ونصف الذي يليه. وما أشرنا إليه فيما قبل من المقومات الشعبية الطاغية على الحركة يمكن تلمسها خلال هذه المرحلة الطويلة بتتبع هذه النماذج، مع قبول دور المخزن داخل إطار التنظيم الشعبي.

لا ريب أن المقاومة كانت ترمي أثناء رئاسة علي العطار الأندلسي إلى تركيز عملها الجهادي على غساسة أكثر مما كانت تطمع الوصول إليه في ميدان مليلة. وبقاء غساسة في أسر الإسبان زهاء ربع قرن يبين لنا جهود القائد الأندلسي من خلال الإشارة العابرة العامة التي سجلها الحسن الوزان، حينما اكتفى بالإشارة إلى تعاقب الانتصار والهزيمة على الجانبين المغربي والإسباني واستعانته بفرسان بادس وبني توزين وأمجاو. وهذا إلى غاية التاريخ المقترح سلفا على الأقل بسنة 1516[1].

---

(1) **وصف إفريقيا**، 267/1. وقبل استيلاء الإسبان على حجرة بادس سنة 1508 كان القائد الوطاسي على ناحية بادس هو المدعو المولى المنصور، وهو الذي أمد علي العطار بعدد من فرسان أمجاو الذين كانوا في خدمته.

غير أن الطريقة التي استرجعت بها غساسة لم تكن لتخطر على بال كل من الوطاسيين أو الإسبان على السواء، وهي نفس الطريقة التي استرجعت بها حجرة بادس سنة 1522[2].

تم استرجاعنا لغساسة حسبما أوردته الرواية الإسبانية المتمثلة في رسالتي مليلة الصادرتين بعد مضي أسبوعين عن الحدث السعيد[3]. والرواية الهامة المعتمدة هي التي قدمها مارمول كاربخال بناء على اتصاله في مدينة فاس بأحد المتمردين على حاكم غساسة، كان قد أسلم وسمى نفسه سليمان[4].

وتتمحور خلاصة الأحداث الداخلية بمدينة غساسة في نشوب الخلاف بين قبطان الحصن وخمسة من جنوده ، مما أدى إلى اتفاقهم على تدبير خطة اغتياله ثم الاعتصام بالقلعة التي يسميها الإسبان بالعافية(Alafia) إلى أن يحين وصول المغاربة إلى الأسوار وتسهيل دخولهم إلى المدينة.

تم الأمر مثلما كان مدبرا، ولم يتمكن الستون جنديا الإسبان الذين كانوا بالمدينة من إعادة الكفة لصالحهم طوال.يوم الثلاثاء 10 جمادى الثانية 7/939 يناير 1533، بينما أطلق المتمردون أحد رجالهم لإبلاغ قائد تازوطا بالأمر.

لا نعرف اسم من كان قائد تازوطا من قبل السلطان أحمد الوطاسي، ولكننا نستطيع أن نرجح أنه كان من أهل قلعية في وقت نتأكد فيه أنه لم يكن من أسرة العطار الذين بقي النفوذ والإشراف على الناحية بعيدا مركزه مدينة فاس، ونقول أيضا إنه ربما كان من خمس بني بو يفرور استنادا إلى انتماء حوز تازوطا إلى الخمس مثل ما مر بنا.

ظهرت التجمعات المغربية القلعية الأولى منذ منتصف ليلة يوم الأربعاء 11 جمادى الثانية عام 8/939 يناير 1533، بلغ عددها إلى غاية الساعة الأولى من

---

(2) أنظر أطروحتنا **مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور الشمالية المحتلة**، 563/2.

(3) الأولى بتاريخ 19 يناير 1533 والثانية يوم 32 يناير 1533. S.I.H.M. Série Espagne 1/61

(4) كان ذلك خلال مدة وجود مارمول كاربخال أسيرا بالمغرب ما بين 1557 و 1571. **إفريقيا**، 289/2.

صباح ذلك اليوم نحو ألف رجل. وتم الدخول إلى القلعة بمساعدة المتمردين وبذلك انتهت السيطرة على المدينة برمتها.

لم تعلم مليلة بسقوط غساسة بواسطة أحد الجنود الفارين إلا على الساعة الواحدة ليلا من يوم الأربعاء، ولم يستطع الحاكم اتخاذ أي مبادرة عسكرية سريعة بل تركز اهتمامه في إنقاذ الكارافيلات المبحرة إلى غساسة محملة بالأقوات والذخائر الحربية.

ويحكي لنا مارمول الطريقة التي استدرج بها القلعيون بحارة الكارافيلات لدخول المرسى والصعود إلى أعلى الحصن بواسطة مسلك الدرج المتصل بالمرسى وهم في غفلة تامة من الحدث الجديد[5].

كان رجوع غساسة خطوة إيجابية لحركة المقاومة. ونكاد لا نفهم السرعة التي وصل بها الخبر إلى البلاط الوطاسي، فبعد أربعة أيام فقط حل القائد أحمد العطار الغرناطي، ربما ابن علي العطار المعروف لدينا سابقا بالمدينة إذ كان وصوله إليها يوم السبت 14 جمادى الثانية عام 11/939 يناير 1533[6].

تفقد أحمد العطار المدينة خلال مدة أسبوع واحد، إذ أنه كان يوم 22 جمادى الثانية، 19 يناير من نفس السنة في طريق العودة، مكتفيا بترك حامية مؤلفة من ثمانين فارسا وخمسين من الرماة، مطمئنا إلى الغنائم الحربية.

وما يشغل بالنا هو إيجاد العلل والتفاسير لاختفاء غساسة من مسرح الأحداث التالية لسنة تحريرها. فالمغاربة لم يعودوا إلى تعمير المدينة، كما أنها لم تستمر في القيام بدورها في الدفاع والحراسة، بل لم يطل الوقت الذي علمنا فيه بتخريبها. وبحثا عن الإجابة يمكن رد قرار التخريب جزئيا إلى الظروف العامة التي ميزت بلادنا من احتدام الصراع الوطاسي السعدي الأخير. فقد

---

(5) كتب: "فحينما شاهد المسلمون إقبال الكارافيلات نحو المدينة بادروا إلى لبس بذلات الجنود وحمل البنادق على الكتف مثلما يفعل الأسبان ليوهموا أن الأمر طبيعي بالمدينة، وبذلك تم أسر الرجال بكل سهولة." **إفريقيا**، 289/2

(6) رسالة مليلة بتاريخ 19 يناير 1533، S.I.H.M. Espagne, 1/161

صارت قلعية للسعديين منذ صفر سنة 956، مارس عام 1549 بانقلاب قائد قلعية علي أعراص من طرف أبي حسون الوطاسي إلى الجانب السعدي، وإلى حدود تلك السنة كانت غساسة لا زالت قائمة قادرة على استقبال السفن البادسية[7].

غابت عنا أخبار غساسة منذ أواخر خمسينات القرن العاشر الهجري إلى أن أعلن مارمول كاربخال عن وجود المدينة مخربة على عهد عبد الله الغالب. كان ذلك إذا ما بين 1557/964 سنة تولي الغالب وما قبل سنة 1571/979 وهي سنة بدء مارمول تأليفه بأشبيلية.

ومما زاد احتجاب أخبار غساسة ندرة رسائل مليلة ابتداء من سنة 964/ 1559، فلا تظهر السنوات التالية إلى غاية سنة 1569/977 إلا بما لا يفيد الموضوع. ومن الجائز تقريب تاريخ التخريب بين السنتين المذكورتين.

وكيفما كان الأمر فإن تخريب غساسة كان على عهد عبد الله الغالب وبأمر منه أو على علم به، فما كان على مارمول الإعلان ببرودة تامة لو كان هناك ما استحق الإثارة. ففيما قبل سنة 1571/979 كانت المدينة، حسب مارمول مخربة لا تظهر سوى بقايا أسوارها، باستثناء القلعة[8].

فإذا تتبعنا مارمول وجدنا أن التخريب شمل المدينة فقط، أما الحصن فقد بقيت معالمه الأساسية قائمة إلى أن تم تخريبه بالبارود في تاريخ لم نتحققه ولدواعي نجهلها أيضا. وكان لا بد من الاستعانة بالدراسة الأركيولوجية لفهم بعض ما حدث[9].

أبرزت الدراسة أن حالة التخريب التي توجد عليها قلعة غساسة في الوقت الراهن دليل على تعرضها للتفجير بالديناميت حسبما يبينه التصوير الجوي. فلا تزال آثار العملية بارزة بقاعدة الصخرة التي حملت بناء القلعة

---

(7) رسالة مليلة في 14 مارس 1549. A.G.S. Estado L. 447

(8) **إفريقيا**. 289/2.

(9) إشارة إلى الدراسة المنجزة على يد R. Fernando de Castro y Pedreda بعنوان: *Historia y exploracion de las ruinas de Cazaza*

وبأجزاء مواد بنائها متناثرة على السفح الغربي من الكدية خاصة. فما هو التفسير الذي نجده لتخريب القلعة؟

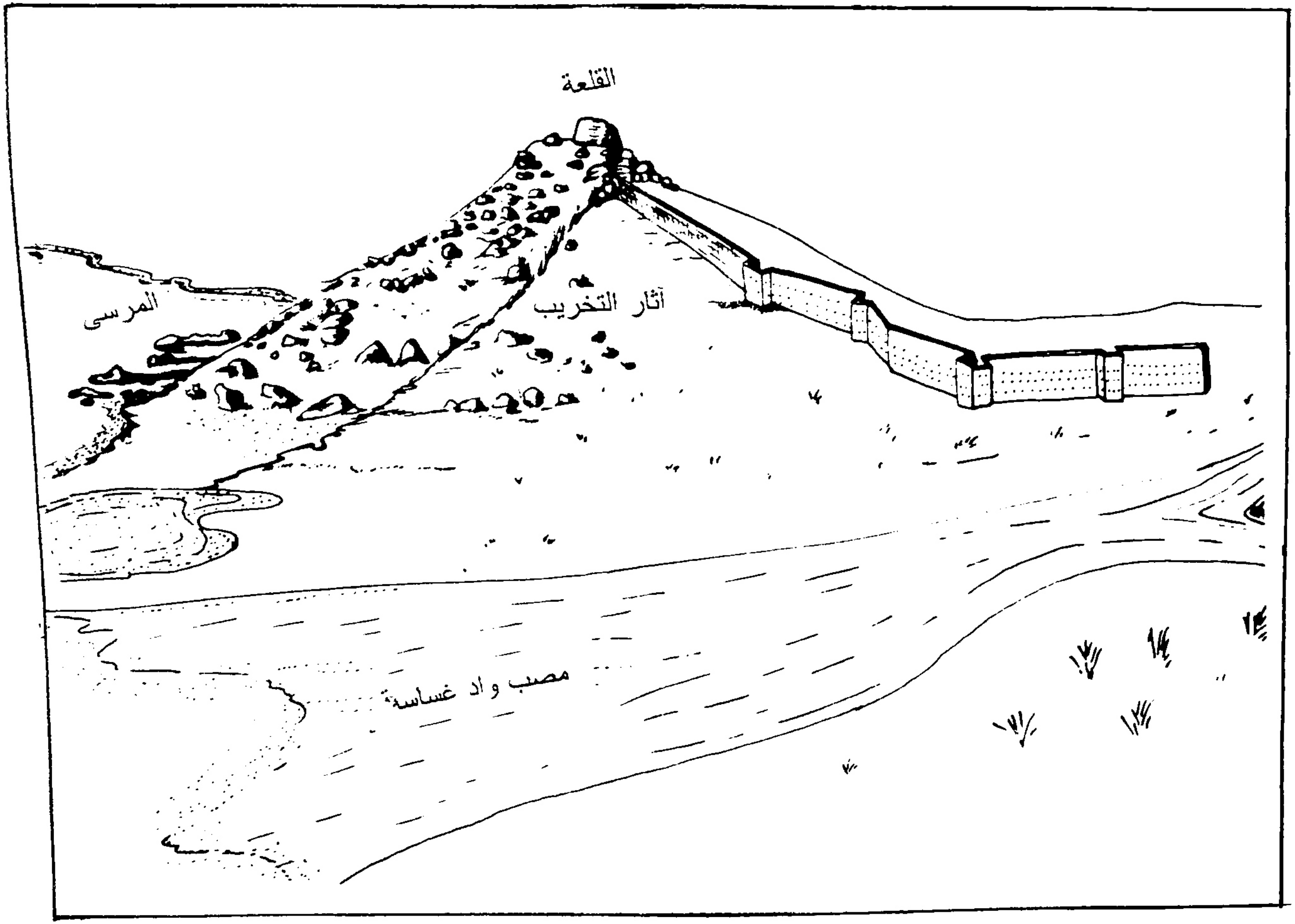
الواقع أن غساسة ما كان في وسعها، مع استمرار الخطر الإسباني بمليلة العودة إلى حياتها السابقة للغزو الإسباني. غير أننا سنضع هذا العنصر في الدرجة الثانية لإبراز ما وضعناه في الصدارة. فلا يمكن لنا استثناء عنصر القلق الذي أشاعه الأتراك بقلعية منذ مرافقتهم لأبي حسون من الجزائر، إلى درجة أن أصبحت فيه سبخة بوعرك بحيرة تركية آمنة، مما سيتبين لاحقا.

ويوضح ما تبع ذلك من جولات الأتراك بساحل قلعية أن غساسة أصبحت المرسى المفضل للسفن التركية، مما يوحي من المراسلات الإسبانية أن عبد الله الغالب السعدي كان قد تنازل للأتراك عنها، على الأقل إلى غاية سنة 1558/956 سنة تراجع الأتراك عن فاس إثر معركة واد اللبن.

وتسمح لنا النظرة إلى العلاقة التركية السعدية بتوجيه الإشارة إلى السعديين في موضوع إسدال الستار عن مدينة غساسة. فحسب الرأي أن الغالب أمر بتخريب المدينة حينما آنس الخطر المحدق من جانب أتراك الجزائر. والمثال الدال على ذلك ما قاموا به من محاولة احتلال حجرة بادس سنة 1563 من جهة، ثم سقوط الحجرة بيد الإسبان في السنة الموالية من جهة ثانية[10].

والنتيجة أن عبد الله الغالب لم يسعه سوى إصدار قرار أمر تخريب القلعة بالشكل العام الذي لا تزال عليه إلى يومنا الحالي، وقائد قلعية آنذاك هو المدعو بوبكر البوعلوتي. وفي هذه السنة بالذات كان شيخ من مرابطي قبيلة اكزناة يعد مسيرته ضد مليلة.

(10) ح. الفكيكي، **مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور الشمالية المحتلة**. مرقون. 635/2.



جانب من خرائب مدينة غساسة

(2)

مسيرة شعبية يقودها مرابط أكزنائي

يتعلق الأمر بحدث غريب فريد في تاريخ الثغور المغربية المحتلة تتساوى فيه الجرأة والحماس الوطني إلى درجة وضع الثقة العمياء في مقدرة الإيحاء الروحي والاستهانة الكلية بفعالية السلاح الناري. وإذا كان هناك أمر يدعونا إلى تقدير تلك المحاولة فسيكون نبل هدفها الذي قاد المرابط منذ ربيع 1564/972 إلى اقتحام باب مليلة أملا في استرجاعها بوسائله وأسلوبه الخاصين.

والجدير بالملاحظة أن مسيرة الشيخ الكزنائي اتسمت بالطابع الشعبي المحض الذي لا نصيب له للتدخل المخزني. واستنتاجا من سرعة استجابة القلعيين لتعليمات المرابط وانقيادهم له نقدر أن هناك مقدمات لتنظيم المسيرة وسابق شهرة المرابط إلى المنطقة، بينما ظل القائد القلعي بوبكر البعلوتي الكعداوي حائرا أمام سرعة تطور الأحداث عاجزا عن اتخاذ أي موقف حازم إبان تنفيذ خطوات المسيرة الأولى.

وتمشيا مع تعاليم المرابط فإن خطة المسيرة تركزت على الاقتحام السلمي الأعزل من السلاح، معتمدة على السعي لإقناع الإسبان بالجلاء عن المدينة والعودة إلى إسبانيا آمنين سالمين. وللبرهنة على حسن نية المرابط حرم على أتباعه حمل أي نوع من أنواع السلاح.

والوسيلة الثانية التي اعتمد عليها المرابط في حال رفض الاقتراح الأول هي التوصل إلى تجميد حركات الإسبان وإبطال مفعول السلاح الناري بوسائل التأثير والسحر الروحيين شرط تطبيق تعليماته الحرفية.

ومهما تكلفنا من عناء البحث عن مصادر تفسير تلك المحاولة العجيبة فإننا لن نجد سوى التقريرين الأصليين اللذين بعث بهما حاكم مليلة إلى

إسبانيا ما بين 8 رمضان 20/971 أبريل 1564 و 24 ذي القعدة/23 يونيه من نفس السنة على التوالي. ولا تقدم نظرة كل من مارمول وكولاسوس وإيستراداا سوى صدى المراسلتين المذكورتين.

والواقع الثابث أمام كل باحث هو عدم التمكن من فهم الحدث من خلال مصدر أجنبي واحد يمثل الوجهة الرسمية التي هي طرف هام في الحدث. فلا يمكن لنا تقديم الصورة الحقيقية لمسيرة الشيخ الكزنائي دون تفهم أوجه المبالغة أو المغالطة الإسبانية المشحونة بنوع من الزهو والغرور، أو سوء فهم الأجنبي للمرامي المغربية البسيطة في وسائلها. فمن هو المرابط الكزنائي؟

تبين المعطيات الأولى أن فكرة تحرير مليلة كانت قد بلغت إلى أقصى حدود كرط الغربية بجبال البرانس لتشغل بال أحد شيوخها المرابطين. ولسنا ندري من أي مصدر إخباري استقته وثيقة الإسكوريال حين توصلت إلى بعض سمات حياة المرابط بموطنه حين ذكرت أنه انشغل في خلوة دامت سبع سنين بقراءة كتب التنجيم والكيمياء والسحر، وأضافت إلى ذلك نجاحه في معالجة بعض الأمراض باستعمال الأعشاب.

ونفهم من ذلك أن اهتمام الشيخ الكزنائي بمسألة مليلة والوجود الإسباني بها قد بدأ خلال مدة الخلوة، كما أنه توصل أثناءها إلى طريقة إبطال مفعول السلاح الناري الإسباني. وإذا صدقنا الخبر فإنه يكون قد دخل في خلوته عام 1557/964.

حل المرابط بمزوجة يوم الاثنين 5 رمضان عام 17/971 أبريل 1564 برفقة ستة عشر من مرافقيه فقهاء صنعته وحافظي تعاليمه، وبجانبه أربعة من كتابه وأحد أبنائه. نزل بساحل سبخة بوعرك الشمالي من بني أنصار وعلى مشارف حدود فرخانة الجنوبية، في محيط الهضيبات التي وجد بها خلال القرن العاشر أولاد العربي وأولاد سالم وأولاد الزهرة بين واد سيدي موسى وأخندوق، بجانب مغارة نصبت بساحتها المجاورة خمس خيم.

دل كل شيء على أن المرابط أجنبي عن قلعية، مثل حضوره المفاجئ أمام أنظار مليلة وهيأة نزوله بالمكان، كما دل عليه أيضا تضارب الأخبار في

معرفة اسمه. ففي الوقت الذي سمته وثيقة الإسكوريال سيدي أحمد بو حلاسة (Cid Amete Buhalaza)[11]، دعته رسالة مليلة عدي أو هدي محمد بوبالك (Adi Mahamete Bu Balac)[12]. ووثيقة الإسكوريال هي الوحيدة التي أخبرتنا بأنه من أصل اكزنائي، اعتمادا على ما نقل عنه هو نفسه وعلى تلك الشهادة اعتمدنا للتعريف بموطنه. أما عن تسميته بمحمد فبناء على اتفاق أغلب المرددين للخبر[13].

وقد يبدو بالنظر إلى تلك المحاولة أن التباين كبير جدا بين نبل الهدف وتفاهة الوسيلة المسخرة، بل وبساطة العقلية المدبرة لها. لكن ينبغي أن نتفحص الوسيلة بمنظار القرن العاشر الهجري وفي محيط الريف الشرقي البدوي فهل كانت صناعة البارود الحديثة وتركيباتها الكيماوية مفهومة لدى سكان البوادي الريفية؟

فالكل يعلم أن استعمال السلاح الناري كان حديثا جدا بقلعية، فقد دلتنا الوثائق الإسبانية أن أول من استعمل البنادق في ميدان مليلة هو القائد علي أعراص سنة 1550 ولم يحمله المجاهد القلعي برباط مليلة إلا بعد خمس سنوات تالية[14]. ولا يبعد هذا التاريخ عن تنظيم مسيرة الشيخ الكزنائي سوى بتسع سنين. ألا يكون الجهل بسر صناعة البارود منطلقا للتفكير في وسيلة للاستخفاف بحقيقة فعاليته؟ نعتقد أن وسيلة المرابط الكزنائي ارتكزت على هذا المفهوم، وهي تتلخص في مقدرته على إبطال حركة زناد المدافع والبنادق

---

(11) *Manuscritos Castillanos*. B.R.E, &, III, 23, Fol, 400,r°,03,v° وهي بدون تاريخ غير أنه يمكن تقدير تاريخها بيوم 20 أبريل 1564.

(12) رسالة حاكم مليلة بيدرو دي فينكاس (Pedro de Venegas de Cordoba) بتاريخ 23 أبريل 1564، وهي محفوظة بلندن قام بترجمتها الأستاذ محمد بن تاويت ونشرها بمجلة تطوان، بالعدد الخامس من سنة 1960. SIHM. 1° série Angleterre, 1/164.

(13) سماه كابريرا (Cabrera) هدي محمد بوعلات (Buhalat) ودانفيلا وكوياسوس Danvila y Collasos محمد بن عزوز.

(14) مليلة في 11 غشت 1550. مجموعة دو كاستري. السلسلة الإسبانية 1/446-130.

الإسبانية بما يملكه من القوة السحرية الإيحائية، شرط ألا يصطحب أتباعه أي نوع من أنواع الأسلحة وإبقاء الخيل بعيدة عن الميدان.

وفكر المرابط أيضا في السيطرة الروحية على إرادة الجنود الإسبان، وذلك ببث الرعب والخذلان والفتور في أبدانهم. وبتلك الوسيلة سيتمكن المغاربة من إنزال جسر الحصن والدخول إلى المدينة وأسر الجميع وإرسالهم إلى إسبانيا.

وينبغي الالتفات إلى دور قائد قلعية وموقفه من محاولة مرابط اكزناية، آنذاك المدعو أبو بكر البعلوتي الكعداوي[15]. كان بقلعية بتلك الصفة منذ عام 1563/970 على أقل تقدير. ولا ريب أن القائد القلعي قد أخبر عبد الله الغالب بمسألة الشيخ، ولكننا لا نعرف رد السلطان السعدي إلا من خلال أقوال الجواسيس المتضمنة في تقرير فينيكاس، وليس أمامنا سوى تصديق ما قد يكون موافقا للواقع المحتمل. فحسب تلك الأقوال أن الغالب كان على وشك إرسال حملة تأديبية ضد الشيخ ولكن النصح المسدى إليه بالتريث أرغمه على إرجاء الحملة. وهذا هو ما يفسر موقف القائد بو بكر البعلوتي تجاه مسيرة الشيخ بمحايدته خلال المحاولة الأولى ومعارضته خلال الثانية.

وفي الوقت الذي كان فيه الشيخ الكزنائي يعد فيها أتباعه لتنظيم المسيرة الأولى كان بمليلة حاكم من أمهر رجالها الحربيين ومن أشدهم وطأة على المجاهدين يدعى بيدرو فينيكاس القرطبي (Pedro Venegas de Cordoba)[16]، تعددت خرجاته إلى الميدان للحصول على أكبر عدد من الأسرى لتزويد سوق مالقة، مما أكسبه أموالا طائلة نتيجة الاستفادة من الإعفاء الضريبي الممنوح لحكام الثغور.

وكانت حدود مليلة المحتلة آنذاك لم تتجاوز ما عرف لدى الإسبان بالمحاط الأول المراد به محاط الحصن، مضافا إليه الساحة الموالية له من جهة

---

(15) سنقدم تعريفا موسعا عن شخصية القائد في فقرة الحد الأدنى من الجهاد لاحقا.

(16) أسرة فينيكاس من أصل موريسكي قشتالي ثم غرناطي، قسم منها عاد إلى المسيحية وفضل آخر منها الهجرة إلى المغرب. وقائد مليلة من الفصيلة الأولى.

الغرب التي سيتشكل من تحصينها ما يعرف بالمحاط الثاني. وفي سنة 1564 كان هذا المحاط الأخير غير مكتمل التحصين، فالسور الغربي غير مرتفع ولا تزال به بعض الفجوات وحتى باب البادية الخارج منه لم يكن له قفل(17).

المسيرة الأولى (11 رمضان 22/971 أبريل 1564)

تمكن الشيخ الكزنائي خلال خمسة أيام مضت على حلوله بقلعية من جمع نحو سبعة آلاف من مناصريه(18)، وأعلن عن ظهيرة يوم السبت موعدا لبدء المسيرة وهو الوقت الذي قدره الشيخ للحصول على استجابة الله لدعوته(19). وبالطبع كان الإسبان على علم تام بما يجري خارج أسوار المدينة، استنادا إلى شبكة الجواسيس الموضوعة رهن خدمتهم. واستجابة للروح العدائية الشرسة هيأ الحاكم فينيكاس الخدع الحربية الموافقة لتعليمات الشيخ السحرية، كان منها تظاهر الجنود بالاستسلام للنوم على مشارف الأسوار والأبراج بمجرد اقتراب الشيخ، وإعداد المدافع والبنادق والنار الاصطناعية لاستقبال المهاجمين في نفس الوقت.

ولم يكن هناك أي تخوف بالنسبة للإسبان من دخول المغاربة إلى المحاط الثاني المنعزل عن الأول بالجسر المتحرك القائم على الحفير الفاصل بينهما، لذلك أمر القبطان بترك بابه مفتوحا لدخول أكبر عدد ممكن إلى ساحته.

بدأت المسيرة طريقها في الموعد المحدد لها بانحدار الجموع من مكان تجمعها الأول يتقدمهم الشيخ والفقهاء والكتاب نحو مدشر واقع بالقرب من ساحل البحيرة ويمكن الإشارة إلى مدشر سيدي محمد المجاهد الذي سماه الإسبان بدوار السهل، ومن هناك انتظم الجميع على طريق مزوجة المؤدي مباشرة إلى أسوار مليلة.

---

(17) تقرير فينيكاس السابق الذكر.

(18) وثيقة الإسكوريال السابقة.

(19) تقرير فينيكاس السابق الذكر.

تقدم القلعيون في نظام نحو المكان المعروف آنذاك بالعرسة الكبيرة التي كان موقعها يسار واد المدور مما يقابل كدية مزوجة أو تينرت، وهو المكان الواقع تحت أنظار مليلة على بعد نحو ألف متر، خارج نفوذ المدفعية[20].

ولاحظ الإسبان من برج المراقبة أن المجتمعين تفرقوا إلى طوائف، لكل واحدة منها لواؤها الأحمر قامت بالطواف في الفحص إلى أن التقت جميعها بباب البادية ثم انحرفت للدخول إلى ساحة المحاط الثاني حيث كانت المجزرة الرهيبة في انتظارها، سقط إثرها نحو الألف ونجا الشيخ منها بأعجوبة.

عاين تلك المأساة كل من قائد قلعية بو بكر البوعلوتي وجموع أخرى جاءت لاستطلاع النتيجة. وحسب التقرير أن القلعيين كادوا الفتك بالشيخ الجريح لولا حماية القائد له واصطحابه معه إلى قلعة تازوطا حيث سيمكث نحو العشرين يوما، إلى أن استدرجه حاكم مليلة للقيام بمحاولة ثانية[21].

المسيرة الثانية (الاثنين 9 ذي القعدة 19/971 يونيه 1564)

مضى على موعد المسيرة الأولى نحو الشهرين لم يظهر خلالها أي تدخل من طرف عبد الله الغالب[22]، فلم يبد أي تحرك دال على وصول أوامر مخزنية، والحجة على ذلك مغادرة الشيخ الكزنائي لقلعة تازوطا دون أي اعتراض من طرق قائدها[23].

انطلق عنان دسائس حاكم مليلة بمجرد أن علم بعودة الشيخ إلى ممارسة نشاطه لتحضير المخطط الجديد باستدراجه مرة ثانية إلى مليلة، وذلك بواسطة يهودي كان مكلفا بتزويد المدينة باللحوم. وكان اليهودي بدوره على اتصال

---

(20) الاسمان المقدمان مأخوذان من **تقييد** أحمد بن القاضي الكعداوي، وهو عند الإسبان Cerro de San Lorenzo.

(21) تقرير فنيكاس.ص 130.

(22) كان البلاط السعدي منشغلا بأخبار محاولات الإسبان ضد صخرة بادس منذ سنة 1563 أنظر أطروحتنا **مقاومة** 648/2.

(23) رواية مارمول، **إفريقيا**، 261/2.

بأربعة من المخبرين القلعيين. بدأت المؤامرة حينما علم القبطان بالمبررات التي قدمها الشيخ الكزنائي لأنصاره حينما كرر على أسماعهم أن فشل المحاولة إنما جاء من جانبهم بمخالفتهم لتعليماته، ومن جملة تلك المخالفات إقبالهم على الإسبان بالرماح طالبين منهم الاستسلام(24).

وتكمن خدعة حاكم مليلة في تظاهره بصدق مبررات الشيخ وأن نجاة المدينة وأهلها إنما جاءت من بطلان سحر الشيخ لأمور يجهلها. وكرر مثل هذا الكلام لكل من اتصل به من المغاربة، مما ساعد على ذيع الإشاعات المطابقة لدفاع الشيخ عن فشله.

لم تخف تلك المؤامرة على القائد بوبكر البوعلوتي ولم تنطل ما انطوت عليه تلك الإشاعات من الخدع، وكان ممن يحسن التكلم بالإسبانية ويعرف أهلها لأنه أقام بينهم مدة وجود أبي حسون الوطاسي لاجئا بالمدينة. ومن هذا ظهر موقفه المعارض لتنظيم المسيرة الثانية مبديا جهده لإيقافها.

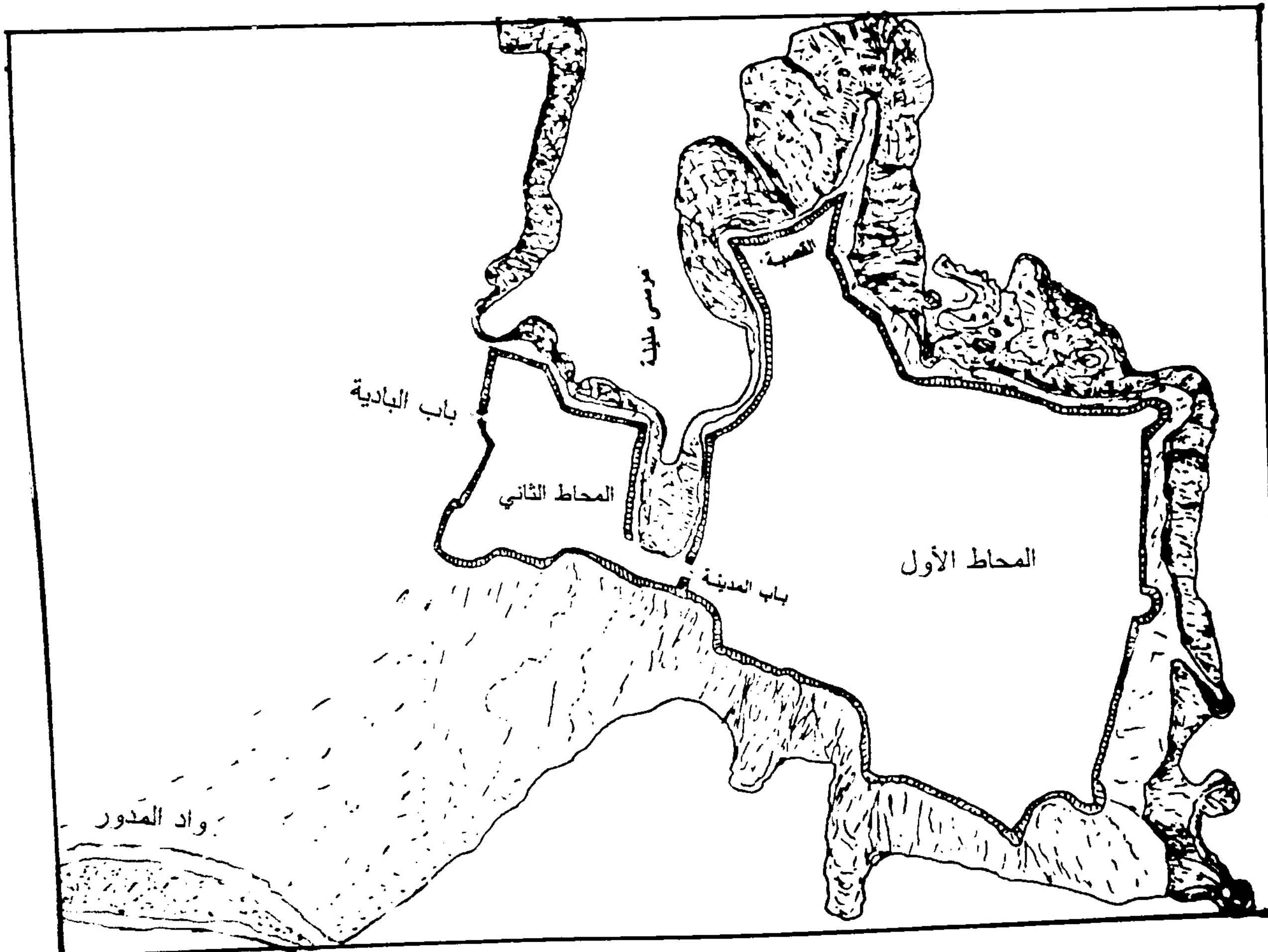
نستطيع تصور نتائج سريان مفعول الإشاعات الإسبانية وتأثير معارضة قائد قلعية في التصور التالي:

تقدم القلعيون إلى قلعة تازوطا بالاعتذار للشيخ وإقناعه بالعودة إلى مكان إقامته الأولى تحت الحراسة. وهناك عاد إليه احترامه وتبجيله من جديد وكثر أتباعه إلى أن بلغ ضعف ما كان عليه أول الأمر. وكانت الخطوة الموالية أن بعث الشيخ إلى حاكم مليلة رسوله يحذره من استعداده للمقاومة، وأن الفتح سيؤول إليه من غير مقاتلة. كما ألح عليه برد العلم الأحمر الذي بقي بحوزته وإطلاق سراح ابنه الذي أوهمت له الإشاعات أنه ما زال حيا وأسيرا، وكان قد قتل في المحاولة السابقة.

بدأت دقائق المسيرة الثانية يوم الاثنين 9 ذي القعدة 19/971 يونيه 1564 بظهور الشيخ الكزنائي وسيره على الطريق الذي سلكه سابقا بجموعه محاذيا

---

(24) سبق لعبد الله الغالب منذ أكثر من السنة بإرسال أوامره إلى بوبكر البوعلوتي لمنع دخول المغاربة إلى مليلة بحجة افتداء الأسرى بما كان يقومون به من إدخال الأقوات.



حدود مليلة في آخر القرن السادس عشر

للشاطئ. وتركزت خدعة حاكم مليلة في إيهام المغاربة أن الجلاء عن المدينة قد نفذ فعلا. وفي الوقت الذي وصلت فيه الجموع إلى ساحة الغرسة الكبيرة اعترض طريقها القائد بوبكر البعلوتي لإقناع الشيخ بالعدول عن متابعة السير مؤكدا لهم ما أعده الإسبان من الحيل الحربية الكثيرة، ثم ترك لهم حرية التصرف للتقدم أو التراجع. كاد القائد أن يصيب الهدف من كلامه، ويمكن أن نفهم أيضا أن تحذير بوبكر أثر في الشيخ نفسه.

غير أن دسيسة القبطان كانت أكثر وقعا، إذ أنه سبق أن فكر في إبطال كل دعوة تراجع إلى الوراء، حينما دس بين الجموع من سفه كلام قائد قلعية واستنقص من عزم الشيخ وأتباعه وفي مقدمتهم اليهودي المسخر ومن كان معه من المخبرين. والنتيجة أن جموعا مؤلفة من نحو الألفين هرولت نحو المدينة بدون أي نظام[25]، ولم يكن سير الشيخ إلا على سبيل الانحراف، مما جعله يتوقف خارج باب المدينة المعروف لدينا، رافضا دعوة الحاكم له بالدخول مع عدد آخر من رجاله[26]. وكان ذلك سبب نجاته من الموت. ونستطيع تصور الكارثة التي كانت من نصيب المحاصرين بداخل المحاط الثاني وبمختلف حيل القبطان القاتلة.

كانت مسيرة المرابط الكزنائي كارثة حقيقية على قلعية، إذ خسرت أثناءها أزيد من ثلاثة آلاف رجل، لم يبق من المشاركين أحياء سوى أربعمائة أسير تم نقلهم إلى حجرة بادس بعد وقوعها بيد الإسبان في شتمبر السنة نفسها لاستخدامهم في تجذيف السفن[27]. ولم تعرفنا الوثائق الإسبانية بمصير المرابط محمد الكزنائي الذي نجا بحياته من كارثة المسيرة الأخيرة، كما أن الرواية

---

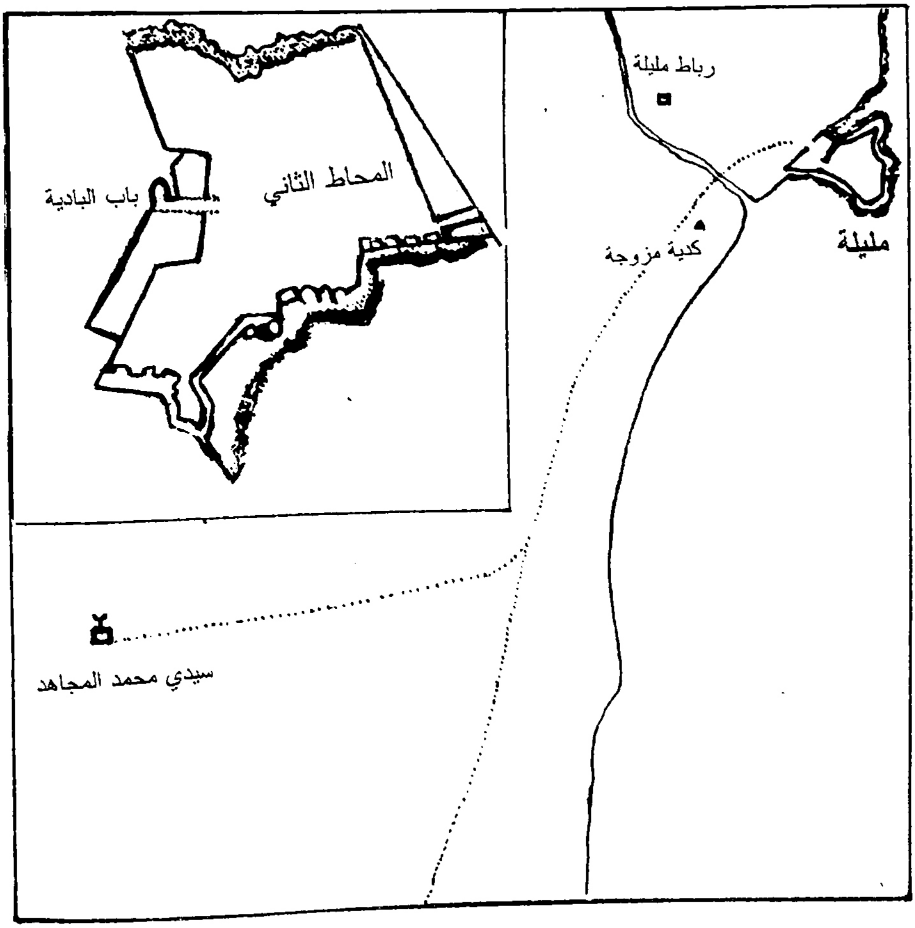
(25) قدم مارمول كاربخال عددا مبالغا فيه، إذ أنه رفعه إلى خمس وعشرين ألف رجل. **إفريقيا**، 262/2.

(26) سجل تذكار هجوم الشيخ الكزنائي على مليلة في لوحة علقت بباب المدينة القديمة كتب فيها: "هذا هو الباب الذي دخل منه المرابط حين هجومه على مليلة سنة 1564".

(27) عن احتلال الأسبان لحجرة بادس أنظر أطروحتنا: **مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور الشمالية المحتلة**، مرقون، 2/ 635.

الشفوية لم تحتفظ بشيء عنه. ونقول هذا لأننا نشك أن الضريـح الكـائن الآن بجوار حدود المدشر المسمى بسيدي محمد المجاهد يحمل الإشارة إلى قبره[28].

وعلى العكس من ذلك فقد أتاحت سنة المســيرة بالنسـبة لمليلـة الفرصـة الأولى للهيمنة على الميدان الخارج عن الأسوار بتشييد عدد من الأبراج المدعوة بالخارجية مما سنقف عنده في فصل جهاد الأبراج بعد نماذج الحـد الأدنـى مـن الجهاد.



خط مسيرة الشيخ محمد الكزنائي

---

(28) سبق أن زرنا المكـان عام 1975 وكررنا له الزيارة أخيرا لمحاولة الحصول على الشـهادات الشفوية فلم نوفق في ذلك.

(3)

الحد الأدنى من الجهاد

ليس من الإنصاف في شيء بالنسبة لحركة المقاومة القلعية تهميش عدد من المواقف الجهادية اليومية بحجة أنها عادية وبسيطة في نتائجها ومظهرها إذا ما قورنت بأحداثها البارزة.وما يهمنا من تقديم صور التحام المغاربة بالإسبان ومناوشاتهم لهم بالميدان الخارجي هو سرد النتائج الحربية اليومية، رغبة في الإطلاع على وظيفة رباط مليلة ودوره الدقيق في حراسة الحدود وفرض الحصار على نقطة الوجود الأجنبي.

وقد جمعنا لبيان دور رباط مليلة في ضبط الحراسة اليومية عددا من الأمثلة تراوحت مددها من سنة استقرار الإسبان بمليلة إلى غاية عام 1645/1056 أي خلال قرن ونصف. ولا يعود سبب توقفنا عند هذا التاريخ إلى تخلي الرباط عن وظيفته، بل لكونه تجاوز ابتداء من تلك السنة دوره من طور الحراسة إلى تنظيم الهجومات المخططة طوال فترة ممتدة على طول قرن كامل.

رباط مليلة وحراسة الحدود

تشهد مراسلات مليلة أن القلعيين لم يتخلوا في يوم من الأيام عن حراسة الحدود الفاصلة بين الرباط وأسوار المدينة. وسبقت الإشارة إلى الكيفية التي دأبت عليها قلعية على الاحتفاظ بحيوية الرباط ونشاطه الحربي.

والداعي إلى حراسة تلك الحدود أن الحامية الإسبانية كانت مضطرة للخروج إلى الفحص للتزود بالضروريات اليومية، من حطب وماء وأعشاب فكانت المجازفة من طرف الإسبان ملحة تفرض عليهم التوغل بالفحص في اتجاه مصب واد المدور والتلال الشمالية، يجند لها حاكم المدينة نفسه ورجاله بالفرسان والمشاة تحت حماية المدفعية والسلاح الناري الخفيف.

شكل الحصول على الماء الصالح للشرب المعضلة الأولى بالنسبة للإسبان إذ لم يكن منه شيء بالمرة داخل المحاطين المحميين نتيجة طبيعة الصخر الكلسية[29]. إلا أن عينا غزيرة كانت تتدفق خارج المحاط الثاني على بعد ثمانية وعشرين مترا فقط من الباب الغربي، لا يفصلها عن سور المحاط سوى خانق حفرته مياه سيل سماه الإسبان خندق أورنابيكي (Foso de Hornabeque)، وسبق لحامية مليلة أن حفرت بداخل المدينة أربعة خزانات ولكنها اضطرت إلى إغلاقها سنة 1571 خوفا من انتشار الوباء الذي عانوا من جرائه في منتصف القرن[30].

وكانت المياه ملحة أكثر لشرب الدواب وغيره تلبية لحاجات المصالح اليومية مما استوجب نقلها من واد المدور مستخدمين الأسرى القلعيين لتلك المهمة وخطورة احتياج الإسبان إلى الماء أقل بكثير من ضرورة توفير الحطب وجمع الأعشاب الخضراء للدواب.

لقد كانت تلك المهمة من أدق أعمال القبطان حاكم الحصن نتيجة بعد حقولها عن أسوار المدينة وتوزعها داخل دائرة الفحص، مما يقابل هناك مكامن المغاربة كغابة القصب وأغبال وعدة فجاج شكلت أهم مواقع حراسة رباط مليلة[31].

واستغل الإسبان من جهة أخرى الأراضي الممتدة بين مصب واد المدور، حيث اليوم ساحة إسبانيا (Plaza de España) والنادي العسكري (Casino militar) ومبنى البلدية (Junta Municipal) وساحة العربات المجاورة، (Plaza de carros) لأشغال البساتين المسماة بالغوطات (Huertas). وكانت بقعة البساتين مجالا أيضا لرعي قطيع الأغنام الذي كان في ملك حاكم المدينة

---

(29) قال برانتس صاحب كتاب *Ilustraciones* السابق الذكر "يحكى عن مليلة أمران اثنان، أولهما عدم وجود جذع شجرة واحدة، وثانيهما عدم وجود أثر نملة واحدة".

(30) رسالتا مليلة: 5 ديسمبر 1550 و 8 يناير 1551.

(31) يشغل تلك المواقع في الوقت الراهن شارع الجنرال مرينا وحديقة إرنانديس (Parque Hernandez).

ولحسابه الخاص، إلى جانب بعض رؤوس الأبقار. وخصصت الزاوية الشمالية من المحاط الثاني حظيرة لها.

وتكمن وظيفة رباط مليلة في الحيلولة بين الحامية وتوصلها لقضاء حاجاتها اليومية في فجر كل يوم، إذ أن موعد خروج الجنود اعتاد أن يكون بين الساعة الرابعة والخامسة صباحا تبعا لاختلاف الفصول. وأوضحت بعض الرسائل الإسبانية الأسلوب الحربي الذي دأب القلعيون على اتباعه. فحينما يقترب الجنود من غابة القصب أو من أغبال تتربص الطائفة الأولى بمواقع الضفة المقابلة من واد المدور قريبا من مجازاته الضيفة بينما تستعد طائفة ثانية لتقديم المساعدة الضرورية في حال اللقاء الصعب.

وفي نظر الإسبان أن المغاربة يهاجمون بدون انتظام، فهم يتقدمون مجتمعين بحماس إلى درجة اختلاط بعضهم ببعض، ولا يلجأون إلى نظام الصفوف مثلما كان الإسبان يفعلونه، مما صعب عليهم الإدلاء بتقرير صحيح عن العدد المشارك في الهجومات المتكررة.

ويعقد القلعيون أمل الفتك بعدوهم على الهجوم المباغث الذي يستنفذون خلاله معظم قوتهم، أعتمادا على استغلال معرفتهم الجيدة للوسط الطبيعي وما يوفره لهم من الحماية، إذ أن المهاجم يتراجع بمجرد الرمي بسلاحه الوحيد الذي غالبا ما كان رمحا طويلا. ويختلف العدد الذي يقتحم به المغاربة الميدان من لقاء لآخر. وفي الحقيقة لا يمكن لنا الاعتماد على الرواية الإسبانية لمعرفة ذلك العدد، فالمراقب كثيرا ما كان يعجز عن تقديم التقديرات القريبة من الواقع بسبب عدم اللجوء إلى الهجوم بنظام الصفوف، علاوة على أن التقديرات كانت خاضعة لمزاج الحكام بما تمليه عليهم قاعدة غلبة الفئة القليلة للطائفة الكبيرة.

وقد استفاد الإسبان من احتكاكهم اليومي بالقلعيين، فاجتهدوا لخلق وسائل الدفاع والحماية وتنظيم الخروج والتراجع طبقا للخطة المتناسبة مع الهجوم المغربي. وتم خروج الإسبان إلى الميدان الخارجي بصورة يومية منتظمة عند حلول الساعات الأولى من الفترة الصباحية، غالبا ما كانت محددة



واد المدور وما تبقى من آثار القصبة

بالساعة الخامسة خلال فصلي الربيع والخريف والرابعة خلال فصل الصيف، وتأخرها قليلا خلال فصل الشتاء أمر طبيعي[32].

وجرت العادة أن يخرج القبطان برفقة عدد من الفرسان موافق في الغالب للعدد المجند بالمدينة، يسير خلفهم عدد آخر من المشاة فالأسرى المغاربة. وعند اقتراب الجميع من مجرى واد المدور المميز بما يسمى بغابة القصب وأكدال لدى المغاربة والمقصبة عند الإسبان (canada)[33].

ينتخب القبطان جماعة من الفرسان ويكلفهم بمهمة الاستطلاع والحراسة واكتشاف كمائن القلعيين خاصة. وحينما يتم اختيار مكان العمل ينهمك المشاة في نصب الأشبارات (estacadas) بقطع من الألواح المفككة التي يسهل إعادة تركيبها، جيء بمثلها منذ الوهلة الأولى من النزول بمليلة. ويسارع الإسبان إلى التراجع نحو الأسوار في حال الاصطدام القوي بالميدان وترك الفرصة لعمل السلاح الناري.

نماذج من حراسة الحدود

لن نحصل مهما سما بنا طموحنا إلى إغناء النماذج بالمؤمل من التفاصيل سوى على قدر زهيد منها متناثر خلال الحقبة كلها. فلا نجد مثلا بين سنتي احتلال مليلة وغساسة سوى مثال واحد، بينما لا نعثر ولو على واحد منها طوال مدة سبع وعشرين سنة من وجود الإسبان بغساسة.

ولن نرتاح سوى للمدة المتراوحة بين 1549/955 و1564/971. وكان علينا من جهة أخرى الانتظار إلى بداية القرن السابع عشر للتعرف على مثال قدمه لنا عيسى بن محمد البطوئي السعيدي. وسنختم النماذج بمثال حي يعود إلى سنة 1646/1055.

---

(32) رسالة 23 يونيه 1564 و 18 يونيه 1646.

(33) تقع غابة القصب أو المقصبة بين كديتي مزوجة وتيسوريسو على الضفة اليمنى من مجرى واد المدور الأدنى، مثلما توضحه الصورة المرفقة.

مثال من مستهل القرن العاشر الهجري (أواخر 15م.): نتعرف أكثر مما سبق على أول شهيد في ساحة مليلة المحتلة لا نعرف اسمه سوى أنه شيخ بطوية. وقد خلد لنا ثوريتا أولى اللقاءات بين المغاربة والإسبان[34]، إذ أنه يقول:

" فبعد احتلال مليلة بوقت قصير خرج القبطان في نهاية نوفمبر بأربعين من فرسانه ومائتي وخمسين من المشاة، فتوجه بهم نحو فرن الجير للحصول على ما كان به من تلك المادة[35].

ولما كان المسلمون قد أعدوا لهم الكمائن في عدد من المجازات على بعد فرسخ من المدينة، وكان عددهم يفوق مائتي فارس وثلاثة آلاف من المشاة فإن أندينو (Andino) حينما وجد نفسه قد أحيط به سارع إلى اقتحام الجماعة التي كان بها شيخ بطوية وأحد إخوته، فتم قتلهما في جمع كبير من كبار الرجال "[36].

ندرك من هذا الحدث أن هذا الاصطدام لم يكن الأول من نوعه، فالإسبان كانوا من جهتهم قد تعودوا على الخروج إلى أماكن معلومة لديهم من فحص المدينة، كما أن القلعيين كانوا على علم بوتيرة الخروج من حيث وقته واتجاهه، وهذا هو ما يؤكده أحد مؤرخي التسرب الإسباني إلى مليلة حين لاحظ أن الغارات المغربية بدأت بعد أيام من نزول الإسبان بمليلة[37].

أمثلة من منتصف القرن العاشر الهجري (16م.): لاشك أن فرسان قلعة تازوطا ومجاهدي رباط مليلة قد أعطوا أمثلة أخرى نجهل وقائعها باختفاء رسائل حكام مليلة وغساسة. ونجد من الإشارات القصيرة العابرة عند الحسن الوزان أثناء تحدثه عن تازوطا وأمجاو، ما يكفي دليلا على ذلك[38].

---

(34) Jeronimo Zorita , *Historia del Rey D. Hernando* , p. 136.

(35) أي نحو الشهرين والنصف من التسرب الإسباني يوم 17 شتمبر 1497.

(36) **المصدر السابق.**

(37) Pedro Barrantes de Maldonado , *Ilustraciones de la Casa de Niebla*,B.R.A.H. B.19.

(38) **وصف إفريقيا.** 1/266. 267.

ومنذ استرجاع القلعيين لغساسة تركزت جهود تازوطا ونشاط الرباط في اتجاه مليلة، سيما بعد أن أصبحت قلعية إلى جانب السعديين إثر انقلاب قائدها علي أعراص على الوطاسيين عام 1549/956.

وفي وسعنا تقديم أكثر من عشرين مثالا من أمثلة حراسة الحدود. غير أن العديد من تلك المجموعة أولى الأهمية للجانب الحربي الإسباني فقط. ومن أجل ذلك سنكتفي بتقديم تلك الأمثلة التي تتضمن تفاصيل أكثر عن الجانب المغربي. فما هو النسق التاريخي الذي درجت فيه الأمثلة التي رصدناها لهذه الفترة؟ سنرى ذلك من خلال أحوال قلعية في إطار النزاع الوطاسي والسعدي.

علي أعراص البو يفروري: أولى الشخصيات القلعية التي جمعت بين قيادة القبيلة والإشراف على حركة الجهاد. وقد سبق أن تعرفنا على أصل أسرته الأندلسي البادسي. وإلى غاية القرن السادس عشر كانت علاقات الأسرة ببادس لا تزال وطيدة. وقد لعب الأصل البادسي دوره في اختيار السلطان الوطاسي أبي حسون البادسي لعلي أعراص قائدا على قلعية، ولو أننا لم نعلم بذلك التعيين إلا في محرم سنة 956/ فبراير 1549[39].

ولسبب لم نتبينه انقلب علي أعراص من طاعة أبي حسون الوطاسي إلى الولاء لمحمد الشيخ السعدي. فبعد قرار أبي حسون بعزله في مارس السنة المؤرخة تقدم علي أعراص إلى أكرسيف للقاء محمد الشيخ[40]. ونقدر قيمة هذا اللقاء بالنسبة لحركة المقاومة بأهمية التعليمات التي زوده بها السلطان السعدي.

تلخصت تلك التعليمات في تعهد علي أعراص ببذل جهوده القصوى لطرد الإسبان من وكرهم بمليلة. ولم يصعب عليه تقديم بعض الضمانات المتمثلة في معرفته التامة لتحصينات المدينة وعوراتها. وبذلك استحق من محمد

(39) رسالتا مليلة في 25 فبراير و 14 مارس 1549. A.G.S. L. 474

(40) رسالة مليلة في 14 مارس 1549 .

الشيخ تقديره وتزويده بالرجال والعتاد الحربي، وفي مقدمته السلاح الناري الخفيف[41].

استهل علي أعراص أعماله الجديدة بتشديد الحصار على مليلة، أداته المسخرة أهل رباط مليلة ومراقبة ستين فارسا من فرسان قلعة تازوطا، قطع بهم على الإسبان كل فرص الخروج إلى الميدان الخارجي والتزود بالأخبار وحاجاتهم الغذائية، ويعبر عن فعالية الحصار كثرة شكايات مليلة من صعوبة الخروج والاحتطاب[42].

وصادف أثناء وجود أعراص على رأس قلعية التجاء كل من أبي حسون الوطاسي أمير بادس ومولاي عمر بن يحيى المريني أمير دبدو. فقد حل الأول يوم 19 ربيع الأول 17/956 أبريل 1549 برفقة خمسة من رجاله كان منهم قائد فاس علي بن شقرون.

ووجود أبي حسون بمليلة كانت المناسبة التي شدد فيها قائد قلعية الحصار على المدينة. يدل على ذلك تصريح حاكمها بقوله: " إننا نقيم بمدينة محاصرة نجهل فيها كل ما يجري في الخارج، إذ أن وجودنا بها غدا بدون جدوى بعد أن أضحت مهمة فرساننا مقتصرة على الخروج إلى البادية لجمع حزمة صغيرة من الأعشاب الضرورية للحفاظ على حياة خيلنا"[43].

وتصدت محاولات علي أعراص أيضا لكل حركة مرتقبة من أبي حسون انطلاقا من مليلة بمساعدة الإسبان. ولم تكن تخمينات القائد بعيدة عن واقع ما كان يعد له حاكم مليلة، إذ أن البلاط الإسباني اشتد عزمه للاستفادة من مقام أبي حسون بذلك الثغر. ومن أجل تلك الغاية صدرت الحكومة أوامرها بتأخير نقله إلى إسبانيا عكس ما كان يتمناه.

---

(41) **المصدر السابق.**

(42) رسائل مليلة: 21 مارس، 5 يونيه 1549؛ 3 فبراير، 14 شتمبر 1550؛ 1 يونيه، 11 شتمبر 1551؛ 27 يناير 27 شتمبر، 16 نوفمبر 1552.

(43) رسالة مليلة: 5 يونيه 1549. A. G. S., L. 474

تمثلت أطماع حاكم مليلة في إقناع أبي حسون بقبول المساعدة العسكرية الإسبانية للاستيلاء على كل من قلعتي تازوطا وغساسة. ولم يمنع من تنفيذ المشروع سوى إعراض أبي حسون بدعوى مناعة الحصن الأول منهما[44].

وحدث بعد مغادرة أبي حسون لمليلة في اتجاه بادس فإسبانيا[45]، أن حل بمليلة في السنة الموالية أمير دبدو عمر بن يحيى المريني برفقة ثلاثمائة من ذويه وحاشيته وكبار رجاله يوم 26 جمادى الثانية عام 12/957 يوليوز 1550. ولم يكن هذا بخاف على قلعية، إذ أنها اعترضت طريقه عند عبوره بممر تاليوين. وبمجرد وصول الخبر إلى محمد الشيخ بعث أربعة من قواده مزودين بتعليماته لتدبير خطة اختطاف اللاجئ المريني.

كانت عملية الاختطاف ممكنة باعتبار الموضع الذي خصصه الإسبان لسكنى المولى عمر بالمحاط الثاني الذي علمنا بعدم استكماله بعد تحصيناته الأساسية لذلك ضبط علي أعراص الموعد بيوم 9 رجب عام 24/957 يوليوز 1550 وحشد من أجل ذلك ما تراوح من الرجال بين ألف وخمسمائة وألفي وستمائة محارب. غير أن سبق وصول خبر الزحف نحو مليلة أخفق العملية من أساسها بسبب نقل سكنى المولى عمر إلى المحاط الأول داخل الحصن[46].

استمر علي أعراص في قيادة قلعية إلى أن أعلن عن قرار نقله إلى بادس لتدبير خطة استنزال القائد موسى الزرهوني المعتصم بحجرة بادس، ولن ينتهي منها إلا بعد ثلاث سنوات تالية[47]. وقد عين محمد الشيخ المدعو البوعلوتي خلفا له على قلعية .

---

(44) رسالة مليلة: 12 ماي A. G. S. L. 79.1549

(45) تاريخ المغادرة هو 16 جمادى الثانية عام 12/956 يوليوز 1549.

(46) اختير لها مكان بالقرب من ساحة الجباب الحالية (Plaza de algibes) بزقاق صغير وضيق ما زالت دوره محتفظة بصورتها القديمة (عام 1976) يعرف في الوقت الراهن بزقاق المسلم (Calle del Moro). من رسالة مليلة في 11 غشت 1550، A.G.S ، ملف 475

(47) عن موسى الزرهوني أنظر أطروحتنا **مقاومة**، 2: 609، 636، 641.

القائد بو علو الكعداوي: تحتل فترة القائد بوعلو الكعداوي المدة الفاصلة بين انتقال علي أعراص إلى بادس واستيلاء أبي حسون على قلعية عام 1553/958. وبو علو ليس اسم القائد الذي نجهل اسمه بل هو اسم الجماعة الأسرية التي ينتمي إليها، فهو إذا بو علوتي، من مدشر إبعلوتن الكعداويين.

وقد عاصر القائد بو علو مرحلة دقيقة من تاريخ قلعية في نطاق الصراع الوطاسي السعدي ومعه التدخل التركي. غير أن هذا لم يمنعه من متابعة الدور المنوط به تجاه الوجود الإسباني. ويمكن تتبع نشاطه بسرد خمسة أمثلة تهدف كلها إلى إرغام الإسبان على الاعتصام بداخل أسوار المدينة[48]. وقد صادف هذا قلة ما كان بداخلها من رؤوس الخيل، إذ أن خطة غزاة الرباط كانت ترمي إلى إبادتها، مثلما حدث في معركة جرت يوم 14 جمادى الأولى عام 20/958 ماي 1551.

وهكذا لم يتجاوز العدد الموجود آنذاك الثلاثين رأسا من الخيل، في وقت كان القائد بوعلو يغير بنحو مائة فارس ولرباط مليلة مثل ذلك. وحتى أفواه المدافع لزمت الصمت لحاجتها الماسة إلى البارود الذي لم يكن ليكفي اليوم الواحد[49].

ولم يعد تزويد مليلة من جهة البحر سهلا بسبب الخطر الذي شكلته السفن التركية المتجولة بسبخة بوعرك بكل حرية. وكان رأس هورك النقطة الرهيبة للكاليرات الإسبانية، ولا يصل القليل منها إلى مرسى مليلة إلا تحت ستار الظلام.

ولكن الخطر الحقيقي الذي اهتز له حاكم مليلة هو محاولة الاتفاق السعدي التركي لتوحيد الجهود ضد المسيحيين المحتلين لسواحلنا، خاصة بعد توصله بأخبار اتفاق القائد بو علو مع صالح الرايس على ظهر سفينته الراسية بسبخة بو عرك إذ أن الاقتراحات المغربية أقرت بموافقة محمد الشيخ

---

(48) رسالة مليلة: 11 شتمبر 1551؛ 27 شتمبر و 16 نوفمبر 1552.

(49) رسالة مليلة: 1 يونيه 1551. A. G. S. L. 476

على توحيد العمل من أجل الجهاد، فقد كان من جهته على استعداد للمساهمة بنحو أربعة آلاف محارب لقاء تقديم الأتراك ما يكفي من السفن. ومن حسن حظ الإسبان أن أي شيء من هذا لم يقع بسبب اهتمام الأتراك بقضية أبي حسون المعادية للسعديين ولكن المقاومة استمرت في عملها[50].

ولا تشكل الأمثلة الخمسة التي رصدناها لفترة القائد بوعلو نصوصا مفصلة بل هي على العموم أخبار تعكس الحالة التي كانت عليها المدينة من شدة الحصار المفروض. وسنكتفي بالإشارة إلى الصورة العامة المشتركة المستمدة من مجموع الرسائل مما يهم الجانب المغربي.

فالقوة التي يغير بها المغاربة فرسانا ومشاة تفوق ما عند الإسبان بكثير وهم إلى جانب ذلك يستغلون توقف قصف المدفعية لفرض الحصار على الغوطات وأسوار المدينة نفسها. ولذلك ظلت عملية الاحتطاب من الأمور العسيرة على الإسبان خلال تلك الفترة. ولما كان الخروج ضرورة ملحة بالنسبة للإسبان فإن الخسائر في الأرواح من جانبهم كانت كبيرة. وهذا مما جعل حاكم مليلة يكتب إلى إسبانيا ما مفاده:

"عقدنا العزم على عدم المجازفة بإرسال سوى عدد قليل من الفرسان متراوح بين عشرة واثني عشر فارسا لجمع الحطب، ولا ندفع بباقي الفرسان نحو الخارج إلا إذا حدث ما يستوجب تقديم النجدة، فليس من قبيل الحيطة تسريح عدد أكثر من ذلك"[51]. غير أن الإسبان لم يلبثوا أن تنفسوا بعض الصعداء بوصول الصراع الوطاسي السعدي إلى قلعية. وسنرى وضعية المقاومة من خلال قيادة بوبكر البوعلوتي.

---

(50) رسالة مليلة: 3 شتمبر 1552. يدخل هذا الاتفاق ضمن وساطة محمد بن علي الخروبي وقد علق حاكم مليلة على الاتفاق بقوله: إذا تمكن التركي من الاتفاق مع الشريف (محمد الشيخ) فستكون الأضرار بالنسبة لمليلة عظيمة، لكونها غيرمستعدة للدفاع عن نفسها.

(51) **المصدر السابق.**

بوبكر البوعلوتي الكعداوي: تعرفنا على اسمه الشخصي من خلال تقرير حاكم مليلة الخاص بمسيرة المرابط الكزنائي. وللمارمول كل الفضل في تعريفنا بكنيته، حين سماه بوعلو فمنه أدركنا أنه من إبعلوتن الكعداويين مثل سابقه[52]. وللقائد بوبكر خدمات سابقة مع أبي حسون الوطاسي قبل التجائه إلى مليلة وبعده.

وإذا تتبعنا أخباره وجدنا أنه كان المكلف بنقل أخبار التأييد من الريف الشرقي إلى أبي حسون الوطاسي أثناء تنقله باسبانيا طلبا لمساعدة كارلوس الخامس. ومن أجل ذلك قضى بمليلة مدة ما بين 2 و 16 يونيه 1550 في انتظار الإبحار إلى إسبانيا و لم يعد إلى المغرب إلا برفقة الملك الوطاسي على ظهر السفن البرتغالية.

ومن حسن حظ البوعلوتي أنه لم يقع في أسر رجال صالح الرايس التركي بخليج المزمة لنزوله إلى البر قبل مداهمة السفن التركية لنظيرتها البرتغالية مثلما حدث لأبي حسون الوطاسي، ومن هناك سيعود بوبكر إلى قلعية لمتابعة نشاطه واتصالاته في انتظار الأحداث التي ستسوق أبا حسون إلى الحملة على فاس بمساعدة الأتراك. قام بو بكر البوعلوتي بعمليات تهيئ لصالح أبي حسون بقلعية. وجدنا من مساعديه بعض الأسماء القلعية، منها: الشيخ حدو البوعلوتي والشيخ عيسى بن منصور القلعي[53].

تضمنت أولى تلك العمليات القبض على قائد قلعية من قبل السعديين المدعو بوعلو ابن مدشره، إثر وصول محمد بن أبي حسون إلى قلعية على ظهر السفن التركية الداخلة إلى سبخة بوعرك، وذلك قبل 18 ذي القعدة عام 26/960 أكتوبر سنة 1553. وبانقضاء قيادة بوعلو بدأت قيادة بو بكر البوعلوتي الأولى التي انتهت بسبب اندحار أبي حسون أمام قوات محمد الشيخ السعدي بفاس والتجاء بوبكر البوعلوتي إلى الجزائر.

---

(52) **إفريقيا**، 289/2.

(53) رسائل الشيخين إلى أبي حسون الوطاسي غير مؤرخة ولكنها سابقة ليوم 27 يناير A. G. S. L. 47 .1552

عودة علي أعراص: بعد إنجاز علي أعراص مهمته بالقضاء على تمرد الزرهوني بحجر بادس في شوال ـ ذي القعدة 960/أكتوبر 1553 وتنظيم شؤونها خلال العامين التاليين عاد إلى قلعية. وما يبعث على التساؤل خلال هذه الفترة الثانية هو الخبر المعلن من طرف الإسبان حين ذكرت رسائلهم أن قائد تازوطا كان وراء تمرد حامية مليلة على حاكمها.

اكتشف حاكم مليلة مؤامرة انقلاب نسج خيوطها من سمي كاسبار العربي (Gaspar Yrobi) قيل إنه ابن ملكة فاس[54]، ويفهم أنه من المورسكيين المتنصرين المحكوم عليهم بالنفي إلى مليلة. وتظهر ترتيبات المؤامرة أن خطة المتمردين كانت قد قدرت لنجاحها الاقتداء بما جرى في حجرة بادس وكدية غساسة، بعد إغلاق باب مليلة عن الجنود الخارجين إلى الميدان وتركهم فريسة بين أيدي رجال قلعية. وهناك أكثر من دليل على أن المغاربة لم يكونوا على علم بما دبره المتمردون[55].

ونسرد الآن المثال الذي يظهر منه أن القلعيين استعملوا السلاح الناري لأول مرة خلال لقاء يوم 15 ربيع الأول 7/962 فبراير 1555. وسبق أن لاحظت أن القواد المخزنيين الأربعة الموفدين من طرف محمد الشيخ إلى قلعية كان برفقتهم عدد من رماة البنادق. وإليك الوصف المقدم من طرف حاكم مليلة: " تصدت حراسة رباط مليلة للإسبان في فجر يوم 7 فبراير بنحو أربعين فارسا وستمائة من المشاة كانوا متربصين بغاية القصب أو أغبال على الضفة اليمنى من واد المدور على بعد كيلومتر ونصف وراء كدية بجوار مجاز هناك وبذلك منع الإسبان من الاحتطاب"[56].

ويظهر أن الإسبان لم يتوصلوا إلى الحصول على الحطب منذ أيام وأصروا في هذا اليوم على تحقيق غرضهم من الخروج، ولذلك تحصنوا

---

(54) يصعب التكهن بالمقصود من ملكة فاس.

(55) مليلة: 25 أكتوبر 1555. Mns, B.N.M, Fol, 33-34, r°,

(56) ربع الفرسخ الإسباني يساوي 1393،17 متر.

بالأشبارات الخشبية. وكان عدد الجنود مكونا من خمسة وعشرين فارسا، وهو العدد المتوفر آنذاك بالمدينة إلى جانب مائة وعشرة من المشاة[57].

تمكن القلعيون أول مرة من إرغام الجنود على التراجع نحو الأسوار تحت حماية المدفعية، غير أن القبطان لاحظ عدم إتقان المغاربة للرماية، إذ أن استعمال البنادق حدث لأول مرة منذ الوجود الإسباني بالمدينة. ولهذا السبب تقدم الإسبان نحو أغبال ثانية وتراجع القلعيون إلى مخابئهم الأولى تاركين وراءهم خمسا وعشرين من الأسرى وخمسا وسبعين من القتلى.

وإلى هذا الحدث أشار مارمول كاربخال بعد اطلاعه ولا شك على رسالة مليلة مشيرا إلى عدم إتقان القلعيين الرماية بالبنادق، مع اختلاف شكلي في تقدير أرقام الموتى والأسرى. فالمغاربة كانوا يهاجمون مجتمعين ويطلقون النار بعيدا من غير إحكام في التصويب، إذ أنهم كانوا يطلقون النار على مستوى أعلى ثم يتوقفون قليلا لإعادة شحنة البنادق، موهمين أنهم يلوذون بالفرار ليكروا راجعين بعد ذلك[58].

استمر علي أعراص في منصبه بقلعية، وكان الشغل الشاغل لديه هو الحد من جولات رؤساء البحر الأتراك بسبخة بوعرك، محاولا إيجاد طريقة ردم مدخل فتق السبخة بتعاون مع حاكم مليلة الذي صادف لديه نفس الرغبة إلى أن أمر الغالب بنقله إلى بادس مرة ثانية في فبراير 1558، مفضلا بذلك مواجهة أطماع الأتراك هناك[59].

بوبكر البوعلوتي ثانية: ظهر مرة ثانية في عام 1563 بصفته قائدا على قلعية من قبل السعديين خلفا للمدعو عبد الله بن يعقوب الطلحاوي الذي لا نعرف عنه شيئا، سوى ما يمكن تقديره بأنه خلف علي أعراص منذ فبراير 1558. ولا يمكن التكهن بالظروف التي ساقت بوبكر إلى قبول طاعة

(57) ما عند مارمول هو مائة وخمسون من الرماة 261/2.

(58) حسب مارمول أكثر من مائتين من القتلى ومثل ذلك من الجرحى. **المصدر السابق**.

(59) رسالة مليلة: 28 فبراير 1558. A.G.S. L. 484. هناك إشارة إلى مثال من أمثلة حراسة الحدود تم يوم 8 فبراير 1557، تخلينا عن ذكره لعدم الاهتداء إلى المصدر.

السعديين ، إلا إذا أدخلنا في الاعتبار دخوله في قائمة عفو عبد الله الغالب الذي شمل مولاي عمر، أمير دبدو بعد انهزام الأتراك بواد اللبن سنة 1558/966.

ويمكن الآن إضافة مثال من حراسة الحدود تمت وقائعه يوم 3 رمضان عام 15/971 أبريل 1564 على عهد حكم بيدرو دي فنيكاس السالف الذكر. قدم التقرير الإسباني بوبكر الكعداوي على أنه قائد بطوية. ظهر القائد البوعلوتي بالميدان كما هي العادة على الساعة الخامسة صباحا بعدد قليل من الفرسان على غير عادته في غارات أخرى سابقة، فكان هذا دليلا بالنسبة لحاكم المدينة على أن القائد لم يأت بقصد الدخول في المناوشات ومنعهم من الاحتطاب، بل كان غرضه التوصل إلى مجرد قتل بعض الخفر.

بقي القائد بوبكر مع فرسان الرباط مختبئا في كمين واقع على واد المدور من جهة كدية مزوجة، فمن هناك شاهد تقدم القبطان مع خمسة من رجاله القائمين بمهمة استطلاع الميدان. ولكن فرسه تعثر به أثناء الهجوم فسقط وتحولت المناوشة إلى مجرد محاولة إنقاذه[60].

تضطرنا ندرة رسائل مليلة المؤرخة ما بعد 1564 إلى التوقف عن سرد أمثلة النصف الثاني من القرن السادس عشر، وبه ندخل في فترة غامضة نقدر بها مبدأ رجحان كفة قوة الإسبان بعد مسيرة الشيخ محمد الكزنائي. يبدو هذا الرجحان في التوسع الذي عرفته حدود مليلة. فبعد أن كانت حدودها مقتصرة، إلى غاية منتصف القرن العاشر الهجري على المحاطين الأول والثاني، تم خلال النصف الموالي له تشييد سلسلة من الأسوار والحواجز أطلق على المساحة الواقعة تحت حمايتها بالمحاط الثالث[61].امتد السور الخارجي للمحاط الثالث من الزاوية الجنوبية الغربية بدءا من برج الكلمات الخمس[62]، ومن

---

(60) هو الخندق المسمى أورنابيكي المحدث في النصف الثاني من القرن المؤرخ له.

(61) تعبر أبعاد المحاط عما جاء في تقرير بيدرو دي فينيكاس عن الوضعية الدفاعية القائمة سنة A. G. S. Fol. 24. 80. 1775

(62) خصص البرج (Fuerte de las cinco palabras) لتنفيذ حالات حكم الإعدام على الجنود المتمردين وغيرهم.

هنـاك يسير السور جنوبا نحو الزاوية التي أقيم فيها برج سـان فيرنانـدو (San Fernando) ليصـل إلى سـاحة السـلاح الخارجيـة. وحتـى تكـون الحصانـة تامـة استغل الإسبان مجرى مسيلة منحدرة من تل المرسى لتعميق الممر المرافق لامتداد الأسوار أطلقوا عليه خنـدق أورنابيكي (Foso Hornabique) الـذي ينفتح إليه باب المحاط الثاني المدعو باب البادية أو العافية تلـك هـي الحـدود المعروفـة إلى غاية سنة 1646/1056.

ويوافق هذه المساحة مما هو موجود في الوقت الراهـن مـا يكـون جنـاح مانتيليطي (Mantelete) على طول زنقة خارذينـس (Jardines) وألفونصـو الثـالث عشـر(Alfoso trece) وسـانتياغو (Santiago) ومدينـة صيدونيـا (Medina Sidonia) فسوق الحوت وباب العافية[63].

بإنشاء تلـك الحـدود تجـاوز الإسـبان الأسـوار القديمـة لمحاولـة السـيطرة الفعلية على الميدان الغربي الخارجي، وقد استكملوا التحكم ببنـاء سلسـلة مـن الأبراج سموها بالأبراج الخارجية. والبرج الإسباني مبنـى مؤلـف مـن طـابقين، مربع الشكل في الغالب غير قادر على تحمل نصب المدفعية، والغاية مـن إقامتـه أن يكون ملجأ الجنود وموقع تحصنهم. ومن تلك الأبراج:

برج سانتياغو (Fuerte de Santiago): وهـو بالـخارجــي، كـان موضعـه قريبا من ساحة إسبانيا الحالية شيد سنة 1571/979 بحجم صغير تطـل منـه أربـع شرفات صغيرة ويسع لنحـو عشـرين جنديـا، وبموقعـه هـذا يقـابل مصـب واد المدور وكدية مزوجة.

برج سان فرانسيسكو (Fuerte de San Francisco): شـيد سـنة 1575/983 في موقع متقدم من البرج السابق مما يقابل رباط مليلة[64].

---

(63) R. F. de Castro , « Melilla y sus fortificaciones en la primera mitad del siglo 16 », p. 240; « De la Melilla Vieja », *Africa*, 1930, 1931

(64) Gabriel Morales , *Efemérides y curiosidades*, p. 261.

برج سان لورنثو (Fuerte de San Lorenzo): هو المسمى من طرف المغاربة برج مزوجة، لانتماء بقعته إلى أرض الخمس القلعي، ويدعى أيضا برج تينرت بالنسبة إلى قمة واقعة بالسفح الشرقي من جبل قلعية. ومن المحتمل أن الموضع كان أساس برج قديم قبل التسرب الإسباني إلى مليلة. شيد الإسبان البرج سنة 1583/991 على كدية مرتفعة بنحو ستين مترا فوق سطح البحر على بعد من المدينة بنحو ستمائة متر[65].

برج البارادا (Fuerte de Albarrada): بني في هذه الفترة بموضع من مدخل بوليكانو الحالي (Poligano) مما يقابل كدية هوركا في الشمال الشرقي. وقد أطلق نفس الاسم على برج آخر شيد بجهة قريبة من المدينة بعد هدم المجاهدين للأول.

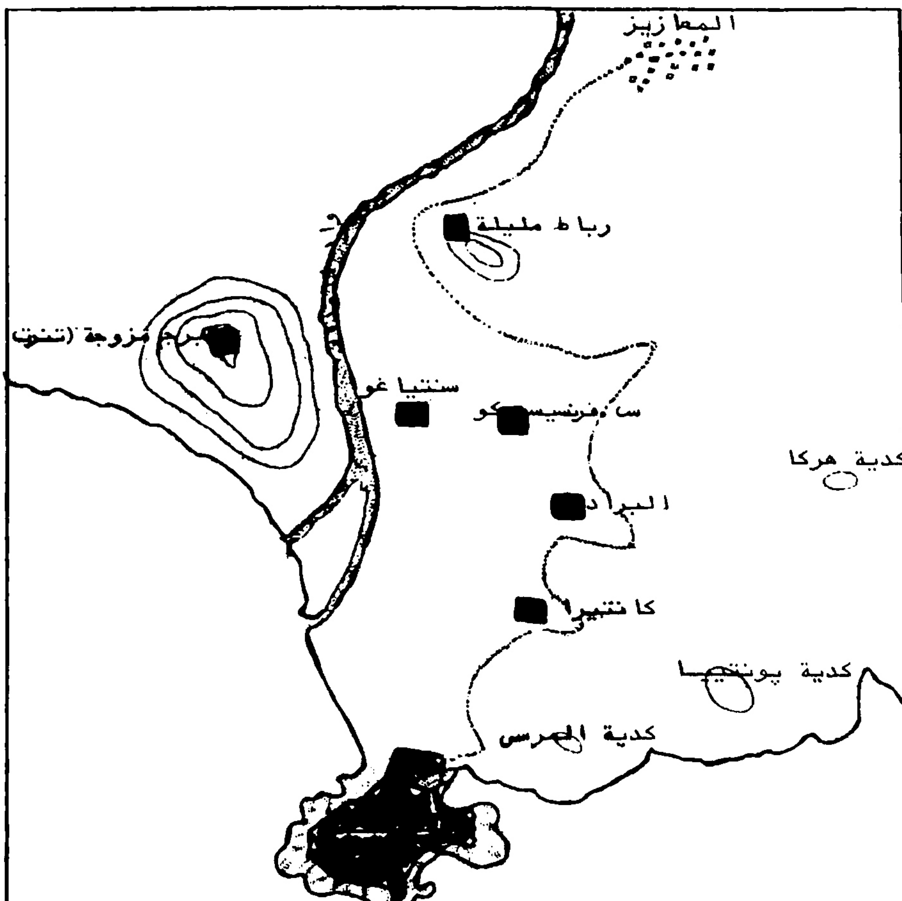
برج سان طوماس دي كانتيرا (Fuerte de San Tomas de Cantera): ربما المقصود به البرج الذي سماه أحمد بن القاضي الكعداوي برج معدن التراب اللين. شيد سنة 1637/1047 عند قدم كدية بونتيبيا (Cerro de Puntia) حيث كان موقع أتاكي سيكو (Ataque Seco)[66].

من الملاحظ أن بناء تلك الأبراج قد وسع مجال تجول الإسبان بالفحص بتحصين الخط الغربي الممتد على الضفة اليسرى من واد المدور والحد الشمالي بمراقبة التلال المشرفة عليه. وكل ذلك من شأنه أن وفر الهدوء والأمن بالنسبة لأسوار مليلة.

أمثلة الثلث الأول من القرن الحادي عشر الهجري: كل شيء كان يوحي من الاستعدادات الحربية أن الإسبان وجدوا الجو المناسب للتمتع بالهدوء الكافي لتوسيع حدود مليلة في فترة ما قبل معركة وادي المخازن وما بعدها أيضا، فهم لم يتوانوا عن البحث لتوفير المزيد من فرص الأمن بخلق

(65) **المصدر السابق**؛ ح. الفكيكي، مادة "تينرت" **بمعلمة المغرب**، 2756/8.

(66) اعتمدنا في تعيين مواضع الأبراج على مجموعة من الرسوم والخرائط، أقدمها رسم يعود إلى 1692 وخريطة تم وضعها سنة 1792.



أبراج مليلة في آخر القرن السادس عشر

البلبلة للمنصور السعدي. وليس من الصدفة أن يختار فليب الثاني مليلة لقذف الناصر بن الغالب إلى قلعية وعموم مغرب الشمال الشرقي[67].

وستزداد تلك الفرص تمكينا واتساعا بالاضطرابات العامة التي شملت المغرب إثر وفاة أحمد المنصور وما كان لها من انعكاسات على قلعية أيضا، منها ملاحقة زيدان بن المنصور لابن أخيه عبد الله بن الشيخ المامون اللاجئ إلى مليلة في أواخر ربيع الأول 1018، أواخر يوليوز 1609، وكان لجوءه مؤشر السياسة الإسبانية المدبرة ضد مدينة العرائش. وبسبب ذلك الحدث وجدنا زيدان بن المنصور السعدي يأمر قائد قلعية الذي غاب عنا اسمه وانتماؤه بتشديد الحراسة على حدود مليلة، وربما كان عازما على تجريد جيشه لحصارها. غير أن الحدث كان مؤقتا وعابرا، سرعان ما انتهى بعبور ابن الشيخ إلى إسبانيا[68].

عاصر أحداث قلعية في النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري (17م.) عيسى بن محمد بن يحيى الراسي البطوئي السعيدي، أحد أبناء منطقة الريف الشرقي وقبيلة بني سعيد[69]. ورغم طابع التصوف الذي طغى على مؤلفه فقد أمكن لنا استغلال ما جاء في الفصل التاسع من الباب السابع من تراجم بعض المجاهدين منهم:

---

(67) كان خروج الناصر بمليلة في 3 شعبان 13/1003 أبريل 1595، بعد أن قدم المراسلات إلى قلعية وقامت بأمره مزوجة بعد مصاهرته إلى شيخها، ثم انضم إليه باقي سكان الأخماس حتى احتمع لديه نحو ألف من الرماة. وساعده الأحلاف خاصة أولاد شعيب من أولاد علي بن ستوت للزحف نحو بني يزناسن ونواحي تازا.(مجهول، **تاريخ الدولة السعدية**، صص. 65. 93. 110؛ الافراني، **نزهة الحادي** ص. 100؛ الفشتالي، **مناهل الصفا**، صص. 94-98؛ القادري، **نشر المثاني**، 147/1.

(68) تقول مراسلة 4 غشت 1609: ".. نحن في حاجة إليه لما نحن بصدده ببلاد البربر، وبهذه المناسبة سنبحث مسألة العرائش". S.I.H.M. série France 3/461

(69) من أحياء عام 1630/1040 وهو صاحب **مطلب الفوز والفلاح في آداب طريق أهل الفضل والصلاح**. قدمنا دراسة عن المولف وصاحبه سابقا في دعوة الحق، ونعتزم بحول الله إخراج قسم منه محققا في كتاب مستقل.

علي وارث الغساسي البوكافري(70): ينتمي إلى الأسرة الغساسية الوارتية التي نعلم ببقائها بخمس بني بوكافر القلعي منذ أن خرج أهلها منها قبيل استيلاء الإسبان على المدينة سنة 1506. وقد سبق أن عرفنا بأيت وارث أو الواتيين في مكانه. يفهم من إشارة عيسى البطوئي عن حركة جهاد قلعية أن الإسبان كانوا قد سيطروا على الميدان الخارجي نتيجة الظروف المتاحة لهم لتشييد الأبراج الخارجية، وبالتالي فإن مواقع المغاربة كانت متأخرة.بما أصاب الحركة من فتور وعجز، إلى درجة إقبال بعض أهل قلعية على التعاون مع حكام مليلة، بل وبيع أبنائهم لهم، مثلما يذكر عيسى البطوئي. ويمكن إيجاد علة ذلك الفتور في المجاعة التي اجتاحت الريف الشرقي برمته ما قبل سنة 1618/1028 ليستمر أثرها خلال عدة سنوات.

حاول الشيخ علي وارث الغساسي إيجاد طريق رفع الوضع الذي تردت فيه المقاومة القلعية فبادر إلى الدعوة لمعالجة الخلافات والنزاعات بين القلعيين أولا ثم قطع الصلة بالإسبان ثانيا. غير أن دعوته لم تفلح لكونه الوحيد في ميدانه، مما عجل به للهجرة إلى بني سعيد عام 1617/1027. لم يلبث القلعيون أن استعادوا أنفاسهم وقواهم في السنة الموالية وعيسى البطوئي بمقر سكناه ببني سعيد. ونقدم ما سجله عيسى البطوئي بكلماته:

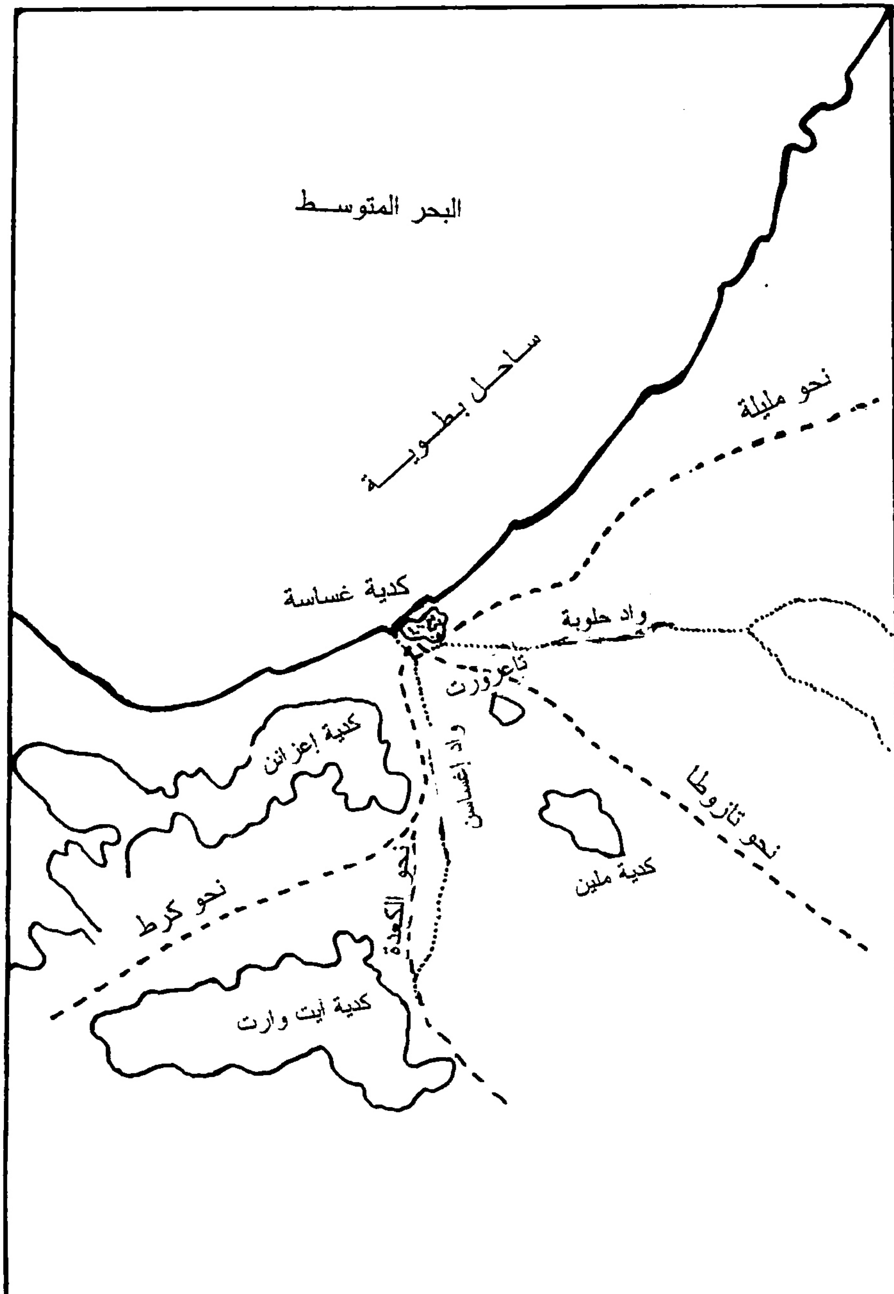
"أغار كفار مليلة على القلعية فمكن الله منهم فهلك منهم بين أسير وقتيل نحو مائتي وعشرين كافر ولم يفلت منهم إلا القليل من الخيل، أما الرجالة فقد استأصلوها بعد أن كانوا قد استولوا على جبل قلعية وذلك عام 1028، ونحن ببطوية بالسكنى. واستشهد من المسلمين يومئذ نحو ثمانية رجال"(71).

لم نجد أي أثر لهذه المعركة بالمصادر الإسبانية باستثناء الإشارات العامة غير المؤرخة. وإذا كنا ملزمين لتجاوز ما قيل عن خروج الإسبان وعما قيل

---

(70) توفي آخر صفر 20/1033 نوفمبر 1623.

(71) **مطلب الفوز والفلاح في آداب طريق أهل الفضل والصلاح**. مخطوط غير مرقم.



مدشر آيت وارث الغساسي

عن عدد الأسرى والقتلى من الجهتين، فإن ما يستوقفنا هو الإشارة إلى استيلاء الإسبان على جبل قلعية. وهنا نصحح فهم تلك العبارة حتى لا تؤخذ بمدلولها الظاهري العام، إذ أن الإسبان لم يسبق لهم أن ملكوا جبل قلعية، فمراد عيسى البطوئي هو مجرد الإشارة إلى التوسع الخارجي المحقق من طرف الإسبان ببناء الأبراج الخارجية، وغاراتهم الشرسة على عهد حاكمها فيرناندو القرطبي (Fernando de Cordoba) ما بين 1031/ 1623 و 1625/1034. وهذا كان وحده مؤشر تخوف القلعيين المنذر بتقدم المغيرين إلى أبعد من تلك الحدود.

صحوة المقاومة

وعلى الرغم من ندرة الأخبار الواصلة إلينا عن الحركة الجهادية القلعية فإننا نرجح أن الاستفاقة التي يعبر عنها عيسى البطوئي لم تتوقف، وذلك لوجود أسر أخرى عرف بها الفقيه السعيدي. ومن تلك الأسر الأسرة الوليشكية التي منها الشيخ عمر بن حمو أمزيان العبد السلامي البطوئي والأسرة السعيدية التي منها المجاهد الحناش الأشجعي.

واستفاقة حركة المقاومة القلعية التي تحدثنا عنها لم تلبث أن أصبحت صحوة حقيقية في منتصف القرن الحادي عشر الهجري (17م.). وعلى الرغم من أننا لا نعرف أي شيء عن أحوال قلعية الداخلية، وعن رئاسة المقاومة بصفة خاصة إلا أن المثالين يبينان حقيقة تلك الانتعاشة في وقت بدا فيه أن إقليم الشمال الشرقي المغربي كان مجزأ إلى ما يشبه الإمارات القبلية، ومن الحق أن نقول إنها كانت إمارة جهادية بما يوحي بهما المثالان اللذان سيتم تقديمهما عن استعادة حركة المقاومة لنظامها ونشاطها[72].

---

(72) نعني بذلك استقلال علي أعراص بحوض النكور سنة 1636/1046 والشيخ عمر بن محمد الحمامي التمسماني بتافرسيت وتمسمان وبني توزين والشيخ علي بن سليمان بكبدانة. مويط **تاريخ مولاي رشيد**. السلسلة الفرنسية 33/2 وما بعدها ؛ أنظر نفس الموضوع في S.I.H.M. série France 1/132 ؛ عبد الكريم بن موسى الريفي، **زهر الأكم**، تحقيق آسية بنعدادة، الرباط 1992، ص. 126.

المثالان شهادة إسبانية معاصرة لتلك الصحوة وجد أصل الأولى منهما في سجلات وفيات كنيسة بمدريد، وهي بتاريخ 16 يوليوز 1646 (2 جمادى الثانية عام 1056 هـ.)[73]. أما الثانية فمجهولة الكاتب تاريخها يأتي مباشرة بعد الأولى[74]. وأفضل تقديم المثالين بنصهما المترجم لكونهما صورتين من صور المقاومة المعروفة لدينا.

المثال الأول:

"...خرج قبطان هذا الحصن المسمى ضون ذيغو دي أرسي (Don Diego de Arci)، حسبما جرت به العادة على الساعة الرابعة مساء بفيلق من حامية المدينة متجها نحو برج البارادا (Santo Tomas de Albarrada)[75]، لتسريح قطيع الأغنام، فأسند الجنود بنادقهم إلى حائط البرج وتوجهوا هم لخدمة البساتين بينما أقبل الأسرى لنقل الماء مثلما جرت به عادة كل يوم. وبعد مضي ثلاثة أرباع الساعة وثبت علينا جماعة مكونة من أربعة عشر فارسا من فرسان الأعداء، فتعالت صيحات رجالنا بالنجدة وانطلق نحو جميع الفرسان القلائل المتوفرين بالمدينة وخرجت على إثرهم فرقة المشاة.وقد تظاهر المسلمون آنذاك بالتراجع إلى الوراء بعد أن لحقتهم بعض الخسائر، إذ أنهم هاجموا من موقع مرتفع بالنسبة للموضع الذي كنا فيه. وبلغ عدد المسلمين نحو ثلاثمائة فارس وألفين من المشاة، حسب ما بدا من تقديرات خسائرنا[76]. خرج ضون كارلوس راميرث (Carlos Ramirez) بجميع من كان بالحصن من الرجال علاوة على جنود حصن بادس الذين جاءوا بسفينة من نوع بركانتي لوسق الملح المستخرج من البحر الصغير[77]. صار عدد رجالنا أكثر من مائة وأربعين محاربا،

---

(73) Juan Bravo de Acuno , « Libro de Defunciones de la Iglesia Parroquial », *Africa , revista de las tropas coloniales*, Octubre 1930, p. 240

(74) *Mauritania* 1940.

(75) موقعه آنذاك بمدخل بوليكانو الحالي، أي بداية شارع كاناليخاس(Canalejas) .

(76) بدأ الهجوم المغربي من شعاب كدية هوركا، بينما كان الإسبان بوادي المسيلة المنحدرة منه مما يوافق اليوم شارع أبينيدا. ينبغي وضع اعتبار خاص لتقديرات الإسبان للقوات المغربية. وربما كان هذا العدد مبالغا فيه.

(77) كانت الملاح بالمدخل الشمالي من السبخة الواقع تحت مراقبة الحصن.

فوصل بهم القائد إلى برج سان ماركو (San Marco)[78]، ومن هناك أمر بخروج جنديين أو ثلاثة من الأبراج[79]. وبجميع أولئك بدأ الزحف من برج البارادا إلى أن أشرفوا على بالميا (Palmilla) وألكاروبيو (Algarrobillo) والمكمن العالي (Celada alta)[80]. بادر قبطان الحصن لتحذير الجنود من مغبة الاقتراب من تلك المواقع، خاصة وأن المسلمين كانوا قد انسحبوا دون إلحاق الخسائر بجنودنا. إلا أن الحماس سرى بين الجنود فأصروا على المضي إلى الأمام في ذلك الاتجاه، إذ أنهم كانوا صبية مغترين منساقين بذكريات فيرناندو القرطبي[81]. وحدث بمجرد وصول القبطان إلى موقع الكمين العالي أن بتر المسلمون قائم فرسه بضربة واحدة وانقضوا فجأة على فرقتنا وسط مجاز صعب، لم تكن قوتنا تساوي به شيئا، وقتلنا مسلمين فقط دون التمكن من صدهم عنا وحين أيقن جنودنا بمحاصرتهم وهزيمتهم ألقوا السلاح على الأرض وولوا الأدبار، فكانت الغنيمة للمسلمين وأسر من المسيحيين نحو تسع وعشرين كان من بينهم عريفان وجنديان من حصن بادس، وقتلوا أيضا ضون لوبي دي فوميستا (Lupe de Fomesta) وسرجان ودليلين وأربعا وأربعين جنديا وفرسين، وحمل المغاربة معهم رأس القائد فلم يعد مع قبطان الحصن سوى عشرين أو ثلاثين رجلا، وحدث كل هذا خلال نصف ساعة لا غير".

المثال الثاني:

كان لهذه المعركة صداها السيئ لدى الحكومة الإسبانية، فتم تكليف أجهزة مالقة لإنجاد مليلة بالرجال والعتاد، بينما صدر أمر انتقال حاكم بادس لمواجهة أحداث ميدان مليلة. وبوصوله بدأ شن الغارات على المواقع المغربية بنخوة وتحد كبيرين. وهذه صورة منها:

" تقدم القبطان نحو مواقع المسلمين في نظام جيد، وحينما اقتربنا من كمين تصدى لنا المسلمون منه بعدد كبير من المشاة والفرسان فكسروا نظامنا وألهب

---

(78) موضع البرج سابقا هو المعروف باسم راستريو (Rastrillo).

(79) يقصد كلا من برج سانتياغو وسان ماركو وسان فرانسيسكو وسان لورنثو وألبارادا.

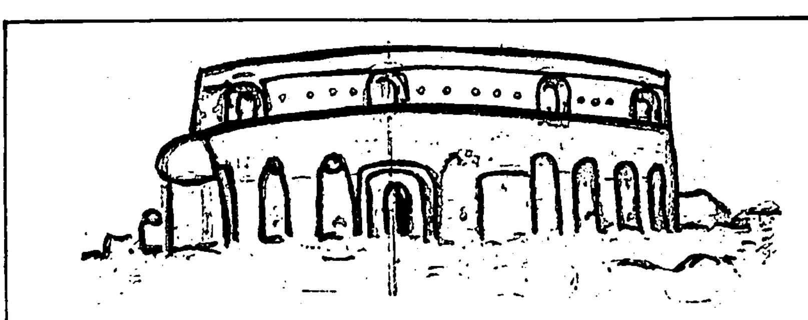
(80) مواقع المكامن المغربية على الضفة اليمنى لواد المدور.

(81) Fernando de Cordoba حاكم مليلة ما بين 1623 و 1625 اشتهر بغاراته الشرسة زمن الشيخ علي وارث الغساسي.

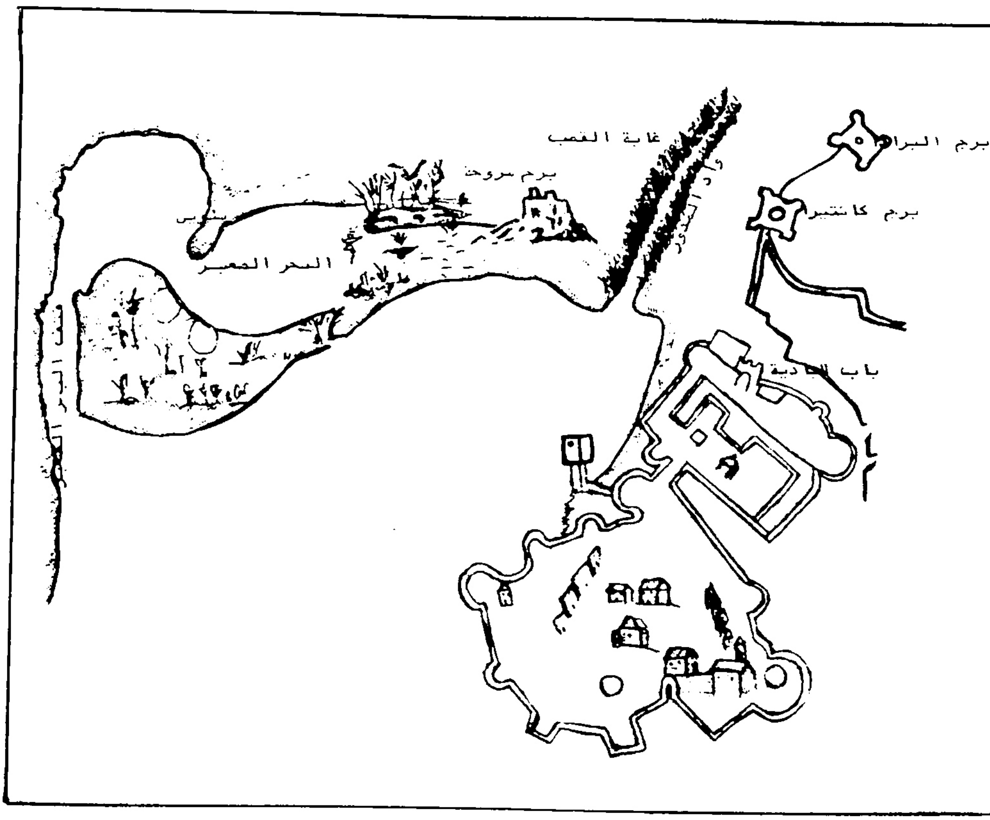
ضون كارلوس حاكم المدينة الجديد حماس الجنود وحارب هو بشـجاعة دون أن يحقق أمرا ما بسبب تفاوت العدد بيننا وبين الأعداء، و لذلك منينا بالهزيمـة. أمـا ضون كارلوس فلم نستطع التأكد من مقتلـه أو أسـره. وبلغـت خسـائرنا تسـعا وسبعـين جنديا بين قتيل وجريـح، ولا نعلـم إلى الآن مـن بقـي منهـم علـى قيـد الحياة".

كانت هاتان المعركتان منطلقا جديدا في تـاريخ المقاومـة المغربيـة، تلتهـا معارك أخرى أحبطت آمال الإسبان في استعادة السيطرة على الموقف بـالميدان مثل المعركة التي أدت سنة 1649/1059 إلى سقـوط المارشـال لويـس دي سـوتو مايور (Luis de Soto Mayor) في كمين المغاربة وقتله مع ثلاثـين مـن جنـوده، ممـا رددته المراجع الإسبانية دون التوصل إلى مصدر الخبر.

والمهم لدينا أن صحوة المقاومة القلعية بالشمال الشرقي المغربي لم تعرف بعد ذلك التوقف أو الفتور، بل على العكس من ذلك ستسـير في اتجاه تحقيـق مكتسبات ميدانية جديدة. ولهذه المرحلة الجديدة الناتجة عن الصحوة نفـرد لها فراغا خاصـا بهـا، اعتبـارا لمزايـا أسـلوبها الهجومـي الجديـد والنتـائج الإيجابيـة المحصل عليها مما سنراه في فصل جهاد الأبراج الآتي.



برج مزوجة حسب الرسم الإسباني



الأبراج الخارجية حسب رسم يعود إلى 1692

(4)

جهـاد الأبـراج

لا تعني هذه المرحلة الجديدة التي اخترنا لها هذا العنوان سوى التعبير عن مرحلة متفوقة من مراحل مقاومة الوجود الإسباني مميزة عن الفترات السابقة، نتيجة تبنيها لاستراتيجية جديدة متجلية في التخلي عن مجرد الحراسة الرتيبة والانتقال إلى دور الهجوم المنظم. وسنقوم بتتبع خطوات المقاومة إلى غاية سنة 1767/1181.

وأطلقنا على تلك الجهود ما يميزها عن باقي الفصول عنوان جهاد الأبراج، إذ أن هدف المقاومة خلال هذه الفترة كلها كان منصبا على الإطاحة بمكاسب الإسبان التوسعية التي وفرتها لها سياسة بناء الأبراج الخارجية. وسنستمع لأول مرة في تاريخ المقاومة القلعية لصوت أحد أبنائها ولو كان ذلك خلال مدة وجيزة بقراءة تقييد أحمد بن القاضي الكعداوي عن نشاط رباط مليلة ما بين سنوات 1668/1079-1682/1093[82].

وسيتسنى لنا مقارنة تقييد أحمد بن القاضي بما سجله خوان أنطونيو إيسترادا (Juan Antonio Estrada) أحد مواليد مليلة من الإسبان ما بين سنوات 1677و1737[83] وهما المصدران الرئيسيان لهذا الفصل.

وتوافق هذه المرحلة من حركة المقاومة التحول السياسي الذي ستتولد عنه بالمغرب الشرقي أوليات الدولة العلوية نتيجة التحركات التي قام بها

---

(82) العنوان المستخلص من المقدمة هو: **تقييد ما جرى بين الرباط وحصن امليلة**، مخطوطة خ.ح.ر. مؤلفة من سبع ورقات.

(83) *Poblacion General de España*, Libro cuarto, Madrid 1747.

المولى رشيد. وكان وصوله إلى إقليم كرط، وكبدانة وقلعية بصفة خاصة عاملا من عوامل استمرار حيوية المقاومة وجدتها[84].

تأكد لنا ولاء الحركة الجهادية بقلعية لمولاي رشيد سنة 1666/1077 على لسان التاجر الفرنسي رولان فريجوس وقت نزوله بمليلة، حين ذكر أن هذا الأخير قد أحكم حصاره على المدينة[85]، مما يبين أن قلعية دخلت في نطاق نفوذ مولاي رشيد منذ وقت سابق، نرده إلى سنة 1663/1074. وقد جاءت تقييد أحمد بن القاضي بعد سنتين فقط لتقطع أي مجال للشك في صحة ذلك الولاء فآنذاك كانت قلعية والحركة الجهادية تحت قيادة بلقاسم الشاوي الفرخاني من قبل المولى رشيد.

وصاحب التقييد هو أحمد بن محمد بن أبي القاسم بن القاضي، مثلما ذكر هو نفسه. فهو إذا من مدشر القضيا المشار إليه سابقا، ونضيف إليه الكعداوي، نسبة إلى خمس الكعدة المنتمى إليه[86]. ترك لنا تقييده في سبع ورقات يظهر أنها بخطه هو يقدم من خلالها:

- غزوات وقعت خلال حكم المولى رشيد بإشراف القائد بلقاسم الشاوي الفرخاني منها: هدم برج أقمقوم وغزوة ما بعد الغزوة السابقة وغزوة إنقاذ جماعة من الأسرى القلعيين.

- غزوات تمت خلال العهد الإسماعيلي مدبرها القائد محمد بن مسعود القيطوني، منها هدم كل من برج مزوجة أو تينرت وبرج فج القلالين أو البرج الكبير، إلى جانب غزوة نظمت على أسوار مليلة، و ما تم أثناء ذلك من إعادة بناء قلعة تازوطا.

ومن المرجح أن أحمد بن القاضي الكعداوي شرع في كتابة تقييده منذ بداية العهد الإسماعيلي وليس في عهد المولى الرشيد كما يظهر أول وهلة من

---

(84) التجأ مولاي رشيد إلى أولاد الحاج بكبدانة وشيخها علي بن سليمان عام 1663/1074.

(85) S.I.H.M. *Relation*, 2° série France, 1/32

(86) لا تفيد العقود القضاوية التي بين أيدينا سوى التعرف على بعض أحفاده خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري وما بعده ولا شيء قبل ذلك.

قراءة مقدمة التقييد. وبناء على ذلك فإن ابن القاضي حينما سرد علينا غزوات المقدم محمد بن مسعود القيطوني أراد بها استعادة ذكرياته عن تلك الغزوات لسبع سنوات خلت من عهد مولاي الرشيد[87].

أنهى ابن القاضي تقييده عن محمد بن مسعود القيطوني وفي نيته البدء في تقييد آخر لصالح المقدم الغازي محمد بن سعيد القيطوني، نجل عم القائد محمد، وكانت تلك البداية في 6 محرم 1096 (13 ديسمبر1684). غير أن المقدمة التي خصه بها تبدو وكأنها خاتمة أيضا، إذ أنها جاءت ملخصة لغزوات المقدم في تسعة أسطر فقط، ثم ختم التقييد للتعريف باسم كاتبه.

خطة جهاد الأبراج

كثيرا ما رددت المراجع الإسبانية أن مليلة لم تشهد حصارا أعنف مما عرفته أواخر القرن الحادي عشر الهجري (17م.) وتشير بالذات إلى سنتي 1678 و 1679، معلنة بذلك عن سقوط عدد من الأبراج الكبرى. ومن حسن الحظ أن كشف لنا تقييد أحمد ابن القاضي بوضوح عن تلك العمليات الجهادية الهامة[88]. وتلخصت تجربة الاقتحام الأولى في الهجوم العام واستعمال السلالم المصنوعة بالقصب وسيقان الأشجار، قصد التسلق وإعداد المشاعل والرمي بها في اتجاه أعلى البرج، مثلما حدث ما قبل سنة 1078 /1667[89]. ثم تطورت الطريقة المستعملة في المقام الثاني إلى ما نعرفه عند ابن القاضي.

---

(87) جاء فيها: " فالغرض من هذه التقاييد تقييد ما مر من الغزوات بين قلعية وحصن امليلة ردها الله للإسلام وأخلاها أهلها من الأرض في خلافة أمير المومنين مولانا إسماعيل بن علي الشريف على يد القائد محمد بن مسعود القيطوني القلعي".

(88) الإشارة إلى مقالات منشورة لصاحبيها رافائيل فيرنانـدو دي كاسترو بمجلة *Africa revista de las tropas coloniales* والكولونيل كابريل موراليس صاحب كتاب *Efemérides y curiosidades*، بالإضافة إلى مقال الكاتبة الإسبانية دورا أرنايس دي بوكايكوا عنوانه « Datos sobre el asidio de Melilla en 1679 »

(89) Gabriel Morales , *Efemérides y curiosidades*, p. 179

اقتضت التجربة في المرحلة الثانية أن يتم هدم الأبراج بالاحتيال الدقيق للاقتراب المكشوف من أساس البرج لوضع شحنة من البارود وتفجيرها على حين غفلة من أهلها أو الوصول إليها تحت حماية المجاهدين. حدث هذا مثلا في محاولة هدم برج سانتو طوماس دي كانتيرا (Santo Tomas de Cantera) سنة 1667/1078 وكذا في هدم برج أقمقوم في السنة الموالية[90].

ورأى القائد بلقاسم الشاوي والمقدم آنذاك محمد بن مسعود القيطوني أن أنجع وسيلة للتوصل إلى هدم الأبراج بواسطة البارود تقتضي حفر الأنفاق تجاه أساس البرج ليتأتى تخريب جدرانه واقتحامه إثر ذلك. وأشرف على عملية الحفر قائد قلعية ورئيس المجاهدين في نفس الوقت من بدايتها إلى نهايتها بمساعدة مقدم الرباط وغزاته، وتراوح عدد الحفارين بين عشرين وثلاثين مجاهدا.

واختلفت المسافة التي بدئ منها الحفر بالنسبة إلى البرج إذ قدرت في بعض الأحيان برمية قوس، وهي مسافة تراوحت بين أربعين وخمسين مترا[91]، بينما قدرت في بعضها بالمدة المستغرقة في الحفر، وبلغ أقصى تلك المدة في بعض الحالات خمسة عشر يوما[92]. غير أنه من المتوقع أن تتفاوت تلك المدة حسب نوعية الصخر وقوة أو ضعف رد فعل الإسبان.

وتبعا لدرجة مقاومة الإسبان كان القلعيون يغيرون خطة الحفر والاقتحام، فإذا لاحظ مقدم الرباط أن المدد العسكري الخارج من حصن مليلة مقتصر فقط على الجهة الغربية بادر آنذاك إلى بدء الحفر في الجهة الشرقية أو العكس. تبدأ عملية الحفر بشق خندق متوار عن أنظار أهل البرج أو محمي من طلقات النيران، يسميه أحمد بن القاضي بالسلين، يتحصن فيه عدد من الرماة إلى جانب الحفارين، مثلما حدث أثناء الحفر تجاه برج معدن التراب اللين. وقد تطلب اللجوء إلى سرية فتح الخندق الشروع في الحفر ليلا. وكان

---

(90) **المصدر السابق** ؛ تقييد أحمد بن القاضي.

(91) في هدم البرج الكبير.

(92) في هدم برج مزوجة.

على المجاهدين تحصين باب النفق بالحجارة والأتربة، خاصة إذا كانت البقعة مستوية كما هو الحال في فحص مليلة.

يستمر الحفر إلى أن يبلغ به رجاله أساس البرج، وآنذاك يوكل رئيس المجاهدين بالمهمة لمن شهدت به المهارة والشجاعة بإحداث ثقب في أساس البرج بالقدر الكافي لوضع قارورة أو قارورتين من البارود. وإذا تم هذا بنجاح تصبح العملية بداية أمل الظفر بأهل الحصن، علامتها الأخيرة التلويح بالعلم من الثقب المباشر المحدث بأساس البرج لإشعار المجاهدين بتحقيق الهدف من الحفر.

يرسل القائد كخطوة أخيرة قارورة البارود لتوضع بثقب أساس البرج ومنها يحرص المجاهد على مد خيط من البارود، كما يقول ابن القاضي مثل طريق النمل. وتأتي بعد ذلك اللحظة الحاسمة لإشعال النار بالبارود، عادة ما كان موعدها بعد الغروب. ويرافق لحظة إشعال النار في البارود تأهب المجاهدين للهجوم العام على البرج مزودين بالسلالم المصنوعة من القصب وبما تم جمعه من الأعشاب اليابسة والحلفا. ويبدأ الهجوم بمجرد نجاح عملية التفجير مع مراعاة حصار البرج ومنع توصله بالإغاثة من المدينة. لم يترك لنا ابن القاضي أو غيره من الإسبان وصفا لتلك الأنفاق، لكن طولها وشروط العمل بداخلها يفرضان أن تكون على جانب من العمق والعرض الكافيين للتحرك، من تقدم وتراجع وحفر وتخلص من الأتربة والأحجار، علاوة على مراعاة نوعية صخور القشرة الأرضية[93].

استفدنا من ابن القاضي الإطار البشري المصغر لحركة المقاومة. فقد وجد على رأس القائمة رؤساء الجهاد وهم قواد قلعية، أولهم بلقاسم الشاوي ثم أفراد الأسرة القيطونية الذين سيقع التعريف بهم في مكانه، ثم مقدم الرباط الذي حسبما يبدو أصبح قارا في أسرة أولاد عمر بن عيسى القيطونيين أيضا،

(93) ربما لم تختلف الأنفاق عن تلك التي استعملت لنفس الغاية بعد قرن من الزمن أثناء حصار الجيش المغربي لمليلة على يد السلطان محمد بن عبد الله. أنظر الرسوم المرفقة في كتابنا: **سيدي محمد بن عبد الله وقضية مليلة المحتلة**. الرباط 1996.

البارز منهم خلال هذه الفترة محمد بن سعيد القيطوني. ونعرف من جهة أخرى أربعة من مقدمي الأخماس القلعية وهم:

ـ الغازي غانم المزوجي، مقدم خمس مزوجة ومساعده عمر بن أحمد المزوجي أيضا.

ـ امحمد بن سليمان اليفروري، مقدم بني بو يفرور ومساعده محمد أخرباش المتوفى في رجب 1090/غشت 1679 في غزوة معدن التراب اللين.

ـ يوسف بن عمر الشكري، مقدم بني شكر.

ـ محمد بن سعيد القيطوني عن خمس الكعدة.

بهذا التأطير وبتلك الوسيلة تمكن المغاربة من هدم عدد من الأبراج الخارجية عد منها ابن القاضي أربعة، بينما زاد عددها عند الإسبان. وسنقوم باستعراض تلك المحاولات في نطاق قواد قلعية ورؤساء الجهاد بها.

بلقاسم الشاوي الفرخاني: لا نعرف عنه قبل تولي القيادة أي شيء، غير أننا نستطيع رده إلى مدشر إشاوين المستقرين بجبل القرمود من فرخانة مما يجاور أولاد حمو يش. وسنفترض أن تعيينه على القبيلة القلعية بدأ سنة 1663/1074، أي السنة التي عبرت فيها قلعية عن طاعتها لمولاي الرشيد ضمن قبائل الريف الشرقي، وأن عزله أو وفاته كان سنة 1673/1084، وهي سنة تعيين المولى إسماعيل مقدم الرباط محمد بن مسعود القيطوني الكعداوي(94).

سياسة هدم الأبراج

وحسب ابن القاضي فإن فكرة هدم الأبراج عن طريق الأنفاق كانت من مبادرة قائد قلعية ورئيس المجاهدين بلقاسم الشاوي بمشاركة المقدم على أهل خمس الكعدة ورباط مليلة آنذاك محمد بن مسعود القيطوني. بدا الهجوم حسب التقييد على برج أقمقوم. وقد تمكنا من العثور على محاولة سابقة لم يتعرض لها بن القاضي، هي التي سنبدأ بها سلسلة الغزوات القلعية.

---

(94) عبد الكريم بن موسى الريفي، **زهر الأكم**، ص. 148.

هدم برج سانتو طوماس دي كانتيرا (5 ربيع الثاني 1078/24 9/1667):
عرفنا بالمحاولة الضابط كابرييل موراليس (Gabriel Morales) دون الإشارة إلى مصدرها. ولا يمكن مقارنتها بغزوة هدم برج أقمقوم المذكورة من طرف ابن القاضي بالنسبة للسنة الموالية، سواء من حيث التاريخ أو تفاصيل العملية الحربية. وربما كان هذا البرج المسمى عند ابن القاضي ببرج معدن التراب اللين. وقد قدمنا التعريف بموقعه.

ففي يوم السبت 5 ربيع الثاني 1074/24 شتمبر1667 أغار عليه المغاربة بنحو ألفي محارب على الساعة السادسة مساء ولم يكن بالبرج سوى سبعة جنود. وبعد حرب دامت ثلاث ساعات تم خلالها حصاره من جميع الجهات وقد أتقن المغاربة خطة إحباط عملية مد الإغاثة إلى البرج فتمكن القلعيون من اقتحامه بالسلالم واحتلاله. وزاد مصدر موراليس قوله إن هذا لم يحدث منذ ثلاثين سنة مرت على بنائه وتمكنوا من ذلك اليوم لأنهم موالون لمولاي الرشيد. هدم المغاربة البرج وغنموا برميلا من البارود وكمية من البنادق والذخائر، ولم ينسحبوا من المكان إلا على الساعة التاسعة من صباح اليوم الموالي، ثم عادوا بعد ذلك ليلا لنقل أحجار البرج وإلقائها في مياه البحر. ولم يغادروا المكان إلا بعد تركه خرابا خاليا من كل أثر كما كانت رقعته أول مرة[95].

غزوة برج أقمقوم (1079/1668): لم نتوصل مما لدى الإسبان إلى ما يقابل الاسم المغربي للبرج أو تاريخ هدمه فهم لا يتحدثون عن فقدان أي برج في التاريخ المقدم من طرف ابن القاضي. وأغلب الاعتقاد أن المانع من ذكره هو مبادرتهم إلى إعادة بنائه إثر ذلك بوقت قصير، مثلما جرت العادة بالنسبة لبعض الأبراج الأخرى.

ولن يكون الحظ من جانبنا إذا حاولنا التعرف على موقع البرج، فابن القاضي، وهو مصدرنا الوحيد لم يتح لنا أي فرصة لتعيين ذلك الموقع ولو

(95) G. Morales , *Efemérides y curiosidades*, p. 179

على درجة الاحتمال فقط. وكل ما يمكن استنتاجه أن البرج كان غير بعيد عن الحصن.

ولا بد من جهة أخرى أن يكون من الأبراج الهامة لشدة حسرة الإسبان على فقدانه والاستعجال لطلب النجدة لإعادة بنائه. فالغزوة وقعت على عهد المولى الرشيد، برأي كل من قائد قلعية بلقاسم الشاوي ومقدم الرباط محمد بن مسعود القيطوني.

انقسم المهاجمون إلى طائفتين: تكونت الأولى من فرسان ورماة لا نعرف عددهم، وإن كنا نعتقد أنه العدد الكافي لمحاصرة البرج من جميع الجهات، كما قال ابن القاضي "حتى داروا به كالحلقة". وتشكلت الطائفة الثانية من المجاهدين المتسربين إلى البرج لمحاولة التسلق وحماية جماعة الحفارين العاملين من أجل الوصول إلى أساس البرج. ونعرف من مقدمي الأخماس الأخرى عن خمس بني بو يفرور امحمد بن سليمان اليفروري.

دامت العمليتان طوال الليل تمكن المغاربة أثناءه من قطع الإمدادات عن البرج وإشعال النار بداخله ومحاولة تسلقه، إلى أن انتهت عملية الاقتحام في فجر ذلك اليوم[96].

غزوة ما بعد هدم برج أقمقوم: اغتم الإسبان كثيرا لفقدان هذا البرج فبعثوا إلى إسبانيا طلبا للإغاثة، وحين وصلت إلى مليلة عدها ابن القاضي بمائتي وأربعين فارسا وأربعمائة من الرماة. وكان هذا عددا كبيرا بالنسبة لقوات قلعية، خاصة فيما يتعلق بالرماة.

وصور لنا ابن القاضي بمجمل التدابير التي سارعت قلعية إلى اتخاذها لتدارك الموقف الجديد في الاجتماع المنعقد بين الأخماس القلعية بحضور مقدميها. فكان من الحلول المتفق عليها تعبئة جميع المحاربين المجاورين لمليلة من جهة أولى، ومن جهة ثانية إشعار المولى الرشيد بالأمر وطلب المساعدة العاجلة

(96) استشهد من المغاربة أربعة عشر مجاهدا وجرح خمسة وسبعين، بينما بلغ من الأسرى الإسبان عشرة ومن قتلاهم ثلاثة.

منه، ويغلب الاعتقاد أن الطلب كان خاصا بالرماة. وبالفعل وصلت إغاثة المولى الرشيد مرفقة بما بعثه بنو يزناسن من الرجال نتيجة دعوة علمائها إلى الجهاد.

اتفق المجاهدون أولا على اختبار قوة الإسبان بغزوة أولى، فكانت الخطة البدء بتربص المغاربة في كمين على الضفة اليمنى من واد المدور عرفنا ابن القاضي باسمه، إذ سماه بفج القلالين كان مقابل البرج الكبير.

ونعرف من المجاهدين البارزين مقدم خمس بني شكر الغازي يوسف بن عمر الشكري. وأعاد القلعيون التجربة في اليوم الموالي بلقاء جنود مليلة في أجنة الفحص عده ابن القاضي نصرا للمغاربة بعد مقتل نحو الأربعين من الإسبان واستشهاد نحو تسعة من المسلمين.

وحكي لنا ابن القاضي الكيفية التي سلكها الإسبان لإعادة بناء برج أقمقوم وهذه كلماته: "ثم بعد ذلك تحيلوا الكفار على المسلمين خمدوا نارهم في حصنهم إلى أن أمنوا المسلمون منهم، وأصبحوا ذات يوم في البرج المهدوم الموخوذ قد بنوا نصفه وهم بإزائه بخيزلهم ورماتهم محيطين به ومقابلين بمحلة المسلمين و لم يزالوا المسلمون في أمانهم وغفلتهم حتى تحصنوا فيه وردوه بالبنيان أحسن مما كان عليه أولا".

غزوة إنقاذ الأسرى (1669/1080): أدى تعدد المناوشات اليومية بين المغاربة والإسبان إلى وقوع عدد من الأسرى القلعيين. وكانت العادة أن يوجه حاكم مليلة القسم الأكبر منهم إلى أسواق العبيد بمدن الساحل الأندلسي، ومدينة مالقة بصفة خاصة، و لم يبق منهم بمليلة سوى العدد القليل الذي كان عليه انتظار فرصة الافتداء بإبقائهم للسخرة في الدور وجلب الماء الشروب وخدمة البساتين.

وكان عدد الأسرى على عهد القائد بلقاسم الشاوي ما زاد على العشرين منهم احمد بن يش الشكري الذي لا نعرف وقت وقوعه في الأسر، وهو الذي دبر وسيلة الإفلات مع من كان معه من رفاقه بالاتفاق مع قائد قلعية، وإليك أيضا ما سرده ابن القاضي:

"وفي سنة ثمانين (وألف) بعث المرحوم السيد أمحمد يش الشكري كتابه من حصن مليلة، خربها ا لله تعالى وأعادها دار إسلام للقائد الطالب بلقاسم الشاوي على أن يعلم المجاهدين ويقابلونهم بالجيوش في كل مكمن ويجعلون له إمارة ويخرجون بالنهار فارين من الحصن المذكور.

وأعلم المسلمون بعضهم بعضا وفعلوا ما كتبه لهم وهو أسير مع عشرين من المسلمين وأكثر. وبعد أن أمر الحصن خروج جيشهم للأجنة والأبراج أتى الأسير المذكور لسقي الماء من العين في حوز الباب من جهة الحصن أي من داخله، اشتغل يخوض الماء ويعفنه والأسارى يجتمعون للسقي حتى اجتمعوا[97].

واقتحم الغازي يوسف البئر والجالس على الباب ونزع منه مدفعا فضربه وأزال مفتاح الباب من يده وحلها[98]. وخرجوا بأجمعهم بعدما رأوا من المسلمين الإمارة التي كتب بها الأسير المذكور، وقاموا كمائن المجاهدين أهل القلعية من مواطنهم حتى التقوا معهم بالباب مع الكفار. وماتوا خمسة من المسلمين، وأتوا بثمانية فارس من المسلمين كل فارس حمل أسيرا على فرسه وخرجوهم من الأسر الذي كانوا فيه وفرجوا عليهم الكرب الذي كانوا فيه".

قيادة محمد بن مسعود القيطوني الكعداوي: يستفاد من تقييد ابن القاضي أن الأسرة القيطونية المعروفة لدينا منذ أن أعلن عن وجودها بخمس الكعدة صاحب وثيقة نسب قبيلة قلعية لمجهول كان لها الدور الأساسي في تأطير حركة المقاومة أواخر القرن الحادي عشر الهجري.

ويمكن في هذا الصدد إبراز أربعة إخوة: مسعود وعلي ويحيى وسعيد ممن كان لهم دور في رئاسة الجهاد بالخمس الذي ينتمون إليه. وخص ابن القاضي من هذه الأسرة كلا من محمد بن مسعود وابن عمه محمد بن سعيد.

---

(97) هي عين الماء المعروفة بها سلفا، كانت خارج سور المحاط الثاني غير أنها أصبحت بداخل المحاط الثالث بعد تشييد ستاره مثلما أشرنا إليه.

(98) يوسف بن عمر الشكري المذكور.

ينتمي محمد بن مسعود إلى أسرة أولاد عمر بن عيسى القيطونيين الكعداويين. لقد كانت أعمال الجهاد السابقة للمقدم محمد وراء تزكية المولى اسماعيل لاختياره سنة 1673/1074 قائدا على قلعية ورئيسا للمجاهدين خلفا للقائد بلقاسم الشاوي. وتعبيرا له عن استحقاقه رئاسة الجهاد أهدى إليه السلطان فرسه المعروف باسم " الجاردي" جاءه من ضمن هدية ناحية سوس. ولم يخبرنا ابن القاضي باستئناف حركة جهاد الأبراج إلا في سنة 1679/1090، أي بعد عشر سنوات سلفت عن هدم برج أقمقوم، مما يشهد بضياع قسم من التقييد. وأذكر هذا لأن الإسبان أشاروا أن مليلة عرفت أزمة لا مثيل لها من جراء تزايد الضغط المغربي على عهد حاكمها خوسي فارياس (José Farias) ما بين 1675 و 1680 (1086و1091)، فالحصار كان يوميا وقويا فقدت من جرائه مليلة السيطرة على أبراج المحاط الثالث.

ففي جهة الجنوب خسر الحصن برج فلورينتينا (Florentina) وسان خوسي (San José) وسان خوان(San Juan) وسان فيرناندو(San Fernando)، بينما خسرت من جهة الغرب برج الكلمات الخمس(Fuerte de las cinco palabras) وكذا المدعو بالوارتي دي سان فيرناندو(Baluarte de San Fernando).

وأقل ما يعني هذا أن الإسبان فقدوا السيطرة على المحاط الثالث ومعه التصرف في الأجنة بالتراجع إلى حدود أسوار المحاط الثاني. ولعل الغزوة التي نسبها ابن القاضي إلى القائد محمد تدخل ضمن تلك الفترة المفقودة، إذ أنها حدثت بعد توصله بفرس الجاردي أي بعد سنة 1673/1084. خصت تلك الغزوة للاستحواذ على ماشية الإسبان المنتجعة بدائرة المحاط الثالث، يصف لنا ابن القاضي طريقة السيطرة عليها:

"وفي ذات يوم ركب القائد محمد بن مسعود جواده المسمى بالجاردي.. في تسعة وثلاثين فارسا ومعه ثلاثون راجلا، وأغار بهم على مدينة أمليلية[99]، ولهم ماشية النعم من الظأن والماعز والبقر سائمة ترعى بإزاء

(99) بدأ هنا تأثر ابن القاضي بالنطق الإسباني بلفظ Melilla.

المدينة، فكر عليهم بمن معه البائعين أنفسهم في سبيل الله، وأهل الحصن آمنين في غفلة البرج الكبير[100]، كامنين في ظله وصاروا بين أبراجهم إلى أن رأوهم الكفار، وجال فيهم القائد عمر (بن محمد بن مسعود) مع أعوانه إلى قرب المدينة، وحازوا وردوا تلك الغنم والبقر بأسرها من إزاء باب المدينة، وأتوا بتلك الماشية كلها راجعين على طريقهم". خسر في هذا اللقاء كل من القائد محمد وابنه عمر فرسيهما، مثلما حدث للطالب أحمد بن يحيى القيطوني، ابن عم القائد محمد. كما استشهد يحيى بن مسعود أخ القائد محمد.

اهتم خوان أنطونيو إيسترادا(Juan Antonio Estrada)[101] بالفترة الواقعة بين سنة 1688/1677 م.(1092/1088هـ.)، أي الفترة التي لم يفدنا فيها ابن القاضي بشيء، وكان قد مضى على قيادة محمد بن مسعود أربع سنوات. فخلال تلك المدة سقط ما لا يقل عن خمسة أبراج بيد المغاربة.

ففي سنة 1677/1088 بعث المولى إسماعيل إلى القائد القلعي يحثه لتشديد الحصار على مليلة وشن الحرب على الأبراج الخارجية التي عدها إيسترادا خمسة: سان لورينثو (برج مزوجة) وبرج سانتياغو (برج فج معدن التراب اللين) وسان فرانسيسكو وألبارادا و لا كانتيرا. وسنضيف إليها ما ذكره ابن القاضي مما وافقه عليه.

هدم برج مزوجة: تم هدمه حسب إيسترادا في أكتوبر عام 1677 مما يوافق رمضان - شوال سنة 1088 بعد بدء الحصار يوم 27 غشت/27 جمادى الثانية السنة. ففي هذا اليوم توصل القلعيون إلى هدم جانب من البرج بالبارود وقطع الصلة بينه وبين المدينة، وظل الأمر كذلك إلى أن عاود المغاربة الهجوم يوم 8 شتمبر 10/1677 رجب 1088 بنحو ثلاثمائة محارب. ورغم مقاومة أهل البرج فإن ذلك لم يمنع من سقوطه بأيديهم خلال شهر أكتوبر السنة باستلام المحاصرين و لم يمنع من ذلك نقل حاكم جزيرة النكور إلى مليلة[102].

---

(100) البرج المقابل للمقصبة حيث فج القلالين.

(101) صاحب *Póblacion General de España* خصص لمليلة فصلا. صص. 489. 530.

(102) **المصدر السابق**، ص. 510.

ولما كانت أغلب العمليات الهجومية المغربية منطلقة من علو التلال الشمالية فإن الحاكم الجديد أراد احتلالها، بدءا من الانقضاض على كدية القبو(Cerro del Cubo) ثم على تل بونتيبا المشرفين على مليلة من جهة الشمال، وحينما تقدم الحاكم إلى المكان المعروف لدى الإسبان بخندق أويا (Barranco de Olla) عند مجرى المسيلة الفاصلة بين كدية هوركا والمعازيز دبر المجاهدون وسيلة مقتله[103].

هدم برج سان فرانسيسكو(14 محرم 25/1090 فبراير1679): يظهر من النص المقدم من طرف إيسترادا أن الإسبان تأكدوا من عدم جدوى المقاومة نظرا لموقع البرج بعيدا عن المدينة بنحو طلقة مدفعية واحدة ولقربه من رباط مليلة، ولم يكن به سوى سبعة عشر محاربا. ولهذا السبب اكتفى المغاربة بقطع كل وسائل اتصاله بحامية الحصن باستثناء ما كانت تقوم به جماعة من الكلاب المدربة على حمل الأقوات بطريقة عجيبة[104]. فكانت النتيجة نجاة حراس البرج ليلا قبيل تخريبه بالبارود. وقد اتخذ المغاربة البرج موقعا لحصار برج معدن التراب اللين.

غزوة برج فج معدن التراب اللين(رجب 1090/غشت وشتمبر1679): يؤكد مصدران إسبانيان أن مليلة فقدت خلال سنة 1679 برجين هامين هما: سان فرانسيسكو وسانتياغو[105]. فإذا كان ابن القاضي قد أخبرنا بسقوط برج معدن التراب اللين في تلك السنة، فأي البرجين يعني؟ وسنجد إذا ما احتكمنا إلى تاريخ سقوط البرجين من نظر الوجهة الإسبانية أن تاريخ سقوط برج سانتياغو محدد بيوم 14 شتمبر الموافق ليوم 11 شعبان السنة، وهذا الأخير أقرب إلى التاريخ المقدم من طرف ابن القاضي.

---

(103) **المصدر السابق.**

(104) تم ترويضها على تناول أكلاتها بالحصن في أوقات مضبوطة وعودتها إلى البرج محملة بالتعليمات إلى المحاصرين. *Población*, p. 511.

(105) هما: كتاب إسترادا السابق الذكر ووثيقة كانت محفوظة بالخزانة الوطنية بمدريد تحت رقم V , Ce 325317.

كان القائد محمد قد بدأ حصار البرج في شهر رجب، وهذا ما يؤكده كابرييل موراليس حين حدد بدء هجوم المغاربة بيوم 31 غشت أي في 25 رجب. ومن هناك نرى أن برج معدن التراب اللين لا يمكن أن يكون سوى برج سانتياغو الخارجي(106).

وما قدمه ابن القاضي عن العمليات الحربية أكثر تفصيلا مما أتى به إيسترادا وموراليس، ولذلك لم نعول على المقارنة للاختصار المجحف المقدم من طرف المصدر الإسباني(107). فلو أننا تتبعنا تفاصيل جهاد هدم البرج لتبينت لنا ثلاث مراحل:

- بدأ غزاة رباط مليلة بالحفر على بعد من رمية قوس، وذلك في يوم 23 رجب على ما يبدو من قول ابن القاضي من أنهم وصلوا الأساس بعد ثلاثة أيام بالنظر إلى بدء الحصار يوم 26 منه. وتوفي في الليلة الأولى الغازي محمد أخرباش البو يفروري وانكسرت ساق امحمد بن سليمان اليفروري مقدم خمس بني بو يفرور.

- حتمت صعوبة استمرار الحفر نتيجة رمي الحصن بالكور وبالبنادق من الأبراج الأخرى تغيير المجاهدين للخطة ليلة 25 رجب بإحداث خندق واقع بين الحصن والبرج المراد التحصن فيه بنحو ثلاثين راميا وعشرين سكاكا من الحفارين يتم استبدالهم كل ليلة بالتناوب بين أخماس قلعية.

وكانت المهمة الموكولة إلى أولئك محددة في التغلب على مقاومة الحصن والأبراج المجاورة والسفن التي كانت ترمي بالكور من عرض البحر وإتاحة الفرصة في نفس الوقت للحفر في النفق تجاه برج معدن التراب اللين. ولم تتم العملية الثانية إلا بتدخل جيش المجاهدين. ذلك أن القائد محمد القيطوني كان

---

(106) هناك ثلاثة أبراج بهذا الاسم: سانتياغو الداخلي أو القديم المشرف على المرسى من جهة الشمال وسانتياغو القصبة المشيد سنة 1697 وسانتياغو الخارجي المشيد عام 1571 وهو المقصود .C e 3253 - 17. V. B.N.M.

(107) علينا بالإشارة إلى ضياع جمل من سرد ابن القاضي بسبب التقطيع الذي تعرضت له مقدمة الصفحتين الأوليتين.

معسكرا برجال قلعية بالقرب من ساحل البحر بالموضع المعروف آنـذاك بيئر إيل[108]. وذلك بإلحاق الهزيمة بالفيلق الخارج من المدينة. وكان اللقاء يوم 26 رجب.

عاد رجال رباط مليلة تحت الحراسة الشديدة للحفر إلى أن تم خلال ثلاثة أيام تالية بالوصول إلى أساس البرج، وعلامة الوصول التلويح براية من خلال ثقب محدث في سطح النفق المتصل بأساس البرج. أي أن الحفر انتهى بعد غروب يوم 29 رجب. لم يسع الإسبان المحاصرين ببرج معدن التراب اللين بعد شد الخناق عليهم سوى الاستسلام، وكان عددهم أربعين محاربا بالإضافة إلى العشرة المقتولين، وتمكن المغاربة من الحصول على عدة من السلاح والذخيرة.

غزوة برج مزوجة ثانية (ربيع الأول 1091/أبريل 1680): انفرد ابن القاضي بالتعرض لهذه الغزوة دون الإسبان مما يخص هذه السنة. وكان إيسترادا قد أخبر بسقوط هذا البرج المسمى لديهم برج سان لورينثو سنة 1088/1677 هـ. مما لم يخبرنا به ابن القاضي.

لم تختلف خطة حصار برج مزوجة عما عرفنا اتباعه من طرف رباط مليلة وما دمنا على علم بموضع البرج والسطح القائم عليه معرفة حقيقية فإننا نستطيع تصور الكثير من عمليات تلك الخطة. بدأ مجاهدو الرباط بحفر النفق تجاه البرج من الجهة الشمالية الشرقية المقابلة لمليلة على يد رجال أهل الكعدة وبني بو كافر، كان منهم الغازي الحسن بن مهاية المهياتي البوكافري من الحفارين[109]. كان القائد محمد كعادته معسكرا بنحو مائتي رام وعدد آخر من أهل الخدمة والحفر قائما هناك ليحول دون وصول الإمدادات والأقوات إلى البرج كما وفق في مهمة دفع أذى بنادق الحصن الكبير. وكان

---

(108) ربما يعني ما يعرف بالأمازيغية " أنو ن إغيذ ن أزغر". ويمكن تحديد الموضع بما يوافق اليوم موضع تيسريو(Tesorio).

(109) ذكرنا فيما سبق أن بني بوكافر أضافوا حصة مشاركتهم لحراسة رباط مليلة إلى فرقة جيرانهم أهل الكعدة نظرا لضعف عدد سكان الخمس.

من ضمن رجاله مقدم خمس مزوجة غانم المزوجي. ونظرا لطبيعة السطح المنحدر المتوسط الهشاشة فإن عملية الحفر دامت خمسة عشر يوما، بعد أن تأخرت بسبب شق أهل البرج نفقا مضادا لمنع حركة الحفر، وقد تطلب من المغاربة توسيع جنبات الخندق لتلافي طلقات النيران.

استولى المغاربة على البرج بعد أن تخلى عنه من كان به فرارا ما بين المغرب والعشاء وتم هدمه إثر ذلك، وبذلك غنم المجاهدون موقعا هاما مشرفا على كل من الحصن والفحص وساحل البحر، ومنه سينطلقون لحصار البرج الكبير.

غزوة البرج الكبير(1681/1092): يسميه ابن القاضي أيضا برج فج القلالين نسبة إلى المجاز المقابل له من مقطع واد المدور، حيث غابة القصب. وربما كانت هناك علاقة بحرفة صناعة القلل في الفترة السابقة للاحتلال الإسباني لمليلة.

وعلى الرغم من أهمية هذا البرج فإننا لا نجد بالمصادر الإسبانية أثرا لأي برج بهذا الاسم أو سقوط أي برج في تلك السنة. ومن المعلوم أن أنطونيو إيسترادا أولى الأهمية لخمسة أبراج كان من ضمنها الأبراج الثلاثة الواقعة بيد المغاربة حسبما سلف، وبقي اثنان آخران لم يقع هدمهما إلا في عهد عمر بن محمد القيطوني سنة 1100/1687.

وما نعلمه بعد ذلك أن رسما لتحصينات مليلة يعود إلى سنة 1692 م. (1104هـ.) يظهر استمرار أبراج ثلاثة: برج سان لورينثو (مزوجة) الذي تم هدمه ثانية عام 1680، ثم برج البارادا وبرج سانتو طوماس دي كانتيرا[110].

وحسب المستنتج من قراءة نص ابن القاضي ومقارنته مع الموقع المحتمل يظهر لنا أن البرج المعني من البرج الكبير هو الباردا الواقع في المقدمة من الجهة الغربية، وليس بالفحص غيره بعد اختفاء كل من برجي سان فرانسيسكو وسانتياغو.

---

(110) الرسم منشور بمجلة *Africa* سنة 1932.

وبالطبع لا يمكن ترشيح برج كانتيرا مع استمرار وجود برج ألبارادا قائما. وهنا نفضل ترك المجال لوصف ابن القاضي لتشابه خطة الحصار والحفر والاقتحام مما سبق التعريف به، ليتسنى لنا التدخل بما يفيد من الشروح والتوضيحات الضرورية. فهو يقول: خرج القائد محمد بن مسعود عام اثنين وتسعين وألف بعساكر أهل القلوع[111]،وقسمهم على فريقين:

خرج هو وأعوانه وأهل الكعدة وأهل الشرقيين[112] وبنو شكر ونزل بهم في مقطع أغبال[113]. وخرجوا مزوجة وبنو يفرور وبنو ويغماران، ونزلوا في أغيل زيات، وهو الفج الراقب على البحر[114]. ومقدم خيل مزوجة الغازي غانم والشيخ عمر بن أحمد، وعلى خيل بني يفرور محمد بن سليمان. وفي ليلة وصولهم دخلوا لأجنة الكفار أهل أمليلية أعادها الله للإسلام وحفروا في سواني الأجنة التي يسقون منها أجنتهم[115]، ودخل رماة المسلمين في تلك السواني وأصبحوا ممتنعين متحصنين، حالوا بين البرج المذكور والمدينة، ولم يقدر واحد يأتي من المدينة للبرج ولا أهله إليها، وصاروا منقطعين منعزلين عن المدينة ولا لهم من يدفع عنهم ولا من يلجأون إليه وأصبحوا في الغيار والكرب الشديد. وأتى فارس منهم من المدينة إلى البرج لينظر حال أهل البرج وما صار لهم وما كان من أمرهم. وبعد خروجه من المدينة ضربه المسلمون المتحصنون في السواني بكثرة الرصاص وانقطع ورجع إلى المدينة مدبرا فارا ولم يجد مسلكا إلى البرج. ومن صبيحة الليلة الأولى بنى المسلمون الحفر من تحت الأرض، نحو بينه وبين البرج رمية قوس وأهل البرج

---

(111) لاحظ استمرار تداول الاسم القديم القلوع، أي بلد القلوع أو قلوع كرط.

(112) نسمع لأول مرة عن وجود فيلق من الشرقيين بقلعية، ويعني بذلك مشاركة الشراكة لأول مرة في حركة جهاد قلعية على عهد المولى إسماعيل.

(113) سبق التعريف بموقعه.

(114) يمكن تعيين الموقع بما يعرف حاليا بتيسوريو (Tesorillo)، وإلى غاية آخر القرن الماضي كان الموضع ما يزال معروفا بنفس الاسم المقابل له "درع الزيات".

(115) كانت بالموضع الذي تحتله اليوم ساحة إسبانيا.

يقاتلون جيش المسلمين ويقاتلون أيضا أهل الحفر ليلا ونهارا، وكذلك يقاتلون مع جيش يخرج من المدينة، وهم كذلك حتى كملت خمسة عشر يوما[116].

ووصل المسلمون بالحفر البرج وثقبوه ومنعهم أهله بالبارود والنار، وقتل من المسلمين عشر رجال وضاق حينئذ أمر المسلمين بعد وصولهم إليه ومنعوهم. وأتى الفارس الأعظم القايد عمر بن محمد (بن مسعود القيطوني) إلى أبيه مع أعوانه وأهل حربه في هيئة عظيمة متحربا للحرب والقتال وكل من معه كذلك، وقال له أبوه:

"يا بني اذهب بأصحابك وأعوانك وادخل في الغار الذي يحفره المسلمون إلى أن تصل إلى حده واحفروا في أساس البرج وثقب الغار المذكور وأخرج منها راية لكي نشهدها ونعلم أننا نظفر بهم، وإياك ألا ترجع إلي إلا أن تفعل ما أمرتك به ولا ترجع كما رجع الأولون قبل ظهور شيء مما ذكرنا.

فحمد الله وشكره واتكل عليه وامتثل أمر أبيه ودخل متوكلا مستعينا بالله إلى أن وصل إلى حده. وبقي نصف النهار أو نحوه، وثقب الغار وأخرج منه راية وشهدها أهل الجيش بأجمعهم، وحفروا بأساس البرج في وسط الحيط، وبعث إليهم القائد محمد ثلاث قدور ممتلية بالبارود وجعلوها في وسط الحائط وبنوا من جهة المسلمين على تلك القدور، وتركوا ثقبة تفيض إلى البارود وجعلوا منه شيئا خارجا من القدور مثل طريق النمل.

ووجدوا المسلمون كثرة السلاليم ليطلعوا عليها للبرج، إن لم يكن شيء من هدم البرج بالبارود المذكور. ثم صلوا صلاة المغرب وبقوا ينظرون ما ذا يفعل وما يكون من شأن البارود حين يعطوا له المسلمون النار. فلما أراد الله تعالى بالخير والفتح والظفر بهم رموا النار في البارود فانهدم بإذن الله

---

(116) فمتى بدأ حفر النفق؟ لا يمكن لنا تحديد التاريخ ما دام ابن القاضي اكتفى بتعيين السنة فقط وليس هناك مما نقابل به من الطرف الإسباني.

تعالى البرج من جهة المسلمين وسقط على كثير من الكفار، ودخل المسلمون للبرج في الفور والعزم ووجدوا فيه بقية من الكفار يقاتلونهم بأشد القتال وفيمن دخل معهم القائد عمر بن محمد حتى قتلوهم كافة ولم تبق منهم بقية حية، ووجدوا عندهم كثرة البارود والمدافع (البنادق) والرماح وهدموا البرج كل ذلك في ليلة واحدة".

إعادة بناء قلعة تازوطا(1682/1093): يحكي لنا ابن القاضي التفات القائد محمد إلى قلعة تازوطا التي كانت مخربة منذ وقت سالف لم نخبر به بعد إحياء رسومها في بداية القرن العاشر الهجري. ويهمنا معرفة متى تخلت القلعة عن قيادة الحركة الجهادية، وفي أي ظرف تم ذلك.

علمنا فيما سبق أن القلعة كانت قد عادت إليها الحياة على يد علي العطار الغرناطي ولا شك أنها استمرت كذلك خلال سنوات وجوده بها. وتأكدنا من بعض الإشارات الخاطفة احتفاظها بمكانتها خلال منتصف القرن ذاته لتعود أخبارها إلى الاحتجاب آخر القرن الحادي عشر الهجري.

وبحثا عن تعليل محتمل لذلك الاحتجاب الممتد خلال أكثر من القرن نتمسك بإشارة عابرة قدمها ابن القاضي حين قال: " تفكرها القائد محمد بن مسعود القيطوني بعد اطلاعه على ما كان عليه أسلافه ومن أمرهم فيها وما كان من شأنهم مع قلعية". ويظهر من تلك الإشارة أمران اثنان:

ـ إن أسلاف محمد بن مسعود القيطونيين كانوا حكام قلعية بتازوطا قبل آخر القرن الحادي عشر بوقت غير يسير. فهل كان الانقلاب الذي قاده الأخوان عبد الملك وأحمد المنصور سببا في تغيير القيادة من أسرة إبعلوتن الكعداويين إلى أولاد عمر بن عيسى القيطونيين الكعداويين أيضا؟

ـ ساد خلاف بين القيطونيين حكام تازوطا وجانب من القلعيين، أدى إلى طردهم من القلعة وهدمها. فهل لهذا الحدث علاقة بثورة الناصر بن الغالب النازل بمليلة آخر القرن الحادي عشر الهجري وانحياز مزوجة إلى جانبه؟ سؤالان من جملة الأسئلة المتواردة على الذهن، نكتفي الآن بمجرد طرحهما في

انتظار التوصل إلى بيانات جديدة في الموضوع[117]. قدم ابن القاضي مسألة تجديد قلعة تازوطا بعد إجماع القبيلة على إعادة بنيانها بطريقة المساهمة الجماعية تتمثل الأولى في جمع كبراء الأخماس بساحة القلعة لمعاينة البنيان المندرس وتحديد حجم البنيان من السور والدور وتوزيع تكاليف كل ذلك من زرع ومال على كل خمس وتقييده في زمام خاص مشهود عليه من طرف ابن القاضي الكعداوي، والثانية في توزيع العمل المأجور على كل جماعة من جماعات الأخماس من المعلمين والعملة المحتاجين عن طريق النوبة بحساب اليوم الواحد لكل جماعة. وبذلك بلغت تكاليف البناء:

الشعير	500 تليس
القمح	1200 "
المال	200 مثقال

وعلمنا من ابن القاضي أن البناء كان كسابقه وربما أحسن، مما كان ملائما لاستقرار القائد محمد بن مسعود مع أعوانه ووصفانه، ودلت إعادة بناء القلعة على نية القائد محمد للعمل على استخلاف ابنه عمر شؤون قلعية وحركة المقاومة، إذ أنه فوض له الأمر فيها بعد سنة ونصف وانتقل هو إلى سكناه بمقره الجديد المدعو تيميزار، تاركا بالقلعة ووصفانه مقدما عليهم مملوكه سالم بن عامره. ولم تلبث تيميزار أن غدت المركز الإداري والجهادي مكان قلعة تازوطا بدءا من قيادة عمر بن محمد القيطوني[118].

وأغلب الاعتقاد أن القائد محمد لم يعمر بعد ذلك طويلا، ففي منتصف سنة 1683/1095 كان ما يزال حيا، حيث تمكن من بناء داره بتيميزار بالكعدة

---

(117) أدرجنا ملخصا لتاريخ قلعة تازوطا **بمعلمة المغرب**. 2040/6 .

(118) كان للقائد محمد عدة مماليك مقدمهم سالم بن عامرة ثم أخوه مبارك وسالم أشرقي ومسعود الأقرع. **تقييد** ابن القاضي. ح. الفكيكي، "تيميزار"، **معلمة المغرب**، 2751/8.

جماعة جواوة. غير أنه كان في السنة الموالية متوفى بشهادة ابن القاضي تاركا مكانه وقلعة تازوطا لابنه عمر[119].

عمر بن محمد بن مسعود القيطوني: بانتهاء تقييد ابن القاضي تكلف أنطونيو إيسترادا باستمرار أخبار المقاومة إلى حوالي سنة 1737/1150. ونضيف إلى ذلك جملة من المراسلات المدرجة بالسلسلة الفرنسية الجديدة من الوثائق غير المنشورة. وبها نتمكن من التعريف بمجهودات المقاومة على عهد كل من الأخوين القيطونيين عمر والطاهر على التوالي ابني القائد محمد بن مسعود. تابع القائد عمر خطة جهاد الأبراج. غير أننا لم نعلم بتلك المتابعة إلا بعد ثلاث سنوات خلت من وفاة والده. والظاهر أن الإسبان تمكنوا من إعادة برج ألبارادا في وقت وجيز، لذا استوجبت خطة المقاومة العودة إلى نفس البرج وإن كنا لا نعرف ما إذا كان قد أعيد بناؤه بنفس المكان، معززا ببناء برج آخر سمي أيضا برج سان بيدرو دي كانتيرا.

هدم برج ألبارادا ثانية: هاجم المغاربة برج ألبارادا في صيف 1687/1098، إلا أن إيسترادا لا يقدم لنا التفاصيل عن مراحل الحصار، فلا نعرف سوى أنه سقط بأيدي القلعيين قبل يوم 10 شوال، 20 غشت السنة.

هدم برج كانتيرا(Fuerte de Cantera): ويظهر أن الحماس سرت حميته بين المغاربة لهدم برج كانتيرا، إذ أنهم كانوا في 20 غشت قد بدأوا حصاره. وقد قتل حاكم مليلة أثناء محاولة فك الحصار عن البرج، فتم هدمه يوم 28 ذي القعدة عام 5/1098 أكتوبر 1687[120].

قصبة سلوان والمقاومة

ندرج هنا تأسيس قصبة سلوان على العهد الإسماعيلي لأننا نعتقد أن لتأسيسها علاقة وطيدة بحركة المقاومة. وتأسيسها سنة 1679/1090 يبين أنه

(119) استخلصنا ذلك مما ذكره ابن القاضي عن محمد بن سعيد سنة 1096 هـ. حيث قال "وحيث وجد غرة في الكفار أعلم نجل عمه القائد المذكور مدة حياة المذكور".

(120) *Poblacion General de España*, p. 512.

سابق لتجديد بناء قلعة تازوطا على يد القائد محمد بن مسعود القيطوني. غير أن إحداث القصبة الإسماعيلية لم يثر بالمرة فضول ابن القاضي أو المصادر الإسبانية ورسائل مليلة بصفة خاصة، فلم يشعرنا واحد منها بوجودها.

وعلى الرغم من أننا نفتقر كليا إلى الضروري من المعلومات عن قصبة سلوان فإننا نعتقد أن الشعور الوطني المناهض للوجود الأجنبي بمليلة هو من جملة الدوافع الداعية إلى التأسيس، إذ أنها ستكون مستقر رجال عبيد البخاري المشاركين في المقاومة خلال السنوات التالية.

ظهر عبيد البخاري بميدان مليلة أول مرة ابتداء من سنة 1694/1106 ليستمر ظهورهم بعد ذلك بالمواقع المغربية المتقدمة. ولهذا الحضور المخزني علاقة مع ما كان يعتزم عليه المولى إسماعيل من حصار سبتة والتضييق على مليلة.

إذا كنا لم نخبر من أي طرف مغربي كان أو إسباني بأن تشديد الحصار على مليلة كان قوي الارتباط بالإجراءات الحربية المتخذة لبدء حصار سبتة، فإن تزامن الحصارين دال على ذلك، سيما وأن الحصار خرج عن نطاق المقومات المحلية إلى الاستعانة بالإمدادات الإقليمية والوطنية، مما فتح الباب لتكتل الشعور الوطني.

شارك في هذا الحصار إلى جانب القلعيين بإشراف القائد عمر بن محمد جيش من متطوعي ناحية بطوية، أي بمجموع باقي قبائل إقليم كرط أو الريف الشرقي المستقرة بالجبال الشمالية، من بني سعيد وبني أوليشك وتافرسيت وتمسمان وبني توزين وكبدانة. وتطلب القيام بالحصار حضور القوات المخزنية المتمركزة بقصبة سلوان متمثلة في عبيد البخاري بقيادة المولى محمد، أحد أبناء المولى إسماعيل وإلى غاية سنة 1697/1110 كانت تلك القوات ما زالت بالميدان وبحضور الأمير أيضا. وعلى الرغم من اختصار سرد إيسترادا فإن الخطة الحربية كانت واضحة:

- إحكام الحصار على مليلة بما أحيطت به من الخنادق المحروسة، علاوة على قطع ماء الناعورة عن المدينة.

- تكثيف الجهود لاقتحام المدينة بعد هدم باب المحاط الثاني بالبارود.

وحسب إيسترادا فإن الإسبان تمكنوا من إفشال الخطة الثانية بسبب حاجة المغاربة إلى المدفعية، وكان القائد عمر القيطوني قد بعث أخاه عبد الكريم إلى مكناس ليطلب من السلطان تزويد المجاهدين بالمدفعية. غير أن الميدان لم يتوصل بها إلا بعدئذ. ونعلم أن الحصار ظل قائما طوال الليل والنهار رغم ما حتمته ظروف الشمال الغربي من تركيز الجهود حول سبتة بمشاركة رجال الإقليم وكبرائه(121).

يبدو أن انشغال السلطة المركزية بحصار سبتة أتاح لمليلة التفكير في احتلال التلال الشمالية، بدءا مما يسميه الإسبان بكدية القبو (Cerro del Cubo) الواقعة بشمال المدينة بإشرافها على المرسى، إذ أن الأوامر ستنطلق قبل ذي القعدة من سنة 1109/ قبل ماي 1697 في تشييد برج أطلقوا عليه برج سانتياغو خلفا للذي تم هدمه سابقا، وهو على شكل مثلث رأسه ذو وجهة غربية، أختير له موضع أحد مواقع المغاربة في تلك الجهة.

ونتيجة لشعور القائد عمر بخطورة الموقف وتفوقه بالنسبة لطاقة قلعية استنجد بالسلطان المولى إسماعيل الذي بعث ابنه المولى محمد بعدد من جيش البخاري، قال إيسترادا إنهم بلغوا نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة جندي.

نظم الهجوم المغربي على البرج بدءا بقطع الإمدادات الموجهة إليه من المدينة وذلك بالتحصن في بساتين المحاط الثالث بمواقع العرسة الكبيرة والقناطر الصغرى والحظائر وموقع أعلى كدية القبو، وكان مقدم المحلة المخزنية يدعى سليم بن عبو، حسبما يفهم من الاسم المقدم بالإسبانية (Zelin Beneby) غير أن المغاربة اضطروا للتراجع بعد وصول الإمدادات من إسبانيا يوم 14 قعدة 24/1109 ماي 1697(122).

(121) *Población*, p. 514.

(122) **نفسه**، ص. 515

وهناك وثيقة إسبانية تسرد علينا معركة جرت يومي 7 و 8 محرم 1115/ 24 و 25 ماي 1703 بين رجال رباط مليلة الذين بلغ عددهم ثلاثمائة من المشاة وعشرين فارسا وبين حامية المدينة، يظهر من خلالها الحصار المغربي المضروب على المدينة من جهة الشمال والجنوب، حسبما تدل عليه المواقع المسماة من طرف الوثيقة، استشهد خلالها قائد المجاهدين السابق الذكر سليم بن عبو[123].

وبانسحاب المغاربة من تلك المواقع المتقدمة استعاد الإسبان السيطرة مرة أخرى على المحاط الثالث وتمكنوا من الشروع في إعادة بناء الأبراج المهدمة، والبدء في تشييد برج جديد سمي لديهم ببرج سان ميكيل (Fuerte de San Miguel) كانت له خطورته على عهد قيادة الطاهر بن محمد القيطوني[124].

الطاهر بن محمد بن مسعود القيطوني: لا نعرف بالضبط متى انتهت مهمة القائد عمر وابتداء عمل أخيه القائد الطاهر. وأول علمنا بقيادة هذا الأخير هو سنة 1711/1123 من طرف أنطونيو إيستزادا وصاحب مخطوطة إسباني مجهول يعود إلى 1715[125]. ودار القائد الطاهر معروفة إلى اليوم بتيميزار بجماعة إعدوين مقابلة لدار أخيه القائد عمر القيطوني.

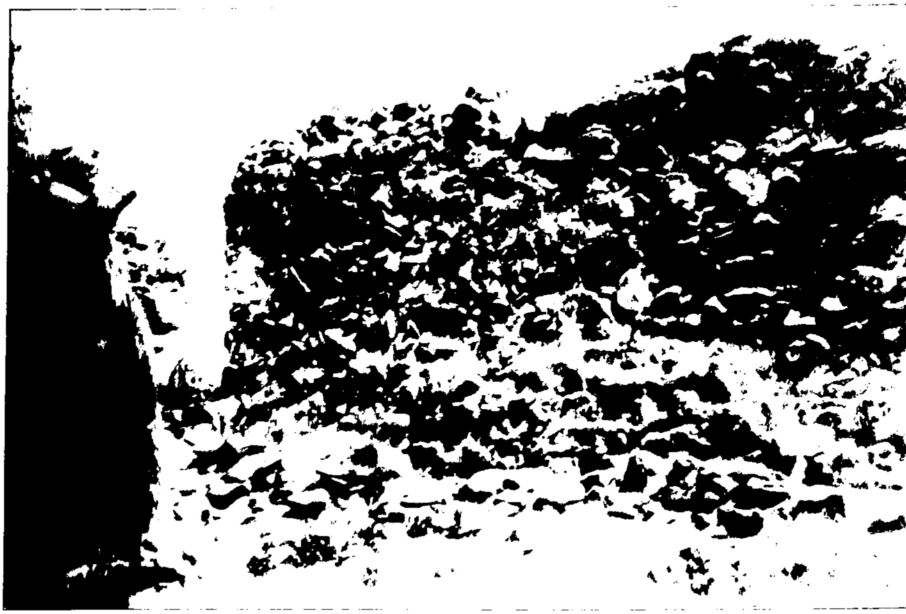
سار القائد الطاهر على خطة أخيه عمر بشن الهجومات على مليلة من جهة التلال الشمالية التي كانت محط أنظار الإسبان، إذ أنه اتخذ من موضع برج سان فرانسيسكو المخرب من طرف المغاربة مثلما سلف مقرا لرجاله، وهو أقرب المواقع إلى رباط مليلة على كدية المعازيز العليا.

---

(123) Antonio Bizarron , *Senalada Victoria* , Ignacio Bauer, *Papeles de mi archivo* p.325.

(124) **المصدر السابق**، ص. 517.

(125) تم نشرها في نسخ محدودة العدد بمدريد عام 1909 من طرف الماركيس دي أوليفاريس(El Marques de Olivares)، وهي بالخزانة الوطنية بمدريد ضمن رفوف قسم مجموعة كارثيا فيكيراس.





من خرائب تيمزار حاليا

اتخذ القائد الطاهر المواقع المرتبطة به وهي معروفة لدينا بأسمائها الإسبانية فقط، فمنها الوادي الفاصل بين كديتي هوركا وبونتيبا، المدعو من طرف الإسبان أحيانا بالمسيلة(Rambla)، وأخرى بالخندق المعروف بأويا .(Barranco de la Olla)

حصار برج سان ميكيل: وكان الإسبان من جهتهم قد ضاعفوا عدد جنود حامية المدينة وزودوها بالمدفعية والذخيرة وتمكنوا من إنهاء بناء برج سان ميكيل. يقول عنه إيسترادا ما مفاده:

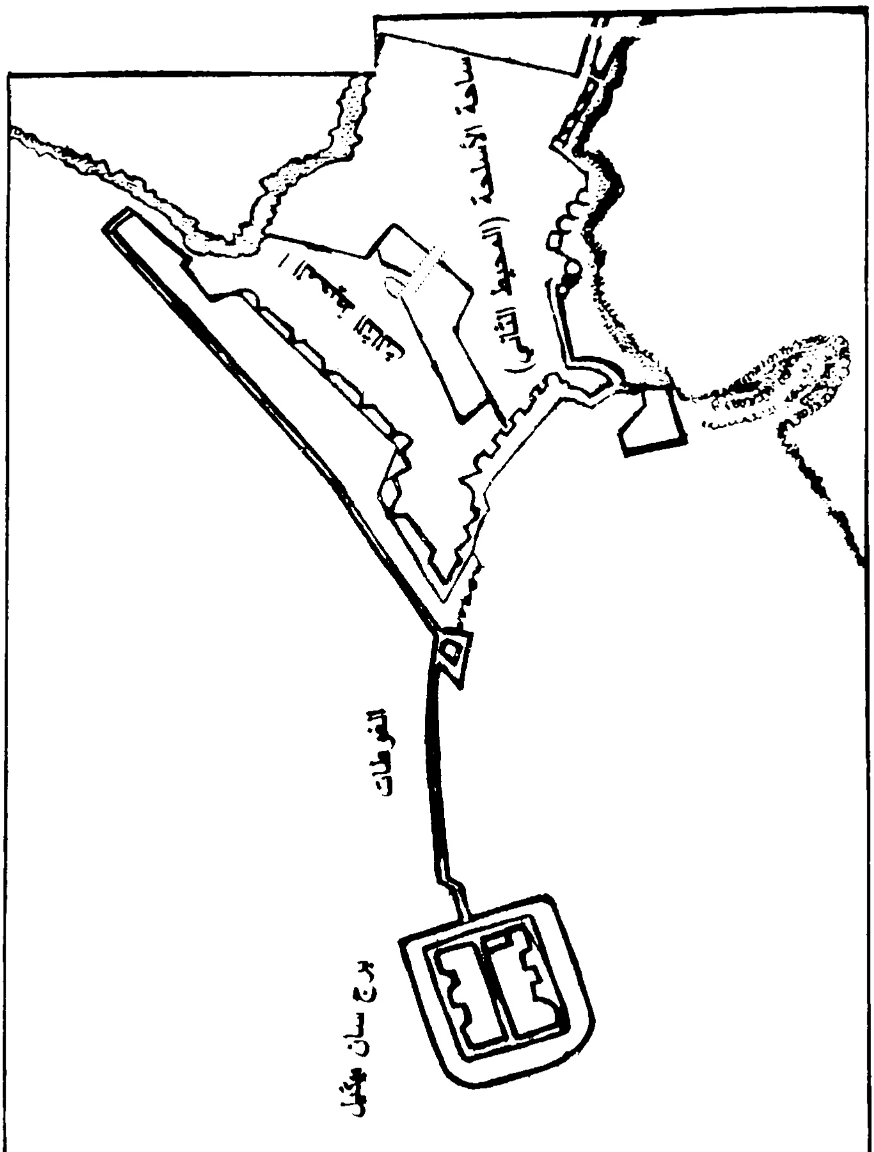
"أمر ضون بلاس دي ترينشريبا(Blas de Trencheria) بتشييد برج بالفحص لحراسة الغوطات في المكان المعروف سابقا بالعرسة الكبيرة (ساحة إسبانيا حاليا)، على بعد طلقة بندقية من المدينة، انتهي من أشغاله سنة 1707(1119 هـ.) وهو مربع الشكل يسع لخمسين جنديا وقابل لنصب المدفعية[126]. غير أن هذا لم يزد القائد الطاهر سوى البحث عن جميع الوسائل لربح المواقع والسيطرة على الميدان. وجميع العمليات الحربية التي شغلت بال القائد القلعي كانت ترمي إلى إخلاء الإسبان من برج سان ميكيل الجديد. تمكن القائد الطاهر أول الأمر من استعادة موقعه على كدية القبو، غير أن الإسبان فاجأوه بالمكان فانسحب منه جريحا يوم 27 جمادى الأولى 13/1123 يوليوز 1711.

ويدخل هنا سرد مخطوطة المجهول السالف الذكر لتقدم لنا تفاصيل عن جهاد القائد الطاهر القيطوني دالة على حصار برج سان ميكيل من طرف الجيش الإسماعيلي بدءا من سنة 1715/1126. ففي تلك السنة علمت الحكومة الإسبانية بعزم المولى إسماعيل على استرجاع مليلة بإيعاز من القائد الطاهر، عامل قلعية ومنطقة كرط، ومن أجل ذلك بعثت الحكومة الإسبانية البريكاديي الكونت دي ألوا.(Conde de Aloi) [127].

---

(126) *Población* , p. 516 .

(127) من أصل فرنسي كان في خدمة التاج الإسباني، أوفدته الحكومة حاكما على مليلة لمواجهة الأحداث، وحط بمليلة يوم 10 شت 1715. **المصدر السابق**، ص. 10.



برج سان ميكيل ومليلة في بداية القرن 18

المستقر بقصبة سلوان كانت بيد المولى محمد نجل السلطان. وقائد العبيد الذي سمته المخطوطة بالمهندس الأكبر للجيش، كان كبير السن ولحيته بيضاء مسترسلة، وعلى رأسه قبعة من القش ويحمل بيده عزفة نخلة يستعملها كمروحة، وقيل عنه إنه شارك في حصار فيينا النمساية وفي حرب شبه جزيرة موريا[128]. وبلغ عدد العبيد المكلفين بالمدفعية نحو خمس وعشرين ألف عسكري.

بتلك القوات وتدبير القائد الطاهر تمكن المغاربة من احتلال أربعة أبراج في ليلة 15 شعبان 16/1127غشت 1715 بعملية التسلق بالسلالم، وهي برجا سانتياغو وكانتيرا على كدية القبو أو المرسى بالشمال، ثم برج كدية مزوجة بالجنوب وبرج سان فرانسيسكو بتلال هوركا بالشمال الغربي.

قدمت المخطوطة وصفا للسلالم المستعملة في عملية الاقتحام وهي بلا شك مصنوعة من القصب المتين، فأعمدتها مزدوجة ومقواة، يصل عرضها إلى أربعة أقدام[129]. صنعت على ثلاثة صفوف طولية لتسمح بصعود فردين مسلحين، بحيث يقبض المحارب السيف بأسنان فمه، بينما يحمل الكابوس في إحدى اليدين، بينما ترك الصف الأوسط فارغا للمساعدة على صعود المحارب. وأسلحة العبيد جميلة مرصعة بالفضة من صنع مدينة برشلونة وصلت إلى الجيش المغربي على يد التجار الإنجليز[130].

وفي يوم 20 غشت ظهر القائد الطاهر بمعية قائد محلة العبيد لمراقبة تحصينات المدينة. وفي ليلتي 22 و 23 منه شرع المغاربة في حفر الخنادق بأربعة مواقع على بعد نحو خمسين طئساس[131]، من سور برج سان ميكيل، ومن هناك بدأوا في حفر النفق بطريقة جيدة وبمهارة، عريضة وعميقة تتخللها

---

(128) استحال عنا تحقيق هذا الخبر في الوقت الراهن.

(129) يساوي القدم الإسباني 0،358627 م. فعرض السلالم هو 1،12 م.

(130) **المخطوطة**. ص. 12.

(131) طئيسا الإسبانية مقياس طولي يساوي 1،866 م. وبناء على ذلك فإن المسافة المطلوبة هي 83،4 م.

كهوف سقوفها مدعمة بالأخشاب وسرعان ما ظهرت أولى فتحات التهوئة والإضاءة، وباستمرار المغاربة في الحفر فجر الإسبان لغما آخر يوم 15 شتمبر[132].

وفي يوم 26 غشت حاول المغاربة عرقلة عملية إنزال الإغاثة الواصلة إلى المدينة من موقع كدية مزوجة التي وضعوا بها بطارية مكونة من أربعة مدافع. وبعد عملية تفجير الألغام بأنفاق سان ميكيل، حصن المغاربة مواقع: كدية مزوجة والرباط وموقع سان فرانسيسكو بالمدفعية وصوبت طلقاتها نحو برج سان ميكيل إلى أن أحدثوا به ثغرة، مما أدى إلى إخلاء الإسبان للبرج خلال يومي 12 و 13 أكتوبر.

ومنذ شهر أكتوبر فكر المغاربة في تنظيم هجوم عام على الحصن. وتتحدث المذكرة عن ثلاث محاولات:

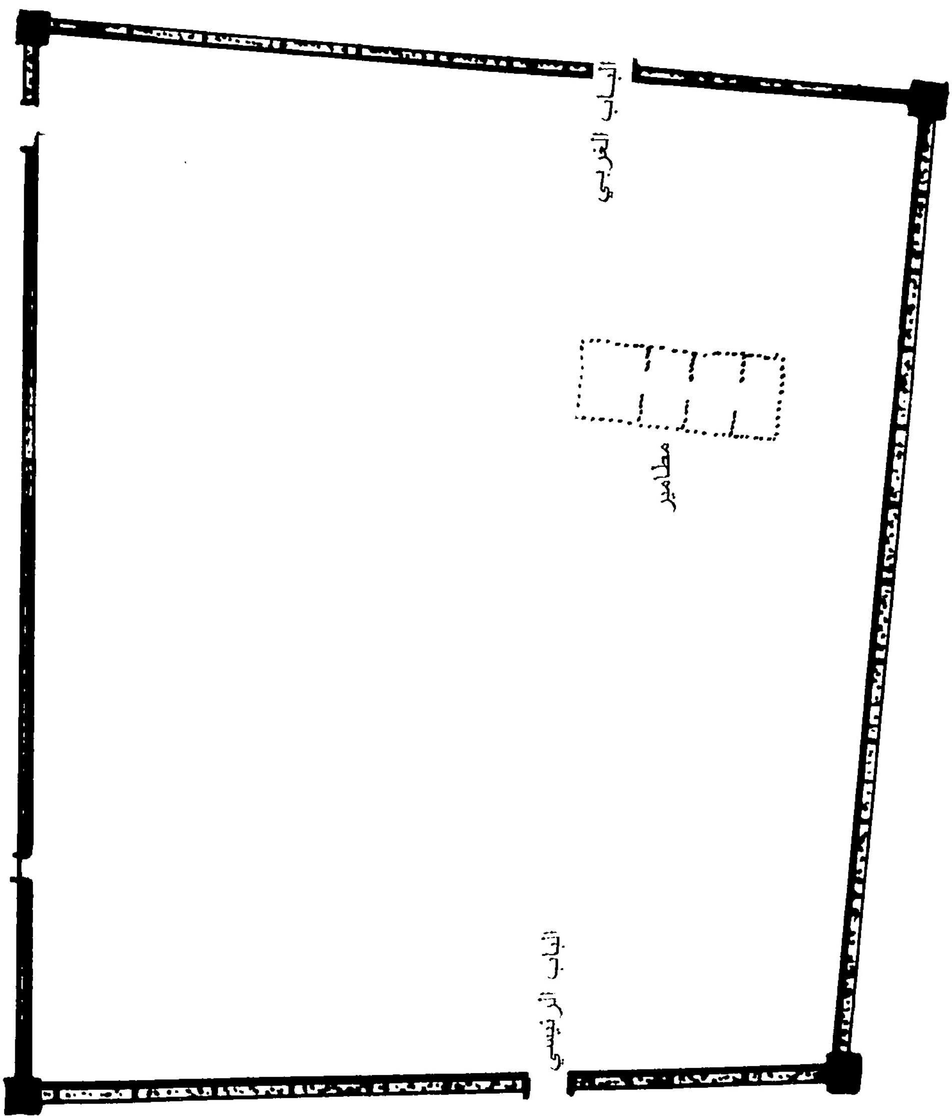
- بدأت علامة الزحف بإطلاق نار المدافع من الأبراج الأربعة المحتلة سابقا وبذلك تقدم نحو خمسمائة من رماة القنابل بالسلالم فتمكنوا من تسلقه ولكنهم قتلوا. عاد المغاربة إلى الهجوم بنفس الطريقة فلم تتغير النتيجة، ولم يمنعهم الإخفاق الثاني من إعادة الهجوم الثالث. وبذلك انتهى حصار مليلة بعد ست وسبعين يوما من الحصار، وبقيت المدينة تحت رحمة المحاصرين إلى غاية 11 فبراير 17/1716 صفر 1128[133].

والغريب أن إيسترادا لم يذكر لنا أي شيء من تلك التفاصيل، مفضلا الاكتفاء فقط بالإشارة إلى حدث حصار برج سان ميكيل في آخر تلك السنة بدأ الحصار المغربي للبرج على مراحل:

ففي يوم 2 محرم عام 17/1129 ديسمبر سنة 1716 كان أهل الرباط قد أنهوا حفر الخندق وفجروا جزءا من البرج، في وقت كان فيه القائد الطاهر مستعدا للهجوم العام بنحو ثمانية آلاف محارب، اجتمعوا لديه من بطوية

(132) **المصدر السابق**، ص. 13.

(133) G. Morales , *Efemérides y curiosidades*, p. 15.



تصميم قصبة سلوان

وكبدانة وأعدوا لذلك سبعة سلالم. غير أن استعدادات أهل البرج كانت أقوى[134]. ظهر القائد الطاهر مرة ثانية خلال يومي 26 و28 صفر 8/1129 و11 فبراير 1717 وحاول الهجوم ثلاث مرات، لكنه انسحب بعد خسارة مغربية كبرى حسب إسترادا[135]. ويعود إسترادا إلى القائد الطاهر ليخبرنا فقط باستحواذ الإسبان على مقر القائد القلعي بموضع برج سان فرانسيسكو يوم 4 ذي الحجة 27/1136 غشت 1724[136].

ومنذ ذلك التاريخ سهل على الإسبان الاستيلاء على موقع حراسة عبيد البخاري بكدية القبو يوم 25 ذي القعدة 27/1135 غشت 1727، مما سيكون الشغل الشاغل لحركة المقاومة خلال العقد الثاني من القرن الثاني عشر.

لم يتغير وضع المقومة المغربية بوفاة المولى إسماعيل كثيرا مثلما يمكن تصوره، ذلك أن عمق الشعور الوطني أعرق من كل تبدل سياسي، إذ أن نظام المقاومة سيحاول البحث عن وسائل تقوية الحركة وإمدادها بما هي في حاجة إليه من الرجال والسلاح والعتاد. كان هذا الشغل الشاغل للقائد الطاهر القيطوني الذي سيستمر في مكانه بالقبيلة والميدان معاصرا لتلك الفوضى المرافقة للنزاعات على الملك العلوي بين أبناء المولى إسماعيل. وسنستمد المادة التاريخية من الوثائق الفرنسية المنشورة ضمن السلسلة الأخير من الوثائق غير المنشورة حول تاريخ المغرب في القرن الثامن عشر[137].

---

(134) اعتادت قلعية صنع أربعة سلالم، فإذا قدمت كبدانة بسلم واحد وهو الأرجح فإننا نرى أن بطوية شاركت بسلمين أي بقبيلتين.

(135) الإحصاء المقدم من طرف إيسترادا مبالغ فيه، إذ أنه ذكر أن الإسبان قتلوا أكثر من ثلاثة آلاف من المغاربة نتيجة زند لغمين مما لا يترتب عنه كل تلك الخسائر في ذلك العصر. *Póblacion*, p. 518

(136) وجد الإسبان بالمكان الأسلحة والرايات التي وضعت بين يدي الملك فليب الخامس فأمر بحفظها داخل كنيسة Basilica de Atocha. وقد حاولنا التكرم برؤيتها فمنعنا من ذلك عام 1982 ونحن بمدريد بصدد البحث.

(137) اهتمت شانتال دو لا فيرون بنشر وثائق السنوات 1726-1734 في العددين 21- 22 أبريل 1981 ووثائق سنة 1736 بالأعداد 43-46. لسنتي 1986-1987.

ليست هناك شهادة أفصح من شهادة الأعداء على عمق جذور المقاومة المغربية بالشمال الشرقي. فهذا أنطونيو إيسترادا الذي كان شاهد عيان لأحداث الفترة التالية لوفاة المولى إسماعيل علق بقوله:

"ولو أن مسلمي سبتة رفعوا الحصار على المدينة إثر وفاة المولى إسماعيل وغادر جنود بادس محلتهم، فإن مسلمي مليلة لم يتخلوا أبدا عن إقلاق راحة أهل المدينة لبقائهم متشبثين بمواقعهم المعهودة"[138].

وبنفس القول عبرت رسالة مالقة حيث قالت:

"لم تمنع اضطرابات المغرب أهله من إقلاق راحة الإسبان والهجوم على مواقعهم من حين لآخر... وأنهم لا يشعرون بأي خجل من تلقي الهزيمة ولا يفقدون الأمل من التوصل إلى الانتقام" [139].

ولا يمكن أن ننفي من جهة أخرى أن سيادة الاضطرابات وتأثر قلعية بها هو الذي ساعد إلى حد كبير على انتعاش الآمال الإسبانية على عهد الحاكم ألونصو دي كيفارا فاسكنثيلوس(Alonso de Guevara Vasconcelos) باسترجاع الأنفاس والتوسع في الميدان الخارجي بشكل خطير مثير لقلق قلعية ورئيس الجهاد بها الطاهر القيطوني[140].

وأول محاولة مغربية هي التي قادها رئيس المجاهدين خلال ليلتي 26 و27 ربيع الثاني سنة 29/1141 و 30 نوفمبر1728 لعرقلة أشغال الحفر الجارية بخندق أورنابيكي، ثم ما قام به المجاهدون يوم 21 ذي القعدة 1143/ 28 ماي 1731، حيث استشهد أثناء المحاولة أخوه أحمد وأحد أصهاره. ومنذ هذا التاريخ نعلم أن قلعية كانت لصالح المولى عبد الله بن إسماعيل وهو آنذاك بمكناس حيث راسله القائد الطاهر، مخبرا إياه بواقع أحداث الحدود مع الإسبان[141].

---

(138) *Poblacion* , p. 522 .

(139) Chantal de la Veronne , *Documents Inedits sur l'Histoire du Maroc* , Sources Francaises, t. 2, p. 29.

(140) حاكم مليلة بين 1719 و 1730.

(141) **المصدر السابق**، رسالة مالقة يوم 28 ماي 1731. ص. 59.



الواجهة الغربية من محيط قصبة سلوان

ولم نتوصل بالمعلومات عن المقاومة بعد ذلك إلا سنة 1734/1146. فحسب رسالة 5 يناير(29 رجب) من تلك السنة توصل القائد الطاهر من مولاي عبد الله بنحو خمسة آلاف محارب من عبيد البخاري، سرعان ما داهم بهم الميدان يوم 13 شعبان/19 يناير السنة[142]، ولم تزودنا الوثائق الفرنسية بدورها بأي شيء عن سنة 1735/1147، ربما لتأثر المقاومة بخلع المولى عبد الله، ولن يظهر القائد الطاهر بالميدان إلا في مستهل السنة الموالية حينما بدأ الإسبان في بناء أكبر مشروع حربي، حين بدأوا بوضع أساس برج فيكتوريا على ظهر كدية القبو، وسيتم بناؤه سنة 1737/1149، وستكون مهمة المقاومة منذ ذلك منصبة على إيجاد وسيلة إيقاف الإسبان عن تنفيذ المشروع أو تأخيره في تلك الظروف الصعبة وأوضاع المولى عبد الله لم تستقر بعد.

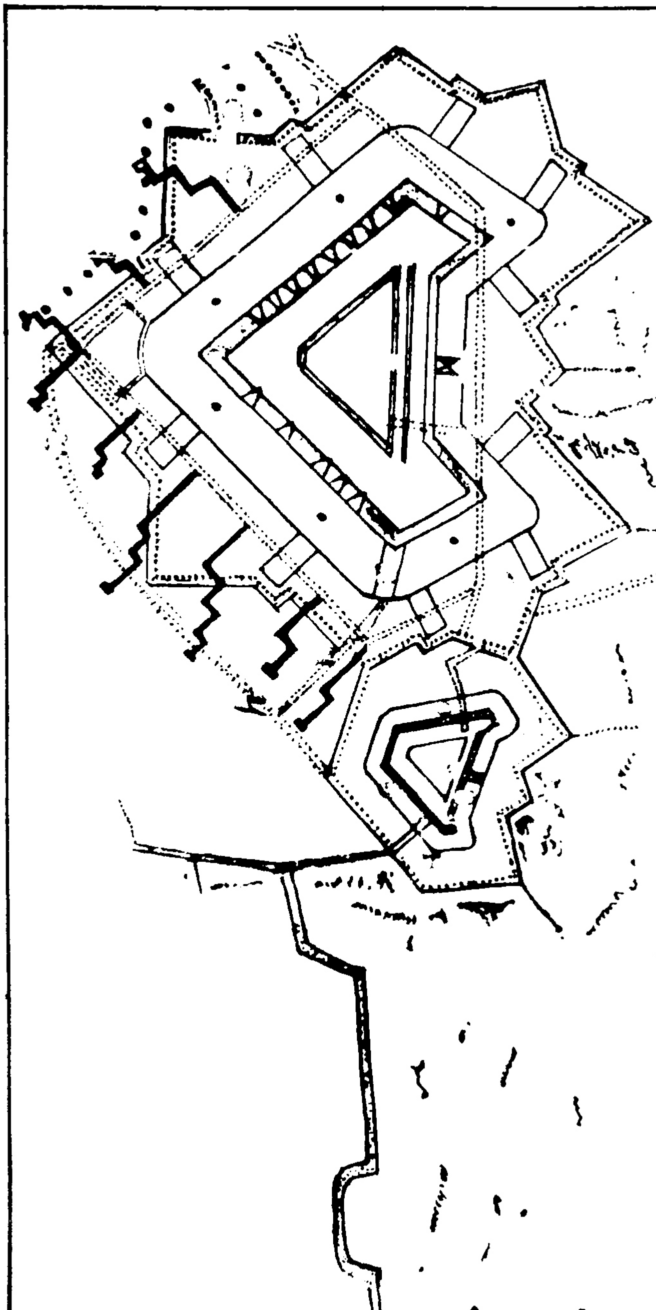
ومن أجل البحث عن الحلول العاجلة انتقل القائد الطاهر إلى مكناس للمساعدة أولا على جلب سند جيش العبيد لإعادة المولى عبد الله إلى الحكم على أساس تزويده بالبارود والسلاح الثقيل، إذ أنه طلب خمس عشرة قطعة مدفعية، كما أنه اشترط وضع خمس وعشرين ألف محارب تحت تصرفه بقصبة سلوان أغلبهم من البخاري، بينما تتكفل تطوان بإرسال المدافع والذخائر[143].

مشروع ضخم وهام لم تتحقق متابعته لوفاة القائد الطاهر المفاجئة بمكناس في ظرف لم نخبر به، وذلك قبل 17 صفر27/1149 يونيه 1736. والفرصة كانت بجانب الإسبان الذين استمروا في بناء البرج بكل هدوء وأمن. وكان مما وفر لهم كامل الهدوء هو تمرد القلعيين على ابن القائد الطاهر الذي أراد الاستمرار في منصب والده ، مما أدى به للفرار إلى مكناس، وآخر ما علمناه عنه هو زحفه بنحو أربعة آلاف من العبيد[144].

(142) رسالتا مالقة في 5 يناير و 9 فبراير 1734. Chantal de la Veronne , *op. cit.* doc 65, 66

(143) رسائل مالقة: 7 فبراير- 27 مارس -15 ماي - 5 يونيه 1736. أرقام الوثائق:31. 32. 37. 41. 42. على التوالي.

(144) رسالة مالقة بتاريخ 10 يوليوز 1736. الوثيقة رقم 46.



تصميم برج فيكتوريا الكبرى

وفي أغلب الاعتقاد أن الوقت كان قد حان للإعلان عن انتهاء قيادة الأسرة القلعية الكعداوية. ويرتبط هذا الانتهاء بالرواية الشفوية القائلة بإخلاء أهل قلعية للأسرة من تيميزار بصفة نهائية والتجاء من بقي منها إلى جهة سيدي بوصبار من خمس بني بو يفرور[145].

تمكن حاكم مليلة من تشييد برج مثلث الشكل بأعلى تل القبو يسع لست عشرة قطعة مدفعية تتحكم بمداها الأقصى في جميع المساحة المجاورة، والبرج مرتبط بالحصن عن طريق ممر محمي وسياج. مشروع كبير جدا أطلق عليه اسم برج فكتوريا[146]، وسيكون العقبة الكأداء للمقاومة المغربية خلال مرحلتها الثانية.

تناولنا من خلال هذه الجولة الطويلة بالعرض نماذج من أعمال المقاومة القلعية بالشمال الشرقي المغربي لمدة ثلاثة قرون متتالية بحثا عن دلائل وحدة الشعور الوطني والقومي المغربيين وتمسكهما بمبدأ التصدي للوجود الأجنبي ومناهضته.

ولا يخفى ما كان للمقاومة المغربية بالشمال الشرقي المغربي من مواقف وطنية إيجابية، مما لا سبيل لإنكاره بعد اليوم من طرف الكتابات الأجنبية. فإذا كان استرجاع غساسة لم يكلف المقاومة كبير عناء ولم يترتب عن مسيرة الشيخ الكزنائي نتيجة إيجابية، فإن الدور الفعال الذي قام به رباط مليلة، سواء أثناء مهمة حراسة الحدود أو إحباط مشاريع الإسبان للحيلولة دون أي توسع جديد على حساب التراب المغربي مما لا سبيل إلى رده.

لقد أعطت خطتا حراسة الحدود وجهاد الأبراج نتائجهما في حدود الإمكانات المتوفرة، ولو أنها نتائج لم تصل إلى مستوى الطموح الوطني الذي لن يرضى بغير إجلاء الأجنبي عن مدينة مليلة.

---

(145) رواية سجلتها عن المرحوم الحاج ميمون الجواوي سنة 1975.

(146) A. Estrada , *Poblacion* , p. 522 .

وكل بحث في هذا المجال سيطرح سؤاله المعتاد بحثا عن عوائق تحقيق الأمل الوطني المنشود، فما ذا يمكن قوله بهذا الصدد بالنسبة للمرحلة الأولى من مراحل المقاومة المغربية؟

لم يخف علينا تأثر حركة المقاومة الشعبية وتأرجحها بين المد والجزر بتبدل السياسة المركزية وبما كان يعتري البلاد من الاضطرابات الوطنية والإقليمية بدءا من الوطاسيين والسعديين وما بعد المولى إسماعيل، مما كان من شأنه تقليص وتيرة العمل الجهادي ولا شك، والسماح للإسبان بتحقيق تقدمهم بالميدان.

وتكمن العقبة الثابتة أمام جهود المقاومة في استعدادات المدينة المحتلة بتحصيناتها وسلاحها الناري. وقد وقفنا عند العديد من الأمثلة التي تفاوت فيها الفرق بين المعدات الحربية بين الجانبين، وتصورنا الحصانة التي وفرتها الطبيعة للمدينة المحتلة، علاوة على ما أضيف إلى كل ذلك من منشآت الحماية والدفاع.

وهناك سلبية أخرى لم تبرز خلال هذه المرحلة بشكل واضح مثلما ستظهر خلال المرحلة الموالية، ونعني بها الثغرة البحرية. ولا نعني عدم توفر المغرب على بحرية حربية معدة لمساندة المجهود البري، فهذا نقص يشمل المرحلة الثانية أيضا، بل نقصد أنه لم يتوفر على ما يمكنه من رد السفن الإسبانية بوسائله البرية ومنعها من تقديم المعونة للمدينة. فالمقاومة لم يكن لها أي دور في هذا المجال بسبب افتقارها الكلي إلى السلاح المدفعي الذي لم يرد منه شيء خلال هذه المرحلة إلى ميدان مليلة.

لم يسبق لحركة شعبية شبه وحيدة بميدان مقاومة الوجود الأجنبي أن حققت بسواحلنا المتوسطية أو الأطلسية الهدف الوطني بإمكاناتها المحدودة، بل كان دورها على الرغم منها مقتصرا على الحيلولة دون استفحال الوضع على أمل وانتظار تدخل القوات الوطنية والرسمية. وقد لاحظنا أن المقاومة الشعبية بقلعية كانت من هذا القبيل.

كانت حركة المقاومة بقلعية في حاجة ماسة إلى نظام حربي قار ومجهز لمجابهة تطورات النظام الحربي الأجنبي بمليلة. فالمعروف أن النظامين الوطاسي والسعدي لم يرقيا إلى مستوى وضع البديل رهن إشارة حركة المقاومة.

وانحصرت جهود المولى الرشيد والمولى إسماعيل ومن جاء بعدهما في دعم الحركة، مما يمكن عده ميلاد التدخل المخزني لتبني حركة المقاومة. غير أن ميدان مليلة لم ينل من العناية ما حظيت به المراكز المحتلة بالساحل الأطلسي من حركة التحرير، عملا بمبدأ الأهمية والأسبقيات، بل لم تقترب مما نالته سبتة من تلك العناية.

يتضح في نهاية هذه الفترة أن جهاز حركة المقاومة الشعبية بقلعية كان قد استوعب جميع إمكاناته واستنفذ كل جهوده للاحتفاظ بالتوازن الحربي القديم إلى حدود سنة 1736/1149، وآنذاك كان الوضع بالشمال الشرقي المغربي ملحا للتفكير في صياغة مشروع وطني يضع مليلة في قمة قضايانا الوطنية، مما سيشكل فصول القسم الرابع والدخول في المرحلة الثانية من المقاومة المغربية بحول الله تعالى وبركاته.



من مدافع مليلة القرن السابع عشر

القسم الرابع

مقاومة الوجود الإسباني
خلال المرحلة الثانية

(1767—1775)

(1)

مليلة وافتتاح العلاقات المغربية الإسبانية

دل ما جاء في صفحات القسم الثاني على أن الأعمـال الجهادية ظلـت حاجزا سميكا حجب عن الحكومات الإسبانية المتواليـة كـل الرؤيـا للتفكـير في حل مرض للجيوب التي تحتلها بالساحل الشمالي المغربي، إلى درجة أنها لم تـر سبيلا للدفع بالمسألة إلى أي نوع من أنواع المباحثات مع البلاط المغربي.

هدفنا من هذا القسم محاولة تشخيص ذلك التحول الذي رفع مليلـة إلى قمة قضايانا الوطنية ابتداء من مستهل النصـف الثـاني مـن القـرن الثـاني عشـر الهجري. تجسم هذا التحول في اتفاق فاتح محرم عام 28/1181 ماي 1767 منطلق العلاقات المغربية الإسبانية وارتبط بتولي السلطان سـيدي محمـد بـن عبـد الله سنة 1757/1171.

لقد كانت الغاية من الإصلاحات الداخلية التي عكف السلطان سـيدي محمد على إحداثها مسايرة لإدخال روح التجديد على الهيكل الاقتصادي لغاية وطنية سامية[1]. فهذا لوي شيني يصرح لنا بتلك الغاية قبل أن تظهر للعيان، إذ يقول: "إنه لم يكن يفكر سوى في الوسيلة التي يصل بها إلى تنمية ثروات بيت المال وجلب الأسلحة للوقوف في وجه الأوربيين"[2].

ومن تلك النظرة جاءت فكرة عقد الاتفاقيـات مـع مختلـف دول غـرب أوربا وسياسة إصلاح الموانئ والمدن. ولم يحن وقت افتتاح تلك العلاقات مـع شبه الجزيرة الإيبيرية إلا في المرحلة الأخيرة من سلسلة الاتفاقيـات المبرمـة سـنة 1767/1176.

(1) أنظر Ramon Lourido Diaz في كتابه *Marruecos en la seguda mitad del siglo 18*

(2) Louis Chénier, *Recherches Historiques sur les Maures*. Paris 1787 ,t.3 , p. 244.

لم يكن القرب الجغرافي بين المغرب وشبه الجزيرة الإيبيرية حافزا قويا لمد حبل الوصال التجاري بين الجانبين بسبب التنافر التاريخي وسيادة روح الحذر بين خصمين تقليديين، إذ أن أصول تلك العداوة امتدت عبر مراحل تاريخ الإسلام للأندلس وعمقت آثارها حروب الاسترداد والانقضاض الإيبيري على النقط الاستراتيجية من سواحلنا. ورغم جهود سابقة للقرن الثاني عشر الهجري فإن مراكز الاحتلال الإسبانية المتوسطية من سبتة إلى مليلة ظلت حاملة لراية ذلك العداء. فما هو مفتاح العلاقات الجديدة؟

تعود أهمية إسبانيا للمغرب بالنسبة لسيدي محمد بن عبد الله بحكم قربها الجغرافي السوق المستهلكة المستوعبة للمنتجات الفلاحية المغربية، وبناء على ذلك فهي مصدر الأموال الضرورية لتغطية تكاليف السلاح المستورد أو القسم الأكبر منه. ومن هذا المنظور كان تعلق سيدي محمد بربط العلاقات مع حكومة كارلوس الثالث[3].

أما تحبيذ كارلوس الثالث وحكومته للصداقة المغربية فقد وجدت أساسها في حاجة إسبانيا للبحث عن الحلول الناجعة للمشاكل الاقتصادية المطروحة والتعقيدات السياسية التي لاحت في الأفق الدولي[4]. ففي نطاق البحث عن الحلول تدخل خطة التقارب مع المغرب.

غير أنه لا يخفى عن البال أن هناك مشكلا آخر كان مصدر قلق كبير للحكومات الإسبانية، ونعني بذلك مشكل الحصون القائمة بالساحل المغربي لقد ظهر لحكومة كارلوس الثالث تفاهة النتائج المحصل عليها خلال القرون الثلاثة من وجودها بمليلة وغيرها من الحصون، إذ لم يتحقق أي شيء مما كان يدور في ذهن دعاة الاسترداد. ويضاف إلى كل ذلك النفقات الباهضة التي كان يتطلبها الاحتفاظ بتلك المراكز، علاوة على حالة الحرب الدائمة

---

(3) R.Lourido Diaz. « Ensayo sobre el sultanato de Sidi Mohamed B. Abdellah, » C.H.I. 1/196; « En torno al ensanche de los limites de Ceuta en 1782 », *Hesperis* 1982.

(4) الإشارة إلى اندفاع البحرية الإنجليزية نحو مياه أمريكا اللاتينية المثير لشعور الخطر في دواليب الإمبراطورية الإسبانية.

السائدة حولها. وهذا هو ما حث الحكومة الإسبانية على وضع مخطط جديد لمدنها الإفريقية.

انقسمت الآراء حول إعداد المخطط إلى حزبين متناقضين: فريق أول ساند فكرة التخلي عن المدن المحتلة باستثناء سبتة ووهران، بينما رأى الفريق الآخر عكس ذلك تماما(5). وفي سنة 1765 علق الساسة الإسبان الأمل على الصلح المغربي المرتقب. وقام بهذا الدور حاكم سبتة المساند لفكرة الاحتفاظ خلال المحادثات التمهيدية.

والملاحظ من جهة أخرى أن الداعي لافتتاح العلاقات مع الإسبان جاء من طرف سيدي محمد بن عبد الله مسوقا بمشاعره الإنسانية الحاثة على تخفيف مآسي الاستعباد في حوض البحر المتوسط الغربي. وسجلت خطوات التقارب ما بين 1765 و 1767 خلال مرحلتين(6):

- وساطة الفرانسيسكان(7): كانت مراسلاتهم للحكومة الإسبانية بواسطة حاكم سبتة وسيلة لإذكاء روح التعاطف الناشئ آنذاك بين السلطان وكارلوس الثالث. ورغم بعض المبالغات التي كانت تنقلها تلك المراسلات عن ذلك التعاطف فإن متابعة المباحثات دل على التقارب بين الجانبين وتخطيه لعدد من الصعوبات. وقد تجاوز الفرانسيسكان اختصاصاتهم حينما شرعوا في إعداد جهاز إخباري باختيارهم ربط الاتصالات مع صامويل سومبل، كاتب السلطان اليهودي الذي سيلعب دورا هاما في العلاقات الدبلوماسية المغربية(8).

---

(5) قمنا بنشر تلك الآراء بتفصيل في مجلة **دار النيابة** بعنوان "مسألة الثغور المغربية المحتلة في منتصف القرن الثامن عشر"، عدد 1986/11، ص. 23.

(6) R. Lourido Diaz « Los misioneros franciscanos y su participacion en el tratado de paz Hispano Marroqui de 1767 », A.I.A. 1974, n° 133, pp. 127. 151.

(7) يعود وجود الفرانسيسكان بمكناس ومراكش إلى ما قبل ظهور الدولة العلوية، وقد وجدوا في شخص محمد بن عبد الله تفهما مشجعا قبل توليته.

(8) Samuel Sumbel من مواليد أسفي سبق له أن عمل لحساب تاجر من مارسيليا. استقر مدة بسلا وقد أهلته مهارته التجارية أن يحظى بعناية السلطان. ودوره بارز في العلاقات المغربية مع السويد والدانمرك وفرنسا وإسبانيا أخيرا.

كانت النتائج الأولى قد أسفرت حينما أمر السلطان كاتبه بالتوجه إلى حدود سبتة قصد إجراء المباحثات مع حاكم المدينة سنة 1765. وتركزت تلك المحادثات على إمكان تصدير الحبوب المغربية[(9)].

ويعد أحمد الناصري رغم بعده النسبي عن الأحداث بالمقارنة مع الزياني وأكنسوس والضعيف أول من تطرق إلى تلك البداية الناشئة بين العاهلين المغربي والإسباني، ولا شك أنه كان على علم بالمراسلة الأولى التي افتتح بها سيدي محمد علاقاته مع كارلوس الثالث حينما كاتبه طالبا إطلاق سراح بعض الأسرى المغاربة المحتجزين بقادس[(10)].

وقد سجل المولى عبد السلام ابن السلطان وصول الوفد الإسباني إلى مراكش برئاسة الفرانسيسكاني بارتلومي خيرون (Bartolome Giron) محملا بالهدايا الثمينة التي "لم يعهد بمثلها.. بعثها مع كبراء القسيس والفسيان وأصحبه كتابا أفصح فيه عما بين جنبيه للسلطان من المحبة والاعتراف بالفضل والمنة، وطلب منه بعث أحد أرباب دولته"[(11)].

ويكشف خطاب الرئيس الفرانسيسكاني أمام سيدي محمد عن الاقتراحات الأولى التي ستصبح نقط الحوار أثناء سفارة أحمد بن المهدي الغزال[(12)]. وإذا كنا نجهل رأي سيدي محمد في المقترحات الإسبانية التمهيدية فإن قبول سفارة مغربية برئاسة كاتبه أحمد الغزال إلى البلاط الإسباني يوحي بقبول فكرة الهدنة[(13)]. وفي 25 شتمبر 1766 كانت مهمة الغزال قد انتهت

(9) Vicente Palacio Atard , « Primeras negociaciones entre España y Marruecos en 1767 » *Hispania* 1951, 2/659-678.

(10) **الاستقصا**، 23/8. يمكن الاطلاع على المراسلة السلطانية بالأرشيف التاريخي الوطني بمدريد ملف 4344 محفظة 2. ونص الرسالة منشور بمجلة *Al Qantara* 1981 عدد 2.

(11) **درة السلوك** مخطوط خ.ح.ر. رقم 514، ص.288.

(12) لم يتعرض أحمد الغزال بأدنى شيء عن المباحثات في مضمون كتابه **نتيجة الاجتهاد في الهدنة والجهاد**، رغم العنوان المغري. الفريد البوستاني. العرائش 1940.

(13) لا نعرف عن أحمد بن المهدي الغزال الفاسي الأندلسي ما يكفي. وقد اختص بعد ذلك بالعلاقات الخارجية ما بين 1766 و 1775 إلى حين وفاته بفاس سنة 1777.

بمدريد بمقدم السفير الإسباني خورخي خوان (Jorge Juan) إلى مراكش للإشراف على الطور الأخير من المباحثات، ونتيجة لذلك ظهر الاتفاق الموقع يوم فاتح محرم 28/1181 ماي 1767. وبالطبع فإن ما يهمنا بالدرجة الأولى هو معرفة مكانة مليلة في الاتفاق.

إذا كانت دراسة مسألة مكانة الثغور المحتلة في الاتفاق ما تزال في مرحلتها الأولى بسبب غياب المصادر الوطنية فإن الأبحاث الإسبانية بقيت منصبة فقط على وصف الخطوات التمهيدية والنتائج النهائية الخاصة بالبنود الاقتصادية[14]. أما حظ البند التاسع عشر من الاتفاق الخاص بالثغور المحتلة فهو لا شيء[15].

وعلى الرغم من طغيان الجانب الاقتصادي على المحادثات فإن مسألة الحصون الأربعة كانت المحور الجوهري الخفي من تلك المباحثات. فما كان في مستطاع الإسبان نسيان مسألة تحسين ظروفها البرية الصعبة الناتجة عن مجاورتها للحراسة المغربية، مما كان يجري من أجله أنصار فكرة الاحتفاظ بالحصون.

ويبدو أن طرح مسألة الحصون كان من مبادرة حاكم سبتة دييغو مانويل أوسوريو (Diego Manuel Osorio). ونقول هذا لأننا نعلم أنه قدم مشروعه للحكومة مطالبا توسيع حدود مدينة سبتة، بل استطاع بتدخله الخاص لدي البلاط المغربي الحصول على توسعة مؤقتة لتسريح المواشي، مستغلا تراجع العسة المخزنية إلى حد معلوم[16]. وفي أغلب الاعتقاد أن حاكم مليلة سار على منوال حاكم سبتة بتقديم اقتراحاته في موضوع توسيع الحدود.

---

(14) V.R. Casado, *Politica Marroqui de Carlos* 3; M. Arribas Palau, « La correspondencia inicial »; V. Palacios Atard , « Primeras negociaciones ».

(15) سيكون رامون لوريدو دياث أول من تطرق إلى المسألة، لكن فيما يخص سبتة فقط في بحثه المعنون: « En torno al ensanche de los limites de Ceuta en 1782 ». p 200 *Hesperis* 1982

(16) المرجع السابق.

هذا هو المستخلص من مراسلة محمد بن عبد الله إلى كالوس الثالث حين كتب:

"ومسألة نعلمك بها وهي أن تأمر حاكم سبتة وحاكم مليلية (كذا) أن يقفوا عند الحدود المعلومة لهم مثلما أمرنا قوادنا الموالين لهم أن يقفوا عند حدودهم المعروفة لهم، ولا يتعدى أحد من الجانبين. وهذا الاحتراز خشية أن يقع أمر من أحد الجهتين يكون فيه ما يفسد المهادنة"[17].

وكيفما كان الأمر فإن إدماج مليلة سيظهر لنا جليا بالبحث عن المزيد من تفاصيل المحادثات. كانت سفارة بارتولومي خيرون السابقة الذكر بمثابة جص النبض لمسألة توسيع حدود الثغور. فقد استنتج السفير من اتصالاته برجال المخزن بواسطة صامويل سومبل أن الخوض في القضية أمر جد دقيق إلى الحد الذي لم يكن في وسع أحد التجرؤ ولو على مجرد طرحه. وبهذا صرح السفير لحكومته أنه لم يطرح مسألة واد نون وقضية الحصون.

ويكفي لمزيد التوضيح الإشارة إلى أن بارتلمي خيرون أعلن في مراسلة 6 فبراير أن السلطان يتصور بكيفية غريبة الطريقة التي يرى بها إتمام الصلح إذ أنه يعتبر من واجبه الديني والوطني استرجاع الحصون التي يملكها عاهلنا بالمغرب، وانه سيعمل على استعادة تلك الثغور إلى بلاده. وأنه من جهة أخرى "لا يرى في استرجاع الحصون بالسلاح أي تعارض مع الصلح الجاري بينه وبين ملك إسبانيا [18].

وهناك موقف آخر من طرف سيدي محمد وافى به خيرون رئيس الحكومة الإسبانية تجلى من عبارة مراسلته حين قال: إن السلطان محا الجملة الخاصة بوسق الحبوب المغربية من الحصون. وكانت الغاية الإسبانية من إدراج تلك الجملة في الاتفاق التمهيدي محاولة فك الحصار البري الاقتصادي

---

(17) بتاريخ عاشر ذي القعدة 1179. A.H.N. Estado L. 4344 caja 2; *Al Qantara*, 1981, 2/154.

(18) A.H.N. Estado L. 4308 ;V.R. Casado, *Politica Marroqui*, p. 62.

على الثغور، تحسبا لنشوء حرب مع الإنجليز، استنتج منها رفض الخوض في مسألة الحصون، وكان هذا أكثر إلحاحا بالنسبة لمليلة[19].

ونظرا لموقف السلطان سيدي محمد اقتصر خيرون أثناء إلقاء خطابه على طلب جعل الصلح في البر والبحر. وسنتوقف لمناقشة مدلول الصلح في البر بالنسبة إلينا وعند الإسبان. وتتضح مسألة الحصون أكثر بما سنتوصل إليه أثناء تتبع محادثات مدريد ومراكش في الأخير. ونتأكد أولا من أن المحادثات كانت تخص جميع الثغور المحتلة. فبعد بدء الحديث عن توسيع حدود سبتة طبق ذلك بصورة تلقائية على مليلة وصخرتي بادس والنكور.

والمعلوم لدينا أن رئيس الحكومة الإسبانية الماركيس دي كريمالضي لم يحجم عن عرض المسألة على أحمد الغزال المرة بعد الأخرى لإقناعه بضرورة فتح باب التبادل التجاري مع أهل الحصون. وقد وجد الغزال العلة للرد على الطلب الإسباني حينما أجاب أن السلطان يرى في ذلك وسيلة لتفشي التهريب[20].

وكان الإلحاح مماثلا فيما يخص طلب توسيع حدود كل من سبتة ومليلة. نعرف هذا من خلال رسالة كريمالضي إلى أحمد الغزال، ففيها يذكره "بمجموع النقط الأساسية المقترحة لإقرار الهدنة بين الجانبين". ومن جملة تلك النقط مسالة الحصون الأربعة[21].

أوضح رئيس الحكومة في المطلب الخامس طلب توسيع حدود الحصون الأربعة وقدم الدواعي المعززة للمطلب في النقطة السادسة: "فسكان سبتة وباقي الحصون هم في أمس الحاجة إلى الماء والعشب الضروري للمواشي". وألحت الحكومة في النقطة الثامنة على تكوين لجنة ثنائية للإشراف على تعيين

---

(19) R. Lourido Diaz , *Marruecos y el Mundo Exterior en la Segunda Mitad del Siglo XVIII*, p. 414.

(20) مراسلة الغزال إلى كريمالضي بتاريخ 25 شتمبر سنة 1766. A.H.N. Estado L. 4344

(21) الرسالة بتاريخ 26 شتمبر 1766. A.H.N. Estado, L. 4344. وانظر أيضا بحث الأستاذ رامون لوريدو دياث « En torno al ensanche » في *Hesperis* 1982، ص. 195.

الحدود. عبارتها: " نقط الحدود الفاصلة بين حصوننا وعسة المغاربة دون المس بمصالح الطرفين "[22].

تلك هي النتيجة التي عاد بها أحمد الغزال من مدريد، وهي نتيجة شجعت سفارة خورخي خوان (Jorge Juan) على مرافقته إلى مراكش مزودا بالتعليمات الأساسية[23]. تم استقبال السفير من طرف السلطان يوم 16 ماي، وقدم للغزال على ضوء ذلك يوم 20 ماي 1767 مسودة تحمل عنوان: "النقط الأولية التي سيتم إقرار الصلح على ضوءها بين صاحبي الجلالة الكاثوليكي والمغربي".

تألفت المسودة من واحد وعشرين شرطا واحتلت مسألة الثغور المطلب الثالث عشر وهو عبارة عن خلاصة مركزة لما قدمه رئيس الحكومة إلى الغزال أثناء وجوده بمدريد، أي طلب توسيع حدود الحصون الأربعة، مما سبقت الإشارة إليه. وقد فاجأ السلطان الإسبان برفضه للمطلب الإسباني متعللا باستشارة العلماء والفقهاء والأشراف والأعيان، ملحا على ترك الحدود على ما كانت عليه منذ القديم دون تغيير بالزيادة أو النقصان[24]. ويعني هذا ألا مجال للتوسعة المطلوبة. وهذا القرار هو الذي بنى عليه سيدي محمد جوابه لكارلوس الثالث بتاريخ فاتح محرم عام 1181، وهو القرار الذي سيكون الفقرة الأولى من الفصل التاسع عشر.

أشعرنا خورحي خوان بالصعوبات التي لاقاها بالقصر الملكي أثناء مشاوراته بمراكش. ففي 26 ماي لم يكن قد حصل على شيء مما كان يجري وراءه. وحتى المطلب الخاص بفتح باب الاتجار مع الأهالي المجاورين قوبل بالرفض التام، فهو يقول: "ألححت المرة بعد الأخرى مبينا أن المطلب لا يتعلق سوى بالترخيص في الحالات المستعجلة، غير أنه قوبل بالرفض"[25].

---

(22) **المصدر السابق.**

(23) توجد التعليمات في A.H.N. Estado L. 4310/ 2:

(24) رسالة 16 يونيه 1767 في A.H.N. Estado L. 4308.

(25) رسالة 26 يونيه 1767 المشار إليها.

ولما كان السفير الإسباني متأكدا بأنه لـن يخرج بنتيجة إيجابية بمسألة الحصون التجأ إلى ربح الصفقة بوسيلة أخرى، إذ أنه حول صيغة "التوسعة" المرفوضة إلى المطالبة بمجرد "تصحيح الحدود" متظاهرا بمسايرة قرار السلطان ورأي مستشاريه القاضي بعدم إحداث أي تغيير في الحدود القديمة. ومن المعلوم أن استبدال الصيغة الأولى بالثانية يرمي إلى انتزاع الاعتراف بوجود حدود ينبغي تعيينها من جديد، فهذا هو في نظر الأسبان أقل ما يمكن الحصول عليه.

وبناء على إلحاح خورخي خوان قبلت فكرة تصحيح الحدود. والواقع أن هذه النقطة هي الخطوة الإيجابية الأولى في السفارة. وحرص المفاوض الإسباني من جهة أخرى على وضع عملية تصحيح الحدود بيد لجنة ثنائية متمتعة بتفويض تام من الجانب المغربي بصفة خاصة. وحسبنا الإطلاع على الغاية الإسبانية المرجوة من اللجنة المغربية من خلال مراسلة السفير يوم 28 ماي نفسه:

"يبدو لي أن الأراضي التي ستمنح للحصون من الأفضل إسناد البث فيها إلى لجنة ثنائية، إذ أن ما نطلبه صعب التحقيق، فالحصول على الأراضي الممتدة إلى أبعد نقطة خارجية أمر لا يقبله المسلمون هنا بسهولة، ولذلك نرجو الحصول على نتائج أفضل إذا ما قدمنا منحة للموكل المغربي الذي سيتم تعيينه، فهذا أفضل مما لو تم كل شيء هنا"(26).

ونتيجة لما حالف السفير الإسباني من التوفيق في طرح مسألتي تصحيح الحدود وتشكيل اللجنة الثنائية ظهرت الفقرة الثانية المضافة إلى الأولى من الفصل التاسع عشر بعد يوم 28 ماي. وهذا هو النص العربي للفصل المذكور:

الشرط التاسع عشر:

"طلب الوسع في الأرض للمدن الأربعة سبتة ومليلية والنكور وبادس، فكان الجواب على ذلك من سيدنا نصره الله أن الملوك المتقدمة جعلوا تلك الحدود

(26) **المصدر السابق.**

القائمة الآن بمحضر العلماء والقضاة والجماعة من المسلمين من زمن أخذ هذه المدن المذكورة وأنزلوا عليها خطوط أيديهم وألزموا نفوسهم أن يقفوا عند تلك الحدود حتى لا يقع فيها نقص ولا زيادة. وكل سلطان يتولى أمر الرعية يشهد عليه عمارة تلك الحدود والعسة والحراسة إلى وقتنا هذا، فلا يمكننا أن نزيد فيما هو مشهود به علينا ولا على من قبلنا من الملوك. ولو كانت هذه المسألة جائزة في الدين لقضيناها لكم مراعة (كذا) للصلح"[27].

"وحيث وقع الطلب في تصحيح الحدود المذكورة وأردتم أن يحضر رجل منكم وآخر من قبلنا حتى تعرفون هذه الحدود وتتحققونها حتى لا يبقى فيها خلاف، ها نحن جعلنا وكيلنا للوقوف مع وكيلكم قائد تطوان، والذي يفعل مع صاحبكم أمضيناه وتخط الحدود بالأحجار"[28].

وما يمكن ملاحظته تعليقا على نص الاتفاق أن الرسالة السلطانية الموجهة إلى العاهل الإسباني يوم فاتح محرم، 28 ماي انتهت بانتهاء سرد دواعي رفض طلب توسيع الحدود، ولم تتعرض إطلاقا لمسألة تصحيح الحدود وتكوين اللجنة الثنائية مثلما نصت عليه الفقرة الثانية من الاتفاق.

وكل هذا يؤكد لنا أن الفقرة الثانية من نص الفصل التاسع عشر لم يقع إدراجها يوم توقيع الاتفاق، بل تمت إضافتها بعد ذلك نتيجة إلحاح المفاوض الإسباني. ونجد التأكيد على ذلك فيما ذكره في رسالة 16 يونيه:

"رجوت جلالته أن يعتبر امتداد خط تلك الحدود إلى وراء وصول طلقة المدفع زمن الحرب، وأخيرا قبل تعيين عامل تطوان وكيلا من قبله لتصحيح حدود جميع الحصون"[29].

بحثنا لحد الآن مكانة مليلة في اتفاق 28 ماي 1767 ضمن شمولية المراكز المحتلة، ولم يكن هناك مجال للفصل بينها وبين باقي الثغور. وآن الوقت لإجراء

---

(27) الفقرة الأولى من نص الاتفاق الموقع يوم فاتح محرم عام 1181/28 ماي 1767.

(28) الفقرة الثانية المضافة إلى الأولى بعد توقيع الاتفاق.

(29) المقصود فترة ما قبل انعقاد الصلح. وعامل تطوان هو محمد عاشر التطواني. A.H.N. L. 4308.Estado

تشريح مستقل لمسألة مليلة وحدها بتركيز الحديث عن الحدود المعنية في الاتفاق المذكور، سواء في نظر المغاربة أو حسب الإسبان إذ أن تصور كل طرف كان مختلفا بالنسبة للآخر.

يظهر اختلاف التصور واضحا بين ما كان يقصده السلطان وجماعة المستشارين وبين تصور الإسبان للمفهوم الجغرافي للحدود القائمة بين مليلة ومراكز الحراسة المغربية المقابلة للمدينة. فما كان يعنيه الطرف المغربي من عبارة "الحدود القديمة" إشارة محددة إلى تلك التي تنتهي بامتداد محيط أسوار المدينة القائمة منذ التسرب الإسباني، أي ما يعرف بالمحاطين الأول والثاني اللذين سبق التعريف بهما. فهذا هو المقصود من صيغة الاتفاق: "إن الملوك المتقدمة جعلوا تلك الحدود القائمة الآن من زمن أخذ هذه المدن المذكورة".

غير أن الحدود التي تصورها الطرف المغربي كانت سنة 1767 نظرية صرفة، إذ أننا تتبعنا نمو رقعة المدينة بتوسيع حدودها غربا نتيجة تشييد الأبراج الخارجية وإضافة ما سميناه بالمحاطين الثالث والرابع. فهذه المساحة الجديدة لا تمثل في شيء خط الحدود القديمة ولن يكون في وسع الوكيل المغربي سوى الإقرار بواقع مفروض.

ومن المؤكد أن الطرف الإسباني كان يعني بالحدود خطا أبعد من الحدود المعلومة بمسافة بارزة، إذ كان تحت تصرفه رسوم وخرائط المدينة والمساحة المطلوبة أعدت مسبقا في مدريد. فالحدود المطلوبة هي الممتدة إلى ما وراء الحد الأقصى من مدى القذائف المدفعية، ويعني هذا استرجاع مساحة الأبراج الخارجية التي فقدتها مليلة منذ سنة 1646 ولم تكن قد استرجعتها ساعة الاتفاق، وهي الحدود المعروفة عند أهل مليلة بحدود 1643 قبيل انطلاق صحوة المقاومة.

ولا يمكن وضع خط واضح للحدود المطلوبة، إذ أن الأبراج كانت قد خربت وانطمست معالمها باستثناء برج مزوجة. وبناء على ما يوضحه رسم يعود إلى 1792 يمكن ملاحظة أن الخط كان مسايرا لهوامش اتصال التلال

الشمالية بفحص المدينة. فمن برج مزوجة إلى أبراج سانتياغو وسان فرانسيسكو والبارادا وكانتيرا.

حاولنا التعرف على ما كان يروج في ذهن الإسبان عن الحدود المطلوبة وواقع الأمر أن اللجنة المكلفة بالتصحيح ظلت جامدة، فلئن كان كارلوس الثالث قد تأخر لتعيين الوكيل الإسباني فإن محمد عاشر قائد تطوان عبر عن تجاهله التام لتعيينه في لتلك المهمة حتى أواخر شتمبر السنة، إلى درجة أن حاكم سبتة ادعى أن قائد تطوان لم يكن له أدنى علم بالاتفاق المنعقد بين الإسبان والمغاربة[30]. وفوق ذلك فإن أعمال اللجنة كانت قد جمدتها الحوادث المندلعة بميدان مليلة منذ شهر يوليوز سنة 1767. وربما لم يكن هذا التجميد بعيدا عن ضغط الجماعة المحيطة بسيدي محمد[31].

لم يكن جميع المحيطين بالسلطان من أقربائه وأهل المشورة من محبذي الصداقة مع الإسبان. فقد لاحظ الفرانسيسكاني بارتولومي خيرون أثناء سفارته أن ولي العهد المولى علي لم يكن متحمسا مثل والده، ونقل عنه قوله "إذا لم يتوقف الإسبان عن اعتداءاتهم فإنني سأتكلف بنفسي لطردهم من هنالك". وكان قصده بالطبع طردهم من سبتة ومليلة[32].

وما أخبرتنا به مراسلة لأحمد الغزال متأخرة أن اجتماعا عاما حضره الفقهاء والعلماء والقضاة والأشراف وأعيان المسلمين من مجموع المملكة انعقد عام 1768/1182 لوضع نتائج الصلح مع الإسبان في الميزان، بالتركيز على مدينة سبتة. ومما جاء في الرسالة:

"وجاءوا لسيدنا نصره الله يسئلون عن ثمرة الصلح الذي صار بينكم (الاسبان) وبين سيدنا وما هي فائدته، فإن للصلح شروط أولها رد المظالم، وأول مظلمة

---

(30) مراسلة الماركيس دي كاسا تريمانيس: 23 شتمبر. A.H.N. Estado L. 4351

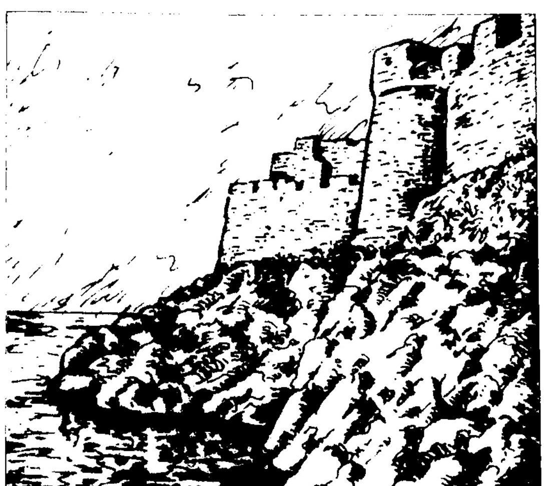
(31) القنصل الإسباني بالعرائش: 18 يونيه 1768. A.H.N. Estado L. 4311

(32) العرائش: 18 يونيه 1768. A.H.N. Estado L. 4311; V.R.Casado, *Politica Marroqui de Carlos 3*, p. 170.

مطالبون بها الصبنيول التخلي عن سبتة، لأنها بلادنا أخذت حال الحرب. ولما كان الصلح يردون البلاد لأهلها بالشريعة المطهرة"[33].

كان جواب السلطان لتهدئة الجماعة منبعثا من قوة حصانة مدينة سبتة واستحالة تحقيق نتيجة من وراء حصارها. واعتقد سيدي محمد أن استرجاع الجديدة من يد البرتغال كفيل بإرضاء طموح الجماعة. غير أنه فوجئ بعودتها بعد مضي بضعة أشهر فقط من ذلك الحدث الوطني الهام بمطالبة استرجاع سبتة، وكانت الحجة المقدمة من طرف سيدي محمد هذه المرة متركزة حول الانتظار لاستكمال جلب الحصة المطلوبة لتلك الغاية من السلاح[34].

وفي بداية عام 1770 تبين أن الوعد المغربي قد تحول إلى عزم أكيد لتحرير الثغور المحتلة وضبط العمل السريع لتعبئة الطاقات البشرية منها والحربية والتنظيمية. وكان اختيار سيدي محمد هذه المرة قد وقع على تحرير مدينة مليلة.



الواجهة الغربية من سور مليلة

(33) رسالة أحمد الغزال إلى رئيس الحكومة الإسبانية: 22 ربيع الأول 1187/13 يونيو 1773 Estado. A.HN. 4312. L.

(34) المصدر السابق.



سيدي محمد بن عبد الله

(2)

مليلـة في قمـة قضايانـا الوطنيـة

شاهد مغربنا الحديث سلسلة من حركات الجهاد التي أتت ثمارها في عدد من المدن المحتلة على عهد المولى إسماعيل و لم يبق منها سوى مليلة وسبتة وجزيرتي بادس والنكور. وسيعرف النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري (18م.) على عهد محمد بن عبد الله محاولة جهادية كبرى هي الأولى من نوعها بالنسبة لمليلة.

لم يكن سيدي محمد يجهل ضخامة المشروع المنتظر، فقد مكنته تجربة مدينة الجديدة المحررة بكثير من الأمل، ولكنها في نفس الوقت جعلته يدرك حقيقة الفرق في الإمكانات الحربية بين الإسبان والبرتغال، لذا فإن التجربة أرغمته على تقويم ما تحت تصرفه من معدات الحصار وتفقد الأساليب الحربية العتيقة.

وستعرف البلاد المغربية خلال خمس سنوات متوالية حركة ونشاطا دائبين غايتهما دراسة المشروع بناء على معاينة الظروف المحلية بقلعية وتسخير مدخرات الدولة الفلاحية منها والمالية وكذا إعداد الجهود الدبلوماسية إلى جانب استكمال ما تبقى من المعدات الحربية، مما جعل مشروع مليلة من أسمى قضايانا الوطنية.

نحو تعبئة الطاقات لاسترجاع مليلة

نستطيع بعد جمع عناصر هذا الموضوع الحيوي بالنسبة لتاريخنا عامة التعرف على تصورات مشروع سيدي محمد بن عبد الله بالنسبة لاسترجاع مليلة. ربما كانت تلك التصورات سابقة لسنة افتتاح العلاقات مع كارلوس الثالث الإسباني، ولكن الواضح أن إرساء ضوابط المشروع لم يظهر إلا بعد

تحرير مدينة إمازيغان من الاحتلال البرتغالي. فمنذ تحقيق أول فوز وطني في نطاق استكمال اللوحدة الترابية. شرع السلطان بسرعة فائقة في جمع كل الطاقات التي ينبغي توظيفها في المشروع الوطني الهام بفكرة ووسائل جديدة جديرة بالبحث والإشادة.

جولات اختبار الميدان: لم تكن تحصينات المراكز المحتلة بساحلنا خافية على سيدي محمد، فقد ساقه حب الاستطلاع والتفقد لأخذ فكرة أولية عنها تمهيدا لوضع أسس مشروعه الوطني، وليس هذا بالنسبة لسبتة فقط بل لمليلة أيضا، وذلك خلال السنوات 1759 و1765 و1766[35].

ستتاح الفرصة أمام سيدي محمد لزيارة أخرى لقلعية وميدان مليلة. ففي 24 جمادى الثانية عام 15/1184 أكتوبر 1770 كان قد توغل بالريف الغربي ووصل إلى المزمة التي كان بها المولى علي وبقي معسكرا أمام صخرة النكور المحتلة[36]، ثم اتجه شرقا نحو قلعية في آخر أكتوبر تلك السنة متظاهرا بجمع المؤخر من الواجبات المخزنية[37].

ولا ريب أن الحذر الإسباني المشوب بالحيرة هو الذي أرغم حاكم مليلة على التأمل في غاية هذه الزيارة، وقد عمد سيدي محمد لإبعاد شكوك الإسبان بإجراء المحادثات الودية بين الطرفين.وبالطبع ينبغي أن نتصور أن هذا كانت مناسبة لمعاينة تحصينات مليلة. و لم يبق أمام سيدي محمد سوى اتخاذ ما ظهر له من لوازم الترتيبات التنظيمية المحلية.

---

(35) حسب رسالة مليلة المؤرخة يوم 7 أبريل 1766 أن سيدي محمد حل بمقربة المدينة على رأس جيش صغير، وأنزل العقاب بقائد قلعية لمهادنة الإسبان بدون إذن سابق منه، كما حث السكان على متابعة الحرب. A.G.S. , Guerra Moderna L. 267 ; R.Lourido Diaz, « Estrategia militar », R.H.M. 1974, 36/26.

(36) من المعلوم أن الإسبان احتلوا الصخرة عام 1773 في مستهل عهد المولى إسماعيل. وحلول سيدي محمد بميدانها المجاور داخل في دراسة مشروع حصار مليلة.

(37) العرائش في 8 نوفمبر 1770. A.H.N. Estado L. 4311

فقبل مغادرة أرض قلعية كان السلطان قد عين قائدها الجديد من الأسرة القيطونية القلعية المعروفة لدينا. وتعلق الأمر بالقائد عمر بن عمر بن محمد بن مسعود. كما تطلبت ترتيبات تدبير حصار مليلة ضرورة تأليف فيالق ريفية وإدماجها في صفوف الجيش المغربي وتدريبها على أساليب حصار المدن. يظهر هذا من أمر السلطان لولي العهد المولى علي بتعبئة خمسمائة من أهل الريف[38].

تلك المؤشرات هي التي أوضحت سنة 1770/1184 تفتح المشاعر الوطنية وتحررها من عقدة الفصل التاسع عشر، وكان على سيدي محمد العمل بسرعة لإعداد مشروعه من الوجهة الحربية والدبلوماسية.

سياسة التفتح الخارجية في خدمة مشروع مليلة: تبين الدراسة الشاملة لعهد سيدي محمد خلال الفترة الممتدة بين 1767 و1774 أن افتتاح باب العلاقات الخارجية تجاه أوربا كان معدلا بإحكام نحو زاوية دقيقة لاستقبال الوارد من أسلحة وذخائر حربية ورصدها برمتها لغاية الوحدة الترابية[39].

كان هذا وعدا وطنيا منذ أن أفلح السلطان في استصدار فتويين، الأولى لإدخال المكس والثانية لتسويق الحبوب إلى الدول المسيحية. ومن المعلوم أن الترخيص لم يتم في كلا الحالين إلا بوعد تعزيز جانب الدولة الدفاعي ضد أوربا، وإسبانيا في مقدمة تلك الدول. لم يكن هذا خافيا على القنصل الفرنسي لوي شيني حين قال:

"ليس هناك أدنى ريب من أن السلطان كان قد عقد العزم منذ سنوات عدة على حصار سبتة، وإنني متأكد من أنه لم يقبل على عقد الاتفاقيات مع الدول الأوربية سوى للحصول على الأسلحة اللازمة لمشروعه"[40].

---

(38) Pierre Grillon , *La correspondance du consul Louis Chénier,* Paris 1970, 1/170.

(39) لم يكن مشروع سيدي محمد خافيا على الأجانب، إلا أنهم اعتقدوا أن الاستعدادات الحربية كانت موجهة نحو سبتة. وبقي السلطان حاملا سر وجهة مشروعه إلى ديسمبر 1774.

(40) P. Grillon , *La correspondance* , 1/167

تساعد وثائق الأرشيف التاريخي الإسباني على تقديم فكرة واضحة عن موضوع شراء الأسلحة خلال سنوات الاستعداد لحصار مليلة. وإذا كنا غير راغبين للاستغراق في إحصاء شامل للوارد من الأسلحة فإننا نرى الاكتفاء باستحضار الصورة العامة. وتظهر الوثائق أن إنجلترا هي التي قدمت للمغرب أكبر حصة من الأسلحة لقاء الحبوب المغربية المصدرة إلى جبل طارق وتأتي السويد وهولندا وجمهورية جنوة في المرتبات الموالية لها[41].

بلغ مقدار الأسلحة المتدفق على الموانئ الأطلسية سنة 1770 نحو اثني عشر مدفعا وخمسين من المهاريس وحوالي خمس وعشرين ألف قذيفة، بينما قدرها لوي شيني خلال ثلاث سنوات بنحو ثمانية وأربعين مهراسا ومائة مدفع ونحو خمسة عشر ألف قذيفة. ويمكن ملاحظة أن الصويرة والعرائش وسلا كانت من الموانئ المستقبلة سنة 1771 للسلاح الوارد، ثم انضافت إليها طنجة وفضالة.

وانطلاقا من الموانئ المستقبلة تم توزيع الأسلحة المستوردة على المدن الرئيسية والشمالية بصفة خاصة، وحسب لوي شيني فإن ثلث الأسلحة كان مخصصا لمشروع استرجاع المراكز المحتلة بالساحل الريفي، وهي الحصة المنقولة إلى تطوان ومكناس وفاس وتازا[42]، أي على طول المحاور المؤدية إلى مليلة.

وتجاوز جلب الأسلحة إلى استدعاء التقنيين الأجانب لتدريب المغاربة على استعمال الأسلحة الجديدة. وكانت المدفعية عادة تحت تصرف المسيحيين الذين كانوا في خدمة السلطان بلغ عددهم نحو مائتي محارب، رئيسهم برتغالي. وغدت مدينة مراكش مركزا قارا للتداريب والمناورات، ثم انضافت إليها سلا والعرائش. ففي هذه المدينة الأخيرة كان أكثر من ألف فارس وراجل يتدربون على الرماية بالبنادق والمطاعنة بالسيوف على الأسلوب

---

(41) درس الأستاذ رامون لوريدو دييات نفس الموضوع بمزيد من التفاصيل في بحثه: « El armamento y la asistencia técnica militar europea en el asidio marroqui de Melilla », R.H.M. 1774 - 1775, 22/143. 144.

(42) **المرجع السابق**، ص. 125.

الأوربي. وخصص الصباح من كل يوم جمعة للتدرب على الرماية بينما كان المساء موعد استعمال المدافع[43].

وكان المولى اليزيد الشديد الشغف بالمدفعية قد أثر على السلطان لاستدعاء التقنيين من جبل طارق، كلف ثلاثة منهم بمكناس لتدريب ستين شابا، ومن هؤلاء اختار المولى اليزيد خمسة عشر منهم لاستكمال التكوين بجبل طارق، كانوا في ماي 1771 قد عادوا إلى وطنهم[44].

لاحظ سيدي محمد حين زيارته لميدان سبتة أن افتقار المغرب إلى السلاح البحري هو أعظم عرقلة لمشروعه الوطني. ولا شك أن الملاحظة خطرت بباله أثناء زيارة قلعية عام 1770، ولذلك عزم على إعادة النظر في تطوير البحرية الحربية بشكل مواز لعملية استيراد الأسلحة[45].

وبالطبع لم يفكر السلطان في تأسيس بحرية حربية عصرية لمناجزة مثيلتها الأوربية، ولكن طموحه وصل إلى حد إحداث أسطول لمحاصرة الحصون من جهة البحر أيضا، غير أن الأمل لم يصل إلى هدفه باقتراب موعد حصار مليلة في آخر سنة 1774. وبالتالي فإنه لم يعقد النية على إشراك الأسطول المغربي في حصار بحري للمراكز المحتلة[46].

كان الهدف من الإصلاحات البحرية المرسومة في ذهن سيدي محمد أن يكون الأسطول دعما لقوة الهجوم البرية بعيدا عن الثغر المحاصر. ولذلك أسندت للسفن المغربية مهمة نقل المدافع والمهاريس والذخيرة الحربية إلى أقرب

---

(43) سلا في 20 يوليوز 1771. P. Grillon , *La Correspondance,* 1/201

(44) رسالة حاكم سبتة: 29 يناير 1772. A.H.N. Estado L. 4311

(45) R. L. Diaz, El Sultanato, C.H.I. 2/1972; Transformacion de la perateria , *Hesperis* 1969.

(46) أبرز رامون لوريدو ديات رغبة السلطان سيدي محمد في إحداث أسطول حربي ببيان مختلف أنشطة صناعة السفن واقتنائها ما بين 1770 و 1774. Ramon Lourido Diaz , *Marruecos y el Mundo Exterior en la segunda mitad del siglo XVIII* , Madrid 1989, p. 93.

الموانئ. وكانت مدينة تطوان إحداها. ومن هناك جاءت فكرة إصلاح ميناء مرتيل وتأسيس ورش لصناعة المدافع بتطوان(47).

ولم تخل حسابات السلطان سيدي محمد من احتمال مجابهة الأسطول الإسباني. ففي حال حصار المغاربة لمليلة برا لن يتمكن من ضمان سلامة المدن الساحلية من المضيق إلى أكادير، فستكون مهمة البحرية آنذاك حماية المدن المنتظر تعرضها للهجوم الإسباني بحرا، وكان في نية الإسبان شيء من ذلك(48).

ويمكن أخذ فكرة عن مكانة البحرية المغربية ودورها بالاطلاع على وضعيتها التي كانت عليها سنة 1773 من خلال محتوى يوميات القنصل لوي شيني، ومراسلات القنصلية الإسبانية بالعرائش(49).

جهود دبلوماسية: لم تعد الجهود المنجزة بالصورة التي تمت بها منذ سنة 1770 على الصعيد الحربي كافية لمشروع مليلة، بل كان لا بد من جهود دبلوماسية لبيبة لاستكمال ما تبقى من الأسلحة أولا، ولإخفاء حقيقة اتجاه المشروع نحو مليلة ثانيا، والبحث عن التضامن الجزائري في مرتبة ثالثة.

كانت الملاحظة التي أبداها الفرانسيسكاني بارتولومي خيرون على صواب حينما أعلن لحكومة بلاده سنة 1766 أن سيدي محمد لا يرى في العمل من أجل استرجاع المراكز المحتلة أي مساس بانعقاد الصلح مع إسبانيا. وقد جاءت وثائق ما بعد 1770 لتؤكد ذلك(50).

ولم يكن رفض السلطان منح التوسعة الترابية للحصون المحتلة مما سبق في اتفاق 28 ماي 1767، سوى التمسك بحق السيادة على تلك الأجزاء من التراب

---

(47) R. Lourido Diaz , « Una Fabrica de cañones en Tetuan » , R.H.M. 33/1972.

(48) تذكر رسالة 28 يوليوز 1773 أن الإسبان سيهاجمون مراكش في حال إقدام المغاربة على حصار سبتة. L. 4312. A.H.N. Estado.

(49) *Journal du Consulat General de France au Maroc 1767-1785,* البيضاء 1943. مراسلة 22 فبراير 1774. A.H.N. Estado , L. 4308.

(50) 6 فبراير 1774. **المصدر السابق.**

الوطني. كما أن القرار الإضافي القاضي بأمر تصحيح الحدود الوارد في نفس الاتفاق لم يكن في نظرنا سوى تهدئة للجانب الإسباني إلى أن يغدو القرار غير ذي قيمة أمام واجب استرجاع مليلة كخطوة أولى.

وفي بداية 1773 كانت الاستعدادات الجارية لاسترجاع المراكز المحتلة أمرا جليا يشهد به العديد من الدلائل الناطقة، ولم يكن الشعور الوطني قادرا على بقائه في السر والكتمان مدة أطول، علاوة على تزايد تساؤلات الجاليات الأجنبية بالمدن الساحلية والداخلية الكبرى المستقبلة للأسلحة عن الغاية من الاستعدادات والسرعة التي تتم بها. وجرت العادة أن يعاد نفس التساؤل كلما حطت سفينة بإحدى المراسي الأطلسية[51].

تابع الإسبان من مختلف المدن المغربية، سيما من قنصلية العرائش دخول الأسلحة وتوزيعها واعتقدوا أن الغاية المطلوبة من تلك الاستعدادات هي مدينة سبتة. وقد علق لوي شيني على قلق الإسبان بقوله: "إنهم يظنون من شد قلقهم أن كل الطرق تؤدي إلى سبتة"[52].

استطاع سيدي محمد في الوقت الذي لم يكن فيه استيراد الأسلحة قد بلغ حدا من الريب ما بين 1770 و1771 طمأنة شكوك الإسبان بالقدر الكافي من التأكيدات المعززة بتصريحات دوام الصداقة والصلح المنعقد بين البلدين. غير أن الحد من الشائعات المثيرة للشكوك أصبح عسيرا جدا بعد ذلك[53].

وفي الوقت الذي صمم فيه الإسبان العزم على التأكد من حقيقة ما تتناقله الشائعات حول أمر حصار سبتة أعد السلطان خطته لربح المزيد من الوقت بتأكيد تلك الشائعات والتصريح لهم باحتمال الإقدام على حصار مدينة سبتة.لدينا مراسلة أحمد الغزال الموجهة للسلطان يخبره فيها بسؤال القنصل الإسباني بمدينة العرائش طوماس بريموند (Tomas Bremond) وجوابه له. ومن الجواب نقف عن مراد الطرف المغربي. فبعد مقدمة عن موقف جماعة

---

(51) P. Grillon , *La Correspondance du consul L. Chénier*, 1/166.

(52) **المصدر السابق** 169/1. 264.

(53) R. Lourido Diaz , *Estrategea militar* , R.H.M. 36/1974

المستشارين المغاربة في قضية الثغور المحتلة ورفض السلطان للمساعدة الإنجليزية المقدمة لحصار سبتة نصل إلى العبارات التي هي موضع النقاش: "فإن وجد سيدي البقاء ما كان على ما كان بوجه شرعي فذاك، وإن تعذر التدبير فحينئذ يأمر سيدي فنصوهم بمكاتبة سلطانه، وأن أمد المهادنة في البر بعد نقضها أربعة أو ستة أشهر، وبعدها يعلمون أن سيدي متوجه إلى سبتة لحصارها في البر دون البحر حيث ليس للشرع فيه حديث.. هذا إن لم يكن من عزمه الحرب في البحر والبر معا"[54].

هذه هي المراسلة التي جعل منها ف. ر. كسادو[55] وصفة خدعة دبلوماسية مبرزا تشكك الإسبان في صدق نية المغرب لحصار سبتة. غير أن الذي غاب عن الكاتب الإسباني هي الغاية الأساسية من مراسلة الغزال، تلك الغاية التي كانت ترمي إلى إبعاد كل الشكوك عن حصار مليلة وتركيز انتباه الإسبان حول سبتة[56]. وتناولت نفس الموضوع رسالة أخرى لأحمد الغزال موجهة لرئيس الحكومة الإسبانية بقصد تأكيد احتمال الحصار المغربي لسبتة[57].

والواقع أنه ما كان لأحد أن يفكر في حصار مليلة قبل المرور بسبتة، خاصة وأن رغبة سيدي محمد في استرجاعها كانت بارزة منذ بداية عهده. وتشبث الإسبان بسبتة كبير أيضا، إذ أنها لم تواز أهميتها في نظرهم سوى مدينة وهران.

---

(54) لم نعثر بالأرشيف التاريخي الإسباني سوى على الترجمة الإسبانية لرسالة الغزال، وكان القنصل الإسباني قد بعث الترجمة رفقة النص العربي. وتاريخ الترجمة هو 23 ماي A.H.N. Estado.1773 . L. 4312 . علم لوي شبني بمقابلة الغزال للقنصل الإسباني وبفحوى المحادثات في نفس الأسبوع حسبما جاء في مراسلاته. P. Grillon , *La Correspondance* 1/310.

(55) Vicente Rodrigues Casado , *Politica Marroqui de Carlos 3*. p. 191.

(56) هذا هو ما أكده رامون لوريدو ديات في بحثه: *El Sultanato de Sidi Mohammad B. Abdellah*, C.B.E.T. 1972.

(57) بتاريخ 22 ربيع الأول 1187 /14 يونيه 1773. A.H.N. Estado L. 4312

أما مليلة المعدودة من ضمن الحصون الصغرى فقد سبقت الإشارة إلى نظر الحكومات في شأن التخلي عنها لصالح سبتة، سيما وأن احتمال التخلي عنها كان قد تجدد سنة 1773. ولما كانت مراسلات الغزال تشير صراحة إلى عزم المغرب على حصار سبتة فإن الشك لم يخامر ذهن الإسبان في كونها المدينة المقصودة.

انشغل بال الإسبان منذ أن علموا بالقرار المغربي بالحصول على المزيد من التأكيدات ومحاولة إيجاد وسيلة إقناع السلطان بالعدول عن قراره، استنادا إلى الصلح المنعقد بين الدولتين. نعلم هذا من المراسلات المتبادلة خلال صيف وخريف سنة 1774 بين أحمد الغزال ورئيس الحكومة الإسبانية[58]. ففي شهر يوليوز السنة ورد جواب الحكومة الإسبانية الموجه إلى سيدي محمد[59].

وإذا كنا نجهل النص الأصلي الذي حملته المراسلة، فإننا وجدنا بعض أصدائه في رسالتين للغزال وثالثة لرئيس الحكومة الإسبانية. فمن رسالتي الغزال نعلم أن جواب الحكومة الصادر في حق العاهل المغربي كان غير مناسب وخارج عن اللياقة الدبلوماسية. أما مراسلة رئيس الحكومة فتحمل توضيحات أكثر، إذ أنها بررت استعماله تلك اللهجة لاحتمال حصار السلطان للحصون ترضية فقط للمستائين من عقد الصلح، وأخيرا فإن كارلوس الثالث " يلح على توصله بالجواب عما إذا كان سيدك قد انتهى إلى إرضاء المستائين بغير وسيلة حصار سبتة، فبدون ذلك لا يرى أي معنى لصلح دائم"[60].وإذا كانت مسألة سبتة هي التي عبقت الجو السياسي السائد بين المغرب وإسبانيا في الظاهر بين 1767 و 1774 فإن مدينة مليلة التي أعد لها كل شيء في الخفاء لم تذكر خلال تلك المدة سوى مرتين:

---

(58) سأل كريمالضي في إحداها عن مدى نية السلطان الاستجابة لضغط العلماء في أمر سبتة وأجاب الغزال مطمئنا على أن المهادنة والصلح باقيان. الغزال إلى كريمالضي 20 شعبان 1187/7 نوفمبر 1773 A.H.N. Estado L. 4312..

(59) لم نتوصل إلى العثور بالأرشيف التاريخي على نسخة الرسالة.

(60) رسالة كريمالضي إلى الغزال: 14 نوفمبر1773. A.H.N. Estado L.4318

أولاهما حين أحال الباردو الإسباني على الوزارة عدة شكايات منددة بالهجومات القلعية على المدينة مطالبا فتح الحوار في شأنها مع المغاربة(61)، وثانيهما حين أجاب أحمد الغزال رئيس الحكومة الإسبانية عن تلك الشكايات بقوله: "ومليلة لا فائدة في الكلام عليها في هذا الوقت وهذا ما ظهر لي، والذي نعرفه صوابا إنا نقول أن يفعله القونصو والذي ليس فيه صواب نرده"(62). ففي سنة 1773/1187 لم يكن الوقت قد حان بعد للفصل في القضية الوطنية التي تقمصتها مدينة مليلة، وكان من الصواب على سيدي محمد تقديم الجواب النهائي في شهر شتمبر من السنة الموالية حين تسلم كارلوس الثالث رسالة إعلان المغرب الحرب على الثغور المحتلة.

البحث عن التضامن: وهناك مسألة أخرى أدمجناها ضمن جهود سيدي محمد بن عبد الله الرامية إلى تعزيز مشروع مليلة، نعني بها البحث عن التضامن الجزائري الذي كان بدوره يعاني من الوجود الإسباني المحتل لمدينة وهران منذ سنة 1508/914. ذلك ما عبرت عنه الوثائق القليلة التي بين أيدينا. ورغم تعثر العلاقات بين البلدين المغربي والجزائري على المستوى الرسمي خلال الفترة السابقة لعهد سيدي محمد، فإن تشابه ظرفي مليلة ووهران حتم عليهما إيجاد أرضية يتم على أساسها السعي لتحقيق التضامن بفضل ما بين الثغرين من التقارب الجغرافي(63).

وبحثا عن بدء العلاقات وجدنا أولياتها متصلة بسنة 1770، متزامنة مع انطلاق مشروع مليلة. افتتح سيدي محمد أول اتصال مباشر مع داي ناحية

---

(61) 2 ماي 1773 /10 صفر 1187. A.H.N. Estado L. 4312 /2

(62) أوائل ربيع الأول 24/1187 ماي 1773. **المصدر السابق**. المحفظة 1.

(63) كان سيدي محمد ما بين 1767 و 1770 قد تخلى عن دور الوساطة الذي تطوع له لإصلاح توتر العلاقات القائمة بين الجزائر وإسبانيا القائم بسبب القرصنة، نتيجة عدم التزام الجزائريين بشروط الاتفاقات، بعد سعيه الجاد لتبادل الأسرى بين الجانبين
R.Lourido Diaz , *El sultanato de Sidi Mohamad B. Abdellah* , C.H.I. p. 131
Relaciones del Alaoui Sidi Mohamad B. Abdellah con el Imperio Turco , C.B.E.T. 1981 p. 340

معسكر وحاكم تلمسان حين اقترب من الحدود الجزائرية بعد أوبته أواخر أكتوبر السنة من تفقد ميدان مليلة[64].

لا نعرف كثيرا عن هذا اللقاء الذي لم تضف إليه مراسلة قنصلية الإسبان بالعرائش بعد التأكيد على حدوث شيء ما أثناءه. ولكننا استطعنا بالمنقول من مراسلات ما بعد فشل حصار مليلة تكوين فكرة عن فحوى تلك العلاقات.

وحسب اعتقادنا أن الطرفين المغربي والجزائري كانا على وفاق أولي من محاصرة كل من مدينتي مليلة ووهران في آن وحد، على أساس قيام داي معسكر وحاكم تلمسان بتقديم المساعدات البرية لميدان مليلة، بينما يقوم سيدي محمد بإمداد وهران بالمساعدات من جهة البحر. ومن شأن تلك الجهود توزيع القوى الحربية الإسبانية بين الثغرين المحاصرين.

وبتمحيص هذا الاتفاق نرى أن سيدي محمد لم يكن ير مانعا من دخول القوات الجزائرية إلى التراب المغربي، وكان على الطرف الجزائري قبول تدخل القوات البحرية المغربية فقط.

ويكمن في ثنايا هذا الاتفاق بعض الخلاف الذي برز قبيل الحصار المغربي لمليلة وبعده بسبب تحمس أهل الجزائر الغربية المجاورين لمدينة وهران، سيما علماءها لمشروع استرجاع الثغور المحتلة أكثر مما عبر عنه الداي حاكم مدينة معسكر[65]. والظاهر أن الاتفاق ظل قائما بين الطرفين خلال سنوات

---

(64) لإبعاد تلك الشكوك كلف السلطان كاتبه صامويل سومبل بمراسلة كالوس الثالث مبينا غاية اقترابه من الحدود الجزائرية: "يتابع سيدي حركته نحو حدود الإيالة الجزائرية، اعتبارا لطاعة جميع تلك النواحي لسيدي". A.H.N. Estado, L. 4311

(65) ذكر لوي شينيي أن السلطان راسل باي تونس وداي الجزائر يحثهما فيها على العمل لاعلاء كلمة الإسلام بقبول فكرة حصار وهران ومليلة في نفس الوقت. P. Grillon, *La Correspondance* 1/307. رسالتا 12 ماي 1773، ورسالة جرج كوياسوس، نائب القنصل البرتغالي بتاريخ 27 مارس 1775.

1770 و 1774 بصورة من الصور. غير أن قراءة الوثائق أشعرتنا بحدوث شيء ما في سير تلك العلاقات منذ خريف السنة الأخيرة[66].

لم يفقد سيدي محمد كل الأمل للتوصل بالإمدادات الجزائرية حتى أثناء وصوله إلى تازا في رمضان 1188، يوليوز- غشت 1774، فمن هناك راسل في مستهل نوفمبر كلا من داي معسكر وحاكم تلمسان يطالبهما الوفاء بما تم الاتفاق عليه، ويظهر جواب حاكم تلمسان بطرد وفد السلطان وجوابه العنيف. وسيتضح موقف داي معسكر النهائي من مراسلة وهران يوم 17 نوفمبر[67].

ففي ذلك اليوم حل الوفد السلطاني المكون من ثلاثين فارسا، فحينما قدمت الرسالة السلطانية لداي معسكر سارع إلى تمزيقها قبل الاهتمام بما جاء فيها وحسب وهران فإن الداي خاطب السلطان في اليوم الأول من الحصار المغربي لمليلة يوم 9 ديسمبر 1774 بقوله:

"إنك إذا حاولت الهجوم على وهران من جهة البر فإنني سأمنعك من دخول بلادي أو أقهر دون ذلك. وإذا قدمت لحصار المدينة بحرا فإنني سأقوم بضربها من جهة البر"[68].

وإشارة حاكم معسكر إلى دخول الجيش المغربي أرض الجزائر مثيرة للتساؤل ومصدر الالتباس في الاتفاق. فالظاهر أن داي معسكر تخوف فعلا من دخول الجيش المغربي إلى ناحية وهران بعد الاتصالات التي تمت قبل ربيع

---

(66) رسالة إعلان الحصار من سيدي محمد إلى كالوس الثالث تقول: "..إذا قدم أهل الجزائر لمؤازرتنا في الحرب فذاك، وإذا تخلفوا عن الحضور ونقضوا ما سبق أن طلبوه فإننا سنخلط بعضهم ببعض وسنتوجه لحربهم إلى أن يقضي الله بيننا". 15 رجب 21/1188 شتمبر 1774 و 19 أكتوبر 1774. A.H.N.Estado. L. 4309

(67) نجمل صدى الجواب التلمساني في الخبر الوارد من وهران برفض الإيالة التركية الإنضمام إلى المغرب: مراسلة وهران يوم 24 ديسمبر 1774 A.G.S. Noticias y Confidencias L.18/520. وأخرى بتاريخ 12 نوفمبر 1774.

(68) Pedro Martin Cermenio , *Diario de Oran* , 24 Diciembre 1774. A.G.S. Secretaria de Guerra. L. 520. Fol. 18.

الثاني 1187/ يونيه 1773 ببني عامر، سكان حوز وهران الذين لم يكتفوا بطلب المساعدة على محنتهم ضد الغارات الإسبانية،[69]. بل لكونهم ذهبوا بعيدا حين وعدوا بالخضوع للسلطان إذا تم تحرير المدينة من دون أن يتلقوا الاستجابة من سيدي محمد، ومن ذلك نفهم سبب رفض داي معسكر تدخل القوات البرية والبحرية معا[70]. انتهت مناورات معسكر وتلمسان بحشد قواتهما على الحدود المغربية ليس فقط لمنع كل تقدم مغربي نحو وهران، بل لمنع الجزائريين من العبور إلى قلعية وحضور الحصار إلى جانب سيدي محمد. ومع ذلك فقد تمكن أحد المرابطين من التسرب بجماعة صغيرة مختصة في المدفعية للمشاركة في الحصار. وهي الجماعة التي نعلم بتعرضها للعقاب بعد رفع الحصار من طرف حاكم تلمسان وداي مدينة معسكر[71].

إعلان الحرب على الثغور[72]

يشيد الكثير من المؤرخين الأجانب بخصائص شخصية سيدي محمد بن عبد الله وبروح تفتحه على العالم الأوربي، ولكنهم حينما يتطرقون إلى الحديث عن مجهوداته المبذولة في سبيل الوحدة الترابية يشار إليه بالاتهامات التي تجعل منه متعصبا لدينه معاديا للمسيحية[73].

---

(69) تقول مراسلة 22 ربيع الأول 1187: "فنطلب من سيدنا أن يمدنا بجيش، فإذا فتح الله فالبلاد بلاده، وإن كانت في بلادنا فأهل وهران يضربون بخيلهم على دواوير ويأخذون الإسلام وقد بنوا ببلادنا كثيرا من الأبراج".

(70) رسالة أحمد الغزال في 22 ربيع الأول 1187. A.H.N. Estado, L. 4312

(71) أنظر المذكرة المحررة بالفرنسية على يد كاتب سيدي محمد صامويل سومبل بميدان مليلة يوم فاتح مارس 1775. P. Grillon , *La Correspondance* , t. 1, pp 337-339

(72) تم نشر النص الإسباني للإعلان المغربي عن حصار الثغور أول مرة بالعدد الخاص الذي خصصته له كازيطا مدريد *Gazeta de Madrid*، يوم الثلاثاء 3 يناير 1775. A.H.N. Estado L. 4347-48/2 وهي التي قدمها صامويل سومبل ربما في 9 أكتوبر 1774 برفقة محمد عاشر عامل تطوان. رسالة سبتة بتاريخ 12 أكتوبر 1774 A.H.N. Estado, L. 4309/1

(73) R. Lourido Diaz , « El Sultanato de Sidi Mohamad B. Abdellah », C.H.I. 2/1972

وهذا هو الخطأ الذي كثيرا ما يقع فيه الأجانب تجاهلا حينما يفسرون كل الأعمال الوطنية المناهضة للوجود الأجنبي ببلادنا بالتعصب الديني، ويفهمون مدلول الجهاد بمعاني غير الدالة على الدفاع عن القومية والوطن المغربيين. فحينما طالب سيدي محمد الإسبان بحقه في السيادة على التراب الوطني لم يفعل ذلك بروح عدائية للمسيحية أو للوطن الإسباني، وحتى أثناء وجوده طوال ثلاثة أشهر بالقرب من أسوار مليلة. وفي الوقت الذي أعلن فيه الحرب على الثغور المحتلة باسم الدين، فإنه فعل ذلك لكونه قانون دولة إسلامية وليس بصفته سلاحا مسلطا على المسيحية.

هذه السمات البعيدة كل البعد عن التعصب الديني هي الميزة الأساسية التي تطبع رسالة سيدي محمد إلى كارلوس الثالث الحاملة لإعلان الحرب الوطنية على المراكز المحتلة بدءا بنقض الصلح. لم تختلف دواعي إعلان الحرب المبينة بالمراسلة عما ردده عدد من الرسائل المخزنية المذكورة سابقا حسبما يمليه إجماع الشعور الوطني(74):

"أجمع المسلمون الذين بإيالتنا المباركة ومن الجزائر(75)، على القول إنه لا يجوز لهم شرعا أن يسمحوا ببقاء مسيحي واحد بسواحل الإيالتين من سبتة إلى وهران، ولن يهدأ لهم بال إلا إذا تم لهم ما أرادوه، ومن أجل ذلك طلبوا منا أن نهتم بهذا الأمر.. قائلين لنا لا حجة لك بالإحجام ما دامت بلاد الإسلام في أيدي المسيحيين، فإن الله وهب لك القوة وآلة الحرب مما لم يهبه لغيرك."

لم يقتصر موقف السلطان سيدي محمد بن عبد الله على إخبار البلاط الإسباني وحده بالتطور الجديد الحاصل في العلاقات القائمة بين البلدين، بل اختار السير على التقليد الدبلوماسي الجاري آنذاك، حين أذاع الخبر بواسطة

---

(74) لم يتيسر لنا العثور على مراسلة سيدي محمد المعلنة للحرب. وتوجد ترجمة إسبانية لها بتاريخ 15 رجب 1188 /21 شتمبر 1774، ملحقة بجواب كارلوس الثالث المؤرخ في 23 أكتوبر 1774.

(75) المراد علماء الجزائر المستائين بدورهم من الصلح مع الإسبان.

مذكرة إخبارية دورية تم توزيعها على ممثلي الدول الأوربية، كلف بتحريرها كاتبه صامويل سومبل منها:

".. ليس هناك من داع لإعلان الحرب سوى حماية حقنا وللملك إسبانيا أن يدافع عن حقه أيضا.. وأما المدن التي بساحل بلادنا، ويزعم ملك إسبانيا أنها من أملاكه فهي ليست له ولا لنا، بل هي للواحد القهار الذي سيهبها لمن شاء منا"[76].

لم يغب عن سيدي محمد مراعاة العمل بالشرط السابع عشر من اتفاق الصلح حين نص على دواعي نقض الصلح، فقد جاء في إعلان الحرب:

"نمهلكم أربعة أشهر ليصل الخبر إلى الجميع، وما اتفقنا عليه من رجوع كل شخص إلى بلده نبقي عليه وليست لنا أي حجة على نقضه".

يثير نص الإعلان مسألة كانت عقدة الخلاف بين المغرب وإسبانيا: الحرب البرية والهدنة البحرية، أثبتها عقد الصلح في الشرط الأول بالعبارة العربية التالية: أن يكون هذا الصلح موفر الشروط المعتبرة في المهادنة من الأمن والأمان برا وبحرا، والصلح على التأبيد.

ليس من السهل التأكد من اطلاع سيدي محمد بنفسه على تلك الفقرة الأولى والتعرف على المدلول السياسي الصحيح والصورة التي كان في ذهنه عنها مثلما ورد في النص، خصوصا عند التأمل في عبارة الصلح في البر والبحر. وما نحن متأكدون منه أن السلطان قد فهم من الصلح في البر شيئا آخر مما كان الإسبان قد دسوه في جملة قصيرة.

لم يكن سيدي محمد يتصور في يوم من الأيام أن الاتفاق سيقف بينه وبين محاولة انتزاع حقه من الإسبان وكان على وعي تام أن سيأتي ذلك اليوم الذي تجند فيه جميع الإمكانات الوطنية لتحريرها، وذلك منذ ما قبل افتتاح الصداقة مع إسبانيا[77].

---

(76) بتاريخ 17 رمضان 22/1188 نوفمبر 1774. A.H.N. Estado, L. 4318

(77) V R.Casado , *Politica Marroqui* ; R.Lourido Diaz , « Estrategia militar », R.H.M. 1974 ; Ignacio Bauer , « Tratado de paz de 1767 »,A.I.E.A. 5/1951.

هناك عدة مواقف للسلطان سيدي محمد تثبت تمسكه بحقه في استرجاع الحصون المحتلة، وقد مر بنا بعضها أثناء بحث مباحثات الهدنة. وأكتفي هنا بتقديم فحوى مراسلة السلطان إلى حاكم سبتة على لسان صامويل سومبل: "يرجو جلالة السلطان من الله أن يعود في يوم من الأيام ذلك الحصن والحصون الأخرى إلى حوز بلاده وبذلك سيحتفظ كل بحدوده. وكل الاعتداءات التي تتعرض لها سبتة ومليلة لن تؤدي إلى نقض الصلح"[78].

اهتدى سيدي محمد إلى الفصل بين الهدنتين البرية والبحرية للخروج بعقدة الفصل الأول من الاتفاق وخدمة مشروعه الوطني، إذ أن الإعلان المغربي عن الحرب يجعل "الحرب في البر دون البحر"، فهو بذلك ينقض الهدنة في البر ويبقي عليها في البحر. وبالطبع ليس هذا تحول جديد في سياسة السلطان وقد علمنا ذلك وسيبقى التعرف على المغزى الحقيقي الذي توخاه السلطان من هذا الفصل.

لا يمكن لنا مسايرة فيسينتي رودريكث كاسادو في أطروحته الخاصة بالموضوع، إذ لا يمكن اعتماد وثيقة إعلان الحرب الإسبانية مصدرا للبث في هذه النقطة، فالوارد فيها من تعابير الاعتزاز بشرف الدولة الإسبانية وعظمة كارلوس الثالث لا يدل على فهم الهدف الحقيقي من الفصل المغربي بين الهدنتين المذكورتين. ولا يمكن فهم الهدف الحقيقي إلا من المراسلات السلطانية فهي الناطقة الوحيدة بحقيقة ذلك الهدف.

اتضح لنا أخيرا أن المقصود من طرف سيدي محمد من الحرب البرية هي برية الحصون المحتلة بصفة عامة والوجود الأجنبي بمليلة بصفة خاصة، وهي الأجزاء الوحيدة التي يمكن لها أن تكون مسرحا لحرب برية بين المغرب وإسبانيا. فما المقصود من الصلح بحرا؟

(78) الرسالة نسخة لا تحمل تاريخا. A.H.N.Estado L.4300، غير أننا نعلم أنه قدمها لحاكم سبتة يوم 9 أكتوبر1774 بمعية محمد عاشر عامل تطوان، وبناء على ذلك يمكن تقريب تاريخ المراسلة. A.H.N. Estado، L. 4312

لا يعني ذلك سوى بسط لواء الهدنة على المدن المغربية الساحلية باستثناء مدن التمركز الإسباني الخارجة عن السيادة الوطنية. هذا هو ما تؤكده المراسلات التي لها اتصال بالموضوع. فالغاية من الاختيار المغربي ترك المجال البحري الخارج عن مياه الثغور المحتلة مفتوحا لضمان أمن المدن الساحلية أولا وعدم تجميد مداخل السوق الإسبانية ثانيا. وهذا مما لم يقبله الإسبان الذين لم يروا في الفصل بين المسألتين جدوى. لنر بعض الحجج على ما نقوله بدءا من وثيقة إعلان الحرب. تنص الوثيقة المغربية على المسألة بالعبارات التالية:

"لا يتعارض إعلان الحرب مع الهدنة معكم في البحر، وستظل حال تجاركم وسفنكم كما كانت عليه من قبل، ويمكن لسفنكم وسق الأقوات وغيرها من أي مرسى شاءت من مراسي بلادنا، حسب المتفق عليه في عقد الصلح في البحر، مثلما عقدناه بين تجارنا وتجاركم. وستكون سفنكم في أمان ورعاياكم يأتون للاتجار بإيالتنا بحرا وبرا دون أن يلحقهم أي ضرر، ولن يعترض سبيلهم أحد لأننا على المهادنة معكم ونحافظ على الصلح ولا ننقضه إلا إذا كان النقض من جانبكم"[79].

وعلى الرغم من أن الإسبان جعلوا الحرب شاملة في البر والبحر فإن سيدي محمد بن عبد الله ظل متمسكا بقرار الهدنة في البحر، وحتى أثناء مرابطته بالميدان أمام مليلة، مذكرا الإسبان في كل مناسبة بقراره قبل بدء حصار مليلة خاصة. ونشير كمثال إلى ما جاء في المذكرة الموجهة إلى ممثلي الدول الأوربية:

"إن ملك إسبانيا هو الذي جعل الحرب شاملة على البحر أيضا، ونحن من جهتنا نصدر أوامرنا الشريفة لجميع خدامنا ألا يمنعوا السفن الإسبانية من وسق الأقوات وغيرها من جميع مراسي إيالتنا"[80].

---

(79) رسالة السلطان إلى كارلوس الثالث: 15 رجب 1188.

(80) سيصدر العاهل الإسباني بتاريخ 22 نوفمبر 1774 قرار منع جميع أنواع الاتجار مع المغرب. A.H.N. Estado, L. 4312

هذا هو التفسير المنطقي الذي ينبغي إحاطة القرار السلطاني به حينما تم الفصل بين الحرب البرية والهدنة البحرية، فهو مجرد عزل منطقة النزاع الفعلي مع المحافظة على أمن المناطق ذات المصالح الاقتصادية المشتركة في بلادنا، سيما وأنها ليس الاتجار بها قصرا على إسبانيا وحدها.

وبالطبع لا يمكن لأحد إنكار أن دعوة السلطان ناتجة أيضا على افتقار الجيش المغربي إلى القوة الحربية البحرية، وأن قرارا من هذا النوع كان ضروريا لحماية المدن المقابلة للساحل الأندلسي.

لماذا وقع الاختيار على مليلة؟

يساعد ما سبق أن أسلفناه على إدراك ما نالته مليلة من ترشيح سيدي محمد لانتشالها من يد الأجنبي، ونتأكد من أن الجهود المبذولة في المجالين الحربي والديبلوماسي لم تكن تهدف إلى سواها. فكل ما رددته المراسلات من التركيز على سبتة كان مجرد استراتيجية ضرورية لضمان نجاح المشروع الوطني. فما هي العناصر الوطنية المساعدة على حصر المشروع على مليلة المحتلة؟

تحصينات مليلة: لم نتمكن من الوقوف على رأي سيدي محمد فيما يخص الحالة الدفاعية التي كانت عليها سنة 1770، ولكننا نفترض أن الانطباع كان مشجعا، وكانت النية ألا يشعر الإسبان بالغاية تلافتا للزيادة في متانة تلك التحصينات وقد وفق في ذلك إلى قدر كبير[81].

والظاهر أن هناك استهانة بتلك التحصينات من طرف المغاربة. فمنذ أن استولى الإسبان على كدية المرسى أو القب (Cerro del Cubo) وحصنوها بالأبراج والخنادق والأسيجة حققت المدينة لنفسها موقعا دفاعيا بالغ الأهمية، وغدا هذا الموقع بمفرده حصنا عتيدا آخر بكل تفاصيله ودقائقه.

واتخذ الإسبان من خطة جهاد الأبراج عبرة كل هجوم منتظر، فأعدوا الخنادق وحصنوا الأبراج والأسيجة وهيأوا حقلا من الألغام في الجهات الأقل

---

(81) R.Lourdo Diaz , « Estrategia Militar », R.H.M 1974, pp. 11. 16.

حصانة ودفاعا[82]. ونجد صدى هذا الاهتمام حتى قبل الإعلان عن حصار الثغور وتوحيد الخطة الاستراتيجية بالنسبة لجميع الحصون من حيث الحراسة والإمدادات ووسائل الدفاع[83]. ويدخل في ضمن تلك الاستعدادات استدعاء المهندس خوان كابايرو من قادس في شتمبر 1774، وهو بدون شك صاحب الترتيبات الدفاعية التي سنلاحظها وقت الحصار، وأخيرا تم تعيين حاكم عام للمدينة في أكتوبر السنة مما لا يدع مجالا للشك أن مليلة استعدت لجميع الاحتمالات[84].

الاعتماد على خطة جهاد الأبراج: ومما ساعد المغاربة على الاستهانة بالتحصينات وجود وسط جغرافي محيط بالمدينة ملائم للعمليات الهجومية المغربية، متمثل في التلال الشمالية المشرفة عليها وقد وقفنا على أهميتها فيما سبق. وسيتولى تنفيذ عمليات حفر الخنادق الباطنية القائد عمر بن عمر القيطوني أعتمادا على تقاليد أسرته مما تعرفنا عليه سابقا، مما سنقف عليه لاحقا.

حصار قصير الأمد: ربما كانت الفكرة التي تكونت لدى السلطان وقواده الحربيين عن قصر مدة الحصار ناتجة أساسا عن الاستهانة بضعف الحامية والتحصينات وخطة جهاد الأبراج، مما كان مقدرا أن يؤدي إلى استسلام المدينة خلال ثلاثة أيام. ومتزعم فكرة الحصار القصير قدمه لنا خوان كابايرو وفرانسيسكو دي ميراندا في يومياتهما باسم سيدي Botey بالنسبة للأول وسيدي Botty حسب الثاني. وهو ما يمكن رده إلى بطي أو بطيب أو بطوي. وهو من رجال الريف الشرقي على ما يظهر ومن قواد الجيش البارزين[85].

---

(82) ينبغي للتأكد قراءة رسم خوان كابايرو الخاص بالأنفاق والخنادق ورسم فرانسيسكو دي ميراندا المبيز لتحصينات مليلة، وهما مدرجان ضمن هذا العمل.

(83) مراسلة 3 يونيه 1774 A.G.S. Secretaria de Guerra, L. 534 - Fol. 1.

(84) رسالة 19 أكتوبر 1774 A.G.S. Secretaria de Guerra, L. 532 Fol. 19.

(85) ح. الفكيكي، **سيدي محمد بن عبد الله وقضية مليلة المحتلة**، الرباط. 1996. ص. 75.

احتفظ سيدي محمد بجوهر الغاية من مشروعه إلى اللحظات الأخيرة ففي سبيل ذلك الكتمان تحايل السلطان لإبعاد القنصل الإسباني طوماس بريموند من المغرب حينما كلفه بمراسلة شخصية موجهة إلى العاهل الإسباني في وقت كانت الاستعدادات الوطنية الأخيرة جارية بمكناس ليخبره فيها بالغاية من اتجاهه نحو الشرق، يقول له فيها في مستهل صيف 1774:

"اشتكت رعيتنا من أهل جوار الإيالة الجزائرية من تعسف تلك الإيالة حين توجهت قوات المخزن لجمع المغارم من تلك التخوم، وبلغ الحد ببعض أهلها إلى الاعتداء على نساء وبنات المسلمين، فطلبوا منا التوجه لنجدتهم خلال أجل لا يتجاوز ست سنوات لعقاب الفاعلين وطردهم من تلك البلاد وأخذ بلادهم. ومن أجل ذلك أستعد للحركة"[86].

تحصينات مليلة في منتصف القرن الثامن عشر: هناك رسالة موجهة من نائب القنصل الإسباني بتطوان إلى رئيس الحكومة بتاريخ 20 شتمبر 1774، أي قبل تاريخ إعلان نقض الهدنة بيوم واحد فقط تقول: "أعلن السلطان لرجاله جهارا أن كل شيء على أتم الأهبة لحصار مليلة." وعلق النائب قائلا: "إن الخبر يوافق الأمر الذي تلقاه ابن وليد (Ibn Oualid) آنذاك بسلا يأذن له فيه بالزحف نحو مكناس. ومن المؤكد أن السلطان سيتوجه إلى فاس وهو الطريق السالك إلى ذلك الحصن، علاوة على خروج قرصان سلا برفقة أحد الرياس إلى نفس المدينة"[87].

الخبر واضح المعنى ولكن أثره كان قصيرا في أذهان رجال الحكومة لأسباب نجهلها. غير أننا نجد النائب القنصلي يكتب بعد خمسة عشر يوما فقط أخبارا متضاربة عن اتجاه الجيش المغربي مشيرا إلى وهران مرة وإلى الجزائر وتونس مرة أخرى، ليعلن في الأخير أن ليست هناك حقيقة ثابتة لما يسمع في البلاد، سوى أن تحركات الجيش توحي بأن بداية الزحف ستكون قريبا[88].

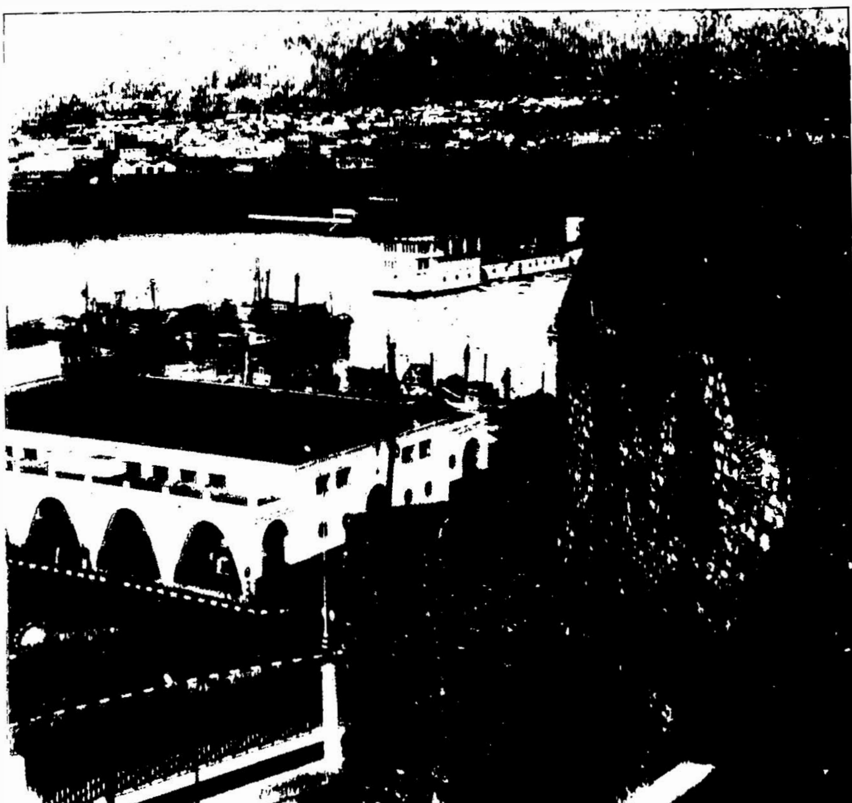
---

(86) مراسلة العرائش: 29 يونيه 1774.

(87) A.H.N. Estado, L. 4312.

(88) رسالته يوم 5 أكتوبر 1774، A.H.N. Estado, L. 4319

وتوصلت الحكومة بنبإ آخر يخبرها بتوجه السلطان نحو مليلة في 8 أكتوبر[89]. ولم تتوصل الحكومة بإنذار آخر إلا في نوفمبر السنة حسبما جاءها من القنصل الإسباني بباريس يشير فيها على حكومة بلاده أن تكون على حذر من احتمال توجه السلطان بجيوشه نحو مليلة أو حجرة النكور لضعف حامية المركزين[90].



حصن مليلة ، جانب من السور الغربي

---

(89) A.H.N. Estado . L. 4309/2 .

(90) 12 نوفمبر 1774، Danvila y Collado . *Historia General de Hispaña*. p.181

(3)

الجيـش المغربـي بميـدان مليلـة

تبدو لنا أولى تحركات السلطان لتحقيق مشروعه من الوجهة الحربيـة في وضع ترتيب لجمع القوات. هذا ما ظهر أثناء جولته بالرباط وسلا وانتقاله إلى مكناس في يونيه 1774 رفقة عامل سلا، ومن هناك بدأ باستدعاء كل من باشـا طنجة والعرائـش والقصـر الكبـير، وشـرع في اسـتدعاء أهـل الريـف والقبـائل الأخرى[91]. وكان قد بعث ممن نعلمه فقط المدعـو القـائد مـرزوق (Meffezux) الذي لم نتمكن من استكمال التعريف به إلى بنـي تـوزيـن مـنــذ 27 رمضـان/1 ديسـمـبر لجمع الرجال والتحاقه بميدان مليلة[92].

ففي بداية شهر أكتوبر سنة 1774 كانت البلاد جذوة متقدة من الحماس الوطني ومحمد بن عبد الله ما يزال بمكنـاس يكـاتب المنـاطق الشـمالية خاصـة ليحثهم على جمع الرجال والذخائر الحربية ونقلهـا إلى مقر إقامتـه مثلمـا فعـل أهل الـغـرب بـقـيـادة بـاشـا الـنـاحـيــة الهـاشمي السـفياني الـذي جـاء بنحـو 1000 من رجاله[93].

وانشغل المولى عبد السلام بجمع الرجال من سلا والرباط بعد أن كتـب لأهل المدينتـين يبعثـون إليـه البحريـة والطبجيـة والبونبجيـة والريـاس، وقدمـوا بالمهاريس والأنفاض[94]، كما طلب من حاكم طنجة ابن عبد الصادق الريفـي

---

(91) رسالة سلا في 20 يونيه A.HN. Estado L. 4309/2.1774

(92) A.G.S. Estado . Secretaria de Guerra , L. 531. Fol, 74.

(93) من تطوان يوم 20 شتمبر سـنة 1774. A.H.N. Estado L. 4312 ورسـالة سبتة في 21 أكتوبر A.G.S. Secretaria de Guerra , L. 521. Fol, 1.1774 محمـد الضعيـف، **تاريخه**، ص. 164.

(94) محمد الضعيف الرباطي، **تاريخه**، ص. 178.

إخباره بالإمكانات المتوفرة لديه على يد رئيس المدفعية[95]. بينما تكلف باشا دكالة محمد بن أحمد بجمع نحو ثلاثة آلاف رأس من الجمال لاستخدامها في نقل المواد الغذائية. وضرب موعد لوصول الذخائر الحربية بيوم 30 أكتوبر[96].

توجت جميع تلك الاستعدادات بعقد اجتماع حربي يوم 29 رجب عام 5/1188 أكتوبر 1774 بحضور أولئك الذين سيرافقون السلطان إلى ميدان مليلة[97]. وسيقضي سيدي محمد شهر نوفمبر بمكناس لتحضير زحفه نحو فاس فتازا[98]. وكان ولي العهد المولى علي وأخوته الأمراء كثيري التحرك من جهة إلى أخرى، وفي بداية نوفمبر كانوا قد توجهوا إلى تازا لتحضير استقبال القوات المعبأة[99]. وفي 15 منه كان ولي العهد قد تجاوز تازا لينتقل إلى بني توزين، حيث وجد المولى هشام مرابطا بأولاد بكار(Uledbacar) ومعه ثلاثون ألفا من الرجال ومن ورائهم رجال قبيلة الحياينة (Lajaina) المكلفون بجر قوافل المهاريس والمدافع تحت نظر المولى المامون والقائد القسطالي ومحمد بن أحمد باشا دكالة وقدور بن الخضر أو بن الفاضل أو الخضر.(Jadur Belfader)[100].

وبمجموع القوات البرية زحف الجيش المغربي نحو فاس التي كان بها يوم 17 رمضان/21 نوفمبر، ثم نحو تازا وبها قضى السلطان الأسبوع الأخير من شهر رمضان بعد أن حل بها يوم 21 منه[101]. لن نتمكن من تقديم الأرقام المضبوطة عن تلك القوات، فهي في تقدير لوي شيني خمسة عشر ألف

---

(95) رسالة 26 أكتوبر 1774. A.G.S. Secretaria de Guerra , L. 521. Fol, 4

(96) مراسلة قادس في 24 أكتوبر 1774. A.H.N. Estado L. 4309/1. وعن الباشا أنظر الضعيف الرباطي **تاريخه**، ص. 176 تح. العماري.

(97) مراسلة نائب القنصل الإسباني بتاريخ 5 أكتوبر 1774. A.H.N. Estado L. 4319

(98) A.G.S. Secretaria de Guerra , L. 526

(99) العرائش، 9 نوفمبر 1774. A.H.N. Estado. L. 4309

(100) مراسلة صخرة بادس في 9 ديسمبر **1774**. A.G.S. Secretaria de Guerra. L.527 A.G.S. Secritaria de Guerra , L. 531 , Fol. 68 .74

(101) ذكرت رسالة صخرة بادس بتاريخ 9 ديسمبر **1774** أن السلطان حل بتازا يوم 25 نوفمبر الموافق ليوم 21 رمضان. A.G.S. Secretaria de Guerra, L. 527.

جندي، بينما جعلها خوان كابايرو ثلاثين ألف جندي، ورفعها فرانسيسكو دي ميراندا إلى أربعين ألف جندي. والعدد المتراوح بين تقديرات كل من كاباييرو وميراندا هو الذي نعتمده لكونهما شاهدي عيان للحصار المغربي[102].

ويدخل ضمن هذا العدد من الفرسان المقدر بنحو ثمانية آلاف فارس من القوات المخزنية، علاوة على عدد آخر مماثل من الحصص المشاركة من مختلف القبائل والجهات. وربما نصادف جانبا من التأكيد أثناء تقدير عدد المدافع والمهاريس المنقولة إلى الميدان، إذ أننا نعلم من كاباييرو وميراندا أن القطع المدفعية المتجاوزة لسبع عشرة قطعة، وفاق عدد المهاريس سبعا وعشرين وحدة[103].

الزحف نحو مليلة

تحرك موكب سيدي محمد بتلك القوات من مدينة تازا في أوائل شوال 1188/أوائل ديسمبر 1774 موقنا بعدالة مشروعه وبعزمه الأكيد لفك أسر مليلة وقبل مغادرته مدينة تازا كتب لصهره عبد الله الرحماني عامل الرباط[104]. يخبره قائلا:

"أرحل عن تازا قاصدا مليلة، وفي العاشر من هذا الشهر أكون بحول الله قد وصلت إليها.. لنسترد من إسبانيا جميع حقوقنا"[105].

(102) أنظر كتابنا: **سيدي محمد بن عبد الله وقضية مليلة المحتلة**. صص. 14. 15. الرباط .1996

(103) **يومية كاباييرو**، يوم 19 مارس 1775، ص.164؛ ح. الفكيكي، **سيدي محمد بن عبد الله وقضية مليلة المحتلة**، ص. 25.

(104) ولي على الرباط في آخر ذي القعدة 1178/أواخر ماي 1765. محمد الضعيف الرباطي، **تاريخه**، ص. 178

(105) مراسلة نائب القنصل الإسباني من تطوان بتاريخ 5 أكتوبر 1774 السابقة الذكر. L. Chénier . *Recherches Historiques* 3/491

ونستطيع تقديم إيضاحات أكثر عن تحركات الجيش المغربي وهو في طريقه إلى قلعية ومليلة، فقد أخبرت مراسلة من مليلة يوم 6 ديسمبر أنه يوجد على بعد خمسة فراسخ [106]، أي نحو ثمانية وعشرين كيلومترا، مما يوافق آخر أراضي بني بويحيي [107]، ثم حددت مراسلة تالية في يوم 8 أنه يوجد على بعد أربعة فراسخ فقط، أي نحو ثلاثة وعشرين كيلومترا، مما يوافق موقع قصبة سلوان [108]. وبالفعل فقد حل الجيش المغربي بقلعية في 4 شوال عام 1188/ 8ديسمبر سنة 1774 [109].

الحصار ومراحله

لم يكن من المتوقع بالنسبة لسيدي أن يعود الجيش المغربي من ميدان مليلة بنتيجة سلبية بعد جهود واستعدادات وترتيبات دامت عدة سنوات، إذ أن الاعتقاد السائد آنذاك أن كارلوس الثالث سيقرر التخلي عن المدينة بمجرد البدء في حصارها. وهذا هو ما لم يحدث مثلما تصور سيدي محمد بعد مرابطة ثمانية وتسعين يوما [110]. فما هي مداركنا عن هذا العمل الوطني؟

أعددنا لاستجلاء مراحل الحصار المغربي عددا من المصادر لا يستهان به وسنقتصر على إبراز المراحل الدالة على الإستراتيجية الحربية المغربية المتبعة من جانب الجيش المغربي بالقدر الكافي الدال على دواعي التخلي عن متابعة الحصار، مستندين إلى مصدرين أساسيين معاصرين للحصار، صاحباهما شاهدا عيان لجميع المراحل [111].

---

(106) يساوي الفرسخ الإسباني ما يعادل 5.572 مترا.

(107) A.H.N. Estado , L. 4309/2.

(108) AHN. L. 4309/1.

(109) محمد الضعيف الرباطي، **تاريخه** ص. 178؛ **يومية** خوان كاباييرو، ص.71؛ Miranda, *Diario* , p. 33؛ مليلة 10 ديسمبر 1774، A.H.N. Estado , L. 4309/1

(110) L Cheniér , *Recherches Historiques sur les Maures* 3/519.

(111) أدرجنا مجموع المصادر الخاصة بالحصار المغربي في كتابنا **سيدي محمد بن عبد الله وقضية مليلة المحتلة**، الرباط 1996، ص. 11.

أولهما خوان كابايرو(Juan Caballero) مهندس حربي سبق أن انتدبته الحكومة من قادس إلى مليلة سنة 1772 لدراسة تحصينات المدينة، وكلف في شهر شتمبر 1774 في مهمة مماثلة. حل بمرسى مليلة يوم 29 ديسمبرسنة 1774. ومن هناك كلف بمقاومة محاولات المغاربة ضد الأبراج عن طريق الأنفاق والخنادق وقد دأب خلال تلك المدة على تسجيل عمليات الحصار اليومية وإرسالها إلى وزير الحربية، قمنا بترجمتها إلى اللغة العربية أخيرا[112].

أما فرانسيسكو دي ميراندا (Francisco de Miranda) الفينيزويلي الأصل فقد انتهى به المطاف عام 1772 إلى إسبانيا وانخرط في سلك المشاة بفرقة برينسيسا (Princesa) برتبة قبطان وجيء به ضمن الإغاثة العسكرية الأولى الواصلة إلى مليلة يوم 30 ديسمبر 1774 برفقة خوان كابايرو. وبمليلة سجل مذكراته عن الحصار مما يشبه مذكرات خوان كابايرو[113].

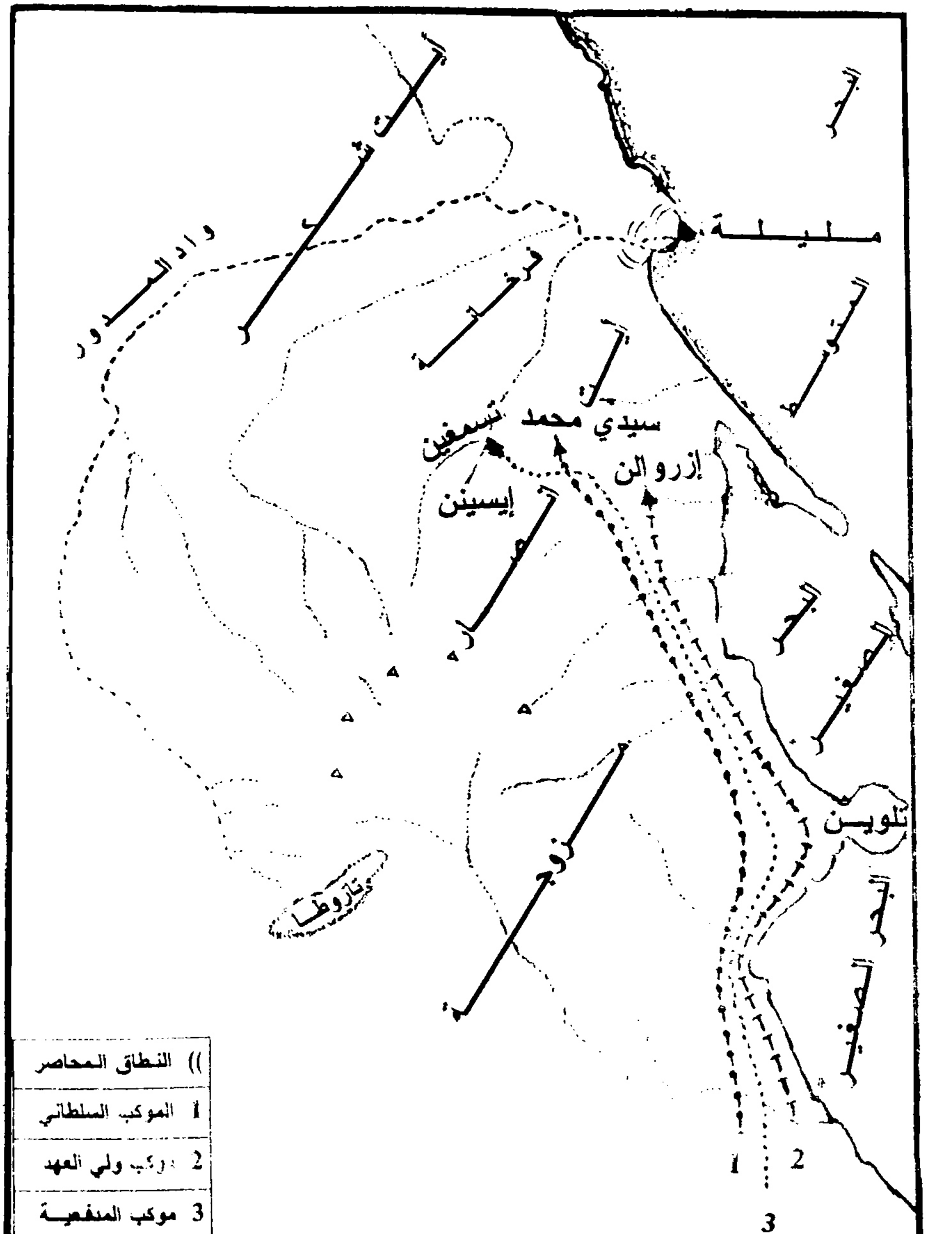
وإلى جانب المصدرين أعددنا مجموعة أخرى مكونة من وثائق الأرشيف الوطني بمدريد والأرشيف العام بسيمنكاس مشفوعة بالرسوم المعاصرة المساعدة على فهم ترتيبات الحصار خلال مختلف مراحله، سيما ما تعلق بعمليات الأنفاق والخنادق.

دخل سيدي محمد إلى سهب بوعرك وقضى ليلته بقصبة سلوان يوم 4 شوال عام 8/1188 ديسمبر 1774. وأطل الجيش في اليوم الموالي على مدينة مليلة من ممر تاليوين، ابتداء من الساعة الثانية عشرة زوالا مرتبا على ثلاث مجموعات[114]:

(112) اختار لها العنوان المترجم: **يومية الدفاع عن هذا الحصن منذ أن تمت معاينة حلول الجيش المحاصر بحوزه المجاور يوم 9 ديسمبر 1774 استعدادا لمنازلته تحت إمرة وقيادة سلطان المغرب.**

(113) عنوان يوميته المترجم: **يومية الهجوم والدفاع عن حصن ميلييا ضد جيش سلطان المغرب وبقيادته من يوم 9 ديسمبر 1774.**

(114) الممر الوحيد الرابط بين سهب بوعرك وبني انصار، دعاه الإسبان منذ القرن السادس عشر تحريفا باسم Talayon. عن الاسم أنظر ما كتبناه **بمعلمة المغرب**، 2168/7.



المجال الجغرافي الذي عسكر فيه الجيش المغربي

ـ سلكت المجموعة الأولى بقيادة السلطان سيدي محمد أعلى الجانب الأيمن من ممر تاليوين بمقربة من الموضع المعروف في الوثائق الإسبانية بدار العلج (Casa del Renegado)، وسار خلف ركب السلطان عدد من الرجال متراوح بين ستة آلاف وثمانية آلاف أغلبهم من الفرسان، إلى جانب عدد من ألوية القواد من ضمنهم القائدان عمر بن عمر القيطوني وسيدي بوطيب.

ـ المجموعة الثانية التي قادها ولي العهد المولى علي، سلكت الجهة اليسرى من الممر مما يلي ساحل السبخة.

ـ سلكت المجموعة الثالثة بالقسم الأوسط من الممر متأخرة بعض الشيء يسير على رأسها كل من الأميرين المولى عبد السلام والمولى المامون، وبرفقتهما باشا دكالة محمد بن أحمد. جرت المجموعة وراءها قافلة المهاريس والمدافع[115].

مرت المجموعات الثلاث بهذا النظام أمام مدشر إذواين المقابل لسيدي موسى ثم بإوهذانن مما يواجه قصبة رتابة بني انصار، ومن هناك تم الصعود عبر كدية أولاد سالم العثامنة وأولاد العربي لتقع أنظار الجميع على بعد خمسة كيلومترات فقط من عمران المدينة المحتلة منذ أكثر من القرنين والنصف[116].

شرعت فرق الجيش ابتداء من الوصول إلى أولاد سالم في اختيار محلات التخييم والمواقع الحربية. ولفهم محطاتها استعنا بالرسوم التي أعدها كل من كابايرو وميراندا بالمقارنة مع معرفتنا للوسط الجغرافي، وبناء على ذلك أمكن لنا وضع التصور التالي:

---

(115) يوما 9 ديسمبر 1774 و 16 مارس F. de Miranda , *Diario*.1775 . أنظر أيضا Rodrigues Casado , *Politica Marroqui de Carlos 3* , p. 217.

(116) مجموعة وثائق الأرشيف العام بسيمنكاس المعلنة عن بدء الحصار متعددة: 9 ديسمبر ملف 52.526 و 12 ديسمبر، ملف 11.524 و 16 ديسمبر 1774 ملف 19.534. مجموعة Noticias y Confedencias.

ـ اختير موقع مخيم سيدي محمد بجوار مدشر سيدي محمد المجاهد، تم نصبه على القسم الغربي من الكدية للاستفادة من استواء السطح بمجاورة قبة الضريح، وهو المكان الذي أشارت إليه المصادر الإسبانية باسم Mezquita نقلا عن الاسم الأمازيغي تامزكيطا المحول هو بدوره عن أصله العربي.

يظهر شكل المخيم على هيأة مستديرة، عدد خيمه ثلاث عشرة خيمة تحتل مركزه خباء السلطان المميز بلونه الأخضر، وتحيط به أخبية الحرس المحتلة لمقدمة الجانب الشرقي ويتلوه رواق المسجد فأخبية الماء وبيت الوضوء وجناح المطبخ(117). ويضاف إليها المصحة المكونة من خمسة خيام تحتل الجنوب الشرقي من محيط المخيم(118). والمخيم واقع بين أهم تجمعات بني انصار بين مداشر إياسينن وأولاد العربي وأولاد سالم، وبعيد عن مليلة بنحو ثلاثة كيلومترات ونصف. ويظهر أن الموقع لم يكن آمنا من القصف الإسباني لذلك تم تحويله إلى نقطة أكثر بعدا ونعتقد أنه استقر على كعدة أولاد العربي الموالية للموقع الأول من ناحية الجنوب الشرقي بالنسبة لمليلة(119).

ـ وخصصت كعدة إزروالن الواقعة يسار مدشر سيدي محمد المجاهد مما يلي الشرق لمقام المولى علي، الابن الأكبر لسيدي محمد وولي عهده، وهو يتألف من واحدة وعشرين خيمة، إلى جانب خيمة الأمير المميزة بشكلها المستدير. كان خبيرا في شؤون الريف منذ أن أسند إليه والده الخلافة على فاس وعلى سائر الريف عام 1765/1179. قاد عدة حركات نحو الشمال الشرقي وهيأ حركة والده إلى المنطقة عام 1770/1184(120).

---

(117) يوما 9 ديسمبر 1774 و 16 مارس 1775.

(118) يميز مخيم السلطان في رسم المخيمات برقمي 10 و 11، ورقم 12 خاص بمحل المصحة.

(119) هو ما أعلنته مراسلة 8 يناير 1775 **كازيطا دي مادريد**، عدد 24 يناير 1775، ص. 38. وأخبرت مراسلة 14 فبراير 1775 بانتقال السلطان إلى خيمة أخرى بعيدة عن الإقامة السابقة، نتيجة قصف يومي 28 و 29 يناير.

(120) يحمل المخيم في رسم المخيمات رقم 10.

وأقيمت إلى جانب أروقة ولي العهد أخبية باشا دكالة محمد بن أحمد، وهي مؤلفة من مجموعتين موقعهما جنوب مخيم ولي العهد تتكون من اثنتي عشرة خيمة. كان الباشا الساعد الأيمن لسيدي محمد في الشؤون الحربية وصاحب النفوذ بالبلاط المغربي. أسندت إليه أثناء الحصار مهمة الإشراف على فرقة المشاة وتزويد الجيش بالمواد الغذائية بواسطة قافلة الجمال البالغة ثلاثة آلاف رأس.

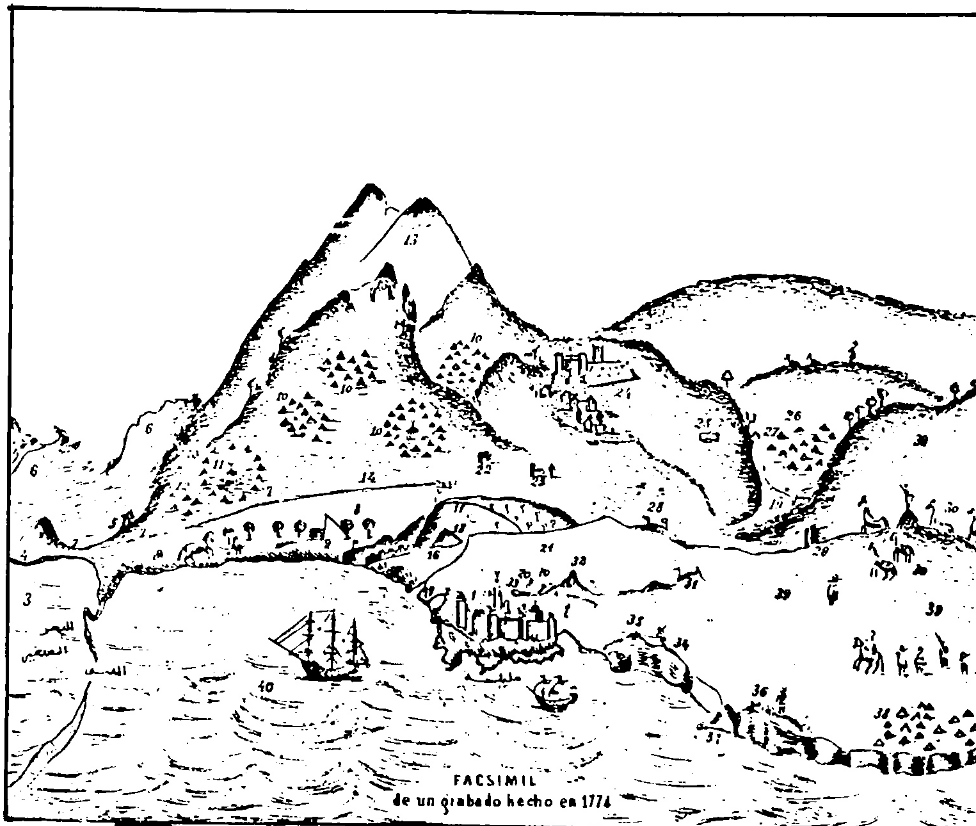
- وتم نصب مخيم آخر على كعدة تيسمغين الواقعة بجوار إياسينن، يظهر موقعه بين المخيم السابق وقصبة بني أنصار ويتألف من عشرين خيمة دون أي تمييز. ومن المعتقد أن المخيم كان خاصا بالأميرين المولى عبد السلام والمولى المامون وهما مكلفان بالمدفعية ومن الرماة المشاهير، خاصة الأخير منهما الذي سيتولى جميع عمليات القصف إلى آخر دقائق الحصار. أما المولى عبد السلام فكان مكلفا بتزويد المعسكر بالمعدات الحربية مما لزم عليه مغادرة الميدان والانتقال إلى تطوان ليتأتى له القيام بالمهمة المطلوبة.

ولم يحضر الحصار المغربي كل من المولى اليزيد والمولى عبد الرحمان ليتسنى لهما القيام بمهمات خارج ميدان القتال للغاية نفسها التي تخدم المحاولة الوطنية. فقد كلف المولى اليزيد بالإشراف على البحرية المغربية منذ سنة 1771/1185، أنيطت بها حراسة مدن ساحل المضيق خاصة، سيما مدينة طنجة والعرائش التي شرع عاملها في زيادة تحصيناتها، وحمايتهما من غزو إسباني محتمل في وقت كان فيه الأسطول الإسباني في حال التأهب بين قادس وسبتة، وأضيفت إليه منذ نوفمبر السنة مهمة الإشراف على عمالتي دكالة والجديدة[121].

أما المولى عبد الرحمان فكان باستقراره ببني كميل ومسطاسة من ساحل الريف الغربي مكلفا بترتيبات حراسة الساحل ومراقبة جزيرتي بادس والنكور

---

(121) A.G.S. Sec. de Guerra , L. 521 ومراسلة 16 /11/ 1774. A.H.N. Estado, L. 4312



4. كدية تلوين . 5. دار العلج .6. جبال كبدانة .7. ممر تلوين .8. الشاطئ والعراسي . 9. البئر . 10.
المخيمات . 11. مخيم السلطان . 12. مصحة . 13. جبل القرمود . 14. جبل أكركور . 15. موقع الشاطئ
. 16. موقع الواد . 17. كدية مزوجة .18. كدية ترارة . 19. مصب واد المدور .21. الفحص والمزارع .
22. محطة الحراسة . 23. سيدي محمد (المجاهد) .24. قصبة (رتابة) .25. المعازيز .26. الوادي .27.
مخيم المدور .28. رباط مليلة .29 . برج سان فرنسيسكو . 30. كدية الجمال . 31. كدية هركا . 32. موقع
أتاكي سيكو . 33. فم الخندق . 34. بونتيا .38. مخيم بونتيا . 39. المسيلة .
ملاحظة : الأرقام المحذوفة تشير إلى المواقع الإسبانية .

رسم ميراندا يبين مخيمات المعسكر المغربي تم وضعه يوم 12/30 1774

المحتلتين[122]. وإشرافه في نفس الوقت على نقل ما قد يصل إليه من القطع المدفعية والذخائر الحربية بحرا من تطوان وإيصالها برا إلى ميدان مليلة.

- ولا نعرف بالضبط مخيم قائد محلة قلعية، والمعتقد أنه كان ضمن المخصص لمختلف قواد الجيش المغربي الذين يدعوهم ميراندا بالجنرالات حين الإشارة في رسمه إلى الموقع الشرقي من كدية هوركا المعروف لدى الإسبان باسم "بونتيبا"[123].

- وهناك مخيم آخر مستقر على الضفة اليمنى من واد المدور غرب كدية المعازيز ورباط مليلة يتألف من خمس عشرة خيمة. ويدل موقعه على أنه مخيم رجال الناحية الذين لا نعرف دورهم في الحصار إذا استثنينا عملية الحفر الموكولة إليهم[124].

المواقع الحربية: من البديهي أن نتصور أن اختيار المواقع الحربية كان مهيأ من ذي قبل انطلاقا من معطيات السطح وتجارب القلعيين المستخلصة من الفترات السابقة بجزئها من حيث المهام إلى مواقع القصف التي كانت محاطة بالمدينة، وإلى مواقع أشغال حفر الأنفاق والخنادق المتمركزة في المواقع المتقدمة المحيطة بالمدينة وصنفنا مواقع القصف المغربي إلى مجموعتين:

- مجموعة الضفة اليمنى من واد المدور: يدعوه الإسبان واد المدور بواد الذهب (Rio de Oro) وهو يصب عند قدم سور المحاط الرابع. تمركزت المواقع الأربعة جنوب المدينة بين كدية مزوجة وشاطئ البحر ومصب الواد، وهي:

بطارية الشاطئ: أختير لها موقعان على الشاطئ المقابل لكديتي مزوجة وترارة يمين مصب واد المدور، وهو ما يكون اليوم من المنطقة المحتلة شاطئ إيبيكا (Playa de Hipica). تم بالمكان حفر خندقين خصص الأبعد منهما لقطع

(122) احتل الإسبان صخرة النكور في مستهل عهد المولى إسماعيل عام 1773.

(123) يحمل في رسم المخيمات رقم 38.

(124) رقمه في رسم المخيمات هو 27 ويسميه مخيم المدور.

A - مخيم المسلم .(السلطان).

B - مخيم القواد .

C - البطارية التي يستعملها العدو لإطلاق النيران .

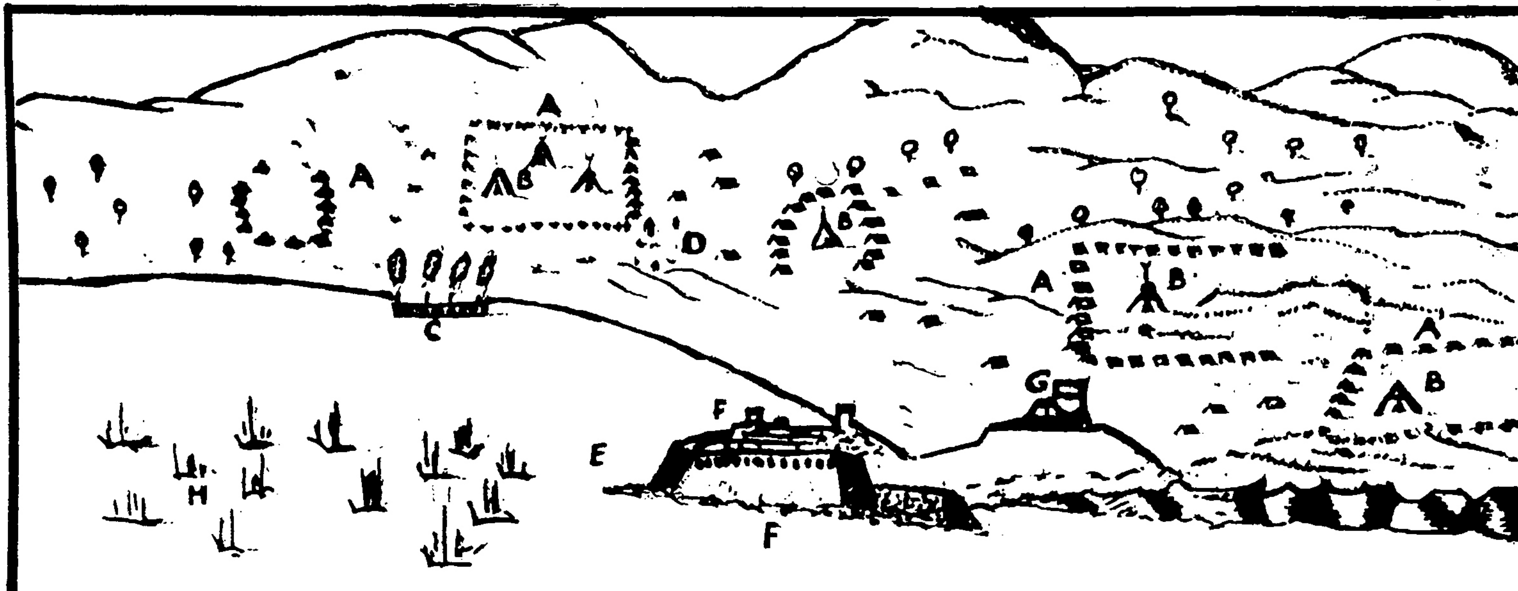
D - أخرى من المهاريس .

E - البطارية المضادة لها .

F - حصن مليلة .

G - برج فيكتوريا .

H - مراكب محملة بالمعدات والمؤن .



رسم آخر للمخيمات والمواقع الحربية المغربية

المهاريس البالغ عددها منذ مستهل الحصار ثلاث قطع، وضع في مقدمتها عدد مماثل من القطع المدفعية، أحدها من عيار اثنتي عشرة بوصة[125].

كلف بمهمة بالرماية عدد من الجزائريين الذين استجابوا لنداء المغرب ودعوته إلى الجهاد رغم معارضة كل من حاكم تلمسان وداي معسكر. وقد أصيب رئيس المدفعية بضربة قاتلة يوم 18 يناير 1775[126]. ونظرا لمكانة هذا الموقع فقد ركز الإسبان نحوه قصفهم المدفعي[127].

ويمكن التعرف على دور الموقع من إشارة كابابيرو التي تفيد أن إنشاءه كان من أجل إبعاد السفن الإسبانية المقتربة من الشاطئ ومرسى مليلة الجنوبي المعروف ببرج الماء (Espigon). إلا أن دور الموقع كان ضعيف الفعالية وغير ملائم من جهة أخرى لقصف المدينة، مما يفسر قرار المغاربة لإبعاده مسافة اثنين وأربعين مترا بالنسبة للموقع الأول مما يلي الجنوب اتقاء لتوالي ضربات الحصن والسفن الإسبانية[128].

كدية مزوجة: أو تينرت حسب أحمد بن القاضي القلعي وسان لورنثو(Cerro de San Lorenzo) حسب الإسبان[129]. تل مستدير الشكل واقع في الوقت الراهن داخل المساحة المحتلة على الضفة اليمنى من مصب واد المدور على مسافة تقدر بالنسبة للمدينة بنحو ستمائة متر وقد استغل المغاربة علوه البالغ سبعا وعشرين مترا لتوجيه أولى الضربات الدقيقة التي أصابت مقر حاكم المدينة يوم 10 ديسمبر.

---

(125) **اليومية**، ص. 99. أشير إلى المهاريس والمدافع بحرفي b و a على التوالي في رسم المواقع الحربية. وبرقمي 9 و 10 على التوالي في رسم 11 يناير 1775. وعن المشاركين الجزائريين في الحصار المغربي: رسالة أحمد الغزال بتاريخ 2 محرم عام 1189 5 مارس 1775. A.HN. Estado, L. 4347 و *Diario de Oran* يوما 24 و 25 AH.N. Estado L.4309، وفتوى ابن سودة في الموضوع.

(126) **المرجع السابق**، ص. 102.

(127) 8 يناير. عدد 24 يناير 177، *Gazeta de Madrid*. A.H.N. Estado L. 4347-48/2.

(128) **اليومية**، ص. 127.

(129) عن الموقع أنظر حسن الفكيكي، **معلمة المغرب**، "مادة تينرت".8:2756.

نصب المغاربة بالكدية منذ يومي 10 و 11 ديسمبر ما زاد على المهراسين قد يصل إلى خمسة مهاريس، الواحد منها من عيار اثنتي عشرة بوصة. أما عدد المدافع فتبين أنه لم يقل عن القطعتي. كانت الغاية منها قصف الجنوب الغربي من المدينة، وكان من آثارها بتعاون مع موقع كدية ترارة إصابة مستودع الخمر يوم 11 ديسمبر[130].

كدية ترارة: يتعلق الأمر بتل صغير كان موجودا بالهامش الأيمن من واد المدور، حيث اليوم ورش أشغال المرسى، موقعه بين كدية مزوجة ومصب الواد من الجهة الجنوبية الغربية. واسم ترارة نسبة إلى إحدى الجماعات المستقرة بالمكان خلال فترة ما قبل الاحتلال الإسباني.

بدأ الموقع عمله منذ اليوم الثاني من الحصار بمهراسين، أحدث لتعزيز الموقعين السالفي الذكر. و لم نتأكد ما إذا كان به عدد من القطع المدفعية، وإن كنا نميل إلى غير ذلك. وغاية اختيار الموقع العمل إلى جنب الموقع السابق ولنفس الهدف[131].

وهناك موقعان آخران نعتقد بعدم مشاركتهما في عمليات القصف بصفة مباشرة، بل كانا فقط نقطة تجميع المهاريس والمدافع الاحتياطية مثلما بينه كل من رسم المواقع الحربية ورسم 11 يناير 1775. يقع الأول منهما خلف كدية مزوجة من جهة الجنوب وبه ثلاث عشرة قطعة، يقع الثاني على الضفة اليمنى من واد المدور مما يقابل رباط مليلة على الجانب الأيسر وبه ثلاث قطع مدفعية[132].

محلة الواد: يقصد بها موقع مصب واد المدور المعروف لدى الإسبان باسم Ataque del rio. علمنا أن المغاربة نصبوا به منذ 4 يناير 1775 مدفعين

(130) **المرجع السابق**، ص. 72. 74. ويشير رسم المواقع إليه بحرف c ورسم 11 يناير 1775 برقم 11.

(131) يشير إليه رسم الموقع الحربية بحرف Y.

(132) أثبتنا في كتابنا **سيدي محمد بن عبد الله وقضية مليلة المحتلة** رسم المواقع الحربية بصفحة 35 ورسم 11 يناير 1775 ما بين صفحتي 96 و 97.

لمطاردة المراكب المترددة على الساحل والحيلولة دون رسوها بمرساة برج البحر الواقعة جنوب المدينة (Espigon) بعد التأكد من قصور مهاريس ومدافع موقع الشاطئ عن تلك المهمة.

- مجموعة مواقع التلال الشمالية: شكلت أهم مسارح تلك المواقع بفضل تضرس السطح، وتألفت من سلسلتين من التلال، اتجاهما جنوبي غربي وشمالي شرقي، مشرفتين بحدهما الشرقي على أجراف الساحل المتوسطي، يفصل بينهما خانق يعرف لدى الإسبان باسم الرامبلا (Ramblill.Rambla) وهو ما يمكن تقريبه من الأصل المحلي بلفظ الرميلة ويعني لديهم المسيلة أو الخندق. ومن المؤكد أن الإشراف كان للمولى المامون حسب تصريح المراقبين[133].

مواقع الرأس الصغير أو بونتيا: تعرف سلسلة التلال الأولى المطلة مباشرة على مليلة باسم رأسها الصخري المشرف على البحر المتوسط ببونتيا (Puntilla) أحدث بها من مواقع القصف موقعان مقابلان لبرج فيكتوريا والأجنحة الملحقة به، أحدهما للمدفعية وآخر للمهاريس.

شرع الموقعان في القصف منذ يوم 15 ديسمبر بعد أن تم إعدادهما يوم 11 من نفس الشهر، وقطعهما من عيار ست بوصات[134]. أحدث الموقعان لقصف الأبراج الواقعة بكدية القبو، وخاصة برج روساريو(Rosario).

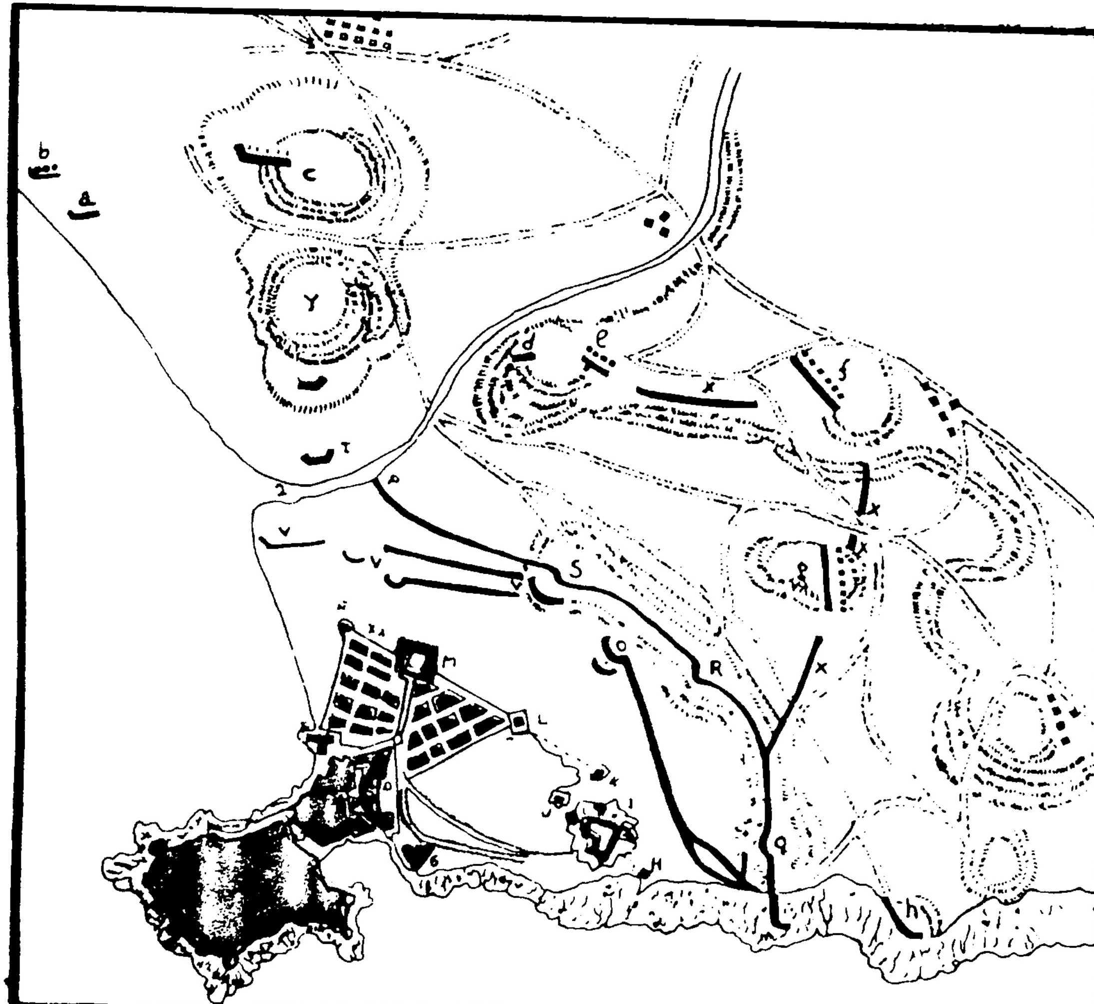
وقد تبينت بعد ذلك خطورة الإبقاء على البطاريتين بمكانهما نظرا لقربهما من برج فيكتوريا وأفواه مدافعه الثمانية عشر، لذا فقد تقرر نقلهما إلى تلال هوركا الخلفية بعد القصف الذي تعرضت له من طرف المراكب الإسبانية والخرجة المدبرة من برج فيكتوريا يوم 9 يناير 1775[135].

---

(133) *Gazeta de Madrid*, 4/4/1775, p. 14.

(134) **اليومية**، ص. 78. وأشير إلى البطاريتين في رسم المواقع الحربية بحرف Q وفي رسم 11 يناير 1775 برقمي 14 و15.

(135) **اليومية**، ص. 93. مراسلة 8 يناير 1775. **كازيطا دي مدريد**، عدد 24 يناير 1775، ص. 39.



H	برج روساريو
I	برج فيكتوريا الكبرى
J	برج فيكتوريا الصغرى
K	برج سانتا لوثيا
L	برج سان ماركوس
M	برج سان ميكيل
N	برج سانتا باربارا
O	فم النفق
P, Q	بينهما موقع بونتيا وسيكو R والمطرقة S
T, V	بينهما مواقع متقدمة نحو برج سان ميكيل
Y	موقع ترارة
Z	تضم مواقع على واد الذهب **a** بطارية الشاطئ، **b** مهاريس الشاطئ، **c** مهاريس سان لورينثو، **d** مهاريس سانتياغو، **e** موقع آخر للمهاريس، **f** مهريس برج سان فرانسيسكو، **g** بطارية هوركا، **h** بطارية هوركا العليا.

رسم المواقع الحربية من إعداد خوان كابابيرو

أما باقي مواقع الرأس الصغير فقد اختصت في تدبير عمليات حفر الأنفاق والخنادق تجاه الأبراج الخارجية المجاورة لها، سيما برج فيكتوريا مما سنراه في مرحلة حفر الأنفاق والخنادق.

مواقع تلال هوركا: وتدعى سلسلة التلال الثانية بامتدادها شمال الأولى بشكل مواز لها بتل هوركا(Cerro de Horca) . وهي في الواقع مجموعة تلال تمتد على شكل قوس مبدأها من الضفة اليسرى من واد المدور جنوبا إلى جرف البحر المتوسط شرقا(136). ويمكن عد أربعة مواقع نشيطة من الغرب إلى الشرق:

موقع رباط مليلة: المعروف لدينا منذ بداية القرن العاشر الهجري بدوره الفعال في حراسة الحدود، ويدعوه الإسبان بسانتياغو (Santiago)، وهو واقع عند آخر منحدرات تلال المعازيز السفلى(Cabrerizas Bajas).

بدأ عمله في نطاق حصار مليلة يوم 11 ديسمبر بنصب مدفعين، ثم توالت الزيادة في طاقته أيام 30 يناير و 27 فبراير و 9 مارس 1775 إلى أن تجمعت به سبع قطع مدفعية من عيارات مختلفة، أدناها ست بوصات وأقصاها خمس عشرة بوصة. ويبين الرسمان المعتمدان تقدم موقع المدافع عن المهاريس الموضوعة على منصة خلفية مكونة من أربع قطع. ولقصف الموقع تأثير بارز على الحصن إذ أن نيرانه كانت موجهة ضد الواجهة الغربية من المدينة وإلى برجي سان ميكيل وسانتا باربارا، ولذلك ركز الإسبان قصفهم نحوه مما أدى إلى إبعاد قطعه مسافة بارزة نحو الغرب(137).

موقع سان فرانسيسكو: واقع بما يوافق في الوقت الراهن المكان المعروف باسم بوليكانو(Poligano). وبالمكان برج قديم سبق للإسبان تشييده سنة 1575 وتمكن المغاربة من هدمه يوم 14 محرم 1090/25 فبراير 1679.

---

(136) ما يكون اليوم Horcas Altas , Monte Crestina , Cabrerizas , Poligano

(137) يشير رسم المواقع الحربية إلى بطارية المدافع بحرف d وإلى بطارية المهاريس بحرف e. أما رسم 11 يناير 1775 فيعينهما على التوالي برقمي 13 و 12. **اليومية**، صص. 112. 154.155.

لم يبدأ الموقع عمله في نطاق الحصار إلا في 22 يناير 1775 حينما نقلت إليه بطاريات الرأس الصغير (Puntilla)[138]. ويبين الرسمان المعتمدان وجود بطاريتين متجاورتين تضم الأولى أربعة مهاريس حسب رسم المواقع الحربية ثم زاد عددها إلى الضعف. وضمت الثانية خمس أو ست قطع مدفعية.

ويبين رسم المواقع الحربية وجود حقل آخر مجاور من جهة الشمال ضم أربع قطع احتياطية على ما يظهر. كانت الغاية من إحداث الموقع قصف أبراج الفحص مثل سان ميكيل وسانتا باربارا[139].

موقع هوركا العليا: ضم موقعين خص الأول منهما لستة مهاريس، وضعت منصتها بالقسم الأوسط من السلسلة مما يجاور موقع سان فرانسيسكو وهو موقع أكثر ارتفاعا من موقع رباط مليلة، وبفضل ذلك تمكن بواسطة أحد مدافعه من عيار اثنتي عشرة بوصة من تعطيل أحد مدافع برج سان ميكيل[140].

أما الموقع الثاني فهو منزوي على حافة الجرف الشرقي المشرف على البحر مما يجاور مواقع الرأس الصغير. أحدثت بطاريته المكونة من مدفعين يوم 10 مارس 1775 لقصف السفن القادمة من إسبانيا[141].

والملاحظ حسب رسم المواقع أن المغاربة كانوا قد أعدوا عدة منصات تربط بين مختلف بطاريات التلال الشمالية الواحدة منها وضعت لتربط موقع رباط مليلة بسان فرانسيسكو، والثانية بهذا الأخير وهوركا العليا، وتصل المنصة الثالثة الأخيرة بمواقع الرأس الصغير، ربما لتغيير مواقع المنصات كلما

---

(138) **نفسها**، ص. 106.

(139) يرمز رسم المواقع الحربية إلى المهاريس بحرف f. أما بطارية المدفع فلم يقع تمييزها بحرف معين. ويشيررسم 11 يناير 1775 برقم 18 إلى بطارية المدافع وبرقم 19 إلى المهاريس.

(140) كان ذلك يوم 10 مارس 1775. **اليومية**، ص.154.

(141) **اليومية**، ص. 155. 156 ؛ *Gazeta de Madrid*, 14/2/1775, p. 66. عينه رسم المواقع الحربية بحرف h.

استوجب ذلك ظرف طارئ[142]. فما هي المراحل التي مر بها الحصار المغربي؟

مرحلة قصف المدينة

باختيار المواقع وإنهاء استعدادها بدأت عمليات القصف التي كانت غايتها الأساسية هدم الحصن وإحداث الرعب بين الحامية لإرغامها على الاستسلام. لنتتبع الآن مدى فعالية عملية القصف. استغرقت خطة القصف أيام الحصار كلها باستثناء نادر جدا، ابتداء من اليوم السادس من رجب/ العاشر من ديسمبر. وكان القائمون على المدفعية جماعة رؤساء البحرية الذين جيء بهم من الرباط وسلا ومن جهات مختلفة[143].

وبتتبع ما جاءت به يوميات كابايرو وميراندا نقف على وتيرة القصف وآثاره على الحصن وقصوره عن أداء المهمة والغاية المرجوتين. وقبل ذلك نقف على الإجراءات الأولية التي قام بها السلطان قبل الإقدام على عملية القصف. ففي مساء اليوم الثاني من الحصار تقدم نحو المدينة وفد من المغاربة رافعين راية السلام يرأسه أحد الباشاوات، وهو محمد بن أحمد الدكالي وقائد محلية قلعية عمر بن عمر القيطوني، وسار خلفه فيلق مكون من خمسمائة جندي. وبعد اللقاء بحاكم المدينة والجنرال طلب الوفد باسم السلطان تسليم المدينة بدون قيد أو شرط، إما بالجلاء عنها أو بالاستسلام، بحجة تبعية المدينة لسيادة السلطان[144].

بدأ الحصار الفعلي إثر عودة الوفد بخبره السلبي المذاع على لسان كل من حاكم المدينة والجنرال. وقد أعد خوان كابايرو قائمة إحصاء عدد طلقات المهاريس والمدافع خلال شهور ديسمبر ويناير ومارس. ومن تفحص القائمة

---

(142) هي التي يرمز إليها في رسم المواقع بحرف x.

(143) العرائش، 6 نوفمبر 1774 A.H.N. Estado , L. 4314

(144) **يومية** خ. كابايرو. ص.73؛ V. R. Casado, *Politica Marroqui*, p. 216 ؛ مراسلة مليلة، 10 ديسمبر 1774. A.H.N. Estado L. 4309/1

نقف على الملاحظات التالية بعد استعراضها كاملة كوثيقة دالة على وتيرة القصف المغربي[145]:

ديسمبر	المهاريس	المدافع
10	16	8
11	103	10
12	78	26
13	62	1
14	114	21
15	90	49
16	61	23
17	18	0
18	18	49
19	89	13
20	50	45
21	119	51
22	130	51
23	80	24
24	92	31
25	152	56
26	53	11
27	92	0
28	98	0
29	141	9
30	159	30
31	128	16
	1959	**524**

يناير	المهاريس	المدافع
1	131	19
2	61	36
3	56	27
4	153	37
5	72	27
6	126	18
7	53	21
8	133	37
9	143	43
10	93	21
11	64	16
12	148	23
13	31	11
14	92	25
15	108	45
16	160	36
17	99	35
18	91	26
19	94	53
20	84	81
21	102	51
22	72	46
23	0	0
24	70	5
25	68	63
26	69	33
27	45	13
28	124	13
29	96	32
30	102	54
31	192	34
	2862	**981**

(145) قدم إحصاءاته بناء على شهادة المراقب وعلى إحصائه هو: قائمة أولى تبدأ من 10 ديسمبر 174 إلى 20 فبراير 1775. وثانية تبدأ 26من 21 فبراير 1775 إلى 28 منه. ثم قائمة تبدأ من 1 مارس 1775 إلى 8 منه. وقائمة أخيرة من 9 مارس 1775 إلى 16 منه.

فبراير	المهاريس	المدافع
1	27	15
2	40	5
3	36	17
4	0	33
5	81	29
6	79	21
7	73	15
8	80	12
9	72	18
10	93	21
11	25	2
12	22	0
13	17	0
14	0	0
15	0	0
16	40	0
17	85	80
18	25	6
19	16	1
20	70	68
21	68	84
22	50	15
23	40	12
24	46	0
25	90	0
26	74	13
27	81	62
28	99	15
	1439	**548**

مارس	المهاريس	المدافع
1	92	15
2	40	25
3	0	0
4	39	7
5	33	17
6	120	18
7	84	20
8	80	31
9	92	54
10	87	30
11	151	26
12	13	27
13	31	18
14	18	15
15	16	10
16	20	10
	916	**313**

اهتم خوان كابايرو بتسجيل العدد المتساقط من قذائف المهاريس والمدافع على الحصن اعتمادا على الإحصاء المقدم من طرف المراقب القائم على الدوام بأعلى برج كنيسة كونثيبثيون (Concipcion)، علاوة على ما توصل إليه هو نفسه في بعض الأحيان، فأوضح في الأخير أن العدد المتساقط من قذائف المهاريس وصل إلى 6735 قذيفة ومن طلقات المدافع 2373 طلقة[146].

(146) ح. الفكيكي، **سيدي محمد بن عبد الله وقضية مليلة المحتلة**. صص. 21. 23.

ويتعارض هذا العدد مع المقدم من طرف قائد مدفعية الجيش المغربي أثناء زيارته الأخيرة يوم 18 مارس 1775 إثر رفع الحصار الواصل إلى 8080 قذيفة المهراس، وهو العدد الذي جاء بها الجيش المغربي. وبناء على ذلك صرح خوان كاباييرو أن عدد قذائف المهاريس لم يقل عن 8500 قذيفة وبلغ عدد طلقات المدافع مقدار 4500 طلقة[147].

وما يهمنا نحن هو تتبع درجات القصف المغربي ونتائجه على الحصن المحاصر، والبحث عن تفاسير تذبذب وتيرة القصف وفعالية القوة المدفعية من خلال يوميتي كاباييرو وميراندا. فيمكن ملاحظة أن الجيش المغربي جاء مزودا بجل حاجاته من الآليات والذخيرة، ولذلك استمر القصف على وتيرته المتوسطة والعالية طول ثمانية وتسعين يوما التي دام خلالها الحصار.

غير أنه يمكن ملاحظة أن هناك عدة توقفات تامة عن القصف بالمهاريس. وبحثا عن أسباب التوقف الكلي وجدنا العلة في العرقلة المترتبة عن تغير أحوال الطقس من هبوب الرياح الشديدة والأمطار الغزيرة، مما أدى إلى انشغال المغاربة بإعادة نصب الخيام. هذا هو ما حدث خلال ثلاث مرات أثناء الحصار: أيام 23 يناير 1775 و 14 و 15 و 16 و 19 فبراير و 3 مارس من نفس السنة[148].

أما توقف القصف المدفعي فيعود تارة إلى الانشغال في استقبال الإمدادات من الذخيرة، مثلما حدث يوم 13 ديسمبر 1774 ليعود القصف خلال الليل[149]. وإلى الانهماك في نقل البطاريات من موقع إلى آخر مثلما وقع يوم 2 فبراير 1775 حينما أبعدت بطاريات رباط مليلة وموقع ألبارادا إلى مسافة أبعد ليستمر القصف عند الغروب[150]. أو الانشغال بالتداريب

---

(147) **نفسه**. ص.164.

(148) ح. الفكيكي، **سيدي محمد بن عبد الله وقضية مليلة المحتلة**. ص ص. 106.128.147.129؛ F. de Miranda, *Diario*, p. 76.

(149) **المرجع السابق**، ص. 76.

(150) **نفسه**. ص. 116. F. de Miranda , *Diario*, p. 66.

والمناورات خلال الفترة الصباحية[151]. أو بسبب الاهتمام بإصلاح القطع المدفعية المتضررة من القصف الإسباني.

ويمكن الإشارة مثلا إلى حالة يومي 24 و 25 فبراير 1775. وهناك بعض التوقفات التي لم نعثر على مبررها باستثناء الانشغال بجمع الأحراش المستعملة في تحصين الخنادق والأنفاق مثلما حدث خلال يومي 12 و 13 فبراير السنة[152].

ويتضمن الإحصاء المقدم بعض الأخطاء في العدد، وهو ما سبق أن أشار إليه خوان كابابيرو. يظهر هذا بالمقارنة بين ما جاء به الإحصاء من يوم 17 ديسمبر 1774 إلى يوم 29 منه. مثلما تعبر عنه أيضا الحصة المقدمة يوم 5 يناير 1775 التي هي خمس رصاصات مدفعية، في حين ذكرت يوميتا كابايرو وميراندا أن العدد وصل إلى سبع وعشرين طلقة رصاصة[153].

مسألة الإمدادات

من الطبيعي أن يكون هناك مخطط الإمدادات والإغاثات وراء كل حرب ويجرنا البحث عنها إلى التساؤل عن وصول السلاح الناري الثقيل. ولا تظهر اليومية أن المغاربة توصلوا منها بشيء باستثناء ما عبرت عنه يوم 13 فبراير من احتمال.

وعلى الرغم من الحماس الذي تملك سيدي محمد للحصول على المزيد من المدافع وهو في ميدان مليلة، والإعلام الذي كان يصل المولى اليزيد لنقل المدافع الكبرى من مدينة الجديدة[154]، وانتقال المولى عبد السلام إلى تطوان

---

(151) **نفسه**. ص. 124.

(152) **نفسه**، صص. 126. 125. 140.

(153) **المرجع السابق**، ص. 89.

(154) حسب رسالة جبل طارق بتاريخ 6 فبراير 1775 أن الرئيس فرج (Alfarache) نقل 6 مدافع برونزية من الجديدة قصد إرسالها إلى جزر الشفارين (جزر كبدانة) لتصل في الأخير إلى المحلة السلطانية بميدان مليلة. A H N Estado L. 4309

للإشراف على نقل ما تجمع لديه منها بحرا إلى ساحل الريف الغربي بقبيلة مسطاسة وقالتها يالش[155]، ليتم نقلها من هناك برا تحت إشراف المولى عبد الرحمان. رغم كل تلك الاحتمالات لم يتأكد وصول أي شيء منها من خلال سرد اليومية[156].

وربما كان عدم توصل المعسكر المغربي بالقطع المدفعية صحيحا، إذ أن التوصيات المعادية والمراقبة البحرية الشديدة المفروضة من الخط البحري الرابط بين كل من مالقة وجبل طارق وطريف وقادس حالت دون ذلك حسبما يؤكده أمر الحكومة إلى رؤساء البحر ومراسي تلك المدن[157].

وكل ما عبرت عنه اليوميتان المعتمدتان عن وصوله إلى المحلة متكون من أحمال الأكياس المنقولة على ظهر الدواب. ونعتقد أن ما كان يصل إلى الميدان هو الذخائر الحربية من قذائف المهاريس ورصاص المدافع، وهي من الحاجات اليومية الضرورية. ويكفي تذكر العدد اليومي المتساقط من النوعين على المدينة.

وعن حجم تلك الذخائر تقدم اليوميتان معلومات عن مراحل ورودها على الميدان. فإذا كانت حصة 13 ديسمبر 1774 غير مصرح بنوعها فإن الوارد في باقي التواريخ تكون من القذائف ومحتويات الأكياس التي لا

---

(155) أشارت رسائل قادس بتاريخ أيام 6 و 7 و 13 مارس إلى توالي نقل المدافع من طنجة وتطوان بلغ عددها عشرة مدافع، تم نقلها يوم 17 يناير المنصرم. A.H.N. Estado L. 4312 ; A.G.S. L. 523 f. 43

(156) وحسب تقرير مليلة بتاريخ 20 يناير 1775 أن المغاربة جلبوا المدفعية ذات العيارات العالية ونقلوها إلى ساحل الريف، هذا إلى جانب كميات من القنابل والحبال والفؤوس ومنه إلى ميدان مليلة. A.H.N. Estado L. 4312.

(157) صدرت الأوامر منذ 12 دسيمبر 1774 إلى كل من رؤساء سفينة خينارو(Genaro) وفركاطات قادس بحراسة الممر الكائن بين رأسي طرف الغار وإسبارتيل، بينما قامت الشبيكات بدور المراقبة بين الجزيرة الخضراء وسبتة للحيلولة دون نقل الإمدادات والمدافع خاصة إلى ميدان الحصون. A.H.N. Estado, L. 4309/1. وأيضا مراسلة مليلة 5 يناير 1775. A.H.N. Estado , L. 4309/1

يمكن أن تكون حمولة المدافع. كما أن ما جاءت به مراسلة 20 يناير1775 من مليلة قد ينطبق على الدفعة الواصلة يوم 4 يناير، وهذه كانت مؤلفة من القذائف والفؤوس ومقابضها ومواد أخرى(158).

ويتضح ذلك من التأمل في الجدول التالي:

13 ديسمبر	48 بغلا	بعد 4 أيام من الحصار
4 يناير	50 جملا	" 27 يوما "
8 فبراير	100 بغل وجمل	" 62 " "
10 مارس	60 " "	" 90 " "

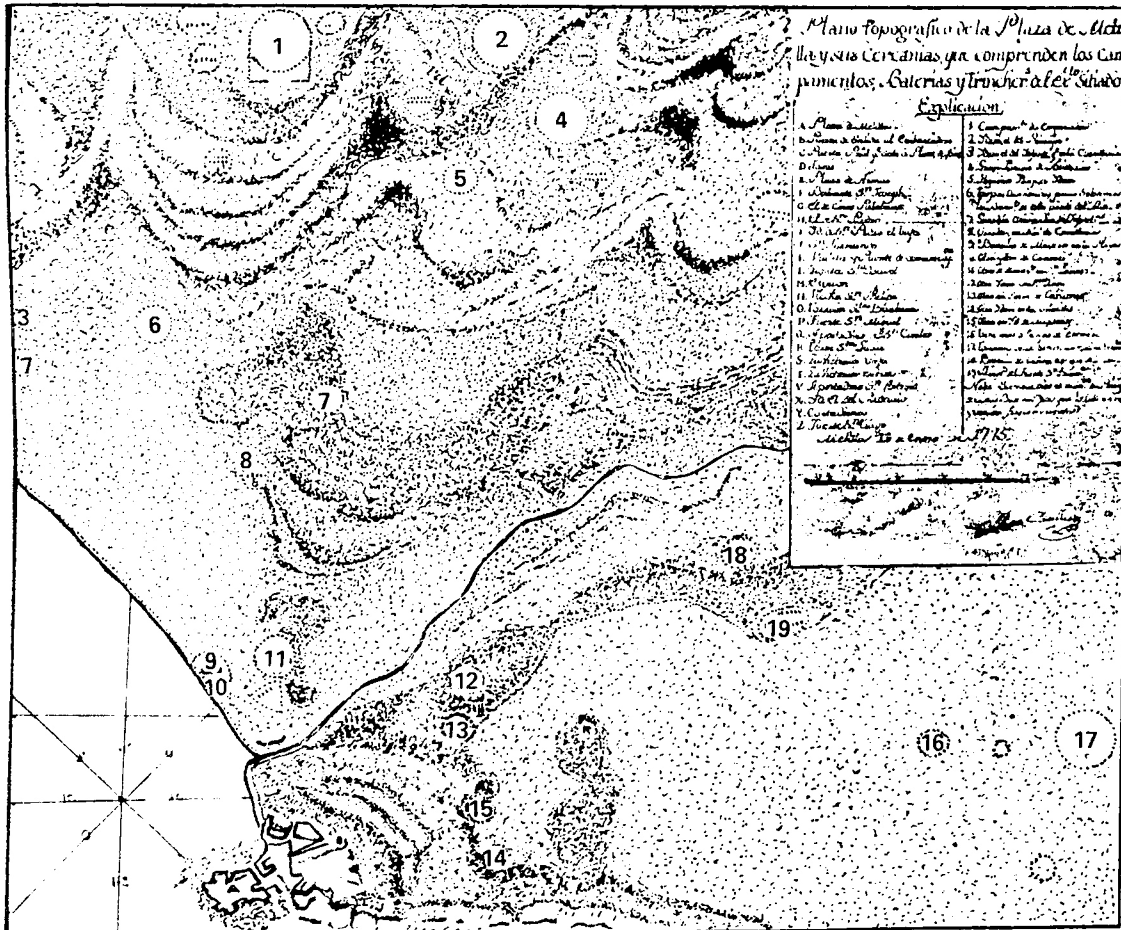
فالنظرة الفاحصة إلى الجدول دالة على انتظام دفعات الإمدادات ما عدا حصة 8 فبراير العالية ولكنها كانت مؤلفة هي بدورها من محتويات الأكياس التي نفهم أنها من مجرد الذخيرة.

ولا بد من إعطاء الأهمية لاختلاف المدد الفاصلة بين كل فترة وأخرى من مراحل الإمدادات، فاستقرار حجمها مع اختلاف المدد يؤيد حسب رأينا عدم وقوع أي اضطراب غير عادي في مقادير الذخيرة.

ونشير إلى ملاحظة استرعت انتباه الإسبان متعلقة بتطوير فعالية القذائف الموجهة نحو السفن الإسبانية، فقد لاحظ المراقب أن أثر انفجار القذائف المغربية في مياه البحر كان منحصرا فقط في رفع كمية من المياه بشكل عمودي مما قلل من فعاليتها، ثم تبين أن المغاربة توصلوا إلى توسيع قطر دائرة الانفجار. ونظرا لذلك عكف المهندسون على تحليل مركبات القذائف فاتضح لهم أنها مزجت مكوناتها بالكافور، وهو تركيب مجهول لدى الإسبان آنذاك(159).

(158) A.H.N. Estado, L. 4312/2 .

(159) Francisco de Miranda, *Diario*, p. 14.



رسم المخيمات والمواقع المغربية رسمه كابايرو يوم 11 يناير

البيانات المفسرة لرسم كابابيرو

A	ـ حصن مليلة	1	ـ مخيم السلطان
B	ـ باب الخروج إلى المرسى	2	ـ مخيم الأمراء
C	ـ باب الخروج إلى ساحة...	3	ـ محلة الخيالة
D	ـ	4	ـ محلة المدفعية
E	ـ ساحة الأسلحة	5	ـ محلة أخرى صغرى
F	ـ بالوارتي دي سان خوسي	6	ـ محلة متقدمة
G	ـ بالوارتي الكلمات الخمس	7	ـ حراسة متقدة للمشاة
H	ـ بالوارتي دي سان بيدرو	8	ـ حراسة متقدمة للفرسان
I	ـ سان بيدرو الأسفل	9	ـ بطارية مهاريس الساحل
J	ـ سان فيرناندو	10	ـ بطارية مدافع الساحل
K	ـ باب وقنطرة العبور	11	ـ بطارية المهاريس
L	ـ باب..؟ سانتا إيسابيل	12	ـ بطارية المهاريس بسانتياغو (رباط مليلة)
M	ـ برج البحر	13	ـ بطارية المدافع بسانتياغو
N	ـ ... سان فيليبي	14	ـ بطارية مدافع بونتيبيا
O	ـ برج سانتا باربارا	15	ـ بطارية مهاريس بونتيبيا
P	ـ برج سان ميكيل	16	ـ بطارية هوركا
Q	ـ باب سان كارلوس	17	ـ بطارية هوركا
R	ـ برج سانتا لوثيا	18	ـ بطارية مدافع سان فرانسيسكو
S	ـ فيكتوريا القديمة	19	ـ بطارية مهاريس سان فرانسيسكو
T	ـ فيكتوريا الجديدة		ـ ملحوظة ....
V	ـ محطة سان أنطونيو		مليبا: 11 يناير 1775 خوان كابابيرو
X	ـ برج روساريو		
Y	ـ الحافة		
Z	ـ برج سان دييكو		

ملاحظة: جميع الحروف والأرقام الفارغة من التفاسير لم نتمكن من فرز ألفاظها.

الخلاصة العامة التي نعتبرها بالنسبة لمرحلة القصف أن العامل الأساسي الذي فت في عضد الجيش المغربي هو عدم توفره على مدفعية قوية وكافية، سواء من حيث العدد أو الفعالية، فأغلب المدافع كانت صغيرة، عياراتها متراوحة بين ست وثماني بوصات، وقليل منها من الكبرى ذات العيار المتراوح بين اثنتي عشرة وخمس عشرة بوصة، في حين توفر الإسبان على العيارات العالية ونظرا لعدم توصل الميدان بقطع جديدة فإن نصف عدة المدافع والمهاريس لم يكن صالحا حسب يومية كابايرو، خاصة بعد تعطيل الكبرى منها[160].

والنتيجة أن الأضرار التي أصابت المدينة كانت هامة، إلا أن الإسبان كانوا على يقظة من ترميمها كلما ألحقت بها الخسائر. وكيفما كان الأمر فإن تلك الخسائر كانت تلحق المباني الداخلية بالمدينة وبعض التحصينات الخارجية لا غير، أما الأسوار فقد ظلت سليمة في جلها وغالبيتها [161]. ويلخص كابايرو آثار عمليات القصف بقوله: " كاد التخريب أن يأتي على آخر المباني أما التحصينات فلم تصب بأي أذى يذكر.. وينذر اليوم الذي لا نضطر فيه إلى ترميم ما تم تخريبه بالأمس"[162].

حرب الأنفاق والخنادق

لم يكتف الجيش المغربي المحاصر في استراتيجيته الحربية بعمليات القصف بل التجأ أيضا إلى وسيلة هدم الأبراج بواسطة الأنفاق والخنادق، وهي مرحلة جد هامة بذل فيها المغرب جهوده للوصول إلى الغاية المطلوبة، إذ أن الأبراج

---

(160) حسب رسالة مليلة في 30 ديسمبر أن الطلقات المدفعية أغلبها لا يصل إلى الأسوار لصغر حجم القطع المستعملة. A.H.N. Estado , L. 4301

(161) حول آثار القصف المغربي على المباني مراسلة مليلة بتاريخ 14 فبراير سنة 1775. *Gazeta de Madrid*, 14/2/1775, p. 65. وتذكر مراسلة مليلة أن عدد القذائف التي أسقطت على المدينة إلى غاية 5 يناير بلغ 2450 قذيفة، وأنها إذا كانت قد خربت المباني (20 دارا) فإنها لم تلحق أي ضرربالحامية. A.H.N. Estado , L. 4312/1

(162) يوما 7 يناير و 8 مارس 1775. **اليومية**، ص.90. 150.

كانت نقطة الخطر الدفاعية الأولى، سيما برجي فيكتوريا وسان ميكيل[163]. ومن حسن الحظ أن التاريخ يحتفظ بالجهود المغربية المبذولة من طرف الجيش المغربي نصا ورسما بفضل ما أوردته يومية خوان كابايرو.

عادت فكرة خطة هدم الأبراج إلى القائد عمر بن عمر القيطوني والنتائج التي توصل إليها جده محمد مما هو مذكور في خطة جهاد الأبراج السابقة، لذا كلفه سيدي محمد للإشراف على العملية من مخيمه القائم بجهة الرأس الصغير[164].

ووضع إلى جانب القائد عمر القيطوني من سمته اليوميتان Boteyo. وربما لم نبتعد عن الصواب حينما رددنا أصله إلى بطي، ولكن بقي إشكال انتمائه الموطني الذي سبق أن اقترحنا من أجله رده إلى رجال الريف الشرقي. وقد تبين لنا بالتأمل في الشكل الحرفي المقدم به أنه على وجه الاحتمال من عائلة بطي الأندلسية التطوانية المستقرة منذ بدية القرن الحادي عشر الهجري حسبما هو منصوص عليه بالوثائق الإسبانية[165].

ونعلم أن السلطان كان قد استدعى سيدي بوطي من جملة من استدعي للعمل إلى جانبه ومن المقربين إليه وهو أحد الشيوخ والرجل الثاني بقبيلة قلعية منذ بدء الحصار[166]، ففي 9 نوفمبر عام 1774 كان بمكناس (Sidi Botello) يحظى بعظيم ثقة سيدي محمد، لذا تم تعيينه إلى جانب قائد قلعية عمر القيطوني[167].

---

(163) حسب مراسلة مليلة بتاريخ 1 فبراير 1775 أن السلطان قد وضع كل ثقته في نهج خطة الأنفاق. A.G.S. Secretaria de Guerra , L. 526. Fol. 21

(164) يشير إليه رسم توزيع المخيمات برقم 38. **اليومية**، ص. 64.

(165) بوزينب وجيرار ويجير في: « Tetuan y la expulsion de los moriscos »، ندوة تطوان في القرنين 16 و 17. ص 83 ؛ Guillermo Gozalbes Busto, « Los Moriscos en Marruecos », Granada 1992, p. 110.

(166) A.G.S. Secretaria de Guerra , L. 526

(167) **نفسه.**

ليست لدينا فكرة عن القائمين بعملية الحفر، ولكننا نعتقد أنهم من أهل قلعية والريف الشرقي بصفة عامة، ونعلم أن عددهم كان كبيرا وأنهم متخصصون في الحفر من ضمن فئة المجاهدين، بينما استدعي بعضهم ليقوم بالعمل لقاء أجر معين، حددته يومية وهران بثلاث موزونات لكل حفار[168]. ويمكن تصنيف أشغال الحفر إلى نوعين اثنين:

ظهرت الفكرة القابلة للتنفيذ منذ 23 ديسمبر، أي بعد أن تبين عدم فعالية القصف في تحقيق النتائج السريعة، مثلما اتضح أن العرقلة الأساسية متمثلة في وجود كل من برجي فيكتوريا وسان ميكيل وتوابعهما من الأبراج الصغرى، من روساريو وسانتا لوثيا وسانتا باربارا من أبراج المحاط الرابع[169].

ولما كان برج فيكتوريا يشكل أعلى الأخطار بالنسبة للمعسكر المغربي فقد تركزت جهود الحفر تجاهه من مواقع بونتيبيا وهوركا خلفها. وتطلب اقتحامه اللجوء إلى وسيلة الحفر الباطني. وللتوصل إلى ذلك بذلت الجهود للوصول بالحفر إلى قنوات الأنفاق الإسبانية الممتدة في تلك الجهة. وقد ظهر القسم الأول من النفق ابتداء من يوم 23 ديسمبر 1774 في اتجاه أنفاق البرج[170].

تتألفت حصانة البرج من القسم المركزي الممثل في النواة، يحميه من الجهة الشمالية برج روساريو ومن الناحية الجنوبية الشرقية برج فيكتوريا الصغرى. ويتقدمه من الجهة الغربية مركز منارة لونيتا وسان أنطونيو. وقد اتخذت لحماية تلك الأبراج سلسلة من التدابير الحربية مثل إحاطتها بالحفائر الملغمة وشق الطرق المحمية ومد الأسيجة الحجرية، مثلما هو مبين في الرسم الموضوع من طرف خوان كاباييرو.

(168) يوم 8 مارس 1775. **اليومية**، ص. 151.

(169) مراسلة 14 فبراير 1775 **كازيطا دي مادريد**، ص. 65.

(170) **اليومية**، ص.80 ؛**كازيط**، ص. 66 ؛ F. de Miranda. *Diario* p. 42

وأحيطت مساحة البرج الغربية بنفق ممتد من منارة سانتا لوثيا إلى برج روساريو، ومنه أمكن مد قنوات أخرى متعمقة نحو الميدان الغربي[171]. وكان الإسبان قد مدوا نفقا ينطلق من برج روساريو نحو موقع الرأس الصغير من نقطة التقائه بالنفق الغربي، ومنه أيضا مدت قنوات في شتى الاتجاهات نحو المواقع المغربية بالرأس الصغير[172].

واحتراسا من تسلق المغاربة وتسربهم من حافة الساحل أحدث الإسبان ما سمي لديهم باسم "كورتاذورا"(Curtadura)، وهو سياج حجري ملغم، بينما أحدث من الجهة الجنوبية الشرقية حاجز حجري يفصله من المحجرة ميدان ملغم كذلك. ونظرة واحدة إلى الأنفاق يتبين مدى الاستعدادات التي سبق للحامية اتخاذها قبل موعد الحصار، وأن برج فيكتوريا وحده يمثل موقعا جد حصين وفي موقع دفاعي جيد بفضل قطعه المدفعية البالغة ثمانية عشر مدفعا. تلك هي التحصينات التي أراد الجيش المغربي اقتحامها عن طريق الأنفاق. والملاحظ من الرسم أن المغاربة كانوا قد أعدو حاجزا من الأحراش لحماية أشغالهم بالرأس الصغير المرموز إليه في الرسم بحرف S. ومن هنالك شق المغاربة نفقين:

- الأول في اتجاه مدخل نفق بونتيا الواصل بين برجي فيكتوريا وروساريو في نقطة f، مبدأه على بعد من برج فيكتوريا بنحو 35، 175 مترا. وفي 31 ديسمبر كان المغاربة قد تقدموا به نحو سبعة عشر مترا، دون أن يتأثر بالانفجار الذي تعرض له قبل ذلك يوم 29 منه[173]. وقد دبر الإسبان خطة إيقاف أشغاله بتنفيذ عملية مشتركة برية وبحرية ضد نفس الموقع يوم 9 يناير[174]. بيد أن الهجوم الإسباني لم يحد من عزم المغاربة، فبعد تقدم مناسب

(171) هي المسافة الفاصلة بين منارة سانتا لوثيا J و مدخل نفق بونتيبا f.

(172) يشير الرسم إليه بحرف Q ومدخله f المتصل بالنفق الغربي.

(173) توصلنا إلى تقدير المسافتين المذكورتين اعتمادا على سلم الرسم. **اليومية**، ص. 80؛ F. de Miranda , *Diario* p. 43

(174) **اليومية**، ص. 93 ؛**كازيط**، 24/1/ 1975، مراسلة 9 يناير 1775.

أمكن لهم تفجير لغم ضد النفق الإسباني الممتد من تلك النقطة المشار إليها بحرف a وذلك يوم 16 يناير، غير أن المساحة المخربة كانت صغيرة، مما ساعد الإسبان على المضي في الحفر.

وفي يوم 19 من الشهر الجاري كانوا قريبين من مقدمة النفق المغربي، ولم تظهر النتيجة إلا يوم 1 فبراير حينما فجر الإسبان اللغم الذي أعدوه بالنقطة a قبل ذلك لقطع الطريق على الحفر المغربي، وبسببه قتل العديد من الحفارين مما جعل السلطان يتوجه بنفسه على عجل إلى عين المكان. و لم يظهر بعد ذلك أي تقدم في ذلك الاتجاه بأمر من سيدي محمد على ما يظهر[175].

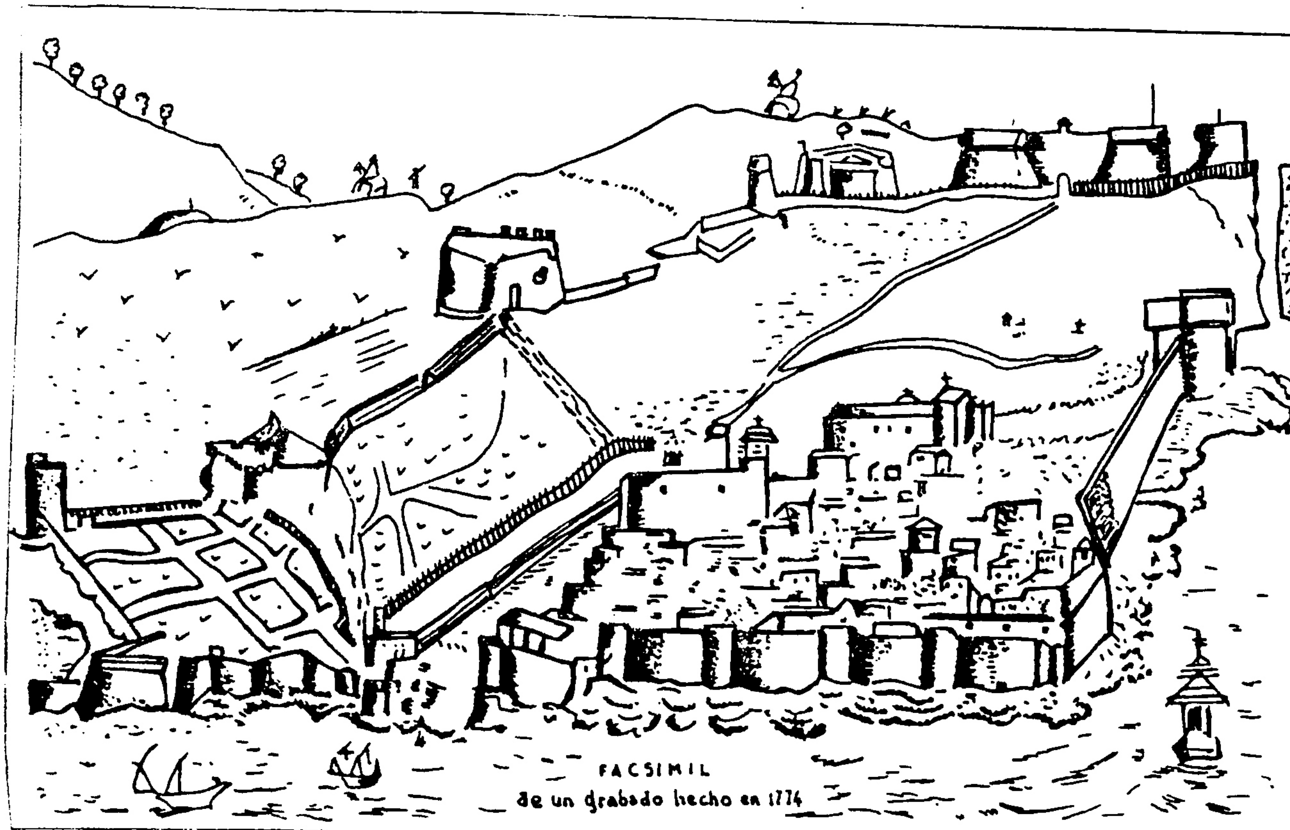
- النفق الثاني المتجه نحو مركز الأنفاق الإسبانية ببونتييا المشار إليه بحرف Q على بعد منها يقدر بنحو خمسين فارة، وهو ما يعادل أربعمائة وثلاثين مترا. بدأوا فيه يوم 26 ديسمبر بحماس قوبل من طرف الإسبان بشق عدة قنوات بحثا عن خط النفق وامتداده[176].

ولا نعرف عن تقدم أشغاله والعراقيل التي صادفت الحفارين شيئا كثيرا سوى ما يمكن استخلاصه من تباطؤ الحفر حيث تم قطع طريقهم بتفجير اللغم في نقطة b يوم 1 فبراير. والواقع أن الحفر استمر ولو كان ذلك بحماس أقل. هذا ما شهدت به مراسلة مليلة في 21 فبراير 1775 مشيرة إلى يومي 12 و 13 من نفس الشهر[177].

- وهناك نفق ثالث قيل إنه مدت قناته ضد برج روساريو، شرع فيه يوم 30 ديسمبر، غير أن خوان كاباييرو لم يشر إليه في رسمه مما دل على ضآلة أهميته.

والمستخلص من عمليات حفر الأنفاق من جهة الرأس الصغير توقف تلك العمليات بصفة نهائية منذ 7 شهر فبراير 1775 إثر نتائج اللغم الذي فجره

(175) **اليومية**، ص. 115 ؛ **كازيطا**، 21975/21، ص. 77 ؛ F. de Miranda , *Diario* p. 65
(176) الفارة مقياس طولي يساوي بالمقياس الإسباني 836 مليمترا. أو 83،6 سنتيمترا.
(177) **اليومية** صص. 113. 115؛ **كازيطا**، ص. 65؛ F. de Miranda , *Diario* , p. 64



المحاطان الثاني والثالث في آخر ديسمبر 1774

الإسبان في أقرب نقطة متصلة بين الأنفاق الإسبانية والمغربية[178]. بعد محاولات دامت أزيد من الشهر.

سارت فكرة حفر الخنادق بشكل مواز لحفر الأنفاق مع فارق في الهدف إذ أن الأخيرة كانت ترمي إلى إيجاد المكان المناسب لقيادة الهجومات المنظمة ضد الأبراج الواقعة بالفحص، حيث بدا أن الحفر غير ملائم كثيرا بسبب الاستواء وسيادة التربة الهشة.

- وأكبر عملية الخنادق هي التي امتدت من رباط مليلة في اتجاه كديتي مزوجة وترارة وبطاريات الشاطئ، محمية عن الأنظار بواسطة الأحراش التي تم إحضارها يوم 31 ديسمبر. شرع العمل في الحفر منذ فاتح يناير. وظهر الهدف من مد الخندق بنصب بطارية من المدافع مقابل برجي سان ميكيل وسانتا باربارا. غير أن المدفعية الإسبانية عرقلت أشغالها وتمكنت من إبطال قصفها بعد أيام معدودة[179].

- يظهر أن المغاربة كانوا قد صمموا العزم للاقتراب أكثر من الأبراج مستغلين الخندق السابق الذكر لحفر خندق آخر أكثر تقدما نحو الأبراج السابقة الذكر حسبما تبرزه اليوميتان ورسم الأنفاق والخنادق. والخندق متكون من قسمين شمالي وجنوبي كان من المفروض إحداث خط الربط بينهما. يبدأ الشمالي من نقطة انتهاء نفق الرأس الصغير المغربي المتوقف منذ يوم 31 يناير بسبب تفجير الإسبان للغم في نقطة **a** مثلما سلف، ليمتد نحو الجنوب الغربي، طوله مائة وثلاثون مترا تجري قناته متقاطعة مع خط امتداد أنفاق برج فيكتوريا على شكل شبه عمودي ، وهو الذي يرمز إليه الرسم بحرف **X**.

---

(178) كازيط 1975/2/28، ص. 89.

(179) يشير رسم الأنفاق والخنادق إليه بحرف T. **اليومية**، صص. 39. 89.، Miranda *Diario*, p. 46.47 48.49.50. تم حسب خوان كاباييرو تعطيل الأشغال يوم 8 يناير. اليومية، ص. 92؛ لم يذكر ميراندا شيئا من هذا.

شرع في أشغال الخندق منذ بداية شهر يناير دون أن يتفطن الإسبان بذلك وهو يقابل مباشرة برجي سان كارلوس وسانتا لوثيا من توابع برج فيكتوريا. وقد تمكن المغاربة من تفجير لغم هناك لقطع طريق نفق الإسبان الممتد إلى موقع بونتييا Q، لذلك أطلق عليه الإسبان للدلالة على مكان الانفجار اسم "بولاذورا"(Vuladura)[180].

مد الخندق الجنوبي على طول خط شمالي في نفس الوقت مقابل برجي سان ميكيل وسانتا باربرا على طول مسافة سبع وستين مترا، وهو الذي يرمز إليه الرسم بحرف V، المعروف باليوميتين باسم "بوكامينا" (Bocamina) أي فم الخندق.

كانت الغاية من إحداث الخندقين على ما يظهر محاولة لربط الحفيرين الشمالي والجنوبي لاتخاذهما موقعا متقدما قريبا بعملياته من الأبراج الخارجية الشمالية منها والجنوبية، وهي الأبراج التي كانت عرقلة أساسية للوصول إلى برج فيكتوريا وأسوار المدينة. وتدل الأشغال على أن المغاربة بدأوا بحفر الأنفاق بدءا من الخندقين نحو الأبراج في اتجاه برج سان أنطونيو انطلاقا من الخندق الشمالي X وسانتا لوثيا من النفق الجنوبي V[181].

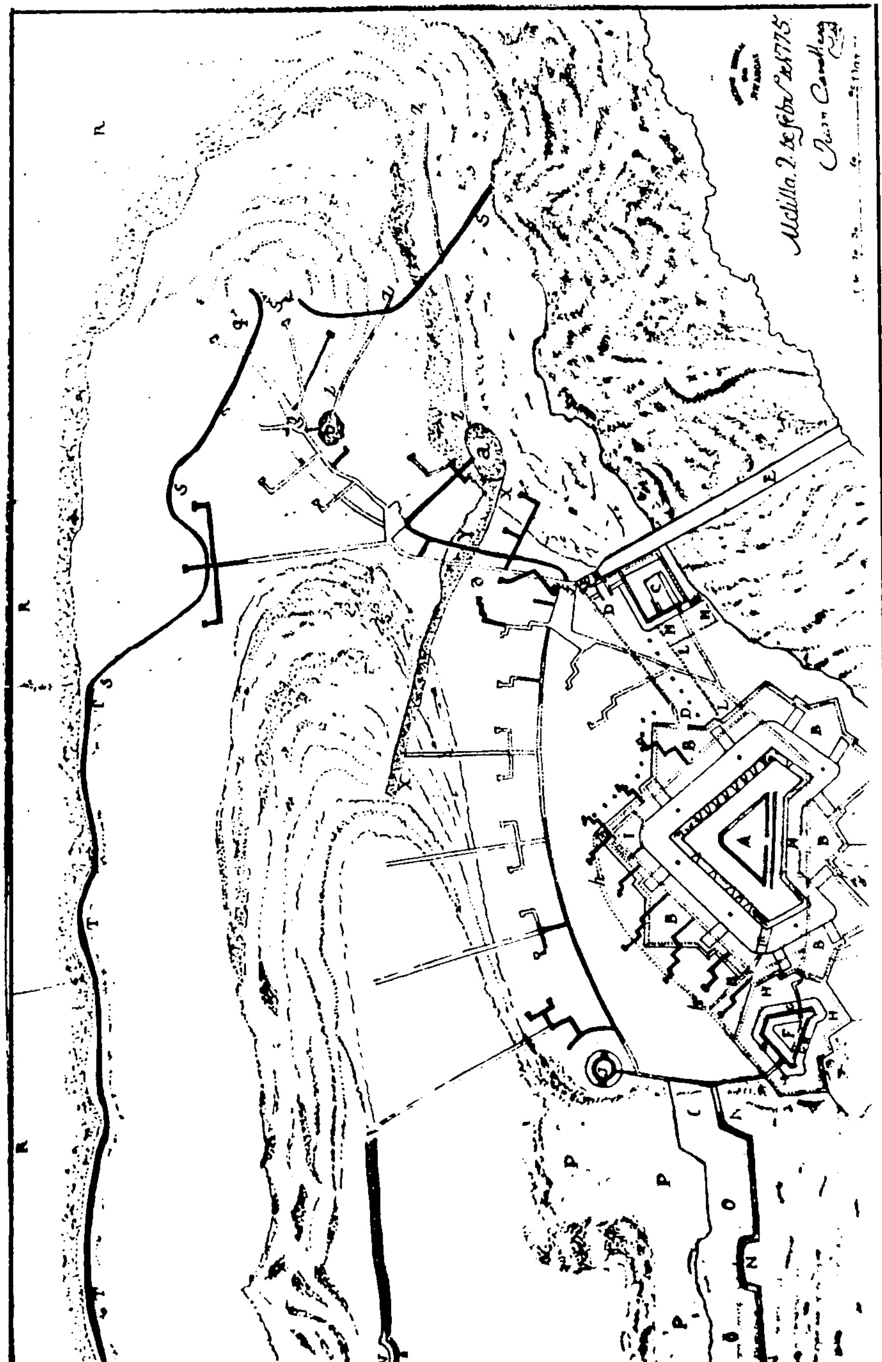
وتصور لنا اليوميتان السير البطيء الذي سارت به عملية الحفر، فالشمالي لم يكن قد تقدم يوم 21 يناير سوى نحو خمسة أمتار فقط، بينما أنجز من الجنوبي نحو سبعة أمتار نتيجة كثافة قصف الأبراج و برج فيكتوريا خاصة. وعادت يومية كابايرو لتشير إلى أن الخندق متقدم إلى غاية 28 فبراير نحو ثلاثين مترا بالنسبة للشمالي، أما الجنوبي فقد بلغ ما تم إنجازه سبعة عشر مترا. وقد توبع الحفر سيرا على تلك الوتيرة خلال الأيام التالية إلى غاية 8 مارس ليعلن عن توقف الأشغال بصفة نهائية[182].

---

(180) **اليومية**، ص. 85؛ F. de Miranda, *Diario*, p. 46

(181) **المصدر السابق**، 150.

(182) **نفسه**، 150، 143؛ F. de Miranda , *Diario* , pp. 57, 84, 90,



رسم الخنادق والأنفاق حسب كابابيرو

البيانات المفسرة لرسم الأنفاق والخنادق

A	- برج فيكتوريا الكبرى وحفيره، حيث تم غرس 6 ألغام من عيار 12 بوصة.
B	- طريقه المحمي.
C	- مخفر روساريو وطريقه المحمي **D** الممتد من برج فيكتوريا إلى اتصاله بكورتاذورا **E** التي غرست بها 7 ألغام ووزعت على منحدره النجوم الحديدية.
F	- مخفر فيكتوريا الصغرى مع حفيره **G** والطريق المحمي **H**.
I	- مخفر سان أنطونيو.
J	- منارة سانتا لوثيا وحفيرها **K**.
L	- سياج مزدوج مكون من طابور **M** لحمايته وحماية برج روساريو.
N	- سور حجري مع حفيره **O** للحيلولة دون التسرب إلى المحجرة **P** التي تم إغلاقها.
Q	- بونتييا.
R	- المسيلة.
S	- موقع بونتييا مع حاجز الأحراش.
T	- الخندق وامتداده.
V	- فم النفق المحفور في الصخر.
X	- خندق آخر استغله المسلمون لاحداث الانفجار **Y** قصد ربطه بفم النفق.
Z	- نفق الأعداء الذي قصدوا به قطع امتداد أنفاقنا، لذا فجرنا لغما بموضع **a** يوم 31 يناير، وفي **b** يوم 1 فبراير.
d	- القناة الأخرى التي حفرها المسلمون من موقعهم ثم توقفوا خوفا من التعرض لانفجار ألغامنا. وبالفعل تقرر تفجير لغمين كانا قد أعدا قبيل توقف أشغالهم.

وربما كان لهذا التوقف أثر على الوضعية العامة التي كان يجتازها الجيش المغربي في بداية شهر مارس خاصة بعد التأكد من عدم فعالية القصف المغربي للمدينة وبعد توقف أشغال الأنفاق من جهة الشمال بمواقع الرأس الصغير.

وقد لاحظ ميراندا دون كابايـيرو أن سيدي محمد ظهر على الساعة الرابعة من مساء يوم 8 مارس جالسا أمام مقر إقامته مرفوقا بعدد من كبراء الجيش مستنتجا من ذلك المظهر اعتلال صحة السلطان بعد أيام من غيابه عن الأنظار منذ يوم 4 مارس(183).

ونورد هنا ما ذكره كاباييرو في يوميته عن عمليات الأنفاق والخنادق كخلاصة: "... إننا لو لم نتفوق عليهم بالنيران الباطنية (الألغام) أو لم نتوفر على العدد الهام من المدافع الميدانية، فإنني لن أصدق اعتماد العدو فقط على الثقة التي وضعها في مجرد وسيلته المتبعة إلى الآن وفي الامكانات المتواضعة المتوفرة لديه..."(184).

فكرة تنظيم الهجوم العام

كانت الخطتان السابقتان الهادفتان لهدم كل من المدينة والأبراج بمثابة تحضير للخطة النهائية المنتظرة المتمثلة في تنظيم الهجوم العام. تلقت مليلة منذ فاتح فبراير نبأ الاستعداد المغربي للهجوم حدد ميقاته بيوم 13 منه، وعلم أن هذا الاستعداد متوقف على وصول الإمدادات(185).

ذكر الحاكم العام في تقرير فبراير أن سيدي محمد عقد اجتماعا عاما مع كبار رجال الحرب بحضور الفقهاء للاتفاق في شأن الهجوم العام، وأن جماعة من الحاضرين أدركوا خطورة العملية مما أدى بهم للدعوة إلى التخلي عنها، على عكس قواد الجيش الذين لم يكونوا راضين بغير تنظيم الهجوم. ونتيجة

---

(183) F. de Miranda , *Diario* , p. 90

(184) **اليومية**، ص. 151.

(185) نتذكر أن ما توصل به الميدان يوم 8 فبراير هو حمل مائة بغل. **اليومية**، ص. 122.

لهذا تقرر كخطة أولى تسريح عدد من رجال القبائل الذين لم تكن لهم معرفة بشؤون الحرب بمجرد انتهاء احتفالات العيد. وقد تم الأمر كذلك[186].

لم يؤكد كابايرو وميراندا خبر الاجتماع العام الذي عقده السلطان مثلما نص عليه دانفيلا وكويادو(Danvila y Collado)[187]، ولكنهما قدما التحركات المغربية التي استخلصا منها ارتيابهم في الأمر، فمما قاله كابايرو:

"انكشف الصباح عن عدم حدوث أي شيء جديد ذي بال، لكن لوحظ منذ الساعة الثامنة صباحا أن المسلمين شرعوا في تنظيم الصفوف ونشر الألوية مما يشبه الاستعداد لخوض معركة[188]، وتحولوا بعد هذا النمط من التنظيم إلى القيام بحركات شبيهة بالمناوشات والركض بالخيالة وإطلاق النيران بدون رصاص بعيدا عنا.. واستمرت التظاهرة إلى غاية الساعة الثانية عشرة زوالا ثم عاد الجميع إلى المخيمات"[189]. وكتب ميراندا موضحا:

"وبعد برهة شاهدنا تحرك فرقة الفرسان بقيادة السلطان نفسه، وهو على ظهر فرس جميل أبيض اللون، تعلو فوق رأسه مظلة خضراء اللون عجيبة، متبوعا بعدد من الفرسان يتراوح عددهم بين ثمانية أو عشرة آلاف رجل راكبين على هيأة حسنة، تتخلل صفوفهم أربعة وعشرون راية دمشقية، لونها مختلف بين الأخضر والأصفر والأحمر".

وقبل الدخول في ميدان نيران مدافعنا بدأ الجميع في إجراء المناورات وتنظيم الصفوف مع إطلاق النيران إلى غاية الساعة الحادية عشرة زوالا، حيث شرع الجميع في العودة إلى مخيماتهم. وقد بقي المشاة في خنادقهم ومواقعهم إلى نفس الساعة، وبعد أن أطلقوا على الحصن والأبراج الخارجية ثلاثة أو أربعة شحنات البنادق عادوا هم بدورهم إلى المخيمات[190].

---

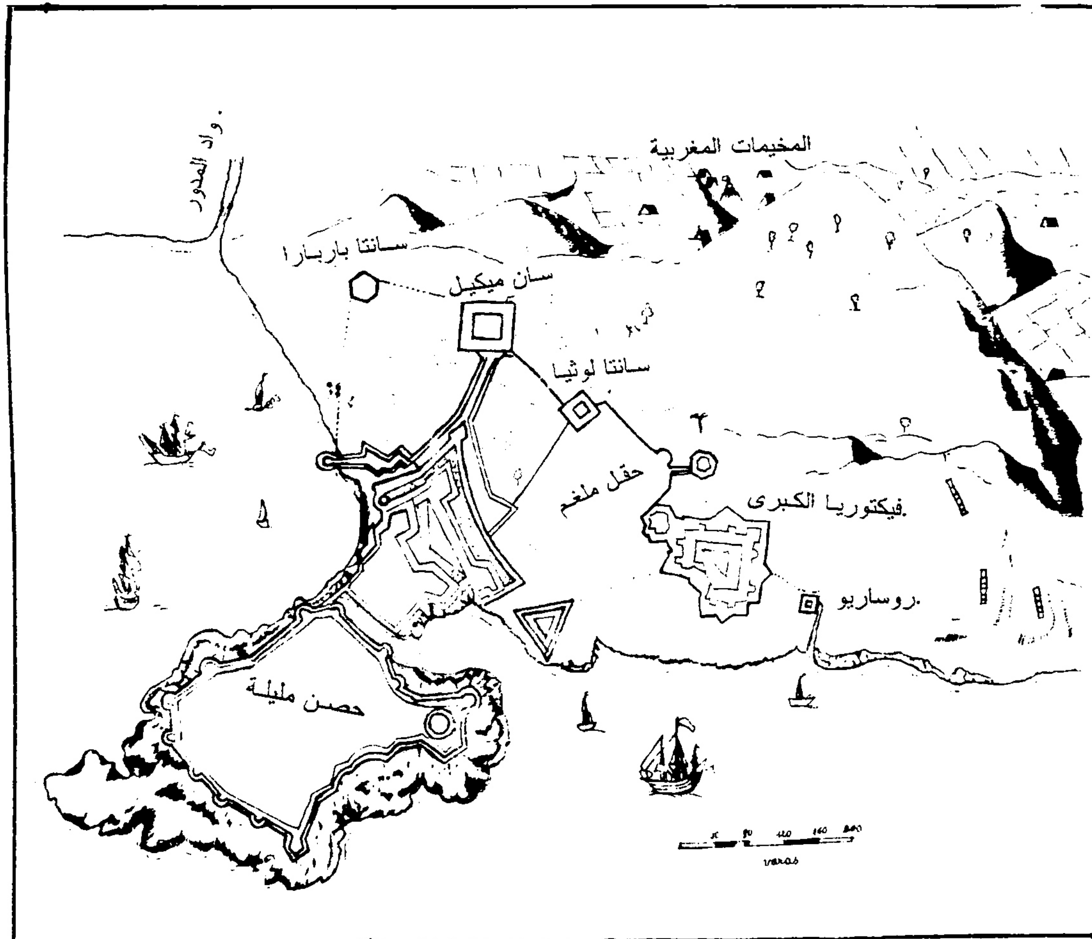
(186) *Gazeta de Madrid* , 7/3/1775 , p. 101.

(187) *Historia General de España* ,4/192

(188) حسب ميراندا أن العدد المشارك في التظاهرة يصل إلى 1500 محارب. *Diario*, p. 72

(189) **اليومية**، ص. 124.

(190) *Diario* , 72.



التحصينات والحقل الملغم

ويفند كل ما ذكره كابايرو وميراندا مزاعم مخطوطة مجهولة المؤلف والعنوان، أوهم صاحبها أنه شاهد عيان للهجوم المغربي. ومما ذكره أن مولي علي قاد الهجوم من موقع الرأس الصغير على برج فيكتوريا، واضعا في مقدمة الجيش خمسة آلاف محارب يهودي وعددا مماثلا من العبيد لاختراق جبهة القتال على حساب تلك الفرق التي كان مراد السلطان التخلص منها"[191].

وذكر تقرير حاكم مليلة العام شيئا من قبيل ذلك لم يخل من طرافة، فحسب الحاكم أن السلطان جمع نحو ألف من اليهود وخمسة آلاف من رؤوس الأبقار محلاة بأكسية ذات ألوان مختلفة، وقد استدعيت كافة القبائل المجاورة لمشاهدة هذا العرض[192].

وما يمكن إثارته فيما يخص مزاعم حاكم مليلة وصاحب المخطوطة المجهول هو الإشارة إلى تخوف المغاربة الفعلي من الحقل الملغم الذي سبق أن زرعه الإسبان داخل المحاط الرابع في مرحلة وسطى بين منارة سانتا لوثيا وبرجي سان أنطونيو وفيكتوريا الصغرى.

والحقل الملغم واضح في الرسم الذي أعده فرانسيسكو دي ميراندا. ومن المعتقد أن المغاربة كانوا قد حسبوا لذلك حسابهم، إذ أنهم لم يحاولوا الاقتراب من تلك الساحة. ولذلك نقلت الرواية والإشاعات استعمال الأبقار في مقدمة الجيش، دون تصديق ما رافق ذلك من الإشاعات عن تجنيد فرقة من اليهود لتلك المهمة. وقد تأكد المغاربة من خطورة اقتحام الحقل بعد أن اعترضت طريقهم عدة انفجارات أثناء تسلل المحاربين نحو برج سانتا لوثيا[193].

والنتيجة العامة المستخلصة من تتبع الأخبار ما راج منذ 5 فبراير من عزم المغاربة على تنظيم الهجوم العام يوم 13 منه على المدينة والأبراج كخطوة

---

(191) المخطوطة بالخزانة الوطنية بمدريد تحت اسم *Papeles curiosos*، أي أوراق غريبة، وهي تحت رقم 10928، الكتاب 46، صص. 9. 10.

(192) *Gazeta de Madrid*, 21/2/1775, p. 79

(193) مراسلة مليلة: 17 يناير 1775. A.H.N. Estado, L. 4309/2

أخيرة بناء على الوارد من أخبار الجواسيس. توقع الإسبان قيام المغاربة بالهجوم إلا أن شيئا من ذلك لم يقع، إلى أن أعلن عن إلغاء الهجوم مرة وإرجائه تارة أخرى. وكيفما كان الأمر فإن تقرير 3 مارس هو الذي أخبرنا بإلغاء قرار تنظيم الهجوم العام المرتقب(194).

رفع الحصار عن مليلة

بعد ثمانية وتسعين يوما من الحصار المغربي لم تسفر المحاولات المتعددة عن حل إيجابي في مرحلة من المراحل مثلما كان مؤملا. ومنذ بداية مارس 1775 كان سيدي محمد متأثرا بالنتيجة، مما ألزمه بمكان إقامته والاحتجاب عن أنظار المراقب الإسباني.

وخلال مدة الاحتجاب كان السلطان منهمكا في إعداد مذكرة إلى سفراء الدول الأوربية على لسان كاتبه صامويل سومبل، كما أمر كاتبه أحمد الغزال لتحرير رسالة إلى الحكومة الإسبانية للإعلان عن رفع الحصار ومبرراته وفي صبيحة يوم 13 محرم 16/1189 مارس 1775 غادر السلطان ميدانه بقلعية في اتجاه تازا ففاس ومكناس(195).

ليس هناك أدنى ريب من أن حقيقة مبررات رفع الحصار المغربي كانت حربية صرفة، وهو الشيء الوحيد الذي لم يتمكن الجيش المغربي من تجاوزه إذ أن مسألة مليلة كانت بالنسبة إليه قضية وطنية سامية متعالية فوق جميع الاعتبارات الأخرى.

لقد ألف المغرب حصار الثغور وحصار سبتة بصفة خاصة، ولكن انسحابه من ميدان مليلة يعني بالذات خسران مشروع كانت حظوظ الفوز به كبيرة، ولذلك نعتبر مجمل التبريرات المقدمة من الطرف المغربي الرسمي منه

---

(194) *Gazeta de Madrid*, 21/3/1775, p. 12. **اليومية**، ص. 128.

(195) حدد الضعيف الرباطي تاريخ رفع الحصار بيوم 14 محرم، وهو أقرب التواريخ المقدمة من طرف المصادر المغربية. **تاريخه** ص. 178. ونقلت نفس الخبر رسالة بتاريخ 18 مارس 1775 A.G.S. Noticias y Confidencias, L. 5344/1

بصفة خاصة انعكاسا عميقا للأزمة المعنوية التي خرج منها الجيش من الميدان، إلى درجة تجاهل العامل الحربي الذي كان أساس المحاولة الوطنية الجريئة.

وأظهرت العمليات الحربية خطأ الاستهانة بتحصيات مليلة، إذ أنها فاقت كل التصورات وكذبت كل التقديرات. ولم يكن رأي ضعف التحصينات منحصرا على تخمينات المغاربة فقط[196]، هذا كان رأي لوي شينيي ورأي الحكومة الإسبانية أيضا، فالأول يقول:

"من المحتمل أن يتمكن للمغاربة في النهاية الإستيلاء على ذلك الحصن الضعيف الذي تصعب نجدته في فصل الشتاء، لكن لن يتم لهم ما يريدونه إلا بعد جهود وخسائر كبيرة في الأرواح"[197].

ولم تكن فكرة اختيار فصل الشتاء موفقة كل التوفيق، فرغم الصعوبات الجوية التي رافقت الحصار فإن الإسبان تمكنوا من إيصال الإمدادات والإغاثات إلى المحاصرين متجاوزين كل الصعوبات. وتتبع يوميتي خوان كابايرو وفرانسيسكو دي ميراندا يقدم الأمثلة العديدة، ونشير هنا على سبيل المثال إلى النجدة الأولى الواصلة إلى المدينة يوم 30 ديسمبر 1774[198].

ومنذ الأيام الأولى من الحصار بدأت الأنباء تصل إلى الإسبان مفيدة بحاجة المغاربة الماسة إلى الأقوات والذخائر الحربية، وهي أنباء يكذبها تتبع قراءة اليوميتين المعتمدتي.

ونكتفي هنا بالعودة إلى ما ذكرناه عن جدول وصول الإمدادات لنستدل على سلامة ميدان مليلة من تلك الأزمة، والتالي على أنها لم تكن طرفا أساسيا في رفع الحصار المغربي. ومن المعلوم أن ممن كلف بتزويد الجيش المغربي بالحبوب قائد قبيلة مرموشة (Marmusa) بثمن متراوح بين أربعة وستة

---

(196) هو ما عبرت عنه مراسلة مليلة في 7 يناير 1775. A.H.N.Estado. L. 4312/2

(197) 3 يناير 1775. A.H.N. Estado L. 6108 ; R. Lourido Diaz, « Estrategia Militar y Deplomatica », R.H.M. 1974, p. 34.

(198) وصلت الإمدادات على ظهر 24 سفينة محملة بالجنود والمدافع والذخائر والأقوات إلى جانب 4 سفن قطلونية. **يومية** كابايرو، ص. 81. F. de Miranda , *Diario*, p. 44

دراهم للمد الواحد[199]. ومن الضروري القيام بجولة نقدية بين مختلف اتجاهات التبريرات الرسمية ويعود سبب اختلافها علاوة على نوعيـة الدواعـي إلى الجهـة التي أدليت بها[200].

- إذا تجاوزنا ما ذكره أحمد الغزال لحاكم مليلة يوم زيارتـه الأولى في 16 مارس 1775، فإننا نتوقف عند مراسلته بميدان مليلة لرئيـس الحكومـة الإسـبانية بعد أربعة أيام مضت عن رفع الحصار يؤكد فيها أن سبب رفع الحصار هو رد فعل لاتهام كارلوس لسيدي محمد بنقضه للصلح، "وهـو سـبب انتقالـه بالمحلـة والعسكر عن امليلية"[201].

وترمي إشارة الغزال إلى مراسلات الماركيس دي كريمالضي جوابا عـن مراسلات الغزال الموجهة إليه من ميدان مليلة، يذكره فيها بما ذكرته حكومتـه عن نقض الصلح من الطرف المغربي في البر والبحر معـا[202]، مما لا مكـان لـه أيضا ضمن الدواعي الحقيقية.

باستقرار سيدي محمد بمكناس إثر عودته من حصار مليلة عادت مسـألة الهدنة في البر والبحر لتشكل هي بدورهـا إحـدى دواعـي رفـع الحصـار مثلمـا

---

(199) رسالة مليلـة بتاريخ 14 ديسـمبر 1774 تقـول: ثمـن الدجاجـة الواحـدة 8 موزونـات وتوزع على ثمانية رؤوس وسعر الخبز 4 موزونات، أما الشعير وباقي المواد فلا وجـود له. وتشير كل من **يومية وهران** (أيام 29 و30 و31 ديسمبر 1774) ومراسلات لوي شـينيي في مراسـلة 4 مـاي 1775 .1/336 P. Grillon, *Correspondance,* إلى نفـس الحالة. رددت **كازيطا دي مدريد** اقتصار عيش الجنود على قطعة خبز الشعير. عدد 24 يناير 1775، ص. 38.

(200) A.G.S. Secretaria de Guerra , L. 531

(201) يوجد النص العربي للرسالة بالأرشيف التاريخي الوطني بمدريد. ملف 4309، ونشـرت ترجمتها بصحيفة كازيطا دي مدريد. **كازيطا**، يوم 4 أبريل 1775.

(202) لم يحالفنا الحظ للعثور على مراسلات رئيس الحكومة الإسبانية المشار إليها بالأرشـيف التاريخي، سوى واحدة مؤرخة في 31 مـارس 1775، وهـي متـأخرة مثلمـا تـرى عـن مراسلة الغزال ولكنها تفيد عن معنى المراسلات الإسبانية المختفية.

كانت في بدايته، استنادا إلى أن عقد الصلح لم يكن حسب اعتقاد السلطان شاملا للحصون الأربعة.

كان لوي شينيي أول من أنبأنا بإدخال المسألة ضمن دواعي رفع الحصار. فحسب القنصل الفرنسي أن سيدي محمد عبر لكارلوس الثالث عن عدم علمه بمضمون الشرط التاسع عشر[203]. ويشرح القنصل ذلك بما مفاده أن كانت للسلطان حين عقد اتفاق عام 1767 نظرة خاصة تجاه الحصون الإسبانية الواقعة في حدود مملكته، فقد رسخ في اعتقاده أنها ستعود عاجلا أم آجلا إليه بناء على العلاقات الودية التي تربطه بالكورطي الإسباني. وبما أنها لم تسترجع كما كان المنتظر فإنه لم يجد محيدا عن حصارها، ولم يكن ذلك في رأيه ليعني نقض الصلح والخروج عن روح الاتفاق بأي حال من الأحوال [204].

ونجد صدى ترديد هذا التبرير صراحة في المراسلة السلطانية التي حملها كاتبه أحمد الدليم إلى حاكم مليلة في يونيه عام 1775[205]، ثم كلف كاتبه صامويل سومبل بتسليمها إلى حاكم سبتة في شتمبر 1775، بناء على ما أخبرنا به لوي شينيي[206]. ونطلع على المبرر من خلال نص الرسالة:

"إعلم أنه قد طال تفكرنا في حقيقة المدن الثلاثة التي لك بساحلنا وفي كيفية ذكرهم بعقد الصلح، وانبهم عنا أمرهم لطول الأمد ولم نر سبيلا للوقوف على حقيقتهم إلا مطالعة عقد الصلح. فنوكد عليك التوكيد التام مع حامله حتى نتصفحه ونتأمله ونعلم حقيقة ذلك الأمر، فإن كان الحق معك عرفناه واعترفنا لك به وأن ما صدر منا غلط، وإن كان الحق حقنا عرفناك به لأنكم ربما تفهمون لغتنا على غير موضعها"[207].

---

(203) P. Grillon, *La Correspondance*, 1/341

(204) **المصدر السابق**، 508/2 .

(205) رسالة مليلة: 11 يونيه 1775. A.G.S. Secretaria de Guerra, L. 526

(206) **المصدر السابق**، 367/1.

(207) الرسالة بتاريخ 7 رجب 1188 13 شتمبر 1775. A.H.N. Estado L. 4312.

وليس من الغريب أن يعبر السلطان سيدي محمد لخصمه بعدم تذكر ما جاء في الشرط التاسع عشر من عقد الاتفاق، إذ أن المراسلات ونصوص الاتفاقيات غالبا ماكانت تبقى بيد الكتاب، ثم يكون من مصيرها الإهمال والضياع(208).

لعلنا نلاحظ من خلال هذا التبرير أن التقصير والاتهام موجهان لأحمد الغزال. وكان لوي شينيي يلوح من حين لآخر إلى شيء من ذلك. ففي نظره أن الغزال كان ميالا إلى إرضاء الإسبان بخدماته، كما أنه قدم لسيدي محمد ردود بلاط مدريد بتفاسير موافقة لأغراضه وأنه أخفى النوايا الحقيقية التي كان الإسبان يرمون إليها(209).

وكيفما كان الأمر فإن محمد بن عثمان المكناسي، خلف أحمد الغزال المعزول بعد رفع الحصار لم يكن هو بدوره، ولا المولى عبد السلام الذي قضى مجمل الوقت في تطوان عالمين بحقيقة رفع الحصار المغربي حسب كتاباتهما طبعا، كما أنه ليس لما أدرجه الناصري من مبرر جانب من الصواب ووجه حقيقة(210).

والخلاصة العامة أن تضارب تبريرات تراجع الجيش المغربي قد استدعتها محاولة إنقاذ سمعة الجيش المغربي من جهة أولى، ورغبة عودة الصداقة الإسبانية إلى مسارها وفق اتفاق 28 ماي 1767 من جهة ثانية. هذا وأن أهمية ميزة آخر

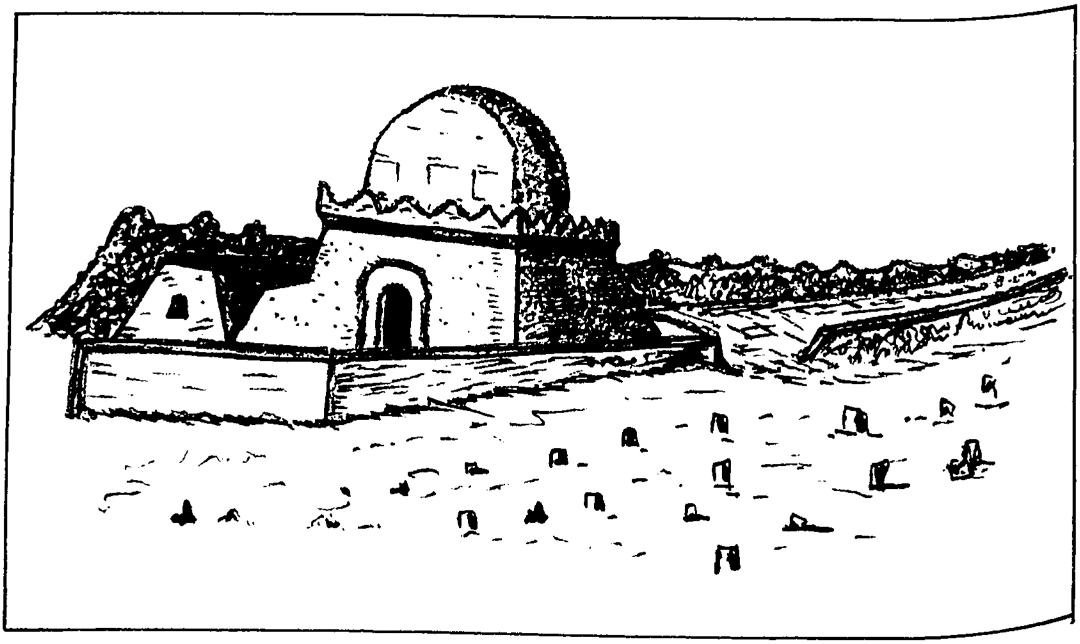
---

(208) كتب الفرانسيسكاني خوسي بولطاس (Jose Boltas) بعد خمس سنوات من رفع الحصار "أرتاب أن يكون في البلاد كلها من يعرف محتوى أي اتفاقية من الاتفاقيات المبرمة مع الدول الأوربية، وأما نص اتفاقيتنا الحديثة العهد مع السلطان فإنني أكاد أجزم باستحالة العثور عليه". رسالته إلى الوزير فلوريدا بلانكا بتاريخ 30 نوفمبر A.H.N. Estado L. 3384.1781

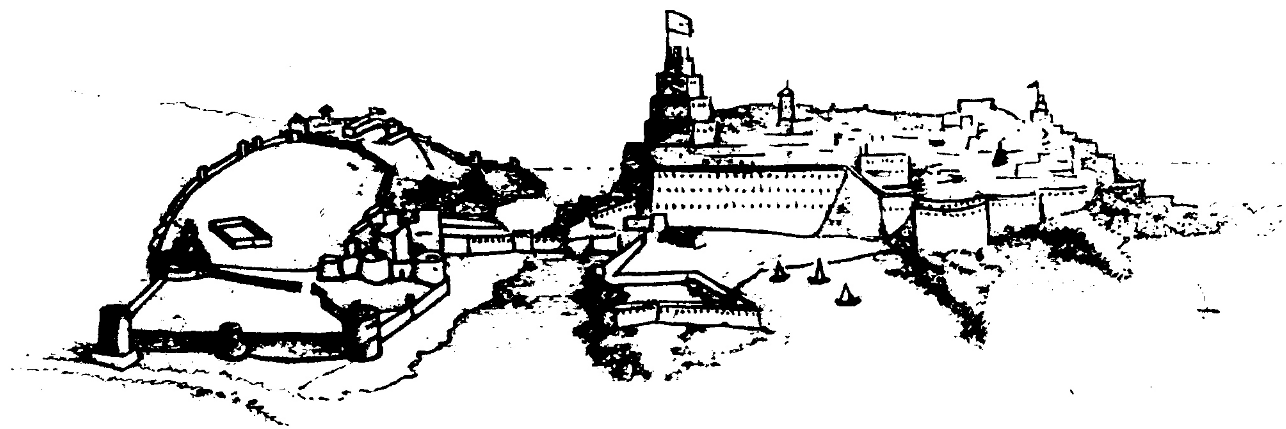
(209) رسالته بتاريخ 4 ماي 1775 P. Grillon, *La Correspondance*, 1/336

(210) يرتكز تبريره على عدم تذكر السلطان لما نص عليه شرط نقض الصلح. **الإكسير في فكاك الأسير**، ص.141، أما الثاني فقد علل ذلك بالتعويض المالي الذي دفعه كارلوس الثالث للسلطان. **درة السلوك**. مخطوط. ص.257. **الاستقصا**، 40/8.

هذه المرحلة أن المقاومة المغربية لم تستسلم برفع الحصــار، ويبقى علينا إبراز عناصر تلك الميزة.



قبة سيدي ورياش بفرخانة حسب رسم إسباني



مليلة آخر القرن الثاني عشر الهجري

القسم الخامس

مقاومة الوجود الإسباني خلال المرحلة الثالثة

(1859/1276 - 1775/1189)

(1)

قلعية والمقاومة

أواخر القرن 12 هـ.

(1799 - 1775)

بعد هذه الجولة الطويلة التي قطعناها عبر منعرجات تاريخ قلعية خاصة ومشكل الوجود الإسباني بمليلة بصفة عامة نخصص الصفحات الأخيرة من هذه الدراسة لتتبع بعض القضايا التي هي مرحلة ختامية لموضوعنا معلنا عن سنة 1859/1276 نقطة النهاية.

وغايتنا من هذا التوقف المنهجي مقتصر فقط على التمييز بين عهد طويل احتل فيه مشكل الوجود الإسباني بؤرة الاهتمامات المغربية، سواء على المستوى الشعبي أو المخزني، وبين حقبة تالية تركزت فيها أطوار النزاع بين قلعية ومليلة حول مسألة متولدة عن الطور الأول تدور حول مسألة توسيع حدود المدينة إلى أبعد النقط على حساب الأراضي القلعية.

يلوح لنا في هذه العجالة الأخيرة التي خصصناها لفترة 1799/1214 سنة توقيع اتفاق أول مع المولى سليمان وسنة 1859/1276 وهي سنة توقيع اتفاقية توسيع حدود مليلة أن هناك قضيتين هامتين هما اللتان استحقتا العناية في آخر هذا المطاف:

مسايرة فكرة الاحتفاظ بمليلة من حيث هي خلية عسكرية مسيحية ونقطة ارتكاز بحرية، لفكرة أخرى مناقضة لها دعت إلى ضرورة التخلي عن المدينة للمغرب بفوائد ترابية ومالية لصالح مدينة سبتة. وتهمنا معرفة مدى سلامة هذا الرأي بالنسبة للبحث المغربي.

كان فشل محاولة تسليم مليلة دعامة قوية تمسك بها الحزب المعارض الداعي إلى الاحتفاظ بالمدينة وحجة لفرض نظريته التي انطلقت من اتفاق 1799 ووجدت الظرف المناسب منذ عام 1844[1].

ويستوجب البحث في هذه النقطة اكتشاف وسائل الضغط الدبلوماسية والسياسية والعسكرية التي نهجتها الدواليب الحكومية لبلوغ مرماها في النهاية بالتوصل لامتيازات أقل بكثير من التي سعت إليها في اتفاق 1767 وملحقاته.

لم يكن للطرف الإسباني التوصل إلى أي نتيجة من الأمور السهلة فقد اصطدمت حامية مليلة بتصلب موقف المقاومة التي لم يضطرها فشل استرجاع المدينة إلى تغيير أسلوب علاقاتها بالمدينة المحتلة وتخليها عن الجهاد. وكثرت ترديدات المراجع الإسبانية لعصيان قلعية أوامر سيدي محمد والمولى سليمان بعده كلما تعلق الحديث بمسألة ضبط حدود مليلة منذ انسحاب الجيش المغربي من ميدان مليلة إلى مطلع القرن الثاني عشر الهجري(19 م).

وتبعا لسرد تلك المراجع وفي نظرها أن قلعية كانت آنذاك قد خرجت من نطاق سلطة المخزن لتندرج فيما تسميه المراجع الأجنبية ببلاد السيبة التي ينعدم فيها الاعتراف بالسلطة المخزنية القائمة. وأساس إقصاء قلعية حسب زعمها من دائرة السلطة المركزية راجع بالدرجة الأولى إلى ما لحق القبيلة من الخسائر في الأرواح والممتلكات والمحاصيل الزراعية[2].

غير أن تمحيصا دقيقا لوثائق الفترة الزمنية لا يدعو مطلقا إلى تصور عدم إذعان سكان ناحية مليلة للسلطة المركزية على عهد سيدي محمد وخلفه ابنه المولى سليمان بتلك الكيفية التي ألقى بها الكتاب المعاصرون في أحضان بلاد السيبة مما يبرأ به تاريخنا ومعه قبيلة قلعية من ذلك الادعاء.

---

(1) عد الإسبان مدينة سبتة ضمن الحصون الكبرى، ومليلة وصخرتا بادس والنكور ضمن الصغرى.

(2) عبرت عن هذا الرأي رسالة الفرانسيسكاني خوسي بولطاس بتاريخ 2 غشت 1775 AHN. Estado. L. 4309. وكذلك: Jeronimo Beker, *España y Marrueco, sus relaciones diplomaticas* durante el siglo 19.

وواقع الأمر أن خلافا شكليا كان قد نتج عن انسحاب الجيش المغربي من ميدان مليلة بين مجاهدي قلعية وسيدي محمد لاختلاف وجهة نظر الطرفين حول ضبط الحدود وحراستها. ويعود سبب الخلاف إلى أن سياسة سيدي محمد حيال حدود مليلة كانت قد طرأ التغيير على تنظيمها.

استنتج السلطان بعد أن استنزفت حرب الحصار خزينة الدولة واستوعبت طاقاتها أن الحكمة تقتضي نهج سبيل التهدئة تجاه العلاقات الإسبانية والانصراف لمعالجة تبعات الحصار العسكرية والمالية. وعملا في هذا الاتجاه ينبغي عليه توقيف كل توتر حربي بين مليلة وجيرانها أهل قبيلة قلعية.

كان سيدي محمد قد بدأ بالفعل في تطبيق برنامجه الجديد مباشرة إثر انسحاب الجيش من الميدان، حين كلف كاتبه أحمد الغزال لتبليغ تعليماته إلى رجال رباط مليلة ومقدم القبيلة وقائد عسة الحدود للتخلي بصفة نهائية عن مناوشة الإسبان[3].

لا ريب أن فهم قلعية للوضع السياسي العام الذي درجت فيه قضية مليلة اختلفت صورته عما كان في ذهن سيدي محمد بن عبد الله. فالسلطان كان مضطرا من خلال تصوره للمسألة لحشد كل العواقب السياسية الداخلية منها والخارجية المترتبة عن الاستمرار في نهج نفس السياسة، وبناء على ذلك التصور صاغ حل المشكل الذي لن يتم بغير الوقوف بين الطرفين الإسباني والقلعي حاجزا للحيلولة دون حدوث أي شيء يعرقل عودة العلاقات مع إسبانيا إلى مسارها السلمي بين المملكتين.

أما قلعية فلم تتجاوز في تصورها للمشكل نطاقها المحلي الذي يمكن أن نقول عنه إنه قصير الطول ولكنه عميق الجذور المتصلة بالبحر والسهل والماء وكل الحياة التي تدب على سطح أرض القبيلة بعيدا عن أبعاد السياسة العامة وقريبا جدا بماجريات كل يوم جديد.

---

(3) **يومية** كاباييرو، صص. 159. 161. F. de Miranda , *Diario* , pp.94. 96.

وعلينا إضافة عامل آخر متعلق بالسياسة الإسبانية، فقد كان من مصلحتها إبقاء الحدود على اضطراباتها وعدم عودتها إلى استقرارها، وذلك بالدأب على اختلاق كل ما من شأنه أن يشوش الوضع بالحدود والعمل على إثارة سياسة اعتداء القلعيين، تحايلا منها لجر السلطة المركزية بعد ذلك إلى ضرورة تطبيق المسطرة باسم العدل والإنصاف مع القلعيين.

يبدو لنا بناء على اختلاف تصورات الأطراف الثلاثة أن يصبح من طبيعة الأمور رفض قبيلة قلعية قبول مسالمة الإسبان وإعراضها عن حلول تضع ميزان القوى بأيدي أعدائها. سيأتي هذا الرفض من بني شكر ومزوجة، وهما الخمسان اللذان سيبادران إلى رفع عقيرتهما في وجه القرار السلطاني وأسلحتهما ضد جنود مليلة. فمن هذا الباب وحده جاءت معارضة قلعية ومن تلك الزاوية وحدها ينبغي فهم أحداث الفترة الممتدة الحالة بين 1775 و1799. اعتمدت محاولة سيدي محمد لإعادة بعض الهدوء إلى قلعية على نظرتين اثنتين:

- إن موقف المعارضة الذي اعتصم به القلعيون من جانب، وما كانوا يعبرون عنه من التفاني في مقاومة الأجنبي، لم يكن أمرا غريبا عما كان يحس به سيدي محمد في قرارة نفسه، فلم يكن من الصواب ولا من العدل لديه الإجهاز على حركة سبق أن وضع نفسه هو رهن إشارتها وجميع إمكانات الدولة للدفاع عنها جل سنوات عهده.

- إن جميع الأسلحة الثقيلة من المدافع والمهاريس كانت لا تزال بقلعية بموقع المعارة مثلما سلف. فخطر بقائها بقلعية من شأنه أن يهدد قراره بالتزام الهدوء حيال العلاقات المغربية الإسبانية، وقد شعر السلطان بالخطر حينما فشلت محاولة نقل الأسلحة في صيف 1775 بسبب معارضة المجاهدين. ونضيف إلى ذلك ما تسرب من المخاوف إلى السلطان بمجرد أن علم بظهور المولى عبد الرحمان بناحية مليلة[4].

---

(4) رسالة بولطاس: 5 نوفمبر 1779. AHN. Estado. L. 4351

حراسة الحدود وفق التنظيم الجديد

تظهر أولى تنظيمات سيدي محمد بن عبد الله إثر انسحابه من قلعية يوم 16 مارس 1775 بإحداث أول حراسة مخزنية مرابطة بالقرب من الحدود إلى جانب الحراسة القلعية، أسند أمرها إلى القائد عمر القيطوني الكعداوي وبمعيته خمسمائة جندي مختارين من قبائل الريف الشرقي. ويمثل هذا التنظيم أول محاولة لسيطرة المخزن على الحدود وضبط شؤونها على غرار ما كان معمولا به في حدود سبتة[5].

كان من أوجب واجبات الحراسة المخزنية بوجودها إلى جانب العسة القلعية الحيلولة دون وقوع اشتباكات مسلحة بين أهل الرباط وحامية مليلة. وتظهر مهمة الحراسة من خطاب أحمد الغزال الموجه إلى القائد عمر يوم 18 مارس 1775 حين خاطبه بقوله: "وأنت أيها القائد عمر ستتعهد بحياتك إذا ما حدث أي اعتداء على الإسبان من طرف مسلمي هذه الناحية"[6].

و لم تكن مهمة الحراسة المخزنية مقتصرة على مراقبة الحدود البرية فقط بل كان من واجبها منع عمليات الجهاد البحري أيضا من أنشطة مزوجة وبني شكر وبني بوكافر. فهذا هو ما نفهمه من سرعة انتقال القائد عمر إلى مرسى غساسة بمجرد ما بلغه وقوع اشتباك بين سفينة مليلة ومراكب بني شكر حينما اعترض الشكريون طريق السفن الآتية من مالقة[7].

ولعل أهم واجبات قائد قلعية تلك التي ألزمته بحراسة المدافع والمهاريس المودعة بساحة الميدان بالمعارة، وهي عرسة كانت بعيدة عن مليلة بنحو نصف الفرسخ، أي ما يعادل نحو ثلاث كيلومترات.

وحسب تحركات الجيش يوم 18 مارس فإن القطع المدفعية كانت متجمعة في مكان قريب من مخيم المولى المامون الذي كان بكعدة تيسمغين.

---

(5) R. Lourido Diaz, « En Torno », *Hesperis* 1982. p. 205.

(6) **يومية** كابابيرو، ص. 162؛ F. de Miranda , *Diario*, p.88 ; Danvila y Collado, *Historia General de España*, 4/179.

(7) Gabriel Morales, *Efemérides y curiosidades*. p. 160.

ونعين هذا المكان داخل المساحة الفاصلة بين الموقع السابق ومدشر سيدي محمد. وبالقرب من المدشر السابق الذكر توجد عدة مغاور تمتد طوليا ملائمة على ما يظهر لتلك الغاية، لذا فإننا نرجحها أن تكون المكان المشار إليه باسم المعارة[8].

سيترتب عن حراسة الحدود والمدافع نكبة القائد عمر يوم 26 ربيع الثاني 20/1189 يوليوز 1775، حسبما ذكره القنصل الفرنسي ببلادنا لوي شينيي كشاهد عيان، نتيجة عصيان أوامر السلطان إذ أنه لم يمكن الوفد السلطاني من نقل المدافع من قلعية[9]. أو لاتهامه بعدم النصح في أخذ مليلة[10].

لم يحل مقتل القائد مشكل نقل المدافع والمهاريس من ساحة قلعية، بل بقي معلقا إلى سنة 1782 بين عدم التمكن من نقلها برا[11]،وانتظار قرار الإسبان بمساعدة نقلها بحرا[12]. وإذا كان مشكل نقل المدافع قد انتهى أخيرا فإن الإسبان طرحوا العودة إلى مسألة الحدود من جديد.

---

(8) F. de Miranda , *Diario* , p. 89.

(9) خلاصة ما حدث أن السلطان بعث وفدا في شأن نقل المدافع، غير أن قلعية أصرت على الاحتفاظ بها كاملة أو ببعضها أو تأخير نقلها وأساءت معاملة الوفد. مراسلة لوي شينيي في 15 شتمبر 1775 .P.Grillon, *La correspondance*.379/1؛ ورسالة الفرانسيسكاني بولطاس (Boltas) بتاريخ 2 غشت 1775. AHN Estado. L. 4309

(10) ذكرمحمد الضعيف الرباطي عنه: "وكان قد غش في أخذها عامل قلعية وبعد نهوضه عنها قتله لما بين عليه الغش". **تاريخه**. ص. 178.

(11) ظهرت بعض الاضطرابات في ممر واد كرط الأعلى النافذ إلى تازا مما اضطر باشا طنجة إلى قيادة الحركة سنة 1780.

(12) تناولت هذا الموضوع عدة مراسلات: رسالة لوي شينيي في 20 ماي و 31 غشت و 28 شتمبر 1777 و20 ماي 1778. *La correspondance*, 2/548. 583. 659 ومراسلة بولطاس بتاريخ 5 نوفمبر 1779. AHN. Estado, L. 4351 ورسالة السلطان إلوزير فلوريذا بلانكا: 30 جمادى الأولى عام 1195/ أبريل AHN. Estado, L. 43141782. ورسالة حاكم مليلة في 25 أكتوبر AHN. Estado, L. 43151782 ومراسلة طنجة بتاريخ 8 يوليوز AHN.1783. Estado, L. 4317 .

لم تكن موافقة الإسبان على نقل المدافع والمهاريس بحرا سوى للدخول في إجراءات تمهيدية كان القصد منها العودة إلى حالة الصلح السائد قبل حصار مليلة وتم خلال ما تبقى من عهد سيدي محمد اتفاقان حاول فيهما الإسبان طرح مضمون الفصل التاسع عشر السابق الذكر.

أصر كارلوس الثالث نتيجة اعتزازه بالنتيجة الإيجابية المحصل عليها في ميدان مليلة ألا يعود إلى افتتاح الروابط الجديدة مع المغرب إلا على أساس اعتراف سيدي محمد بأسبقية اعتدائه، ليسهل بعد ذلك إملاء الشروط الكفيلة بانتزاع الامتيازات التي تضمن مستقبل الحصون بصفة لا تقبل التراجع. غير أن انهزام الأسطول الإسباني بمياه العاصمة الجزائرية في صيف 1775 عدل من لهجة العاهل الإسباني، مما أعطى لسيدي محمد فرصة السير تدريجيا بالمحادثات إلى غاية سنة 1780[13].

قاد المحادثات الجديدة الطالب محمد بن عثمان المكناسي[14]، خلف أحمد الغزال، وتم توقيع الاتفاق يوم 30 ماي 14/1780 جمادى الأولى 1193. وإذا كان النص التمهيدي خاليا من الإشارة إلى مسألة الحدود، فإن هناك دليلا واضحا على أن الحكومة كانت عازمة على ترسيخ الشرط التاسع عشر ضمن بنود الاتفاق، حسبما يستخلص من تعليمات العاهل الإسباني إلى سفيره خوسي بولطاس:

" كل اتفاق جديد مع المغرب متعلق بالحصون يجب أن ينص على السيادة الإسبانية، وبدون هذا الشرط يغدو الاتفاق الجديد شبيها بسابقه غير مستند إلى أي أساس قار"[15]. فالواقع إذا أن الإسبان لم يتجرأوا في هذا الاتفاق لطرح مسألة الحدود حينما آنسوا عدم استعداد السلطان الخوض فيها

(13) عاد الفرنسيسكاني بولطاس إلى المغرب للقيام بمهمة سفير كارلوس الثالث سنة 1777 وتلقى منه التعليمات في فاتح أبريل السنة. AHN. Estado, L. 4762

(14) سفارة محمد بن عثمان إلى كارلوس الثالث تفيد به رسالته بتاريخ 10 شوال 1193. AHN. Estado. L. 4347-48/2.

(15) التعليمات بتاريخ فاتح أبريل 1777. AHN. Estado. L. 4762

مرة أخرى تحسبا لتقارب محتمل بين المغرب وإنجلترا، في وقت كان فيه الإسبان يعدون لحصار جبل طارق[16]. والرأي أن الإسبان علقوا أملهم على التوصل إلى اتفاق محلي بينهم وبين قلعية بأمر من سيدي محمد وتحت نظر مبعوث سلطاني وهذا هو ما حدث.

عثرنا على نص اتفاق محلي جرى بين قلعية وحاكم مليلة بحضور الممثل المخزني القائد قدور بن علي بن خالد حاجب السلطان. وصل إلى قلعية برفقة الرايس فرج وعلى ظهر سفينته في بداية سنة 1782[17]. وفي يوم 21 فبراير كان بصدد تحضير الاتفاق مع قلعية بحضور المقدمين وأعوانهم[18]. ليتم توقيعه يوم 26 جمادى الأولى عام 10/1196 أبريل 1782. تألف الاتفاق من أربع نقط:

- سيطلق الحصن النار على كل من اقترب منه لسبب غير سبب المحافظة على الهدنة.
- سيعاقب كل من تسبب في نقض الهدنة.
- إذا قامت جماعة من القبيلة بنقض الهدنة يجتمع الباقي على معاقبتها.
- لا يتابع كل مسلم دخل إلى هذا الحصن.

وللاتفاق خاتمة: "فبجعلهم هذا وبوفقه على ما ذكروه من العافياه (الهدنة) الذ (كذا) جعلها سيدنا نصره ا لله فمن حضرها من الخماس فنحنوا (كذا) كلنا عليه والمحمد(القائد محمد ألغم) يشهد لنا لسيدنا المنصور با لله وكذا القايد انتع السلطان(الحاجب قدور بن علي بن خالد) شاهد علينا وعليكم وكل من أقربا اليكم فوفقناكم على أن تربه ولا تذكها؟ لسيدنا فنحنو موفقين على ما ذكرناه لكم والسلام".

ونعرف أسماء الموقعين من المقدمين والغزاة من القائمة المكتوبة بالعربية والإسبانية مع فرق متعلق باستكمال بعض الأسماء سيتم توضيحه، منها اسم

---

(16) R. Lourido Diaz, « En torno al ensanche de los limites de Ceuta en 1782 ». *Hesperis* 1983. p. 222.

(17) حلت السفينة بساحل الشمال الشرقي بحثا عن وسق الحبوب ونقلها إلى تطوان.

(18) رسالة مليلة: 26 فبراير 1782. AHN. Estado. L. 4315/2

قائد قلعية محمد ألغم الجواوي الذي نتعرف على اسمه لأول مرة ومن تلك التوقيعات نستطيع تصور الهيكل التنظيمي لحركة المقاومة[19]. والظاهر من نقط الاتفاق أنها كانت مفروضة على قلعية، وهي بذلك غير قابلة للتنفيذ من طرف أخماس القبيلة وهذا هو ما دلت عليه الأحداث التالية له.

تعلقت رغبة الإسبان للحصول على نتيجة إيجابية بعد خمس سنوات في اتفاق تال. فحسب التعليمات الموجهة للسفير فرانسيسكو ساليناس إي مونيينو(Francisco Salinas y Moneno) كان عليه أن يجاهر صراحة بمسألة الحصون أمام السلطان ووزرائه على نقيض ما جرى أيام سفارة بولطاس.

وحسب تلك التعليمات فإن الحكومة كانت على يقين من أن طلبها سيلقى ترحابا من طرف المخزن بناء على الأمر السلطاني الموجه لسكان الناحية لمسالمة الإسبان، وعلى ضوء التوسعة الأخيرة الممنوحة لسبتة سنة 1782[20].

أثيرت مسألة مليلة ضمن ملف الحصون مما لاشك فيه أثناء المحادثات غير أن النتيجة لا تصورها سوى هذه الجملة: "نأمر بإبعاد المدفع من مليلة، أما استعمال المكاحل فلم يثر في المحادثات"[21].

أصبحت هذه الفقرة القصيرة القانون الوحيد الضابط للعلاقات مع الإسبان في مشاكل حدود مليلة ومصدر التحكيم بين الجانبين، ليس على الصعيد المحلي فقط بل على المستوى الدبلوماسي أيضا. وكان تطبيق تعليمات السلطان من مهام قائد قلعية الجديد محمد بن عمر القيطوني أخي القائد المقتول بمكناس المعين خلفا للقائد محمد ألغم الجواوي الكعداوي.

وفي وسعنا الوقوف على وظيفة العسة في شكلها الجديد. فبعد أن كانت العسة متمثلة في الانتصاب مثل الحاجز بين جنود مليلة ومجاهدي رباط

---

(19) رسالة مليلة 10 أبريل AHN. Estado. L. 4361/11782 .

(20) لا علم لنا بهذا الأمر، والتعليمات بتاريخ 18 مارس 1785. AHN. Estado. L. 4355

(21) اتفاق 9 يونيه 1785. Isidro de las Cajigas, *Tratados y Conbenios Refrentes a Marruecos*. Madrid 1952.

مليلة أصبحت غاية العسة الجديدة مقتصرة على تنفيذ القرار السلطاني القاضي بعدم استعمال غير نار البنادق من الطرفين.

كان على القائد محمد تذكير مقدم الرباط بالتعليمات المخزنية[22]،وعليه يقع واجب إخبار السلطان بوقائع الحدود والرد على الاستفسارات السلطانية الواردة من طرف باشا طنجة القائم بالاتصالات القنصلية المستقرة بطنجة منذ عودة العلاقات الإسبانية المغربية إلى مجراها السابق[23].

وتكلف قائد العسة المخزنية المرة بعد الأخرى باستقبال الوفود المخزنية الموجهة إلى كل من بني شكر ومزوجة، وهما الخمسان القلعيان الوحيدان اللذان ظلا متمسكين بمعارضة قرار الحدود، قصد تفسير الوضع الجديد بالحدود وجرهما إلى قبوله. واستوجب على محمد بن الطاهر عدة مرات التوجه بنفسه لزيارة سيدي محمد قصد طرح صعوبات تطبيق القرار. وبعد عودة الوفد القلعي من زيارته يعقد قائد العسة اجتماعا ضم مقدمي رباط مليلة لإخبارهم بالتعليمات السلطانية ونتائج الزيارة، وكان على القائد أيضا إخبار حاكم مليلة بالأمر[24].

والأمر الآخر المميز في حراسة حدود مليلة أن ميزان القوى ظل بيد مقدمي الجهاد، فلم تكن العسة المخزنية مؤلفة بأكثر من خمسين فردا. مما دفع سيدي محمد بن عبد الله للتفكير في زيادة عدد أفراد الحراسة برفعه إلى خمسمائة مخزني[25].

يستمر الوضع بحراسة الحدود على الشكل المرسوم من حيث الإجراءات المخزنية على يد محمد بن عمر إلى أن يتم للمولى سليمان استبداله برئيس مخزني من قوات البخاري سنة 1796/1208. فما هو موقف رباط مليلة وحراسته القلعية من مشكل الحدود؟

---

(22) رسالة حاكم مليلة: 18 ماي 1790. AHN. Estado. L. 4323

(23) محمد بن عبد المالك، باشا طنجة: 4 رمضان 1195. AHN. Estado. L. 4312

(24) رسالة مليلة: 19 يونيه 1786 AHN. Estado. L. 4320/2

(25) رسالتا مليلة: 5 نوفمبر و 7 ديسمبر 1786 AHN. Estado. L. 4320

الجهاد يبرر العصيان

نتعرف أولا على نظام هيكل الحركة الجهادية القلعية الذي عملت به قلعية ورباط مليلة خلال هذه الفترة الممتدة على مدى ربع القرن. كان أول ما تعرفنا عليه إسناد قيادة القبيلة كلها إلى محمد ألغم الجواوي الكعداوي.

القائد محمد ألغم: لم نتمكن من التعرف على خلف القائد عمر القيطوني بعد مقتله في يوليوز 1775 في قيادة قلعية إلا بما أفادتنا به مراسلة 12 يوليوز سنة 1782. ظهر اسم القائد محمد ألغم عدة مرات أثناء مشكل الحدود خلال سنة 1782، والمهم أنه كان إلى جانب زعماء فكرة الجهاد يبرر العصيان وحضر توقيع اتفاق 26 مارس 1782، وبناء على ذلك سيتم استبداله بمحمد بن الطاهر القيطوني بحجة هرمه وذلك في شتمبر السنة[26].

وتوصلنا من جهة أخرى إلى تكوين فكرة عن إطار الحركة الجهادية المساهمة خلال هذه الفترة، وهو كالتالي:

من الكعدة[27]: المقدم أحمد أتفرخانت[28]، الغازي محمد أزينب، الغازي عبد الله أتشعبانت[29]، الغازي محمد ألخم (ألغم).

من بني شكر: المقدم علي الشكري، محمد أموسى، على أميمون، علي أمحمد، مسعود واعمر الشكري، محمد أمحمد قنبوع .

من مزوجة: المقدم محمد الرتبي، الغازي قدور أمحمد، الغازي محمد وهذان (الوهذاني)، الغازي محمد أحمو[30].

---

(26) مراسلات مليلة: 10 و 12 و15 و 16 يوليوز و 11 و 12 شتمبر 1782 AHN. Estado. L.4315/2

(27) في النص الإسباني باسم Argasn "أركازن" غير المفهوم لدينا، اللهم إذا كان جمع أركاز أي الرجال.

(28) اسم أتفرخانت (الفرخاني) غير وارد في النص الإسباني.

(29) ورد اسم أتشعبانت (من إشعبانن) في النص الإسباني خطأ ليقوم مقام شخص آخر.

(30) الاسم الأخير غير وارد في النص العربي من الإتفاق.

من أيت بوغماران [31]: المقدم الطالب علي، عبد ا لله أعلا، قدور أمالك [32].

من بني بويفرور: المقدم محمد التهامي، امحمد أعمر الزاين، الغازي أحمد، علي والطالب، والمقدم محمد، علي أجوهر [33].

وعلى الرغم من علمنا بوجود حركة معارضة منذ نكبة القائد عمر القيطوني ومن بقاء خمسي بني شكر ومزوجة معتصمين بضرورة استمرار الجهاد على النحو المعروف منذ ما قبل حصار مليلة وبمساندة كبدانة هذه المرة فإننا بقينا نجهل متزعمي حركة المعارضة. وفي وسعنا الآن ترجيح أن مقدم مزوجة محمد بن أحمد المقدم الرتبي ومقدم بني شكر الطالب علي الشكري ومرابط كبدانة الشريف البشير بن محمد كانوا على رأس حركة المعارضة وتولي حركة الجهاد ضد جنود مليلة.

ونستطيع الآن التأكد من أن الفرق الثلاث هي التي حالت دون نقل المدافع والمهاريس من قلعية عام 1775 والاستيلاء على بعض القطع منها. ولا أدل على ذلك من قائمة الموقعين على اتفاق 10 أبريل 1782، والإشارة خاصة إلى كل من محمد الرتبي وعلي الشكري المقدمين على مزوجة وبني شكر على التوالي. ويعود أول تاريخ دال على عودة القلعيين إلى المرابطة بالمواقع الحربية المحيطة بمليلة إلى سنة 1777/1202، وكانت الحجة التي واجه بها أهل مزوجة وبني شكر اعتراض الحراسة المخزنية شروع الإسبان في إعادة تحصينات الأسوار الداخلية منها والخارجية من محاط المدينة [34].

وابتداء من هذا التاريخ انطلقت الشكايات من مليلة إلى مدريد ومن الحكومة الإسبانية إلى باشوية طنجة مطالبة بالعمل السريع لإيقاف الاعتداءات

---

(31) الملاحظ إدراج بني بواغمارن بمثابة خمس مستقل، في حين هو في الوقت المؤرخ له فرقة مندرجة ضمن بني شكر.

(32) الاسمان الأخيران غير واردين في النص العربي.

(33) الطلب غير وارد في النص الإسباني.

(34) P. Grillon , *La correspondance* , 2/548.

المتوالية على الحصن في وقت عجز المخزن عن تجاوز سياسة الترغيب تارة والتهديد أخرى، ولذلك لم يفكر سيدي محمد في الإجابة عن شكاياتهم قبل اتفاق 30 ماي سنة 1780. وكان على سيدي محمد بعد الاتفاق بذل قصارى جهده لتدارك ما ضاع من السيطرة على وضع الحدود بقلعية. ولم يظهر هذا قبل سنة 1782. فكيف برر القلعيون متابعة الجهاد ضد مليلة؟

يمكن الحصول على المثال من مراسلة باشا طنجة محمد بن عبد المالك إلى رئيس الحكومة الإسبانية فلوريدا بلانكا (Florida Blanca) على لسان السلطان سيدي محمد[35]. ومضمون الرسالة جواب على شكاية الوزير الإسباني بالهجوم القلعي على برج سانتا بربارا، أكد الباشا فيها بدوام الصلح والمهادنة بين الطرفين مضيفا له: "فلا يجب انقاض الصلح حيث لم تنزل هناك محلة أو قائد من قوادنا، وتعلمون إن توجه ذلك من قبلنا وبأمرنا المطاع." هذا هو التبرير الرسمي من الوجهة الدبلوماسية.

أما واقع ما كان يجري بقلعية بين الحامية ورباط مليلة فهو التبرير القلعي المستخلص من نفس الرسالة التي نقلت جواب القلعيين عن تلك الشكايات فهو يسير حسب معادلة: ضربونا فرددنا عليهم. ويتم ذلك حسب ما صرحت به الرسالة الآتية: " وقصدهم يبدأون النصرى بحرق أشبار ليضربهم النصرى بالبونب والكور والرصاص فتموت منهم طائفة يجعلونها حجة ويكتبون لنا ويقولون إن النصرى فعلوا كذا وكذا وها نحن مجتهدون في محاربتهم."

أصبح هذا التبرير قاعدة سار عليها رجال قلعية كلما تلقوا رسالة سلطانية منددة بالهجوم على مليلة بإسقاط الإدانة على رأس الإسبان، وبفضلها تمكن رباط مليلة من متابعة عمله الأساسي بالجهاد وحراسة الحدود وحينما نظم المغاربة هجومهم خلال شتاء عام 1780 وعاودوه في أبريل السنة الموالية وأطلق الإسبان نار مدافعهم على القلعيين لم يسع سيدي محمد اعتبار ما

(35) بتاريخ 4 رمضان 1195. AHN. Estado. L. 4314

قامت به مليلة من قبيل نقض صلح سنة 1780[36]. فمن هم متزعمو حركة مواصلة الجهاد؟

البشير بن محمد بن أحمد المرابط الكبداني: ترتبط قبيلة كبدانة الواقعة بالجنوب الشرقي من الريف الشرقي بحركة مقاومة الوجود الإسباني منذ بداية استقراره بمليلة، إذ أن سكان الدير الشمالي من الجبال لم يتوانوا عن المساهمة إلى جانب حكام قلعية، وكانت كبدانة بدورها محط أنظار مليلة سيما ما يتعلق بجزرها.

ينتمي البشير الكبداني إلى جماعة المرابطين ذات الأصلي الإدريسي المستقرة بفرقة أولاد الحاج برأس كبدانة المعروف اليوم برأس سيدي البشير ضريحه بمقبرة الرأس حيث رفات أسلافه، غير بعيد عن مسجد جنادة برج كبدانة[37]. وقد دأب أفراد أسرة سيدي البشير على رئاسة منصب الفقهاء بمسجدهم مقترنا بقيادة الجهاد ومراقبة الساحل، ولذلك سمي المكان الذي ضم المسجد بالبرج وبجنادة للدلالة على وجود مركز حراسة ساحل كبدانة الممتد من سبخة بوعرك شمالا إلى مصب واد ملوية جنوبا[38].

ظهر سيدي البشير أثناء حصار مليلة بصفته مقدم كبدانة وجنادتها، وأصبح بعد رفع الحصار من أشد المعارضين لسياسة مهادنة الإسبان، واتجه نشاط جهاده إلى إبعاد السفن الإسبانية المتجولة بين مليلة ورأس كبدانة ووصولها إلى جزر ملوية أو كبدانة المعروفة بالوثائق الأجنبية بجزر الشفارين

---

(36) رسالة لوي شينيي بتاريخ 31 يوليوز 1781. P. Grillon, *La correspondance*, t. 2 pp. 950.955.

(37) قمنا بجولة استطلاعية للمكان سنة 1975 و سنة 1982. ولا تزال بقية الأسرة تعيش برأس كبدانة معروفة بالمرابطين، منهم صديقنا الأستاذ محمد الإدريسي الكبداني. ولم نتمكن من الحصول على وثائق الأسرة للعلة التي تعترض دائما طريقنا وهي تشتت المالكين بها وحدة التنافس بين الأسر.

(38) ح. الفكيكي، مادة "جنادة"، **معلمة المغرب**، المجلد التاسع الموجود رهن الطبع.

(Chafarin)[39]. تمكن من الاستيلاء على سفينة غنمها من بحارة مليلة وأخرى لقرصان الجزائر أخذها بقالة كونسيتيس (Consites)، ويدعوه الإسبان بالوحش الرهيب[40]. ونقدر أن البشير الكبداني كان العمود الفقري في حركة المعارضة، نال تقدير محمد الرتبي، ولم يهتم بالذعيرة التي فرضها عليه سيدي محمد حينما مانع من رد السفينة الجزائرية، أو بتدخلات وفود المولى سليمان لديه اختفت عنا أخباره حوالي سنة 1794[41].

الطالب علي الشكري: لم يحالفنا الحظ للعثور على ما يزيد تعريفنا بالطالب علي الشكري عما ذكرته مراسلات مليلة عنه ومحضر اتفاق 10 أبريل 1782 بصفته مقدم الخمس القلعي. ومما زاد الغموض عدم تعرفنا على الفرقة التي انتمى إليها، وليس ببعيد أنه كان بتلك الصفة خلال الحصار المغربي لمليلة. كان عام 1782 مقدم مجاهدي بني شكر المرابطين في التلال الشمالية بعد الحصار، وضعته المراسلات الإسبانية في المرتبة الثانية بعد محمد الرتبي الآتي بيانه. وسيظل بالميدان إلى أن تتوارى عنا أخباره سنة 1797.

قصبة بني انصار أو رتابة: سبق أن ذكرت وثيقة نسب قبيلة قلعية أسرة رتابة ووضعتها ضمن خمس الكعدة. وحينما وجدناها مستقرة ضمن خمس مزوجة وفرقة بني انصار على السفح الشرقي من جبل قلعية، بناء على المراسلات الإسبانية وما اتضح من عقود الأسرة اعتقدنا بهجرتها إلى الموطن الجديد في وقت سابق للقرن الثاني عشر الهجري[42].

يبين الرسم المنجز من طرف ميراندا في آخر ديسمبر 1774 مبنى قصبة رتابة ببني انصار أشار إليها باسم القرية وميزها برقم 24. وحسب مرافقنا أثناء

---

(39) اعتقد كتابنا أن الإسم مقتبس من اسم جعفر، فقالوا الجزر الجعفرية وهو خطأ شائع لا أساس له.

(40) رسالة مليلة: 17 مارس 1794 AHN. Estado.L. 4334

(41) **المصدر السابق.**

(42) زرنا قصبة رتابة التي هي قصبة بني انصار بمرافقة السيد محند بن موح بن حدو بن المختار الكارح بن أحمد المقدم الرتبي وصهرنا الأستاذ أحمد العثماني.

زيارتنا للقصبة فإن المكان كان مقر أفراد أسرة رتابة بناء على المتواتر عن أهلها ومقدمها آنذاك محمد بن أحمد الرتبي المزوجي. تتألف القصبة من خرائب دالة على وجود عدة مرافق موزعة على مدرجين اثنين:

ـ المدرج الأعلى: لا يمكن أن تصور في الوقت الراهن أكثر من ثمان غرف متوسطة الحجم موزعة على استدارة المدرج الصخري من جهات ثلاث. أحيطت المساحة بسور خارجي ينفتح من جانبه الغربي باب المدخل الوحيد إلى المدرج.

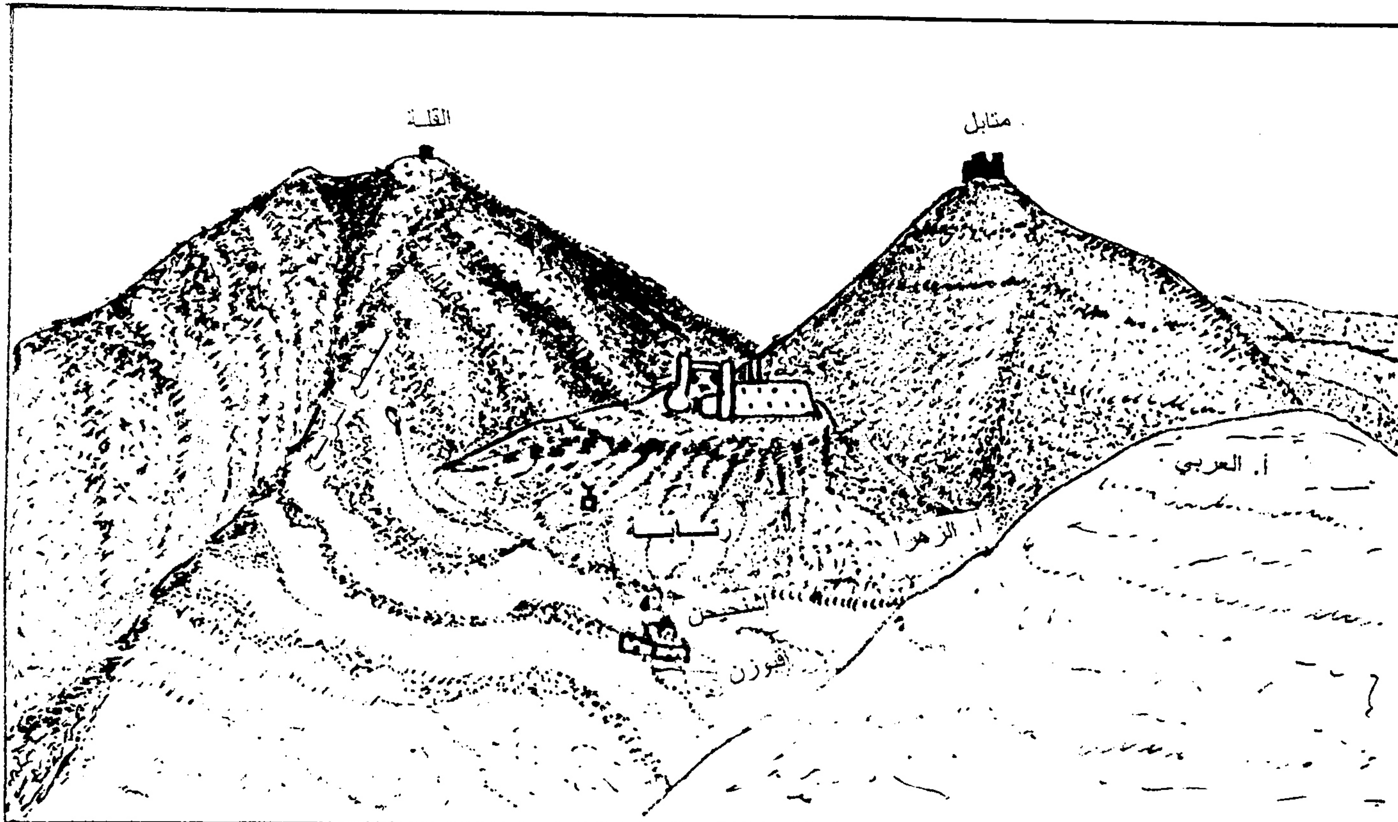
ـ المدرج الأسفل: تؤلفه خرائب قائمة على القاعدة الصخرية المشرفة على السفح بحافة شديدة الانحدار. وتظهر الأنقاض الحالية وجود عدد من المرافق كثيفة ولكنها صغيرة المساحة يصعب أخذ فكرة عنها بمجرد المعاينة البسيطة[43].

ففي هذا الفراغ عاش أحمد المقدم أبو محمد الرتبي. ونقدر أنه كان معاصرا للقائدين الطاهر وعمر القيطونيين وربما كان آنذاك مقدم مزوجة[44]. كان أبوه على ما يظهر قد توفي قبل 1738 وخلفه في رئاسة الجهاد ببني انصار ومزوجة ثاني أولاده وهو محمد بدل المختار. وسنتابع تحركاته الجهادية في نطاق العناوين التالية إلى حين وفاته حوالي سنة 1802.

---

(43) لدينا فكرة عن أملاك المقدم أحمد الرتبي التي ورثها أبناؤه الأربعة: محمد وعمر والبوزيدي والمختار. كان هذا الأخير أكبرهم سنا استقر بما ورثه بالمكان المعروف بعين كارح مما يكون اليوم مدشر إكرحيون. وحاز البوزيدي الأرض المجاورة لواد مرزوق. وتمكن محمد وأخوه عمر بأكبر قسط من تلك الأملاك، وهي واقعة بين واد الروم (واد تاغروط) وواد مرزوق بجوار أخويهما البوزيدي والمختار. وتوجد أجود المغارس بأمكنة إفري ن المال والزاوية وواد مرزوق.

(44) تصل عقود رتابة إلى 52 وثيقة اخترت منها 9 فقط تواريخها بين 1738 و 1802 توجد بحوزة مرافقنا السابق الذكر.



رسم قصبة بني انصار مستخلص من رسم لميراندا ومن زيارة ميدانية

نحو احترام قرار الحدود

انهالت الشكايات على البلاط المخزني بعد سنة 1785 لإدانة مجاهدي رباط مليلة بالاعتداء، مصرحة بنكاية كل من محمد الرتبي والطالب علي الشكري والمرابط البشير الكبداني، ملحة بضرورة معاقبتهم وإيقاف نشاطهم عند حد مضمون الاتفاق[45]. وإذا كانت الغاية من الشكايات الإسبانية التأثير على السلطان لتجريد حركة قوية نحو قلعية فإن سيدي محمد فضل إرسال الوفود لمواجهة متاعب أخرى ملحة[46]. فخلال تلك السنتين لم يسع السلطان سوى الاتصال بقلعية عن طريق إرسال الوفود المخزنية، بلغ عددها أربعة متوالية.

الوفد الأول: تألف الوفد من شخصين اثنين، لم تزد الرواية الإسبانية عن الأول من أنه المدعو محمد الشرقي وعن الثاني من أنه المسمى محمد بن عبد الكريم. نزل الوفد بقلعية منذ أوائل فبراير1786/ جمادى الأولى 1202 لتبليغ الأوامر السلطانية الصريحة المطالبة بتنفيذ اتفاق 1785[47].

اتصل الوفد أولا بحاكم مليلة للتذكير بقرار إبطال استعمال المدفع، ثم انتقل إلى رباط مليلة وبمعيتهما قائد الحراسة محمد القيطوني للإشراف على نقل القطعة المدفعية الموجودة بالمكان وتلك التي كان الرتبي قد نصبها بكدية مزوجة. وإيداعهما بالمكان المعروف بالمعارة المعروف لدينا[48].وبعد مراقبة محمد الرتبي خطوات الوفد المخزني طوال نهار ذلك اليوم لم يصعب عليه

---

(45) رسالة مالقة: 3 مارس 1786 AHN. Estado. L. 4320.

(46) كان على سيدي محمد توجيه عنايته لتهدئة ثورات الأطلس المتوسط سنة 1786. وجاءت أنباء الجنوب لترغمه على الرحيل إلى مراكش في مارس 1787 لمواجهة تمرد باشا الشياظمة.

(47) رسالة مليلة: 13 فبراير 43201786 AHN. Estado. L. نرجح أن يكون محمد الشرقي من رجال مخزن شراكة قصبة العيون أو وجدة. ولعل الثاني هو محمد بن عبد الكريم أراغون التطواني سفير السلطان إلى إصطانبول عام 1767.

(48) رسالة مليلة: 13 و 22 فبراير 43201786 AHN. Estado. L.

خلال الليل نقل القطعة المدفعية إلى مكانها برباط مليلة بمساعدة رفيقيه في الجهاد علي الشكري والبشير الكبداني[49]. ومن هناك اتضح للوفد المخزني البحث عن الوساطة التي وجدها في أعيان بني بويفرور وبني بو كافر والكعدة الذين كانوا إلى جانب القرار السلطاني.

وفي الوقت الذي قام به الوسطاء بزيارة الرتبي ورفيقيه أجاب بما يفهم عدم استطاعة أي أحد أن يثنيه عن عزمه ومنعه من مقاومة الإسبان. وكان رد البشير الكبداني أشد عنفا، حيث قال: "إنه لن يخضع لغير سلطان إرادته ولن يفعل سوى ما تمليه عليه"[50].

هذه هي النتيجة التي سيتحمل نتيجتها المعارضون الثلاثة. غير أن الوفد سيحمل الإسبان أيضا نصيبهم من المسئولية، نتيجة تماديهم في تحصين المدينة منذ سنة انتهاء الحصار، مما أدى إلى عدم استقامة الحدود مثلما تعبر عنه وثائق الفترة[51]. بل إن الوفد أدان الإسبان باعتدائهم لكونهم لم يحجموا عن استعمال المدافع بالميدان، بينما لا يستعمل المغاربة في الغالب سوى نيران البنادق[52].

الوفد الثاني: حينما عاد أعضاء الوفد السابق إلى سيدي محمد بالنتيجة المعروفة كان لا يزال بمكناس، ولم يكن اقتسام القلعيين والإسبان مسئولية حوادث الحدود مما يبعث اليأس في نفسه، ولهذا أعاد التجربة مرة ثانية بعد استبدال محمد الشرقي بشخص آخر يدعى عبد الوهاب الفاسي[53].

---

(49) **المصدر السابق**.

(50) رسالتا مليلة 13 و 19 فبراير 1786 .AHN. Estado. L. 4320

(51) **المصدر السابق**.

(52) رسالة مليلة: 19 يونيه 1786 .AHN. Estado. L. 4320

(53) **المصدر السابق**. رسالة مليلة 19 يونيه.وبحثا عن شخصية عبد الوهاب الفاسي وجدنا عند الضعيف والناصري من اسمه الحاجب عبد الوهاب اليموري. **تاريخ الضعيف** 162.168 **الاستقصا**، 5/8، وعبد الوهاب العسقلاني الذي تدخل في مسألة حدود سبتة سنة 1767 R. Lourido Diaz , *Marruecos y el mundo exterior siglo 18*. p. 580.

كان المقدم محمد الرتبي قد أحكم حصاره على مليلة خلال الشهور الفاصلة بين تاريخ الوفدين، بوضع حراسته على التلال الشمالية مهددا برجي سان ميكيل وسانتا بابارا من الخندق الذي سبق للجيش المغربي أن فتحه هناك[54]. لم يكن من المنتظر أن تختلف نتيجة محادثات الوفد الثاني عن سابقه ولكننا نقف عن رأي الإسبان فيما يخص إحداث مباني وتحصينات جديدة مما يحتج به القلعيون، بناء على استفسار رئيس الوفد للحاكم.

ومفاد الرأي أن الإسبان احتفظوا فقط بالأراضي التي منحها لهم حق الدفاع عنها، وأنهم لم يقدموا على إحداث تحصينات جديدة خارج ذلك النطاق بينما أقبلت الحامية على ترميم وتغيير ما ظهر من المباني والتحصينات الواقعة ضمن حيازتها وملكيتها. وكان من حق المسلمين القيام بنفس الشيء في مواقعهم دون توسيع البناء في اتجاه المدينة، ومن أجل ذلك يطالب أهل الحصن التزام القلعيين بأوامر السلطان[55].

كان الوفد مثل سابقه قد سحب القطعة المدفعية من رباط مليلة إلى مكانها بالمعارة ولكن المقدم الرتبي نقلها إلى مكان مجهول ثم أعادها إلى مكانها يوم 17 يوليوز بمجرد عودة الوفد أدراجه إلى مكناس[56]. ولا شيء يمنعنا من إدراك أن النتيجة السلبية التي عاد بها الوفد الثاني هي التي حثت سيدي محمد على استدعاء وفد من مجاهدي قلعية مؤلف من قائد العسة المخزنية محمد بن عمر القيطوني ومجموعة من الغزاة بعد امتناع كل من الطالب علي الشكري ومحمد الرتبي من تلبية الدعوة[57].

تمت زيارة الوفد على ما يظهر خلال شهر محرم سنة 1202/أكتوبر 1786 إذ أنه كان في الشهر الموالي بالقبيلة. وقد سرد علينا الإسبان ما جرى من الحديث بين الوفد وسيدي محمد، وأكده باشا طنجة بعد ذلك بعدة أشهر

(54) رسالتا مليلة: 26 يونيه 1786 و 27 يوليوز AHN. Estado L. 4320/11786

(55) رسالة مليلة: 19 يونيه 1786. AHN. Estado. L. 4320/1

(56) **المصدر السابق**، ورسالة مليلة في 26 يونيه 1786.

(57) رسالتا مليلة: 5 نوفمبر و 7 ديسمبر 1786. AHN. Estado. L. 4320/1

وبمتابعة الحوار يتبين أن القلعيين لم يخرجوا عما هو معروف من إلقاء المسئولية على الإسبان.

يتضمن الحوار الذي نقله إلينا الإسبان سؤال السلطان عن سبب اعتدائهم على الإسبان وجواب أعيان قلعية بكون الإسبان هم البادئون بالضرب، تلاه قراره وأمره بالتوقف عن ضرب مليلة وزجر الفاعلين.

وأخيرا لم يخف السلطان غضبه على محمد الرتبي خاصة لذا أكد على أعضاء الوفد القلعي الإتيان به لحضرته بعد الإشهاد على التزام عشرة منهم بذلك[58]. وقد كرر باشا طنجة عبد المالك بن محمد بن عبد المالك الريفي مضمون اللقاء في المراسلة الجوابية الموجهة لرئيس الوزراء الإسبان بعد سنة ونصف من تاريخ اللقاء "اعلم أن قلعية جاءوا لعند سيد سيدنا وزنقهم (كذا) وعنف فيهم، وقال لهم: سبب خسارة خاطري عليكم هم الصبنيول تفارقهم عنكم، وإلا من طاف بهم نعاقبه أشد العقاب، والرتبي تأتوني به، وضامنوه عشرة من اكبارهم، وقال لهم إن لم تأتوني به نعاقبكم"[59].

الوفد الثالث: وفي ربيع الأول من سنة 1202، مستهل سنة 1788 بدا أن سيدي محمد كان قد وطد عزمه على حسم أمر قلعية بالالتجاء إلى القوة حسبما أخبرتنا به قنصلية طنجة بعد أن علمت بوصول الأوامر المخزنية إلى باشا طنجة بإعداد حركة مؤلفة من رجال بني توزين[60].

وفي الوقت الذي أعلن فيه القنصل الإسباني من طنجة أن الغاية من إرسال الجيش نحو الريف هو سحق تلك االقبائل ثبت أن سيدي محمد كان فعلا قد بعث إلى قلعية وفدا ثالثا قبل حلول باشا طنجة ببني توزين بنحو ثلاثة عشر ألف من الجنود، بينما حل الوفد برباط مليلة يوم 16 يونيه 1788.

---

(58) المراسلتان السابقتان.

(59) المراسلة بتاريخ 16 شوال 21/1202 يوليوز 1788. AHN. Estado. L. 4320

(60) رسالة قنصلية طنجة: 10 غشت 1788. AHN. Estado. L. 4320. كان السلطان في هذا التاريخ بمدينة فاس مهتما بأحداث تامسنا والخياينة والشياظمة.

ترأس الوفد قائد مخزني نجهل اسمه نتيجة عدم توصل حاكم مليلة بأي خبر عن موضوع المهمة التي جاء من أجلها على غير العادة إلا في مستهل شتمبر السنة عن طريق باشا طنجة حين أخبر بقبول السلطان إصدار العفو التام على المقدم محمد الرتبي وتعيينه قائدا على مزوجة، وأن الشرط الوحيد المشترط عليه هو تأدية غرامة مائة قنطار من الفضة إذا ما عاد إلى الهجوم على حصن مليلة(61). فالجديد في مسألة الحدود هو قبول محمد الرتبي الالتزام باتفاق 1785، فما هي مهمة الوفد الرابع؟

الوفد الرابع: لا ريب أن القصد من إرسال الوفد الرابع كان منحصرا في متابعة الترتيبات المتفق عليها من طرف الوفد السابق. نزل الوفد بقلعية يوم 29 ذي الحجة عام 30/1202 شتمبر 1788 وتألف من القائدين محمد التيسي التاوناتي ومعه المسمى عبو، ربما كان أحدهما أو هما معا من المشاركين في الوفد السابق. كانت قلعية على موعد للاستماع إلى التعليمات السلطانية الجديدة لتؤكد التوصل إلى تحقيق الهدنة من جديد بين مليلة ومقدمي رباط مليلة. وتظهر تعليمات سيدي محمد في زيادة حصة الحراسة المخزنية التي استمرت بيد محمد بن عمر القيطوني إلى خمسمائه عسكري. وقبل مغادرة الوفد لقلعية أودعت القطعة المدفعية في مكانها المعهود حيث ستبقى خلال العامين إلى أن يعود محمد الرتبي لاستعمالها من جديد(62).

توصلنا ببعض المعلومات عن أطر المقاومة العاملة إلى جانب المقدمين القلعيين. فالمقدم محمد الرتبي كان مساعده وخليفته المدعو محمد بن سليمان المزوجي ومقدم بني سيدال هو أحمد بن موسى. ويعمل معه من الغزاة المسمى بوفوس البو كافري (Bunfus)، والمدعو محمد بن أحمد الفرخاني(63).

والظاهر أن قلعية ومعها المقدم محمد الرتبي عامل مزوجة لم يلتزما بتمام ما وعدا به خلال ما تبقى من حياة سيدي محمد وهناك ما يثبت ذلك. كما

(61) رسالتا مليلة: 5 و 20 شتمبر AHN. Estado. L. 4320/11788

(62) رسالتا مليلة: 7 أكتوبر 1788. AHN. Estado. L. 4320/1

(63) رسالة مليلة: 5 و 26 ديسمبر 1788. AHN. Estado. L. 4320/1

أن الإسبان من جهتهم لم يوفوا بدورهم بما وقعوا عليه، لكن الثابت أن أحداث الحدود قلت إلى درجة ملحوظة. وتدل عودة محمد الرتبي لإقلاق راحة الإسبان ابتداء من يوم 10 ماي 1790، بعد وفاة سيدي محمد بنحو الشهرين على تحرره من التزام مفروض(64).

من الواضح أن محمد الرتبي لم يتخذ من وفاة سيدي محمد مبررا وحيدا للعودة إلى حال الحرب مع الإسبان، بل كنتيجة من نتائج إجماع قلعية على ذلك أثناء تقدم المولى اليزيد لحصار سبتة. فكان أول ما قام به دليلا على تغيير الموقف السالف هو إخراج القطعة المدفعية من مخبإها وإطلاق نارها على مليلة، ثم الدعوة لعقد الاجتماع المناصر للمولى اليزيد.

انعقد الاجتماع خلال شهر رمضان 1205/ ماي 1790 وتم الاتفاق فيه على مواصلة الجهاد وإخبار السلطان الجديد بذلك. وكانت التخوفات التي شغلت بال الإسبان هي انضمام بني بو كافر وبني بو يفرور وبني سيدال (الكعدة) إلى جانب محمد الرتبي بعد أن تخلت الأخماس الثلاثة عن مساندته منذ اتفاق عام 1785، مما أثار مخاوف محمد بن عمر القيطوني أيضا بصفته قائد العسة المخزنية. وإذا كانت رسائل مليلة قد أخفت عنا النتائج التي عاد بها الوفد القلعي من زيارة المولى اليزيد فإن المتوقع ألا تكون مثبطة لعزائم مجاهدي رباط مليلة إذ أن حصار مليلة استمر منذ ذلك الحين على أشده.

غير أن تركيز الجهود لحصار سبتة حتم على المولى اليزيد جلب مساعدة قلعية إلى الميدان، ففي هذا الإطار بعث المولى اليزيد جماعات من قواده لتلك الدعوة. ونصت أوامر السلطان الجديد على تجميع القوات بقبيلة اكزناية (Kiciminaya) ونقلها إلى الميدان. ولتلك الغاية حل الجيش المخزني بقلعية وبقي

(64) في الوقت الذي نجد فيه محمد بن سليمان خليفة محمد الرتبي يذكر الإسبان بالهدنة يوم 5 شتمبر 1788، ذكرت وثيقة 16 ديسمبر عام 1789 بإشعال المغاربة النار في سياج برج فيكتوريا. AHN. Estado. L. 4320. أيضا رسالة مليلة يوم 18 ماي 1790 A.H.N. Estado. L. 4343

مرابطا بقصبة سلوان بينما تقدم إلى ميدان مليلة وفد متكون من ثمانيـة فرسـان للتباحث ولا شك مع مقدمي أخماس قلعية في شأن التعبئة(65).

وكانت نتيجة الاجتماع المنعقد لبحـث المطلـب السـلطاني مثلمـا كـان متوقعا إذ أن قلعية اعتذرت عن تقديـم المسـاعدة بحجـة أن الواجـب يلزمهـا بمتابعة مرابطتها قبالة الإسبان. وعلق حاكم مليلة عن هذا القرار بقوله:

"من المؤكد أن الرتـبي رئيـس جماعـة مزوجـة والطـالب علـي الشـكري رئيس بني شكر ومحمد؟ (Chufara) مقدم بني شكر لن يغادروا هذا الميـدان أبـدا وهم متزعمو الحرب ضد مليلة"(66). ونعتقد أن الزيـارة الـتي قـدم مـن أجلهـا المبعوث السلطاني الشريف...؟ (Jraxar) كانت لنفس الغاية(67).

وبلغت تخوفات الإسبان أقصاها نتيجة العدد المتزايد من القطـع المدفعيـة التي أصبحت بيد القلعيين بعد اجتهاد كـل مـن محمـد الرتـبي وعلـي الشـكري ومقدم بني سيدال (أحمد بن موسى؟) للبحث عنها في عرض مياه البحر المقابل لسبخة بو عرك منذ عام 1786 بانتشالها من السفينة الجزائرية الغارقة هناك منـذ عام 1780. ويمكن تتبع عملية الانتشـال مـا بـين 1791 و 1796، إذ تجمعـت بيـد الطالب علي الشكري أزيد من القطعتين نصبهما في رباط مليلة يوم 8 مارس 1791 وهما من عيار اثنتي عشرة بوصة.

وسعت بني سيدال لنفس الغاية منذ يوم 13 مارس من نفس السـنة، مـع بداية عستها بالرباط، إذ توجه أكثر من مائة رجل إلى السبخة مزودين بالحبال

---

(65) تبين من مراقبة نوبة الحراسة برباط مليلة أن المدة متراوحة بين أسبوع وأسبوعين خـلال شهري يوليوز وغشت عام AHN.Estado. L. 43231790 ويشهد على العودة إلى الجهـاد عدة رسائل من عام 1790. AHN. Estado. L. 4323

(66) رسالة مليلة: 31 يناير 1791 AHN. Estado. L. 4326/1

(67) بقي بقلعيـة ما بين 5 ماي و 15 منه، وشارك مقدمي الرباط في إطلاق نيران المدافع على الحصن. رسالتا مليلة في نفس التاريخAHN. Estado L. 4326/1

وإلى غاية يوم 24 كانوا منهمكين في استخراجها. وقد تمكنوا من استخراج أربع قطع يوم 24 يوليوز 1791، أثناء الحراسة التي بدأت يوم 17 منه[68].

وكان لمحمد الرتبي حصته من المدافع، وهو الوحيد الذي كان قد بقي بيده أحد مدافع حصار مليلة من عيار اثنتي عشرة بوصة. أما بنو بويفرور فلم يكن لهم حظ في المدافع المنتشلة، نعلم ذلك حينما دخلت في عستها يوم 1 فبراير 1794، إثر انتهاء فترة عسة محمد الرتبي وسحب مدفعه عبر الإسبان عن الاستراحة من الرمي[69].

ففي أبريل السنة كان قد بلغ ما استخرجته أخماس بني شكر ومزوجة وبني سيدال أربعة مدافع[70]. فخلال وقت وجيز تمكن رباط مليلة من جمع نحو أربع عشرة قطعة، استعمل منها عادة قطعتين لعدم توفر الكافي من البارود[71]. وربما نقل منها المولى اليزيد بعض القطع المفعية إلى قصبة تالا ن بادس[72]. بينما سيظل الباقي منها بساحة الميدان إلى أن يأمر المولى سليمان بنقل عشرة منها إلى مكناس بواسطة المولى الطيب [73].

ولدينا قائمة الطلقات المدفعية التي أسقطت على مليلة خلال فترة ما بين 13 ماي و 19 يونيه سنة 1790 نقدمها كمثال عن نشاط رباط مليلة الذي استمر على نفس الوتيرة إلى غاية 1797.

---

(68) مليلة : 2624 يونيه 1791. AHN. Estado. L. 4326 يوليوز AHN. Estado L. 4326/11791

(69) مليلة : 1 فبراير عام 1794 AHN. Stado. L. 4334/1

(70) مليلة : 7 و 23 أبريل 1791 AHN. Estado. L. 4326/1

(71) مليلة : 20 غشت و 21 و 28 أكتوبر1791 AHN. Estado L. 4323

(72) مليلة : 30 غشت 1791. AHN.Estado L. 4323

(73) استمر استخراج القطع المدفعية ما بين صيف 1790 وربيع 1793. AHN. Estado. L. 4323. 4326. نقلت إلى مكناس حسب مراسلة 2 نوفمبر 1796 AHN. Estado. L. 4336/2

جدول الطلقات المدفعية الموجهة من رباط مليلة نحو الحصن ما بين 13 ماي و 19 يونيه 1790[74].

ماي	الطلقات	المدفعية	المجموع
أيام	عيار 12	عيار 6	
13	4	0	4
14	4	0	4
15	5	0	5
16	2	0	2
17	2	0	2
18	2	0	2
19	4	0	4
20	4	0	4
21	2	0	2
22	2	0	2
23	1	0	1
24	5	0	5
25	3	0	3
26	5	0	5
27	3	0	3
28	6	0	6
29	7	0	7
30	2	0	2
31	2	0	2

يونيه	الطلقات	المدفعية	المجموع
أيام	عيار 12	عيار 6	
1	4	0	4
2	2	0	2
3	3	0	3
4	6	0	6
5	3	0	3
6	4	0	4
7	4	0	4
8	2	0	2
9	1	0	1
10	7	0	7
11	5	0	5
12	7	0	7
13	7	5	12
14	9	7	16
15	8	4	12
16	5	3	8
17	6	7	13
18	6	4	10
19	2	3	5

والظاهرة الأساسية لنشاط المقاومة إثر وفاة سيدي محمد هو عودة القلعيين إلى المواقع الحربية المعروفة خلال الحصار المغربي، سيما منها المواقع الشمالية بالرأس الصغير وكدية هوركا. ينبغي أن نسترد إلى ذهننا مسألة النوبة التي هي القاعدة الأساسية لتنظيم الحراسة برباط مليلة والمواقع المحيطة بالمدينة،

(74) مليلة: 19 يونيه 1790. A.H.N. Estado. L. 4323

فمراسلات هذه السنوات تذكرنا بمدة الحراسة وطريقة تنظيمها. ضبطناها حسب الجدول التالي:

تاريخ النوبة	من	إلى	القائم بالنوبة
15 فبراير 1791	15 فبراير	؟	مزوجة
8 مارس 1791	8 مارس	12 مارس	بني شكر
13 مارس 1791	13 مارس	؟	بني سيدال. بني بوكافر
17 يوليوز 1791	17 يوليوز	؟	بني سيدال. بني بوكافر[75]
2 يوليوز 1793	2 يوليوز	؟	مزوجة
9 غشت 1793	9 غشت	؟	مزوجة[76]
24 يناير 1794	24 يناير	29	مزوجة
30 يناير 1794	30 يناير	؟ فبراير	بني بويفرور[77]
1 يونيه 1797	1 يونيه	4 يونيه	مزوجة[78]

استمر الهجوم على مليلة من جهة الشمال من موقع الرأس الصغير، وكان الهدف منه برج روساريو. والأمر الجديد والمسجل لأول مرة استعمال المغاربة للقذائف اليدوية لمحاولة إشعال النيران في سياجه[79]، وحاول المجاهدون إحياء فكرة حفر الأنفاق والخنادق، فكان من ذلك جولة محمد الرتبي بمعية أحد القواد الزائرين لا نعرف من هو، ثم ما كان بعد ذلك من اقتراب القلعيين من نفق موقع أتاكي سيكو (Ataque Seco)[80].

(75) مليلة: 26 يوليه 1791. AHN. Estao. L. 4326/1

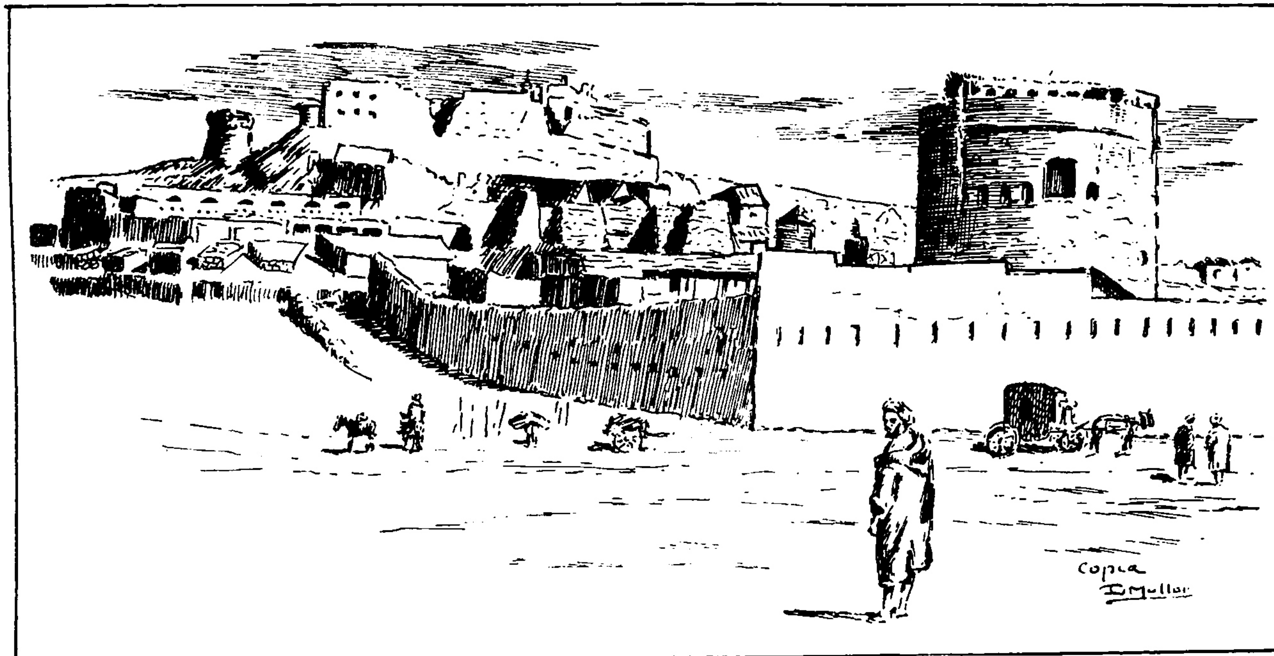
(76) مليلة: 20 غشت 1793. AHN. Estado. L. 4329

(77) مليلة: 30 يناير 1794. AHN. Estado. L. 4334/1

(78) مليلة: 27 يونيه 1797. AHN. Estado. L. 4334/2

(79) رسائل مليلة: 24 يونيه 1791. AHN. Estado. L. 4326 و 19 غشت 1791 AHN. Estado. L. 4323، و 20 ديسمبر 1791. AHN. Estado. L. 4329

(80) مراسلات 19 و 20 و 22 شتمبر 1791. AHN. Estado. L. 4323



جانب من مليلة أواخر القرن الثامن عشر

قد آن لنا تفقد شيخ رتابة ومقدم بني انصار وعامل مزوجة، فقد مرت اثنان وخمسون سنة عن التاريخ الذي عرفتنا به أول وثيقة سنة 1738، وهو آنذاك في سن الشباب ونحو اثنتين وعشرين سنة بالنسبة لانتهاء حصار مليلة، وإحدى عشرة سنة منذ أن وصفته رسائل مليلة بأخطر المقدمين القلعيين. وانطلاقا من هذه التقدير لا بد أن يكون الهرم والإعياء قد نالا من نشاطه الجهادي سنة 1793.

ومن المؤكد أن تقدم السن لم يبلغ بمحمد الرتبي إلى درجة الفتور مثلما لمسناه من مناصريه المزوجيين، إلى درجة تقاعسهم عن مساندته وعدم الاستجابة لدعوته حين ناشدهم قطع الاتجار مع الإسبان، فقد وجدناه يصرح: "إنه سيرحل عن مزوجة حالما يشفى من جروحه إلى داي معسكر الذي كثيرا ما عرض عليه الالتحاق به"(81).

لا نعرف بالضبط متى أقبل المغاربة على إدخال السلع إلى مليلة، ولكن المعتقد أن هذا لم يبدأ قبل تصفية مشكل مزوجة والمقدم الرتبي على عهد سيدي محمد، فهذا ما نفهمه من مجموعة رسائل مليلة المؤرخة ما بين 1790و1797(82). ونسجل بذلك بداية جديدة سواء في الخلاف بين مزوجة ومحمد الرتبي أو بين الحليفتين مزوجة وبني شكر وبالنسبة للإسبان أيضا.

وربما كان سبب الخلاف الناشئ بين محمد الرتبي ومزوجة هو نفس العلة التي فرقت بين الحلف المزوجي والشكري. وقد لمسنا بداية السبب في

---

(81) نعرف أنه جرح أثناء مرابطته بموقع الواد المعروف لدينا أثناء الحصار، لكن كان ذلك سنة 1796. مليلة: 31 غشت 1796. AHN. Estado. L. 4336، ظل متأثرا بها إلى غاية شتمبر السنة. كان ذلك خلال ثورة المولى مسلمة على أخيه المولى سليمان سنة 1791 حين طلب منه داي معسكر مساعدة قلعية على وهران. 25 أبريل 1796. AHN. Estado. L. 4336

(82) رسالتا مليلة: 30 يناير و 10 فبراير 1794. AHN. Estado. L. 4334

الإسبان باب الاتجار لمدة سنة كاملة[83]. ويعبر ما أورده الضعيف الرباطي ضمن أحداث 1795/1210، مما لم نجد له صدى بالوثائق الإسبانية أن الخلاف بلغ أشده بين بني شكر ومزوجة ومن انضاف إليهما من الأخماس الأخرى حين قال:

"كان القتال بين قلعية حتى تركوا نحر الضحية (10 ذي الحجة 1210) فخرجت النصارى من مليلة وسبوا لهم البعض من النساء والصبيان فكروا عليهم واصطلحوا عليهم وقتلوا من النصارى نحو الخمسمائة"[84]. وليس لنا أي دليل على إقحام الخلاف الناشئ بين المولى مسلمة وأخيه المولى سليمان في هذا الخلاف، ونعلم فقط أن محمد الرتبي كان إلى جانب المولى مسلمة.

كان المولى سليمان قد خطا الخطوة الأولى نحو توطيد حكمه بقلعية إثر وصول الوفد القلعي المتوجه إلى فاس برئاسة قائد القبيلة لإعلان البيعة في ديسمبر 1792[85]، وفي آخر جمادى الأولى عام 1207/بداية عام 1793 كان الوفد مازال بمكانه حيث تم توقيف محمد بن عمر القيطوني بحجة عدم تحكمه في شؤون الحدود[86]، وحل بقلعية يوم 10 يوليوز عام 1793 بعد أن ظل محتجزا بمكناس طيلة تلك المدة[87]، وتم تعيين قائد جديد لحراسة الحدود من غير قلعية.

ففي أوائل صفر عام 1211/أواخر غشت 1796 كان القائد الجديد بقلعية ولم تكن القوات المخزنية قد وصلت بعد، وتوجه لاستقبالها بتافرسيت، وقنع بما وصل منها وهو ألفا عسكري بدل الخمسة آلاف المتفق عليها[88]. وبعد

(83) رسائل مليلة: 18 ماي 1790. 30 يناير و 10 فبراير 1794. 20 يناير و 10 يونيه 1797.
AHN. Estado. L. 4323. 4334. 4329

(84) **تاريخه**، ص. 271.

(85) رسالة: 9 ديسمبر 1792. AHN. Estado. L. 4329

(86) رسالتا: 5 و 25 يناير 1793. AHN. Estado. L. 4329/1

(87) رسالة: 4 و 14 يوليوز 1793. AHN. Estado. L. 4329/1

(88) رسالة: 31 غشت 1796. AHN. Estado. L. 4336

هذا بنحو ثلاثة أشهر بعث المولى سليمان أخاه المولى الطيب لنقل مجموع ما تبقى من المدافع المتبقية برباط مليلة، كان عددها قد وصل إلى عشر قطع. والغريب أنه بقيت هناك أربع قطع مدفعية وهي التي سيتولى الرباط الرمي بها خلال السنوات التالية(89).

ولا بد أن تكون هناك ظروف جعلت من كل هذه الإجراءات أمرا مؤقتا غير ذي بال في يوم 18 يناير السنة الموالية(1797). ففي الوقت الذي لاحظنا استمرار محمد الرتبي في جهاده صرح الطالب علي الشكري لحاكم مليلة بغياب العسة المخزنية عن المكان(90).

وكشاهد للعمليات الجهادية الجديدة على عهد المولى سليمان نقدم مثالا يعود إلى يوم 18 رجب عام 1211/17 يناير 1797 استشهد أثناءه مجاهد قلعي مرموق وتقدم رسالة مليلة في شأنه السرد التالي: "سعى المسلمون ليلة 17 الجاري لإشعال النار في أشبار برج روساريو وهو من جانب الجسر المتحرك مثلما حاولوا مرات عديدة، وما منعنا من الغارة عليهم سوى وجود الموقع الذي تحصنوا فيه على بعد قريب منا(91).

تمكن أحد الحراس من قتل عدو منهم أثناء محاولة قطع المسافة نحونا بينما صد السرجان أولئك الذين كانوا يتبعونه فتراجعوا وتخلوا عن المشاعل وعن الوصول إلى الجثة بعد تكبدهم للخسائر في الأرواح. توجهت إلى المكان فأمرت بإدخال الجثة. ولا يمكن لي أن أصف لسعادتكم الحيرة الشديدة التي تملكت العدو والمحاولات العديدة التي بذلها وهو يبحث عن جثة الرجل المقتول خلال ما تبقى من تلك الليلة.

وقصدنا المسلمون في الصباح للتحادث في شأن افتداء الجثة، وجاءوا ببقرة وثلاث عجلات وكبشين. وبعد نقلهم للجثة لاحظ المراقب هبوط

---

(89) رسالة طنجة: 2 نوفمبر 1796. AHN. Esstado. L. 4336

(90) رسالة مليلة: 20 يناير 1797. AHN. Estado. L. 4334

(91) المقصود مواقع المغاربة بالرأس الصغير (بونتيبا).

عدد كبير من الرجال إلى مقبرة تامزكيدا المواجهة للحصن، ومكثوا بالمكان طوال ذلك اليوم[92].

لا علم لنا باسم هذا الشهيد ولا يمكن الاعتماد على الرواية الشفوية المتضاربة. وبالطبع لا يتعلق الأمر بمحمد الرتبي لأننا وجدناه إثر ذلك يضاعف غاراته على الإسبان خلال الشهور التالية. وآخر عهدنا به في الميدان يعود إلى 27 يونيه 1797 حين أخبر حاكم مليلة:

"كان موعد حراسة الرتبي بين 1 و 4 من الجاريين استعمل خلالها مدفعه القديم ضدنا فأطلق علينا تسعة قذائف دون أن يلحق بنا أي ضرر وتحملوا هم خسائر الهجوم، لأنني وجهت النيران نحو المساكن القريبة للحصن"[93].

يدخل تاريخ المقاومة بعد السنة المؤرخة في طور من الغموض بسبب اختفاء رسائل مليلة من الأرشيف التاريخي الوطني. ولا نجد بين أيدينا سوى ما أخبرنا به الضعيف الرباطي من أن السلطان بعث القائد عياد عنيق الودي إلى جهة قارت ووصوله إلى قلعية دون أن يتكلف بذكر الغاية من تلك الزيارة[94].

وقريب من ذلك الخبر ما أدلى به القنصل الإسباني بطنجة مفاده "أن المولى سليمان بعث جيشا كثيفا وعلى رأسه عشرة من كبار قواده لإنزال العقاب الشديد بقلعية"[95].

وتوقف تلك الأخبار يجعلنا عاجزين عن تقدير النتائج المفصلة التي أسفرت عنها حركة المولى سليمان. وما نعلمه أن التدخل العسكري كان جد عنيف. فهل كان اختفاء زعماء حركة "الجهاد يبرر العصيان" مترتبا عن تدخل السلطان الذي كان يمهد الطريق لاتفاق 1799؟

---

(92) سيدي محمد المجاهد الذي يدعوه الإسبان .Mezquita رسالة مليلة 20 يناير AHN.1797. Estado. L. 4329

(93) AHN. Estado. L. 4334.

(94) **تاريخه**: يوم الأحد 26 قعدة 1212 /يناير 1798، ص. 305.

(95) رسالته بتاريخ 3 يناير 1798. AHN. Estado. L. 4342

وكيفما كان الأمر فإننا لم نعد نسمع شيئا عن المرابط سيدي البشير الكبداني منذ 1794، وهي السنة التي اشترى فيها سفينة من بني بو كافر سبق أن استولوا عليها لاقترابها من الساحل وغير مصرح بجنسيتها بقصد استعمالها ضد مراكب الصيد الإسبانية المتجولة بين مليلة وبادس[96]. وعن الطالب علي الشكري ابتداء من 20 يناير 1797 حينما طلب من حاكم مليلة بعض الدواء رغبة في التخلص من الحمى التي ألمت به[97].

والأمر مماثل بالنسبة لمحمد الرتبي الذي اختفى اسمه من المراسلات بعد يوم 27 يونيه من نفس السنة حين أخبرت بإسقاط تسع طلقات على الحصن خلال أيام حراسته بين 1 و 4 يونيه 1797[98]. ولم تفدنا العودة إلى البحث في الأرشيف التاريخي الوطني شيئا. وتعلق أملنا أكثر بالبحث عن المقدم المزوجي في رسوم الأسرة التي بأيدينا، فتبين لنا فعلا وفاة شيخ بني انصار ومزوجة قبل سنة 1802/1217[99].

لم يعد هناك أدنى شك في اختفاء مقدم مزوجة، وقد افترضنا نفس المصير لرفيقيه الآخرين في الجهاد. فهل كان لعودة الحركات السليمانية سنة 1799/1213 إلى قلعية أثر في ذلك الاختفاء؟ والواقع أننا لا نعرف ما إذا وصل ذلك الجيش العرمرم الذي أعلن عنه قنصل إسبانيا بطنجة في تلك السنة، وهو أمر لم يأتنا تأكيده من برج مليلة، وكلما ذكرته مراسلة في هذا الشأن وصول عشرة قواد إلى قلعية ثم عودتهم دون معرفة النتائج المترتبة عن

---

(96) مليلة: 17 مارس 1794. AHN. Estado. L. 4334/1

(97) مليلة: 20 يناير 1797. AHN. Estado. L. 4334

(98) مليلة: 27 يونيه 1797. AHN. Estado. L. 4334

(99) يقول الرسم: "الحمد لله لدى كاتبه أدى الفقيه محمد بن العربي الشرقاوي الملازم الآن مسجد أولاد صالح والفقير محمد بن أحمد بن عيسى النصري، ثبت لديهما بمعرفتهما المرحوم الفقير المختار الكارح لقبه والمرحوم عمر بن أحمد الرتبي وأخيه محمد المرحوم أيضا". **وثائق رتابة**، أوائل شعبان 1217.

زيارتهم[100]. وعلينا أيضا أن نضع في حسباننا بحثا عن علاقات ذلك الاختفاء نتائج ظهور الوباء الذي أعلنت عنه رسالة مليلة بتاريخ 2 أبريل 1799 (26 شوال 1213). فإذا كان التوصل إلى الجواب الآن غير ممكن، فإن الملاحظ أن ثلاثة من أبناء المقدم أحمد الرتبي اختفوا هم بدورهم في نفس الفترة[101].

وخلاصة هذا العنصر الذي أفردناه للمقاومة المغربية بين 1767 و 1799 أن المغرب دخل في تجربة وطنية جد جريئة في نطاق الدفاع على الوحدة الترابية. وبالقدر الذي كانت فيها التجربة هي الأولى منها بالنسبة لمليلة كانت هي الأخيرة أيضا بالنسبة لجميع المراكز المحتلة الأخرى على خلاف المرحلة السابقة لها.

ستغير تلك النتيجة نظرة المخزن إلى مسألة الثغور المحتلة، وكان سيدي محمد قد بدأ في تمهيد الطريق لذلك التحول الاضطراري، وهو الطريق الذي سيتبين خلال المرحلة الموالية والأخيرة من دراستنا.

وعلى الرغم من أن الموقف كان لصالح سياسة مليلة فإن تصلب سيدي محمد في شأن حدود مليلة ومقاومة قلعية الشديدة قد أدى إلى ترنح موقف الحكومة الإسبانية في قضية مليلة لتضارب الآراء حولها بين التخلي عنها والاحتفاظ بها.

غير أن ساسة الإسبان كانوا أيضا يعدون لتطويق بلادنا باتفاق ومستلزمات اقتصادية جد معقدة، فهموا منها رضوخ المغرب لمطالبهم عاجلا أم آجلا، واعتقد المغرب أن ترضية المصالح الاقتصادية الإسبانية سيعمل على تليين موقفهم تجاه المراكز المحتلة، مما سيتبين لاحقا في مستهل العنصر الموالي.

---

(100) مراسلة طنجة: 9 يناير 1799. AHN. Estado. L. 4342

(101) A.H.N. Estado , L. 4341. لم يبق في أوائل شعبان 1217 من أبناء المقدم أحمد سوى ميمون ومحمد أعراب لقبه وأخوهما حدو.

(2)

من فكــرة التـخلـي إلى التـسلـيـــم

رغم تشعب عناصر العلاقات المغربية الإسبانية التي ظهـرت إلى الوجـود منذ منتصف القرن الثالث عشر الهجري(18م.) فإن مسـألة الحصـون الإسـبانية بسـواحلنا كـانت محـور تلـك العلاقـات والشـغل الشـاغل للبلاطـين المغربـي والإسباني[102]. ولا يستند أربـاب هـذا الـرأي علـى نتـائج الاتفاقيـات وعـدم جدوى قراراتها المتعلقة بالحصون فقـط، بـل يبنـون نظريـاتهم علـى التجـارب المتقدمـة المستخلصـة من أقـدميـة وجودهـم بمليلـة بمـا يزيـد علـى ثلاثـة قـرون متوالية.

لاحظ ساسة الكورطي على عهد كارلوس الثالث أن البون شاسع جدا بين الآمال التي كانت معقودة على مخطط زعماء حركة الاسترداد وبين النتائج التي توصلت إليها الحكومات السابقة من الوجود الإسـباني بمليلـة، ممـا حثهـم عن بحث أبعـاد المشكل، فأبرزت طائفـة منهـم طغيـان الجوانـب السـلبية علـى النتائج الإيجابية[103].

أشارت التقارير المنجزة في هذا المضمار إلى مضي مـا زاد علـى القرنـين والنصف على العهد الـذي دبـر فيـه السـكرتير الملكـي فـيرناندو ذي ثـافــرا (Fernando de Zafra) نـقــل عمليـات حركـة الاسـترداد إلى السـواحل المغربيـة والاستيلاء على مليلة، وعلى عهد الكاردينال ثيسـنيروس(Cardenal Cesneros) الذي دبج مخططه الرامي إلى الاستحواذ على شمال إفريقيا، انطلاقا مـن المراكـز

(102) V. R. Casado , *Politica marroqui de Carlos 3*. p. 166.

(103) تقرير اللجنتيـــن السياسية والحربية بتـاريخ 25 مـاي 1821؛ AHN. Estado. L. 5815
Francisco Selin de la Pena. *Memoria sobre la coservacion o abandono de los Presidios Menores*. Valencia 1846. p. 134.

المحتلة. والنتيجة أنه لم يتحقق أدنى شيء مما كان يأمله أهل ذلك العصر[104]، وعلى العكس من ذلك فإن الأمر ازداد تفاقما بحجة أن تلك المراكز نفسها لم تتمكن من التمتع ولو بقسط من الراحة والاطمئنان، وبلغ الأمر كذلك إلى أن المدن الساحلية الأندلسية لم تنج هي بدورها من غارات السفن الريفية المباغتة.

ونتيجة للأبحاث المتوصل إليها لم يتأخر الكورطي عن طرح السؤال مستفسرا ما إذا كان من الوجهة الاقتصادية والحربية والدينية التمادي في اقتفاء أثر سياسة ظهرت حقيقة فشلها للعيان[105]. ومنذ ذلك أخذت مسألة الحصون طريقها إلى الدرس من جميع جوانبه على يد اللجن المختصة، فظهرت التقارير المزدوجة الرأي، سواء الداعية منها إلى فكرة التخلي أو المطالبة بالاحتفاظ.

انطلقت الدراسات حوالي عام 1750 بدءا من مبادرة سابقة قامت بها الحكومة على عهد فيليب الخامس، حينما أشار سنة 1732 على قبطان ساحل غرناطة بتقديم تقرير يخص الصخرتين بادس والنكور والبحث ما إذا كان من الأفضل التخلي عنهما[106].

فالراجح إذا أن مليلة لم تدمج آنذاك في نطاق البحث، سيما وأن وضعيتها الدفاعية كانت قد تحسنت بعد تشييد أبراج كدية القبو. غير أن تلك التحصينات لم تكن كافية لضمان أمنها ولم تخفف في شيء من حدة الهجومات القلعية عليها وكان من العسير إخفاء الوضعية الحقيقية التي كانت عليها، فهذا هو ما نفهمه من أمر كارلوس الثالث لتوسيع دائرة بحث شؤون الحصون وإدخال مدينة مليلة من ضمنها.

وكان علينا الانتظار إلى غاية سنة 1763 ليتسنى الإطلاع على التقارير المنجزة في هذا الموضوع، تلاها افتتاح العلاقات المغربية الإسبانية سنة 1767 المعبرة عن تفوق رأي المساندين للاحتفاظ بالمراكز جميعها. غير أن حكومة

---

(104) T. G. Figueras , « Los Presidios Menores de Africa ». *Tamuda* . 1954. p. 106.

(105) **المرجع السابق.**

(106) **نفسه.**

العاهل الإسباني كارلوس الثالث لم تلبث أن أحيت الفكرة من جديد ليظهر تقرير سنة 1772[107].

والملاحظ أن التقارير السابقة لسنة 1799 تناولت حديث الجلاء عن المدينة بعد تخريبها و لم تتناول مسألة التسليم للمغاربة. ولا يمكن لنا أن نلمس هذا الاتجاه الجديد لدى البلاط الإسباني إلا بعد حصار مليلة، ليظهر بصورة واضحة في غضون سنة 1791. و لم يشق المشروع طريقه نحو البلاط المخزني إلا في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر[108].

تألفت الطائفة المتزعمة لفكرة التخلي من أولئك الذين كانوا يراقبون عن كثب اختلال التوازن بين تكاليف الاحتفاظ بالحصون وضآلة قيمة النتائج المستفادة من ذلك الاحتفاظ ذاته.

ويدخل ضمن تلك الطائفة المناصرة لفكرة الاحتفاظ أعضاء مجلس الأراضي الهندية (Consejo de Indias)[109]. الذي كان حريصا على توجيه عنايته إلى المستعمرات الإسبانية بأمريكا اللاتينية، ثم طائفة الدوائر المالية التي تشبثت بفكرة التخلص من التكاليف الباهضة المترتبة عن الاحتفاظ بتلك الحصون، وكذا رؤساء الحكومات ورجال الهيأة الدبلوماسية المهتمة بالعلاقات المغربية.

وكان على كل طائفة من تلك الطوائف مواجهة معارضة قوية لا تلين قناتها من طرف رجال الحربية والبحرية والعدل وحكام الحصون من أنصار فكرة الاحتفاظ[110].

---

(107) تقرير المهندس آيلمير Aylmer بتاريخ 16 غشت 1773. ح. الفكيكي، "مسألة الثغور المحتلة في منتصف القرن الثامن عشر". **دار النيابة**، 1986/11، ص. 23.

(108) تعليمات فاتح أبريل 1777. A.H.N. Estado. L. 4762 تقرير قدمه ثيخيرس (Zegers) بتاريخ 14 يناير 1792. AHN. Estado. L. 4309

(109) رسالة السلاوي: 19 أكتوبر 1808، نسخة عن الترجمة الإسبانية. A.H.N. Estado. L. 5821

(110) تقرير 23 يناير 1763 و 14 يناير 1764. F.S. de Pena, *Memoria*, p. 105.117

وليست لدينا أي نية لاستعراض آراء كل جماعة من تلك الفئات، فأفكارها متشابهة يستند بعضها إلى بعض، ونفضل بحث الخط الأفقي الجامع لتلك الآراء، ويرسم ذلك الخط الاتفاق على انتقاد سلبيات وظائف مليلة، من حيث الموقع والمجال الاقتصادي، وما كان ينتظر منها من الوجهة الحربية والدينية.

فمليلة غير متوفرة على مرسى ملائم لإيواء السفن الكبرى من حجم الكارافيلات نتيجة ضيق مساحته أولا، ومواجهته للرياح الشرقية القوية ثانيا. وكان مثل هذا الاعتراض قد أبداه كريستوف كولومب حوالي سنة 1496 وظهر هذا جليا في الفترات الصعبة التي اجتازتها المدينة، وبوجه خاص أثناء حصار المغرب للحصن على عهد سيدي محمد بن عبد الله حين اضطرت السفن القادمة من إسبانيا إلى العودة بحمولتها أحيانا والالتجاء أحيانا أخرى إلى جزر كبدانة[111].

وخلافا لما كان الإسبان يرجونه من توسع بري في أراضي قلعية وتأسيس مستعمرة بالمكان فقد اتضح استحالة الوصول إلى تحقيق ذلك، فمن جهة البر لم يستطع رجال الحصن إلحاق الأضرار بالمغاربة رغم تفوقهم في السلاح، فقد ثبت أنهم لم يتمكنوا من الابتعاد كثيرا عن أسوار المدينة، وعلى العكس من ذلك فإن طبوغرافية الأراضي المحيطة بها تضع في أيدي المغاربة مبادرة الغارات الموفقة على رجال الحامية[112].

ومليلة من جهة أخرى غير قادرة على القيام بالدور المرتجى منها في المجال البحري أيضا. فإذا كانت المهمة المرسومة لها منذ بداية الوجود الإسباني بها هي القضاء على أوكار القراصنة وحماية السواحل الأندلسية من غاراتها، فإن للمغاربة مراسي أخرى يلجأون إليها. وعلاوة على ذلك فإن سفن مليلة لا طاقة لها على مواجهة السفن الريفية في ساحل الريف. كما أن الخطر يأتي

---

(111) أنظر الأمثلة في كتابنا: **سيدي محمد وقضية مليلة المحتلة**، وما جاءت به تعليمات الحكومة في فاتح أبريل 1777. A.H.N. Estado, L. 4762

(112) تقرير 14 يناير 1764 و 16 غشت 1773 السابقي الذكر.

أيضا بسبب جولات السفن الجزائرية والتونسية[113]. ومليلة باب مغلق تجاه الأسواق القلعية بسبب حالة الحرب والحصار الدائمين، إذ أن جميع المواد الغذائية يتم جلبها من مدينة مالقة، وحتى العشب والحطب أيضا.

أكدت التقارير أن مليلة لا يمكن لها القيام بدور مدرسة التربية العسكرية مثلما كان مقررا لها منذ البداية. فالحصون بصفة عامة بالنسبة للجنود شبح مرعب نتيجة الشعور بالعزلة وما يلاقونه من شظف العيش والمشاق في العمل، وحتى سوء المعاملة التي يعانون منها بسبب القسوة التي يلاقونها من طرف الحكام.

والنتيجة أن مليلة أصبحت بابا مفتوحا لفرار الجنود إلى المغاربة، إذ أنهم يفضلون اعتناق الإسلام عن العودة إلى الحصن. وتصاعد عدد الفارين من شأنه أن يضعف قوة الحصون من الوجهة الحربية والدينية معا. أما وجود المسيحية بمليلة فلا أثر له على نشر الدين، فالمغاربة كما دلت عليه التجربة بعيدون كل البعد على أن تستهويهم الديانة المسيحية[114].

ومن جراء ذلك كانت التكاليف التي تتحملها خزانة الدولة جد باهضة يذهب جلها سدى، وبالتالي فإن الاحتفاظ بالحصون الصغرى لا يعود بأي نفع على البلاد. ولذلك وجب البحث عن حلول أخرى من شأنها أن تهدئ من مخاوف المسيحيين بها، وكذا أهل السواحل الأندلسية[115].

وأضافت التقارير أن استمرار وجود الإسبان بالحصون الصغرى مما يساعد على نقصان عدد سكان إسبانيا، نتيجة العدد الكثير من الأسرى الذين يقعون بيد المغاربة سواء في البر أو البحر. وتكمن أكبر تخوفات الإسبان، حال تخليهم عن مليلة في عودة المغاربة إلى تعميرها، لذا قدم أصحاب هذا الرأي حل تخريب المدينة وتعطيل مرساتها، أملا في إرضاء رجال البحرية والحربية

---

(113) تقرير 14 يناير 1764 و F.S. de Pena , *Memoria* , p. 120

(114) جميع تلك الأفكار مستخلصة من التقارير المشار إليها سابقا.

(115) طرحت التقارير عوض الاحتفاظ بالحصون الصغرى شراء السفن الكافية لحراسة السواحل الإسبانية من الأموال المخصصة للنفقة على الحصون.

المتمسكين بمبدإ الاحتفاظ. ويختم أيلمر (Aylmer) تقريره بقوله: "فبناء على الاعتبارات السابقة فإنني موافق على التخلي عن الحصون الصغرى لكونها غير ذات جدوى للدولة ولا أهمية لها بالنسبة لعزة جلالته وشرفه، فمن الشجاعة أن نتخلص بأيدينا مما هو في قبضتنا، فهذا أجدى بنا من التمسك بها. وإذا كان من الضروري الاحتفاظ بتلك الحصون فسيكفي لمجد المملكة البقاء بسبتة ووهران"(116).

تلك هي النتائج المعروضة على الكورطي سنة 1765 ثم سنة 1773 في إطار فكرة التخلي عن المدينة، قدمناها لغاية ربطها بفكرة تسليم المدينة للمغرب. فما هي العناصر الجديدة المرافقة لها؟

مشروع التسليم وأطواره

لم نتمكن من التعرف على انتقال وجهة نظر الحكومة من فكرة التخلي إلى فكرة التسليم إلا في سنة 1777 حسبما نستخلصه من تعليمات الحكومة الإسبانية إلى سفيرها الفرانسيسكاني بولطاس، فقد جاء فيها: "يخطئ السلطان خطأ كبيرا إذا كان في اعتقاده أن مليلة بالنسبة إلينا شيء ذو اعتبار وأهمية، فإذا كنا قد سخرنا طاقاتنا للدفاع عنها فلأننا كنا ملزمين لحماية شرف عاهلنا"(117).

رددت تلك التعليمات دواعي عدم الاهتمام بمليلة بالاتفاق مع ما جاء في التقارير السابقة. وتظهر الفقرة الموالية من نفس التعليمات أن العاهل كارلوس الثالث كان على استعداد لتسليم المدينة لقاء الحصول على تعويض مناسب وليس لمجرد الود والصداقة. وكيفما كان الأمر فإن موضوع التسليم لم يثر أثناء المحادثات الثنائية التي تمت على عهد سيدي محمد، وربما كانت الفكرة ملفا احتياطيا بالنسبة لما كان يجري وراءه الإسبان في الاتفاقين المبرمين آخر

(116) 16 غشت 1773. F.S. de Pena, *Memoria*, p. 120 ; Recardo Aylmer, *Reconocimiento de los Presidios Menores de Africa*, Bibleoteca de Ingenieros de Madrid.

(117) بتاريخ فاتح مارس 1777. AHN. Estado. L. 4762

أيام السلطان. ولم نجد التعبير الصريح عن فكرة التسليم إلا في تقرير أعد سنة 1794 على عهد السلطان المولى سليمان(118).

نستطيع التصور من خلال هذا التقرير القاعدة الأساسية المختارة لتكون أساس وشرط التسليم، وكان صاحبه قد زار المغرب وعاد إلى مقره بقادس. انبنت مسألة التعويض على الاقتراح المقدم من طرف محمد بن عثمان المكناسي سنة 1791 أثناء سفارته على عهد المولى اليزيد وعلى العلاقات الحسنة التي كانت تربط سيدي محمد بكارلوس الثالث، إذ أن تلك العلاقة في نظر صاحب المشروع أهم رصيد متوفر لدى الإسبان لطرح موضوع ذي أهمية كبرى بالنسبة للمغاربة طالما راودتهم آمال الحصول عليه. طرحت الحكومة الإسبانية مشروع التسليم بالصيغة التالية: "لا مانع عند جلالته الكاثوليكي من تسليم مليلة والحسيمة (صخرة النكور) والبينيون (صخرة بادس) والاحتفاظ بسبتة فقط، على أساس وضع حد نهائي للحرب التي شنها علينا المولى اليزيد".

واعتقد ثيخيرس (Zegers) صاحب التقرير، إثر استقرار المولى سليمان على عرشه أن الوقت مناسب لطرح المسألة من جديد، وأن تسليم الحصون الصغرى إذا تم آنذاك فستجني الدولة الإسبانية ما يقابله من الأقوات الكافية من مؤونة الجيش وستتمكن إسبانيا في نفس الوقت تحرير الدولة من تكاليف باهضة تعادل ما كانت تصرفه عن الاحتفاظ بالحصون. وانتهى بوضع لائحة التعويضات المقترحة جاء فيها:

النوع والمقدار	الثمن	المجموع
3.000.000 فانيكا قمحا (119)	4 بيسوس فويرتس	12.000.000 بيسوس. ف.
1.000.000 " شعيرا	2 " "	2.000.000 " "
5.000 رأس من البقر	15 " "	75.000 " "
80.000 رأس من الغنم	1 " "	80.000 " "
2.000 رأس فرس	25 " "	50.000 " "

(118) 14 يناير 1794. A.H.N. Estado. L. 4309. الحصار المعني هو حصار المولى اليزيد لسبتة.

(119) الفانيكا مقياس كيل يزن أربعة أمداد لازمها ثمانية أواق. **تاريخ الضعيف** ص. 35.

سيتم تسديد تلك التعويضات خلال خمس سنوات، وعلى المغرب أن يقدم منها في السنة الأولى 2.000.000 فانسكا من الحبوب و 2.000 رأس من البقر و 2.000 من الخيل و 20.000 رأس كبش.

سيجري تسليم الحصون تدريجيا بمجرد التوصل بما يقابله من التعويضات بدءا بصخرتي بادس فالمزمة ثم مليلة في آخر المطاف. ويوصي التقرير بتكليف القنصل الإسباني بالمغرب خوان كونثالس سالمون (Juan Gonzalez Salmon) كوسيط في المحادثات.

غير أن طرح المسألة تطلبت أولا عقد اتفاق جديد مع المغرب، وهذا مما لم يتأت قبل مارس 1799، ولذلك لم يتلق القنصل الإسباني من حكومته أي أمر للشروع في المحادثات إلا في منتصف العقد الأول من القرن الثالث عشر(بداية 19 م.)[120].

فحسب خيرونمو بيكر (Jeronimo Beker) السابق الذكر أن طرق الموضوع بدأ بوصول التعليمات إلى قنصلية طنجة لمباشرة المحادثات مع المولى سليمان، فتم الاتفاق على البدء بتسديد حصة أولى مقدارها مليونا فانيكا من الحبوب. غير أن المعارضة الإسبانية سرعان ما جمدت المحادثات[121].

ربما كانت هناك محادثات لاحقة بشكل من الأشكال لكننا لم نخبر بالعودة إلى إثارة الموضوع إلا في سنة 1808 وكان الوزير المغربي المكلف بالعلاقات مع الأجناس وعامل الثغور محمد بن عبد السلام السلاوي البخاري هو الممثل المباشر مع الإسبان[122].

وعلى الرغم من الظروف الصعبة التي كانت تجتازها إسبانيا بسبب الغزو الفرنسي النابليوني، فإننا وجدنا ملف تسليم الحصون مفتوحا في خريف 1808. غير أن المولى سليمان كان آنذاك بتافيلالت، في وقت ظهر فيه العرض

---

(120) Jeronimo Beker , *Historia de Marruecos* ,. Madrid 1915. p.195

(121) **المرجع السابق**، ص. 189.

(122) رسالة السلاوي بتاريخ 19 أكتوبر سنة 1808، وهي نسخة عن الترجمة الإسبانية. AHN. Estado. L. 5821

النابليوني على المغرب للبقاء حيال النزاع الإسباني الفرنسي كطرف محايد لقاء تسليم الحصون، وكان على المولى سليمان الانتظار لقبول العرض أو رفضه من حيث المبدإ إلى حين اتضاح الأمور على ساحة شبه الأراضي الإيبيرية[123].

استؤنفت المحادثات في طورها الثاني سنة 1810 ونستطيع الوقوف على دافعها، إذ كان على مجلسي الوصاية والهند بذل مساعيهما لفك الحصار الاقتصادي على مدينة قادس مركز الأسطول الإسباني، والبحث عن وسائل تمويل المدينة بحرا. وقد أبرزت لنا المحادثات الجديدة أحد أسباب إخفاق اللجنة السابقة، إذ أن المولى سليمان لم يكن موافقا على التعويضات المطلوبة لارتفاع مقدارها مما اضطر الحكومة الإسبانية إلى إدخال تعديل على اللائحة المقترحة مجددا تحت ضغط الحاجة إلى المواد الغذائية. كان القنصل الإسباني قد حل بمدينة مكناس يوم 3 يونيه 1810. وتظهر الاقتراحات المطلوبة من خلال الجدول التالي[124]:

قنطار قمح	قنطار شعير	قنطار قطاني	رأس بقر	رأس غنم	دزينة دجاج
1.500.000	300.000	200.000	10.000	10.000	10.000

قنطار زيت	فحم خشب
5.000	200.000

والملاحظ أن مطالب الإسبان تشوفت في نفس الوقت، مما هو جديد في القضية إلى امتلاك أرضي جديدة لصالح توسيع حدود سبتة، كما أننا نسمع لأول مرة عن إجراء اختبار على المخزن للسماح بتوسيع نطاق السيطرة إلى جزر كبدانة، مما كان له الأثر على فشل المحادثات ولا شك[125].

(123) J. Beker, *España y Marruecos, sus relaciones diplomaticas* p.195

(124) رسالة 23 ماي سنة 1809. A.H.N. Estado. L. 5815

(125) **المصدر السابق.**

غير أن هذا الفشل لم يحل دون عودة نفس اللجنة سنة 1812 بتفاؤل واضح لإنهاء مسالة إجراء تسليم الحصون الصغرى، وبدا أن كل شيء كان معدا لإرساء آخر الترتيبات: فأعضاء اللجنة الإسبانية كانوا مستقرين بالجزيرة الخضراء في انتظار إشارة محمد بن عبد السلام السلاوي لعبور المضيق إلى طنجة وبيدهم ملف الحصون جاهزا. ومن بين الوثائق المدرجة بالملف رسالتان تحملان اسم الملك فيرناندو السابع[126]، الأولى منهما موجهة إلى المولى سليمان والثانية إلى محمد السلاوي.

ومن الخطاب الموجه إلى المولى سليمان يمكن وضع الإطار العام للاتفاق المنتظر. كان المفروض من الاتفاق أن سيسفر عن تسليم الحصون الصغرى بمجرد الانتهاء من تسوية مسألة التعويضات. بيد أن الاتفاق النهائي كان رهنا بموافقة الكورطي.

وتبين الرسالة في الفقرة الثانية الجوانب المادية التي ينبغي على المولى سليمان مراعاتها وقت دراسة التعويضات. وتتمثل تلك الاعتبارات في النص المقتبس: "فلا يسعنا سوى التعبير لجلالتكم عن مدى أهمية وجسامة ما يشكله بالنسبة إلينا التنازل عن الحصون الثلاثة، فهو أمر يعد من التضحيات الجسيمة التي سيتحمل عبأها مجد إسبانيا، علاوة على التكاليف والنفقات الباهضة التي تطلبتها المباني والإصلاحات، وينبغي كذلك مراعاة الالتزامات التي يستوجبها علينا تعويض ذوي الأملاك القائمين بتلك الحصون. وبناء على ذلك أرجو من جلالتكم أن تضعوا كل ذلك في اعتباركم حين تقدير التعويضات التي ستقدم لنا، محولة إلى الحبوب وغيرها من المواد، بحيث تكون التعويضات جد هامة من شأنها أن تخفف عنا المآسي المترتبة عن التسليم".

وأراد العاهل الإسباني أن يتم التسليم بأقصى ما يمكن من السرعة، فهذا هو ما يفسر لنا وجود عدة رسائل باسم العاهل الإسباني خالية من توقيعه

(126) من المعلوم أن الملك الإسباني كارلوس الرابع كان قد تنازل لابنه على العرش إثر الغزو الفرنسي يوم 23 مارس 1808، غير أن نابليون أرغم هذا الأخير على التنازل ونفاه إلى فرنسا، حيث سيظل إلى حين عودته يوم 13 ماي 1814.

وهو في منفاه باستثناء توقيع رئيس اللجنة، ولا تحمل من التاريخ سوى سنة 1812. ففي بداية فبراير سنة 1812 كان رئيس اللجنة ما زال بمكانه بالجزيرة الخضراء[127]. مكتفيا بمتابعة مراسلة الوزير السلاوي وتقديم الاقتراحات إلى أن عرضت على المولى سليمان يوم 6 ماي السنة[128].

ولم تمكنا وثائق الأرشيف التاريخي من الاطلاع على رأي المولى سليمان أثناء قراءة تلك الاقتراحات، ولكن صداه تعكسه مراسلات محمد بن عبد السلام السلاوي التي بينت الأخذ والرد في مسألة مقدار التعويضات ونوعيتها، فقد ألح الوزير المغربي على ضرورة تخفيض التعويضات المطلوبة من القمح والخيل والأغنام[129].

وقبل 20 يونيه كان المولى سليمان قد أعطى جوابه النهائي بشأن تلك التعويضات، فهذا هو ما أوضحه تقرير رئيس اللجنة إلى الحكومة بتلخيص، فقد تبين بعد الاتصال بالسلطان أنه لن يتجاوز في تقدير التعويضات ما مجمله 500.000 بيسوس فويرتيس. ويوضح التقرير مدى صلابة رأي المولى سليمان رغم إلحاح محمد السلاوي موضحا له أن الإسبان سيقبلون العرض المغربي في آخر المطاف[130].

ونلاحظ من خلال التقرير نفسه أن ما كان يقلق الإسبان ليس هو هزالة مقدار التعويضات، بل نتيجة استيائهم من تأثير الإنجليز على المولى سليمان. وقد أيقنت اللجنة من فشل المفاوضات حينما غادر السلطان مدينة مكناس في اتجاه فاس وتكليف وزيره السلاوي الذي كان من المفروض أن يتوجه لطنجة لمتابعة المفاوضات بالتوجه إلى قلعية بحجة الإشراف على تصفية عملية تهريب الحبوب للأوربيين.

---

(127) رسالة 1 فبراير 1812. A.H.N. Estado. L. 5815

(128) رسالة طنجة: 9 ماي 1812. A.H.N. Estado. L. 5815

(129) أضافت الاقتراحات الإسبانية الزيوت والخشب والتبن والقنب والدجاج والبغال.رسالتا 16 و 18 يونيه 1812. A.H.N. Estado. L. 5815

(130) رسالة رافائيل لوبو (Rafael Lobo) 26 يونيه 1812. A.H.N. Estado. L. 5815

ونعلم مرة أخرى من تقرير رئيس اللجنة أن توسيع حدود سبتة كان من ضمن المطلب الإسباني المشروط في تسليم الحصون الصغرى وهو السبب الآخر الداعي لفشل المحادثات، حسبما رد به السلطان إلحاح وزيره السلاوي حين نبهه إلى أنهم يرغبون في الحصول على الأراضي المجاورة لسبتة لزراعتها[131]. ونجهل الأسباب التي جعلت الكورطي يعيد ملف الحصون الصغرى للبحث مرة أخرى. هذا ما تأكد إثر اجتماعه برئاسة فيرناندو السابع لتتم الموافقة يوم 7 نوفمبر 1820 للعودة إلى طرحه على المغرب بنفس الاقتراحات السابقة.

وهناك تقرير مستفيض عن المشاورات حول تسليم الحصون الصغرى أو الاحتفاظ بها، تم عرضه أخيرا على اللجنتين السياسية والحربية، وهما من أشد الأطراف معارضة لفكرة التسليم.

أنجز التقرير يوم 25 ماي عام 1821 وانتهى بخلاصة إقرار عدم حاجة إسبانيا إلى تلك الحصون في تلك الظروف، مما يوضح انحناء وزارة الحربية لرأي التسليم أخيرا، وهو الدليل على عزم الإسبان الجدي للتخلص من الحصون الصغرى[132]. وبناء على ذلك القرار أعطت الحكومة الإسبانية لقنصلها بطنجة سلطات واسعة لتصفية المشكل بأي وجه كان. ولما كانت الحكومة عالمة بموقف المولى سليمان من التوسعة والتعويض المطلوبين، فإنها بحثت عن وسيلة ضغط أخرى بإضافة فقرة مفادها أن الحكومة ستحتفظ بحرية التصرف فيما يرجع إلى الهيأة التي ستترك عليها مباني الحصون. وهذا يعني أن الحكومة كانت قد خططت تخريب الحصون بعد التخلي عنها[133].

لم يحل القنصل الإسباني بطنجة متأخرا إلا في يوليوز 1822. وربما كان سبب تأخره هو توصله بالقرار الحكومي المفاجئ الذي لم يكن هو متفقا عليه

---

(131) تقرير 26 يونيه 1812 السابق الذكر.

(132) تم توقيع التقرير بمدريد على يد أربعة عشر سياسيا وحربيا A.H.N. Estado L. 5815.

(133) رسالة طنجة: 9 يوليوز 1822. A.H.N. Estado. L. 5823

بحجة منافاته مع التعليمات التي سبق أن تلقاها بمدريد، فـرد جوابـه مطـولا إلى حكومته موضحا سلبيات القرار الملحق بالتعليمات:

"سيكون تسليم الحصون الصغـرى وهـي خـراب فاجعـة أكيـدة للسـلطان وهـو إجـراء غـير معهـود في مسـطرة المباحثـات الدبلوماسـية وخلـوه مـن أي مغـزى وستترتب عنه نتيجتان:

فمن المؤكد أولا أن أخـذ هـذا الشـرط بعـين الاعتبـار في الاتفـاق المزمـع عقـده سيجعل السلطان محتاطـا منـذ الوهلـة الأولى معتقـدا أن في الأمـر خدعـة، وهـذا كاف لإيقاف المحادثات. فمن الراجـح إذا مـا أريـد إعطـاء المسـألة أكثر جدية الإسراع إلى إلغاء هذا الشرط، ومن شأن ذلك أن يضاعف الحماس لـدى المـولى سليمان، وستكون النتيجة إدراكنا بوسيلة غـير مباشـرة مـا نسـعى إليـه بواسـطة الضغط.

ومن جهة ثانية فإن الهيأة التي توجد عليها الحصون الصغرى غـير مرضيـة وهـذا يجعل الإصرار علـى تخريبهـا أمـرا لا مـبرر لـه ودون جـدوى، عـلاوة علـى مـا ستكلفه عملية الهـدم مـن المصـاريف المضافـة. ومـن أجـل ذلـك فالتدبـير الـذي تقترحون ليس من الحكمة في شيء وعواقبه غير مرضية لا محالـة. وإذا كنتـم قـد أبلغتموني أن المولى سليمان قد رفض الدخول في المفاوضـات مـن جديـد إذا لم يحصل على ضمانة سلامـة، فسيكون من اللائق على الحكومة التراجع عن قرارها إذا ما أرادت التوصل إلى رفع التعويضات بالقدر المطلوب"[134].

من البديهي الاعتقاد أن القنصل الإسباني لن يقبل علـى الشـروع في المحادثـات إلا إذا عاد إليه جواب الحكومة سواء بتمسكها بالقرار أو بسحبه. وهذا الجواب هو الذي ينقصنا العثور عليه. وليس ببعيد أن المحادثات قـد أقـبرت مـرة أخـرى، فالثلاثة أشهر التي بقيت من حياة المـولى سـليمان لـن تكـون كافيـة للتوصـل إلى اتفاق، ويؤيد هـذا ضعـف صحـة السـلطان. والراجـح أيضـا أن تقـاعس المـولى سليمان عن العودة إلى المفاوضات كان متأثرا بعدم كفاءة وزيره السلاوي، فقـد نقل عنه في آخر أيامه قوله: " لو كان لدي وزير مثل محمـد بـن عثمـان لكلفتـه بتلك المهمة"[135].

---

(134) نفسه.

(135) المصدر السابق.

كل هذا يفرض علينا أن نسلم بعودة ملف تسليم الحصون الصغرى إلى رفه القديم الذي لن يغادره بعد سنة 1822 بوفاة المولى سليمان، رغم وجود بعض الإشارات العائدة إلى سنوات 1831 و 1838 و 1844 من عهد المولى عبد الرحمن. ولا بد أن يكون للموقف الجهادي الذي أعلن عنه السلطان أثر على تجميده. فعلى الرغم من محاولة توضيح ملف تحرير مليلة من قبضة الإسبان بالوسائل الدبلوماسية على عهد المولى سليمان إلا أن الموضوع ما زال في حاجة إلى توضيحات أخرى من شأنها أن تكشف عن رأي الجانب المغربي مما يساعدنا على إبراز أسباب فشل رجوع مليلة إلى التراب الوطني. وحسبنا إبداء بعض الملاحظات العامة:

- بتجاوز الاختلاف في قيمة التعويضات فإن المغرب كان يرى أن الإسبان راغبون في الحصول على مواد داخلة في الوسق الممنوع، ويدخل ضمنها الحبوب والخيول(136).

- أشعرتنا الوثائق الإسبانية أن المولى سليمان لم يكن متعجلا لاتخاذ قرار فوري في مسألة التسليم بتلبية المطالب الإسبانية، في انتظار ما سيسفر عنه الغزو النابليوني لإسبانيا أولا، وأملا أن يقبل الإسبان العرض المغربي تحت ضغط الأزمة الاقتصادية ثانيا.

- زاد من نفور المولى سليمان من المفاوضات امتداد الأطماع الإسبانية إلى توسيع نفوذ سبتة الترابي بمنحهم أراضي جديدة، فقد تبين بعد ذلك أن الأراضي المطلوبة كانت تمتد إلى رأس نيكرو أي على مسافة نحو اثني عشر كيلومترا في اتجاه تطوان(137).

- ويدخل في هذا الاعتبار تحفظ المولى سليمان من صدق نوايا الإسبان الرامية إلى التسليم، خاصة بعد علمه برأي الحكومة القاضي بتخريب الحصون قبل الجلاء عنها. وتعلق التحفظ أيضا بكيفية التسليم وترتيبه.إذ أن المغرب

---

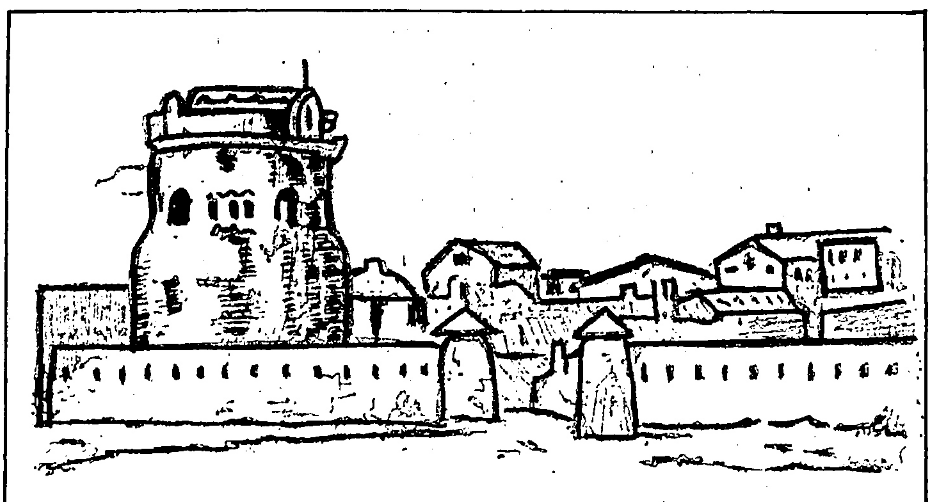
(136) رسالة محمد بن عبد السلام السلاوي: 19 أكتوبر 1800. A.H.N. Estado. L. 5821

(137) الحدود المطلوبة حسب محادثات 1844. ويمكن مراجعة تقرير خوان كونثاليس سالمون عن مسألة الحصون بالأرشيف التاريخي رقم 5815.

كان يرى وضع مليلة في مقدمة التسليم بينما كان الإسبان يرون عكس ذلك.

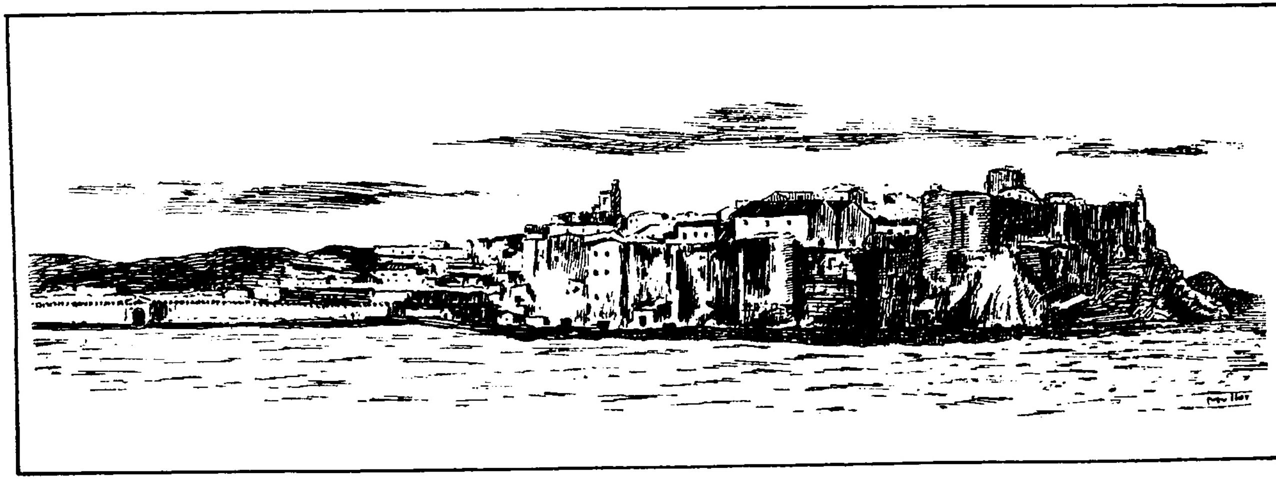
ـ وحسب رأي الإسبان أن فشل المحادثات عائد إلى تأثير الإنجليز على السلطان والانقياد لتوجيهاتهم في المسألة[138].

والنتيجة العامة أن فترة المولى سليمان لم تكن كافية للتوصل إلى اتفاق تسليم مليلة. والملاحظ أن الوثائق سجلت إغفاءة دعاة الاحتفاظ بالحصون و لم يستيقظ هؤلاء إلا باحتلال الفرنسيين للجزائر وانهزام الجيش المغربي في معركة إيسلي، ومنذئذ ركز الساسة الإسبان جهودهم حول مليلة للخروج بنتيجة إيجابية وذلك بالحصول على وضعية مماثلة لما وصلت إليه مدينة سبتة سنة 1844.



برج البارادا

(138) تقرير 26 يونيه 1812 السابق الذكر.



رسم لحصن مليلة يعود إلى أواخر القرن 19

(3)

نحو مشكل الحدود

تمكنت الطائفة الإسبانية المناصرة للاحتفاظ بالحصون كلها دون استثناء أخيرا في غشت 1859 بتحقيق النصر على الطائفة المناقضة لها التي نعلم أنها ترأست عملية تسليم الحصون الصغرى ما بين 1792 و1822 مثلما ما تتبعناه. سنرى مخطط الطائفة الأولى من خلال مليلة واتفاق 20 مارس 1799 والضغوط السياسية والعسكرية التي أدت أخيرا إلى توسيع حدود مليلة.

مليلة واتفاق سنة 1799

لم يصادف الإسبان أمام استرجاع الصداقة المغربية على عهد المولى سليمان صعوبة تذكر، وكان العاهل المغربي قد كلف وزيره محمد بن عثمان للاتصال بالقنصل الإسباني خوان كونثاليس سالمون (Juan Gonzales Salmon) الخبير في الشؤون المغربية في هذا المضمار. هذا اللقاء هو الذي نتج عنه اتفاق 20 مارس سنة 1799.

تظهر الغاية من هذا الاتفاق بما جاء في مقدمته والبنود التاسعة والثلاثين فهو في البداية يلزم الاعتراف بجميع الاتفاقيات المبرمة مع سيدي محمد، ويعبر النص الإسباني على هذا الاعتراف دون نظيره العربي بالعبارة التالية: " تجدد وتؤكد اتفاقيات سنوات 1767 و 1780 و 1785 بجميع ما لا يتناقض مع بنود الاتفاق الحالي"[139].

(139) يوجد النص العربي من الاتفاق بالأرشيف التاريخي الإسباني نشره م. أ. بالاو بمجلة **تامودا**، ص. 9. 51، سنة 1959. ونشرت نسخة منه مترجمة إلى الفرنسية تم نشرها سنة 1807 بمدينة كوتينغ (Gottingue) واكتفى النص العربي في الفصل الأول بعبارة:" إقرار الصلح المتقدم على ما هو عليه وإثباته واعتباره وأن يعمل به".

وبناء على ذلك فإن الشرط التاسع عشر من اتفاق 28 ماي 1767 لم يلحقه أي تغيير مما كان يطالب به من تصحيح الحدود حسب تعبير الاتفاق، لذا أدمج الإسبان الفكرة في الفصل الخامس عشر من الاتفاق الجديد بالإشارة إلى عدم احترام جيران مليلة لاتفاقيات الهدنة السابقة[140]. ويمكن تجزئة النص الإسباني إلى أربع فقرات:

- إن الاعتداءات التي يشنها مجاهدو قلعية على مليلة لا تستوجب نقض الصلح بين الدولتين. وبذلك أعطي لهذه الفقرة بعد أطول حينما اعتبرت الأعمال الصادرة من جيران مليلة سلوكا خاصا بهم، وبالتالي فإنهم يتحملون مسئولية الاعتداء وحدهم. وتتم الفقرة الثانية مدلول الأولى.

- فالسلطان غير مسئول عن أحداث الحدود بين قلعية ومليلة، ولا يسعه سوى التعهد باستعمال جميع ما في إمكانه من الوسائل التي تتيحها له عزيمته وسلطته لإرغام قلعية على الالتزام بحسن الجوار والتخلي عن إلحاق الأضرار البليغة برجال الحصن"[141].

وطرح هذه الفقرة كان لها هدف خطير. فالإسبان يعلمون مدى عجز السلطان عن إقرار سلطته بحدود مليلة باعترافه، ولذلك هيأوا الحل بما يأتي في الفقرة الموالية.

- دس الإسبان في هذه الفقرة نوايا التدخل العسكري، بدءا برد الهجوم وحق متابعة القلعيين إلى مواقعهم الحربية. جاء ذلك في العبارة التالية: "إذا استمر أهل الجوار في اعتداءاتهم فإنهم (الإسبان) سيعدون ذلك مسا بشرف

---

(140) جاء في النص العربي: "بخلاف جيران امليلية والنكور وبادس فغير محافظين على الشروط، فيجب أن يلزموا الوقوف عند الحد والوفاء بالعهد ولا يتركون على الاساءة إلى أهل هذه القرى، فإن لم يقصروا فإن حكام المدن المذكورة يدافعون عن أنفسهم بالمدفع وغيره".

(141) أنظر كمثال على ذلك جواب بوسلهام بن علي أزطوط عن المطالب الإسبانية في وفق 5 رجب 1260/25 غشت 1844. عبد الرحمن بن زيدان، **العلائق السياسية للدولة العلوية**، مخطوط. خ.ح.ر. ص. 58.

جلالته الكاثوليكي، وسوف لن يتغاضوا عن تلك الاعتداءات في وقت تجد فيه الحصون نفسها قادرة على رد العدوان."

وبناء على ذلك سيبادر الإسبان إلى التهديد بالتدخل المرة بعد الأخرى خلال عهد المولى سليمان ولم يمنعهم من تطبيق سياسة الغزو سوى انشغالهم بحرب تحرير البلاد من التدخل النابوليوني، ولكنهم سيكشفون عن أنيابهم ما بين سنة 1845 و 1859. والنتيجة أن الفصل الخامس عشر من الاتفاق الجديد نص على إبطال اتفاق سنة 1785 بالعودة إلى استعمال المدفع والمهراس في الحالات التي تجد فيه الحامية نفسها مضطرة لذلك.

بتوقيع اتفاق 20 مارس 1799 انتهى جزئيا دور المخزن التحكيمي بالحدود الحربية الفاصلة بين مليلة ورباط المجاهدين القلعيين. ومن المعلوم أن القرار بمفهومه الحربي يضع في يد الإسبان حرية استعمال السلاح وقتما يشاءون دون اعتراض المخزن على ذلك، إذ أن التبعات تقع على القلعيين وحدهم ما داموا مصرين على عدم تنفيذ أوامر المخزن.

ولن نبتعد كثيرا عن تاريخ توقيع الاتفاق لنستمع إلى أول تهديد إسباني منذر بالتدخل العسكري: "إذا لم يتوقف جيران مليلة عن غاراتهم فإن الدولة ستتصرف وفق الشروط المبرمة أخيرا"[(142)]. وورود اسم الدولة يعني اللجوء إلى استخدام الجيش الوطني بجميع إمكاناته.

وعد الإسبان الفصل الخامس عشر بمثابة اعتراف بالسياسة الإسبانية على الحصون، إذ أن الاعتداء عليها ارتقى إلى درجة المس بشرف العرش الإسباني. وواضح هذا أيضا في تصريح البلاط الإسباني بأرانخويس حين قال: "إن الهدنة الموقعة أخيرا تسلم بسيادتنا على الحصون"[(143)].

وتظهر لنا الرسالة الجوابية التي بعث بها محمد بن عبد السلام السلاوي البخاري إلى حاكم مليلة أن الإسبان كانوا فعلا قد شرعوا في فرض

---

(142) رسالة طريف: 28 شتمبر 1799. A.H.N. Estado. L. 4341

(143) رسالة 11 يونيه 1799. A.H.N. Estado. L. 4341

وجودهم خارج أسوار المدينة حينما عقدوا العزم على حفر قناة موازية لبرجي سانتا باربارا وسان ميكيل لتصريف مياه المستنقعات التي كانت تهدد السور الغربي من المدينة.

وقد قدم لنا محمد بن عبد السلام السلاوي مثال عدم اكتراث القلعيين بالامتياز الذي حصل عليه الإسبان بمجرد البدء في أشغال الحفر المذكورة حيث قال: "فسيدنا بلغه ما وقع بينكم وبين خدامه قلعية على حفر كنتم تحفرونه فوجه خديمه القائد أحمد بن عبد الصادق الريفي (باشا طنجة) لينظر الواقع بينكم وبينهم ويأتي بالخبر اليقين ليكون سيدنا على بصيرة فيما بينكم وبينهم وأمر الخديم المذكور بالملاقاة معكم، وإن شئتم جاوبونا بما كان وكيف كان الواقع"(144).

وتذكر كتابات الزياني وأكنسوس والضعيف الرباطي عن الحركات السليمانية الموجهة نحو قلعية ما بين سنة 1803 و 1814 أن الغاية من تحرك جيش المولى سليمان لم تتجاوز إرغام السكان على تسديد ما فات من ديون الدولة. ولم تشمل تلك التحركات أخماس قلعية وحدها بل جميع القبائل الواقعة على الطريق الرابط بين تازا ومليلة(145).

وكيفما كان الأمر فإن لتلك التحركات أثرها على المقاومة القلعية. ففي الوقت الذي كان للإسبان حق استعمال المدافع والمهاريس بالميدان تم نقل جميع القطع المدفعية التي كانت بحوزة مقدمي رباط مليلة، سيما بعد اختفاء زعماء آخر القرن الثاني عشر، ولن يتمكن القلعيون من استعادة قطعة واحدة منها إلا على عهد المولى عبد الرحمان بن هشام بمناسبة العودة إلى إحياء سنة الجهاد.

---

(144) رسالة 2 صفر 1218 (24 ماي 1803). A.H.N. Estado. L. 5803.

(145) محمد أكنسوس، **الجيش العرمرم**، 165. 168؛ محمد الضعيف الرباطي، **تاريخه**. 345؛ الزياني، **الروضة المقصودة**، 275.

العودة إلى إحياء سنة الجهاد

لم يطرأ ما بين سنة تولي المولى عبد الرحمن وسنة 1828 أي تغيير على العلاقات المغربية الإسبانية الخاصة بشأن الحصون عامة ومليلة بصفة أخص. فبعد عامين من توليته لبى السلطان رغبة الإسبان في تزكية اتفاق سنة 1799 الجامع للاتفاقيات السابقة بعبارته: "أثبتنا بحول الله وقوته وأفضاله وشامل يمنه ومنته ما صلح عليه أسلافنا قدس الله ثراهم جنس الإصبنيول من الشروط المقررة المعهودة المتعارفة التي بسببها تتم المهادنة والمساعفة والمساعدة، وتوجب الاعتناء بجانبنا الشريف العالي بالله والمودة"(146). وانتزاع الاعتراف من السلطان يعني الاستمرار في متابعة مطلب توسيع حدود مليلة وحرية التدخل في الميدان بالسلاح الناري الثقيل. وإذا أضفنا إلى ذلك استخدام ملف القرصنة المزعومة نستطيع تصور مدى قوة الضغط الإسباني على المخزن المركزي في الواجهة الشمالية الشرقية المغربية.

ونعتبر سنة 1829/1244 سنة العودة بالمقاومة إلى ما قبل حصار مليلة على عهد سيدي محمد بن عبد الله، نتيجة دعوة المولى عبد الرحمن إلى إحياء سنة الجهاد متأثرا بالغزو الفرنسي لجيراننا الجزائريين. ويعني هذا بالنسبة للإسبان في شكل من الأشكال محاولة لإبطال العمل بالشرط الخامس عشر من اتفاق سنة 1799. وإحياء الجهاد كان عاما في البر والبحر، غايته الاحتراس من مباغتة الأجنبي لسواحلنا مثلما حدث بالجزائر. ومن الطبيعي أن يتركز اهتمام السلطان حول المراكز المحتلة، ولذلك وجدناه يبذل العناية برباط سبتة ويسارع إلى تلبية رغبة رباط مليلة المعروف خلال هذه الفترة برباط الكرمة لارتفاع شجرة تين باسقة وسط ساحته(147) حين أمدهم بقطعة مدفعية، بناء على الأمر الصادر إلى عامل تطوان:

---

(146) الاتفاق بتاريخ 26 جمادى الثانية عام 15/1240 فبراير سنة 1825. عبد الرحمن بن زيدان **إتحاف أعلام الناس**، 203/5.

(147) ترجمة لما يدعى محليا جنادة للا ثورثوت لوجود شجرة تين بارزة بساحته

"إن المجاهدين أصحاب رباط الكرمة من قلعية قد طلبوا الاستعانة بمدفع وألحوا في ذلك وذكروا أن عندهم من يعرف الضرب به، فبوصول كتابنا إليك أنظر لهم مدفعا من ثغر تطوان على الفرمة التي يطلبون لهم مع إقامته"[148].

وفي تلك السنة المؤرخة كانت القوة الدفاعية القلعية مؤلفة مما يقرب من تسعة آلاف محارب موزعة على مختلف الأخماس حسبما يبينه الشكل التالي[149]:

مزوجة	2.000 محارب
بني شكر	2.000 "
بني سيدال (الكعدة سابق)	1.800 "
بني بو يفرور	1.500 "
بني بو كافر	1.500 "
الجميع	**8.800** "

ونعلم من تأليف معاصر للفترة بعد إعلان المولى عبد الرحمن لإحياء سنة الجهاد أن قلعية ضاعفت يقظتها وحراستها برباط الكرمة وشارك كل قسم منها بحصة وصلت إلى مائتي غازي أثناء نوبة الحراسة، وتم التناوب على رأس ثلاثة كل أيام[150]. كما أن كبدانة التي توفرت آنذاك على ألف محارب كانت تمد ميدان مليلة برجالها كلما دعت الضرورة ذلك[151].

ولما كانت الدعوة إلى الجهاد تشمل البحر أيضا فإن العمليات البحرية القلعية ازدادت حدة خلال فترة سنة 1829 و 1844، الأمر الذي أدى إلى إعداد

(148) 13 جمادى الأولى عام 1258. محمد داود، **تاريخ تطوان**، 375/3.

(149) Gabriel Morales , *Datos para la Historia de Melilla*. Melilla 1909. p. 184.

(150) *Diccionario Geografico Estadistico Historico de Espana y sus Posiciones de Ultramar*, Madrid 1848, t. 11 , p.361.

(151) G. Morales , *Datos*. p. 184.

الإسبان ملف القرصنة المزعومة بشكل مواز للأحداث التي كانت تجري بميدان مليلة. وسندعوها نحو بالمشاكل البحرية.

إذا كانت مشاكل القرصنة أو الجهاد البحري بين قلعية ومليلة معروفة لدى الطرفين منذ القديم فالملاحظ أن الإسبان جعلوا من يقظة القائمين بحراسة ساحل الريف الشرقي عامة وساحل قلعية خاصة مشاكل تمت إلى القرصنة. و لم تكن القرصنة التي ادعاها الإسبان صحيحة، وذلك لعدة اعتبارات ملزمة:

- أولا: فالمراكب القلعية كانت من الصنف الصغير التي لا يسمح لها حجمها سوى بحراسة الساحل، احترازا من اقتراب السفن الأوربية التي اعتادت ممارسة الصيد أو التهريب، و لم يكن هناك أي تشابه مع السفن الريفية القديمة التي كانت قادرة على اعتراض مثيلاتها الأوربية في عرض البحار.

- ثانيا: إن ما دأب الإسبان على نعته بالقرصنة متصل بمصادرة القلعيين لحمولة السفن الواصلة إلى ساحلهم أو الاقتراب منه وأسر رجالها. وهنا يتدخل الفصل السابع والثلاثون من اتفاق سنة 1779 لتقديم الحل على يد المخزن بعدم إلحاق أي خسارة بالمركب والبضائع والرجال. وإذا حدث هذا فإن الإسبان يطالبون بالتعويض[152].

ويرتبط إدراج هذا الملف في العلاقات المغربية الإسبانية بالعودة إلى إحياء سنة الجهاد تلبية لنداء المولى عبد الرحمن. وستستمر هذه الفترة ما بين 182/1245 و 1852/1269.

تقع حراسة الساحل القلعي على عاتق كل من خمسي بني شكر وبني بو كافر المشرفين على الساحل الشمالي من رأس هورك إلى مصب واد كرط، وعلى خمس مزوجة المساحل للواجهة الشرقية من فتق الجزيرة الشمالي المقابل لبني انصار إلى مناظره الجنوبي المرتبط بقرية أركمام.

---

(152) Mariano Arribas Palau , « El texto arabe del tratado de 1799 entre España y Marruecos ». *Tamuda*, 1959, p. 21.

ويعود أقدم ما وصلنا من أحداث البحر بساحل قلعية إلى سنة 1252 /1836، ففيها قذفت الريح سفينة إسبانية من نوع "فالوشو"[153]. إلى ساحل خمس بني بو كافر وبها مال مليلة وكمية من الألبسة، وتم لأهله أسر الخمسة عشر من ربان السفينة الذين تم افتداؤهم من طرف حاكم مليلة من عامل بني بو كافر محمد بن عبد المالك.

ومن هذا الحدث تشكلت أولى شكايات الملف الواصلة إلى باشاوية طنجة المكلفة بالعلاقات المغربية الإسبانية، وبها آنذاك محمد بن عبد الصادق بصفته أيضا عامل الريف. وتضمن المطلب الإسباني تعويضا قدره ستة عشر ألف وخمسمائة وأربعون ريالا غرامة على السلع الضائعة. غير أن باشا طنجة لم يجب القنصل الإسباني[154].

وحدث نفس الشيء بساحل مزوجة، إذ أن سفينة "سانتا آنا " الإسبانية أخرجتها الرياح من مرسى مليلة الجنوبي وقذفت بها نحو ساحل السبخة مما يقابل ساحل بني انصار، فتمكن منها المزوجيون، وقد قدر حاكم مليلة التعويض بنحو ثلاثة آلاف ريال، وعن هذا المطلب لم يجب المكلف به الطالب بوسلهام بن علي أزطوط[155].

ولم يحن البحث في الشكايات المنصرمة إلا قبل موعد معركة إيسلي بشهر واحد، فيما سمي بوفاق 5 رجب 25/1260 غشت 1844. وعنها أجاب بوسلهام بن علي أزطوط[156]. بالرجوع إلى مضمون الفصل الخامس عشر من اتفاق سنة 1799 قائلا:

---

(153) Falucho سفينة صغيرة طويلة وضيقة الجانبين تسير بالمجاذيف.

(154) عبد الرحمن بن زيدان، **العلائق السياسية للدولة العلوية**، المطلب الثاني من اتفاق 3 رجب 10/1260 يونيه 1844.مخطوطة خ.ح.ر. ص. 58.

(155) **المصدر السابق**، المطلب الثالث، 5 رجب 25/1260 غشت 1844.

(156) عامل العرائش على عهد المولى عبد الرحمن ثم عين عاملا وباشا طنجة عام 1840/1256. محمد حجي، أزطوط، **معلمة المغرب** 334/1.

"فالكلام الحق في هذا أن أهل الريف متعصبون خارجون عن الأحكام لا تحصل منهم استقامة مع العمال ولا تجري عليهم أحكامهم، ومن كان على هذه الحال لا يتوصل إلى استخراج الحق منه. والكتاب الذي كتب سيدنا في شأن استنقاذ ذلك لعامل الريف، إنما كتبه إسعافا للقونصو ومساعدة منه حيث طلبه منه لعل العامل يجد سبيلا لذلك، وحيث لم يجد سبيلا فلا تباعة عليه ولا غرامة على جانب سيدنا"[157].

وإلى تلك الشكايات الناتجة عن الأعمال البحرية انضافت غارات رباط الكرمة على الأبراج والأشبارات، مثل برج سانتا باربارا[158]. فلم يكن الجواب الذي تلقاه الإسبان عن المطلب الخامس المتضمن لتلك الشكايات بعيدا عن نفس المعنى والقرار بعد أن أصدر أوامره إلى قلعية بالتخلي عن الغارات:

"فسيدنا يأمر بذلك ويحض عليه ولا يقصر في الوصية بهم لعمال عساكره فإن امتثلوا فذاك وإلا فلا متابعة على سيدنا، إذ هم معروفون بذلك ومستمرون عليه حسبما هو في الشرط الخامس عشر"[159].

ويمكن التوصل إلى بداية تحول السياسة الإسبانية واتجاهها نحو الجانب الحربي الصارم من تعابير المصادر التي قيمت اتفاق 5 رجب 1260 بواسطة القنصل الإنجليزي دراموند هي حيث جاء في بعضها: إنه لم يطبع ولم يكن ليستحق ذلك فهو صنو اليأس وخلاصة لشيء يمنح ولا يمكن الحصول عليه[160]. والنتيجة أن العسكريين رأوا أن الوقت مناسب للتخفيف من ضغط الأزمة الداخلية، بتوجيه الأنظار نحو المشاريع الخارجية. وكانت حدود مليلة أهم تلك المشاريع[161].

---

(157) المطلب الثاني من الاتفاق المذكور.

(158) G. Morales , *Datos* , p.181.

(159) المطلب والاتفاق المذكوران.

(160) J. Beker. *España y Marruecos,* p. 210.

(161) **نفسه**، ص. 29.

الضغط بالمناورات العسكرية

يعتقد الدارسون للنصف الأول من القرن التاسع عشر من الإسبان أن تأزم الوضع الداخلي الذي اجتازته إسبانيا هو الذي أرغم الحكومات المتوالية على صرف اهتمامها عن معالجة مصالحها بالبلاد المغربية. غير أنه منذ بداية العقد الثاني استفاقت الأوساط السياسية على إثر التدخل الفرنسي الناجح بالجزائر، وتوجست الحكومة في نفس الوقت من امتداد نفوذ فرنسا نحو الغرب. وراقبت تلك الأوساط أيضا تصاعد مكانة النفوذ الإنجليزي بالبلاط المخزني[162].

فبعد إحباط ثورة جنود مليلة عام 1838 تصدى السياسيون لحبك أول مشروع لتوسيع حدود المدينة على يد حاكمها الجديد حين صرح للحكومة بضرورة اتخاذ موقف حازم تجاه الحصون رغبة في إيقاظ حماس الساسة والعسكرين المناهضين لفكرتي التخلي والتسليم السابقتين. وقد خطط الحاكم برنامجا موسعا استهدف تقوية الجانب الدفاعي والاستعداد للجانب الهجومي:

- باسترجاع حدود مليلة القديمة التي كانت عليها سنة 1643 وذلك بشن الحرب لاستعادة الأبراج الخارجية الضائعة[163].
- باحتلال جزر كبدانة تشوفا لبناء مرسى للسفن، إذ أن وضعيتها في نظره أفضل من صخرتي بادس والنكور.
- تكوين فيالق هجومية سريعة لغزو المواقع الحربية القلعية.

وعلى الرغم من أن الحكومة وافقت على المشروع إلا أن إمكاناتها المالية لم تكن مستعدة لتمويل المشروع، هكذا فلم تتمكن من إمداد المدينة

---

(162) كان ذلك بواسطة القنصل إدوارد دراموند هاي، ثم على يد ابنه جون ابتداء من سنة 1845. أنظرخالد بن الصغير، **المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر**، البيضاء 1997، ص. 52؛ J. Beker, *España y Marruecos*. p. 29.

(163) المقصود من حدود مليلة القديمة جميع المساحة التي خسرها الإسبان منذ 1646 بفضل سياسة جهاد الأبراج التي قدمنا عنها الكلام المستفيض.

سوى بنحو سبعمائة جندي. وكان عليها الانتظار إلى غاية سنة 1847 لتستهل تنفيذ المخطط باحتلال جزر كبدانة[164].

النزول بجزر كبدانة[165]: يعود أول علمنا بالتعرف الإسباني على جزر كبدانة إلى مراسلة بتاريخ 12 غشت 1531 بمناسبة الاستطلاع الذي قام به الأميرال غابرييل ذي كوردوبا (Gabriel de Cordoba) وسماها منذ ذلك جزر Aljafarinas وهو اسم قريب مما يمكن أن يفهم من المحول عن الخفر أو الخفارين أو الشفارين[166].

يتألف أرخبيل كبدانة من ثلاث جزر بارزة بالمياه المقابلة لرأس كبدانة على بعد ميلين من مليلة. ليس لنا علم بالكيفية التي كان الكبدانيون يستغلون بها تلك الجزر، فأكبرها وهي الجزيرة الغربية كانت تدعى حجرة كبدانة وهي التي سماها الإسبان Isla del Congreso ولكنها غير صالحة للاستيطان، إذ أنها عبارة عن قمة تعلو بحافاتها الحادة بنحو مائة وأربعة وثلاثين مترا فوق سطح البحر بعرض ثلاثة كيلومترات وطول كيلومتر واحد.

أما الجزيرة الوسطى فكانت حسب الاسم المعطى لها مهملة أو مشاعة فهي مسماة بالحجرة المختفية وسماها الإسبانIsabel، واقعة على بعد كيلومتر

---

(164) G. Morales , *Datos* , p. 184.

(165) عرفت المصادر بالجزر منذ القديم باسم Adires Insulas حسب Itenario de Antonino وسماها البكري بجزر ملوية وتبعه بنفس الإسم سنة 1602 Abraham Orelio في خريطته، بينما سمتها خريطة إيطالية سنة 1375 أرخبيل كبدانة. وهناك مجموعة من الخرائط عرفتها باسماء تدور حول Chafarin بعد تحويل خاضع لاختلاف مصادر النطق باللفظ: Zafarin بالنسبة لخريطة 1318 و Zafarini خريطة سنة 1436 و Jafarin سنة 1442 و Farines حسب خريطة 1493 و Chiafarinas في خريطة سنة 1493 أيضا و 1519 Jafarinas و Aljafarinas سنة 1602 وخرائط القرن الثالث عشر الهجري تدعوها Islas Chafarinas. محمد بن عزوز حكيم، "موقف السلطان مولاي عبد الرحمن من الاعتداء على جزر كبدانة." أعمال ندوة جامعة مولاي علي الشريف، ص. 58. دجمبر 1993.

(166) H. de Castries , S.I.H.M. Espagne , t. 1. p. 4.

واحد من الأولى، محيطها نحو ألفي متر. وبناء على ارتفاعها القليل (40 مترا) فإنها تكون البقعة الوحيدة الملائمة للاستقرار.

أما الجزيرة الثالثة فعرفت اسم قلعية، مما يدل على اقتسام مياها بينها وبين كبدانة وبالتالي اقتسام دور الحراسة والجهاد البحري. وسميت الجزيرة من طرف الإسبان Isla del Rey، وهي شرقية الوجهة وأصغرها مساحة، تقع على بعد مائة وخمس وسبعين مترا بالنسبة للسابقة، وغير صالحة هي بدورها للاستيطان[167].

على الرغم من أن الفرنسيين اهتموا بدورهم بأهمية موقع جزر كبدانة أو ملوية منذ النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي[168]، فإن جولات البحرية الإسبانية توبعت بعرض مياه الناحية الشرقية، فظهر أول رسم نعرفه عن الجزر سنة 1733. وقد ظهرت أول نية لاحتلال الجزر من التقرير المعدة لفيليب الخامس عام 1735[169].

وعاد الإسبان بعد حصار السلطان سيدي محمد بن عبد الله لمليلة، للاطلاع على مزايا الجزر وإمكان إحداث مرسى لإيواء السفن الكبرى التي لا يسع لها مرسى مليلة، خاصة أثناء هبوب الرياح الشرقية القوية. ولا شك أن تقرير القبطان طوفينيو كان نتيجة دراسة عسكرية هادفة، انتهت بوضع خريطة مفصلة للجزر الثلاث سنة 1786[170].

ويمكن اعتبار سنة 1794 لحظة الاهتمام الإسباني الجدي بالجزر حينما كلف القبطان العام المشرف على ساحل غرناطة بحريته بإعداد رسم للجزر. ومنذ ذلك تعددت رحلات البحرية نحو الجزر لجلب الحطب والأحجار الصالحة لصنع قذائف المهاريس، كما اتخذت الجزر مكانا للنزهة التي لم تكن

---

(167) G. Morales , *Datos* , p. 187-190؛ 1993

(168) توجد عدة تقارير بمجموعة دو كاستري، الوثائق الفرنسية بالمجلد الأول من السلسلة الثانية أنجزتها البحرية في أبريل 1662 وتسمي الجزر Chaffarines.

(169) من وضع القبطان فيثينتي دوليث (Vicente Dolez).

(170) V. Tofino , *Derroteo de las costas* , Madrid 1832 p.70

ميسرة في أجواء مليلة. وعاد الإسبان إلى جزر كبدانة سنة 1844 بقصد استكمال الدراسة وتحضير خطة الغزو النهائية.

وتطلب العمل السريع لإنجاز عملية الغزو بدقة اتخاذ القرار في مجلس يونيه 1847 وإخبار الحاكم العسكري بغرناطة بضرورة التنفيذ في أقرب وقت ممكن، وعملا بهذا الأمر شرع في الاستعدادات منذ آخر السنة، ليغادر الأسطول مدينة مالقة يوم 4 يناير 1848 ويتم احتلال الجزر يوم 6 من الجاريين(171). فما هو الموقف المغربي من الاعتداء الإسباني على الجزر؟

كان الغزو الإسبان مفاجئا كل المفاجأة للمغاربة، وسبق للقنصلية الفرنسية بطنجة أن أخبرت عامل المدينة بالمحاولة الإسبانية قبل أيام من تنفيذ مخطط الغزو وسبق للإسبان أنفسهم أن قاموا بنفس المحاولة لاستئذان السلطان بالنزول في جزر كبدانة حسبما يستشف من قول السلطان إلى نائبه بوسلهام بن علي أزطوط من قوله "وكتب قونصو الاصبنيول المذكور لحضرتنا بما كنا طالعناك به "(172).

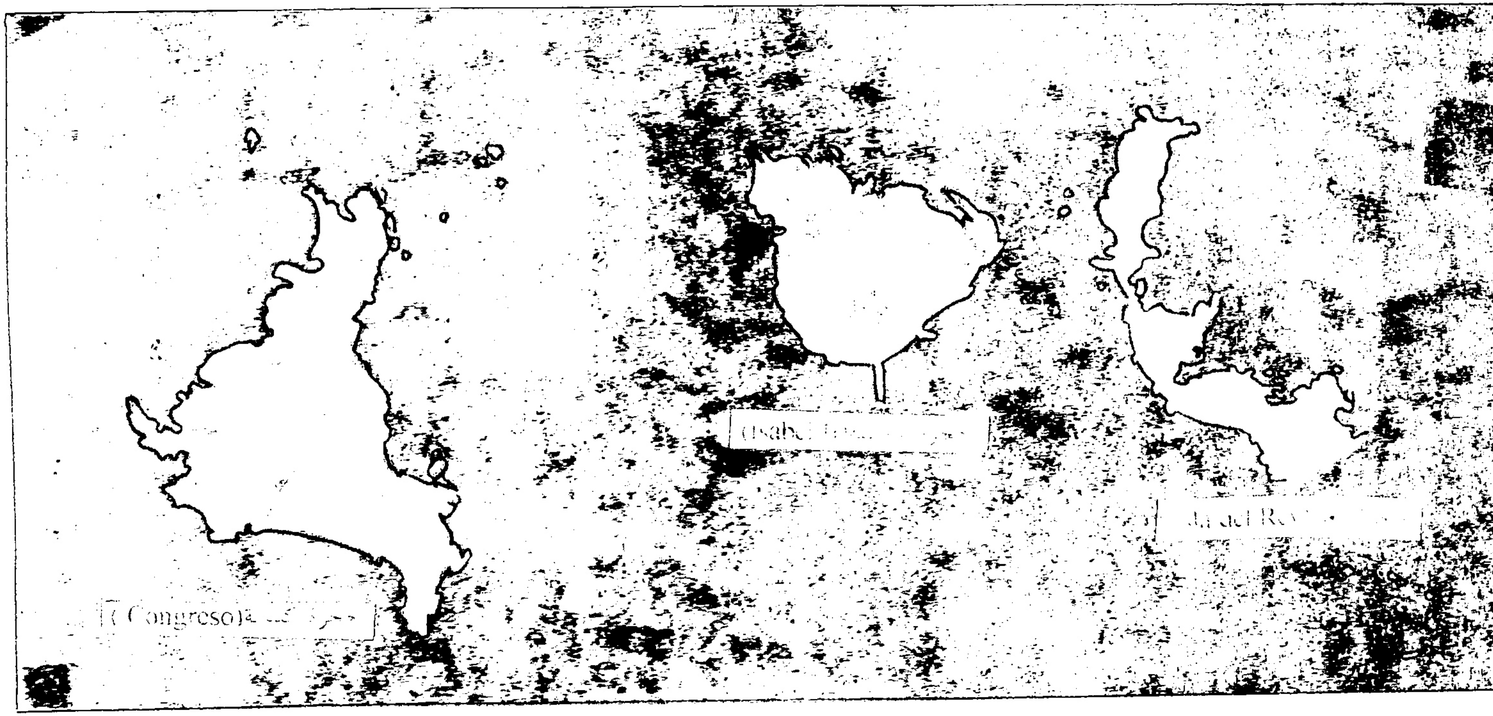
غير أن أول رد فعل مخزني نعرفه كان ضد طلب الفرنسيين الراغبين آنذاك للاستقرار بالجزر، حسبما عبرت عنه الرسالة المؤرخة بعد أسبوع من النزول الإسباني، مما يجعلنا نصدق أولا الرواية الإسبانية القائلة بسبقهم إلى احتلالها قبل الفرنسيين بنحو ثلاث ساعات فقط، أو أن الأمر متعلق بتجسس القنصليتين الإسبانية والفرنسية بطنجة على بعضهما البعض(173). ونتساءل ثانيا عن وصول خبر الغزو الإسباني في الوقت المناسب إلى المولى عبد الرحمن.

جاءنا أول رد فعل المخزن ضد الغزو الإسباني بعد مضي ستة عشر يوما عن الغزو في رسالة السلطان المؤرخة بيوم 15 صفر 1264/ 22 يناير 1848

(171) محمد بن عزوز حكيم، **الجيوب السليبة**، 53/1.

(172) ما صرحت به رسالة السلطان بتاريخ 15 صفر 1264/ 22 يناير 1848. وثائق خ.ح. ر.

(173) رفضت رسالة السلطان إلى بوسلهام بن علي أزطوط يوم 8 صفر 15/1264 يناير 1848 قبول الطلب الفرنسي رفضا باتا. ومسألة التجسس توحي به مراسلة 18 صفر 25/1264 يناير 1848.



جزر ملوية

إلى نائبه بطنجة يأمره بإبلاغ تأنيب السلطان للقونصل الإسباني عن احتلال مخالف للشروط والمهادنة وبراءته بما قد يلاقيه من عدوان أهل كبدانة[174].

لم يستسلم المولى عبد الرحمن بن هشام للأمر الواقع المفروض، فقد طالب الإسبان بترك ما هم بصدد الشروع فيه من البناء والتحصين وإنزال العسكر والأمر بالانسحاب من الجزر وربما عرف السلطان بالأمر كلا من إنجلترا وفرنسا[175]. ولسنا على يقين مما كان المولى عبد الرحمن ينوي عمله كرد فعل عسكري إذ أننا نعلم بتقدمه إلى المنطقة الشرقية وعسكرته بعين زورا من قبيلة المجالسة بالريف الشرقي بعد زيارة وجدة في أوائل ذي الحجة السنة (أواخر أكتوبر1848)[176]، ومن هناك راسل قائد قلعية محمد السيدالي يذكر له: "فبوصول كتابنا هذا إليك أشع في جميع أسواق النداء بالحركة وأمرهم بأخذ الأهبة والاستعداد فيها قريبا إن شاء الله"[177]. ولسنا ندري متى تم تعيين محمد السيدالي، مقدم بني سيدال، قائدا على قلعية مكان السابق له، فلأول مرة نسمع عنه في الوثائق المخزنية.

غزو المواقع الحربية

لم يكن مشروع احتلال جزر كبدانة سوى واحد من مخطط حاكم مليلة السابق الذكر. ففي الوقت الذي كان فيه قبطان ساحل غرناطة يدبر الاستيلاء على الجزر كان حاكم مليلة قد فتح ملف غزو المواقع الحربية المحيطة بالمدينة استنادا إلى استغلال الفقرة الثالثة من الشرط الخامس عشر المستعرضة سابقا. ففي تلك الفقرة يجد الإسبان في عجز السلطان عن توقيف الجهاد بقلعية وسيلة ميسرة للاقتصاص من القلعيين بأيديهم.

---

(174) مراسلة السلطان لأزطوط بتاريخ 18 صفر 25/1264 يناير 1848. وثائق خ.ح. ر.

(175) رسالة المولى عبد الرحمن إلى أزطوط: 6 جمادى الأولى 10/1264 أبريل 1848 و 11 محرم 7/1265 ديسمبر 1484. وثائق خ.ح. ر.

(176) الناصري، **الاستقصا**، 60/9.

(177) نعرف لأول مرة عن وجود محمد السيدالي قائدا على قلعية.

نعيد إلى الذاكرة أن حكام مليلة كانوا فعلا قد شرعوا في ترميم أسوار مليلة وتصريف مياه المستنقع الراكد في الفحص المجاور لها، فعلى مر السنوات لم يتمكنوا من ذلك بسبب مقاومة قلعية إلى آخر القرن الثاني عشر، إلى أن أحيت الحكومة المطالبة بحماية المخزن للأشغال الجارية سنة 1847.

بدأ الإسبان مخططهم بطلب حماية أعمال البناء وتصريف مياه المستنقع بالقوات المخزنية التي قدروها بنحو ألف وخمسمائة عسكري، بحجة " أن القبائل تهجم بدون سبب وبالأحرى أن يكون هناك ما يلزم ذلك"(178). وتكرر رسالة القنصل إلى المولى عبد الرحمن نفس المعنى(179).

ويعلم الإسبان حق العلم أن إرسال العدد المطلوب من القوات المخزنية غير ممكن، و لم يحدث قط أن اجتمعت بالحدود حراسة بنفس العدد، ومن ذلك نرى أن الطلب ليس له معنى سوى الوصول إلى إثبات عجز المخزن ليخلو لهم الطريق أمام التدخل بقواتهم. هذا مما لم يخف عن المولى عبد الرحمن نفسه حسبما تظهره تعليماته إلى القائد بوسلهام بن علي أزطوط. فالسلطان كان على وعي بدسائس التدخل الإسباني وتحايلاته :

" فشأنهم التجاسر وارتكاب الحيل وأول الحرب كلام"(180). وحسب رأيه فإن النصارى " كانوا يتحرون في كلامهم ويسلكون مسلك الصدق ويتحاشون أن يقبض في بلادهم الكذب، والآن خرجوا من القانون المعهود منهم في التحري وصاروا لا يضبطون قولا ولا فعلا"(181).

ومن تلك النظرة يظهر لنا موقف المولى عبد الرحمن من المطلب الإسباني فحينما عاود القنصل الكتابة إلى الوزير العربي بن المختار بن محمد في نفس الموضوع أجابه بتحويل المراسلة إلى الباشا بوسلهام بن علي، وبعث الوزير في

---

(178) ترجمة رسالة العربي بن المختار إلى القنصل جوابا عن مراسلة سابقة: 22 محرم 1264/ 21 ديسمبر 1847. A.H.N. Estado. L. 5828

(179) بتاريخ 31 ديسمبر 1847. A.H.N. Estado. L. 5825

(180) 8 صفر عام 15/1264 يناير 1848.

(181) منتصف ربيع النبوي عام 20/1264 يناير 1848.

نفس الوقت بنص الجواب الذي ينبغي رده إلى القنصل الإسباني، وهو رد السلطان على الطلب قائلا:

".. واليوم ترون إحداث ما يوجب الكلام والشنآن من البناء والتحصين والشان، والصواب هو أن تتركوا ما كان على ما كان ولا تحدثوا شيئا، وإن أردتم بناء شيء أو تحصينه فلا محالة أن المسلمين يفعلون كما تفعلون، وتحدثون السبب لما تزعمون كراهيته وهو عدم المهادنة، وجيران مليلية تعرفون حالهم وعدم إنصاتهم لأحد"(182).

لم يشك القنصل الإسباني في نية السلطان تجاه مطلب حكومته، وخلص إلى تعقيب واقتراح قائلا:

"إنني لست على يقين فقط من أنهم سوف يمانعون لإرسال العسكر لضبط أعمال المسلمين المجاورين لمليلة، بل إنهم أيضا لن يهتموا ولو بمجرد إصدار الأوامر إلى شيوخ تلك القبائل لإيقاف العدوان، خاصة إذا كان الأمر متعلقا بإعادة بناء الأبراج التي سبق تخريبهم لها وباسترجاع بعض الأماكن التي خسرناها في العهد السابق.

وبناء على ذلك فإن السلطان بعد استنفاذ جميع إمكانات الهدنة والتمادي في رفضه لن يكون في وسعه بعد ذلك سوى اللجوء إلى الاحتجاج إذا ما عمدنا لاستخدام ما أقر به الفصل الخامس عشر الخاص من ردع السكان المجاورين لمليلة. وإنني على يقين أيضا من أننا سنصل إلى الحد الذي سنضطر فيه إلى العمل بالترتيبات الجيدة التي أعدتها الحكومة خصيصا لمراكزنا الأفريقية".

والمقصود من الترتيبات الواردة في الفقرة الأخيرة متعلقة بإصدار الحكومة قرارها بتاريخ 18 ديسمبر 1847 القاضي بتأسيس لجنة عسكرية مهيمنة على سياسة المراكز المحتلة والبحث عن وسائل تدعيمها. سميت "القيادة العامة للمراكز الإفريقية" مقرها مدينة سبتة، وكانت أولى ثمارها احتلال جزر كبدانة، وقد حان الآن للجنة للتفكير في القيام بدور غزو المواقع الحربية المغربية.

---

(182) رسالة السلطان إلى بوسلهام بن علي: 4 صفر 11/1264 يناير 1848.خ.ح. ر. محفظة 107 رقم 13.

استهلت المؤسسة خطة غزو المواقع القلعية بتعيين حاكم مليلة الجديد، فكان أول ما اهتدى إليه توجيه رسالة الهدنة إلى مقدمي رباط مليلة الذين كان يعرف ردهم مقدما حين أجابوه: إنهم لن يقصروا في الغارات على الحصن كلما سنحت لهم الفرصة[183].

وعلى الرغم من قلة المصادر المتناولة لأحداث الحدود في الربع الثاني من القرن الثالث عشر الهجري فإن الدارس لها يشعر أن هناك بقلعية حركة تعبئة عامة غير معهودة تتجاوز طاقة الحراسة الرتيبة، بل إن كل الطاقات الحربية القلعية كانت مستعدة للنزول إلى الميدان وقت الحاجة، دون أن نعرف أي شيء عن رؤساء هذا التدبير.

استهلت خطة الهجوم الإسبانية على المواقع الحربية المغربية يوم 16 مارس 1848/ربيع الثاني 1264، بدءا بالهجوم على كدية مزوجة وإشعال النيران في رباط الكرمة وموقع كدية هوركا، مما لزم على المولى عبد الرحمن التدخل بإحياء العسة المخزنية التي كان قد توقف أمرها على عهد المولى سليمان، بإسناد أمرها إلى قائد قلعية محمد السيدالي[184].

ولم يكتف المولى عبد الرحمن بإعادة العسة إلى مكانها، بل بعث نجله المولى سليمان بعد ظهور استهانة القلعيين بعسة الحدود. حل المبعوث بقلعية في منتصف أكتوبر 1848/ذي القعدة 1265 فاتصل بحاكم مليلة وقدم له رسالة نجهل مضمونها، وإن كنا نقدر أنها متعلقة بشكوى المغاربة من اعتداءات الحصن المتكررة، بناء على رد الحاكم، ومن الاطمئنان الذي عبرت عنه قلعية أثناء تقويم نتيجة تلك الزيارة، فلم يسع الحاكم سوى أن قال: إن المسألة متوقفة على التفاهم بين الدولتين[185].

---

(183) G. Morales , *Datos* , p.191.

(184) G. Morales , *op. cit* , pp. 194. 196.

(185) المرجع السابق.

ولم يكن الهدوء الذي ساد الشهور التالية سوى ظرف مؤقت، إذ أن القلعيين سيستأنفون العمل الجهادي في بداية السنة الموالية لإرغام الإسبان على التراجع نحو الأسوار، الأمر الذي دفع حاكم المدينة لإعلام حكومة بلاده قائلا إنه لا يستطيع ضمان حياته في تلك الظروف(186).

وعن الغارات المغربية تراكمت شكايات القنصلية الإسبانية، وبعدها انطلقت مجددا التهديدات العسكرية معلنة للمولى عبد الرحمن أن الحكومة إذا لم تتسلم الأبراج الخارجية التي طالبت بردها عاجلا فإنها ستكون ملزمة باستعمال الوسائل التي تراها ضرورية لحماية الحصن(187).

توالت غارات القلعيين على مليلة ما بين شهري يونيه وشتمبر 1849 بدون توقف إلى درجة أنهم تسلقوا أسوارها، ولم يستطع الإسبان الدفع إلى الميدان بالمساعدة العسكرية التي تلقاها الحصن من الجزيرة الخضراء بعد أن شاهدوا تجمع أزيد من سبعة آلاف محارب شكري ومزوجي بالتلال المجاورة فرسانا ومشاة على أهبة لدخول الميدان.

وإذا تذكرنا أن قلعية كانت متوفرة على نحو تسعة آلاف محارب أمكن لنا التحدث عن وجود فيالق جهادية أخرى منتمية إلى باقي جهات الريف الشرقي، ويؤيد هذا ارتفاع حصة مشاركة كل واحد من أخماس قلعية سنة 1850 إلى ستمائة محارب، وبذلك لن تتجاوز مشاركة القلعيين بأزيد من ثلاثة آلاف محارب مما يسمح بتصور وصول جماعات أخرى من جهات الريف الشرقي.

توصلنا إلى معلومات مماثلة عن القوة الجهادية القلعية أمدنا بها مانويل خوان ديانا (Manuel Juan Diana) نقلا عن المساعد الحربي ألفاريس (Alvares) أحد سجناء مقدم بني سيدال محمد السيدالي كشاهد عيان على الأحداث الجارية ما بين يوليو 1858 و مارس 1859.

---

(186) نفسه.

(187) رسالة بتاريخ 27 مارس 1849. G. Morales, *Datos* p 194

وتبعا لتلك المعلومات فإن الأقسام القلعية الخمسة كانت تقوم بالحراسة بطريقة تلقائية تطوعية، فكان على كل جماعة من الجماعات أن تقدم أربعة من رجالها المحاربين. فإذا طرحنا مثال قبيلة بني سيدال التي كانت مقسمة إلى عشرة أقسام سيكون الحاصل أنها كانت تقدم أربعين محاربا يحلون برباط مليلة للحراسة خلال ثلاثة أيام.

ولم يكن للمحاربين أي عمل آخر غير القيام بواجب النوبة والحراسة، إذ أن الجماعات المكونة للخمس هي التي تتكلف بوسائل عيشهم، وهي التي تمدهم بما يحتاجون إليه من الحبوب خاصة(188).

وبناء على هذا التطور الجديد الحاصل في ميدان مليلة دعا رئيس الحكومة الإسبانية يوم 30 ديسمبر سنة 1851 إلى حتمية غزو الأراضي القلعية المجاورة(189).

وكان رأي الحكومة الإسبانية القيام بمناورات عسكرية بساحل الريف الشرقي للضغط على المخزن، ولكنها كانت مضطرة قبل ذلك إلى إزاحة المنافسة الفرنسية والإنجليزية المهتمتين بالشؤون المغربية بتقديم طلب المشاركة في عمليات حربية ضد المراسي الريفية بدعوى مكافحة القرصنة(190). ولم يكن لإسبانيا الاعتماد على وسائلها الخاصة إلا بعد سنتين لانصراف الدولتين إلى المسألة الشرقية.

هذا هو ما ستتولاه الحكومة الجديدة برئاسة الجنرال أودونيل (Odonel) منذ 28 يوليه 1854، بدءا من تعيين حاكم جديد لمليلة تم اختياره من أشد دعاة التدخل العسكري وهو البريكاديير بوثيتا (Buzeta). وتأليف لجنة دراسة

(188) M. J. Diana , *Un presionero en el Rif.* pp. 56. 57.

(189) تقرير ميرا فلوريس يوم 30 ديسمبر 1851. J. Beker , *España y Marruecos* p. 39

(190) مراسلة رئيس الحكومة يوم 26 ديسمبر 1851 إلى كل من الوزيرين الفرنسي والإنجليزي وجواب فرنسا يوم 6 يوليوز 1852 وإنجلترا يوم 17 يناير 1853. J. Beker *España*, p. 41

مراحل الغــزو على أساسـين اثنين: اسـترجاع حـدود مليلـة وغـزو المراسـي الريفيـة[191].

وبالفعل قامت اللجنة بجولة على ظهر سفينة حربية بساحل الريـف مـن صخرة بادس إلى جزر كبدانة للتعـرف علـى المراسـي والخلجـان وتعيـين نقـط النزول والتخييم ورسم الطرق وجمعت ذلك في تقرير قدمتـه للحكومـة انتهـي منه في يوليوز 1854.

تضمن التقرير ضرورة إنشاء مرسى جزر كبدانة، وذلك بتشييد رصيف يربط الجزيرتين الشرقية والوسطى علـى مسـافة مائـة وخمسـة وسـبعين مـترا. وأشار التقرير فيما يخص مليلة بالعمل لاحتلال المواقـع المغربيـة المهيمنـة علـى المدينة من جهة الشمال خاصة بالرأس الصغير وهوركا، علاوة على اسـترجاع كدية مزوجة، مثلما أوصى بضرورة تحويل مصب مجـرى واد المـدور إلى أبعـد مسافة جنوبية.

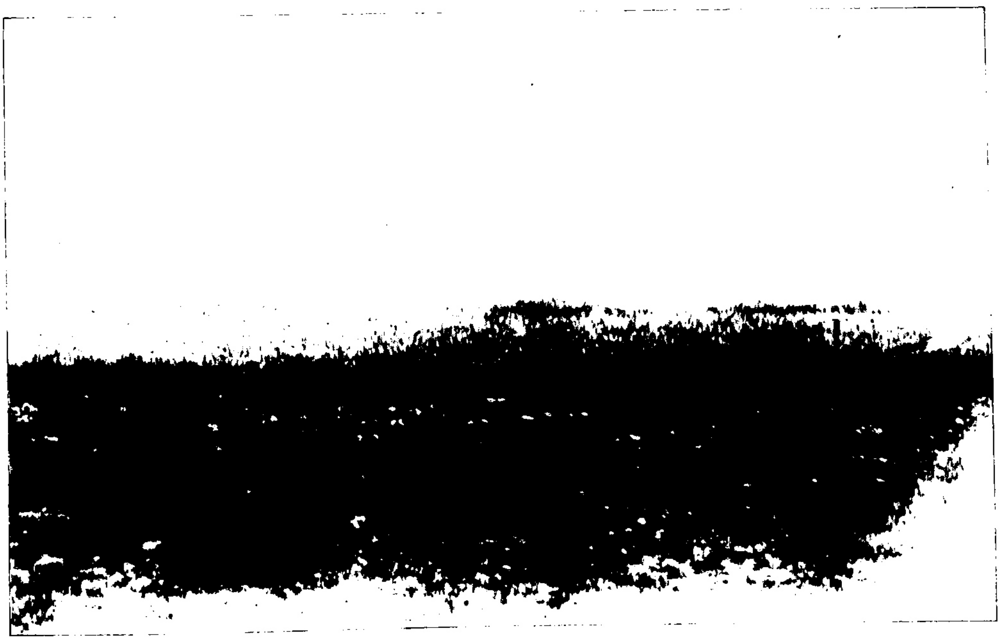
وفي الوقت الذي كان فيه حاكم مليلـة منهمكـا في إعـداد خطـة غـزو المواقع وملاحقة مراكب بني شـكر ومزوجـة علـم بسـقوط الحكومـة السـابقة وبذلك تم عزل حاكم مليلة نتيجة اقتصار رأي الحكومة الجديدة علـى الدفـاع والتخلي عن خطة الهجوم[192]. ولم يكن هذا سوى ظرف مؤقت فسـرعان مـا عاد الجنرال أودونيل إلى حكومته وبوثيتا إلى مليلة لاستئناف المخطط الهجومي السابق.

وإذا لم يتيسر لحاكم مليلة التوصل إلى تحقيق ربح الميدان الغربي المجـاور لمليلة والتحكم في المواقع الحربية القلعية مثلما كان مخططا، خاصـة بعـد وقـوع رجاله في كمين بني شكر يوم 27 يونيه 1858، فإن الحكومة الإسبانية سعت إلى البحث عن الحل بواسـطة الضغـوط الدبلوماسـية المرفقـة بـالتهديد العسـكري، جاعلة أولا من قضية الأسرى الإسبان الواقعين في المكيدة الأخيرة نقطـة القمـة

---

(191) G. Morales, *Datos*, p. 203 ; J. Beker, *España*, p.228.

(192) **المرجعان السابقان**.



جزر كبدانة: منظر من الرأس

الساخنة في العلاقات المغربية الإسبانية، فكونت ملفا مشكلا من قضية السجناء ومما تخلف من مشاكل الحوادث البحرية منذ سنة 1850.

كان هذا الملف ورقة الضغط الإسبانية على المولى عبد الرحمن لقبول مطلب توسيع حدود مليلة باختلاق خطة المطالبة بالتعويضات. فمنذ بداية سنة 1859 كان على المغرب إيجاد الحل السريع للمشكل المعقد المصنوع بمهارة سياسية بتدخل الإنجليز وقنصلهم النشيط جون دراموند هاي[193].

مسألة الأسرى الإسبان

حدث كانت له أصداء بالمغرب وإسبانيا على السواء ما بين صيف عام 1858 وربيع السنة الموالية. ذلك أن مقدم بني شكر محمد الحطري دبر يوم 22 يوليوز1858 للإسبان مكيدة، كرد فعل ضد استيلاء حاكم مليلة بوستا على قطعة مدفعية كانت في حوزته، وقع بها عدد من القتلى و لم ينج من فيلقهم سوى سبعة وقعوا في الأسر.

احتجز المقدم الحطري الأسرى وسلمهم إلى المقدم محمد السيدالي واشترط لقاء إطلاق سراحهم استرجاع القطعة المدفعية. وبقي الأسرى الإسبان بدار مقدم بني سيدال في انتظار التوصل إلى اتفاق مع الحاكم الإسباني لتلبية شرط بني شكر إلى أن جاء بالرفض يوم 4 فبراير 1859[194].

اتخذت الحكومة الإسبانية مسألة الأسرى نقطة القمة في العلاقات المغربية الإسبانية، فكونت ملفا مشكلا منها ومما تخلف من الحوادث البحرية منذ سنة 1850. كان هذا الملف ورقة الضغط الإسبانية على المولى عبد الرحمن

---

(193) خالد بن الصغير، **المغرب وبريطانيا العظمى**، ص. 25 وما بعدها.

(194) سخر المقدم محمد الحطري الجاسوسين ميمون العربي وبومدين أزرار، وقد سبق لهما أن دلا حاكم مليلة على مكان مخبأ القطعة المدفعية، مرغما أياه لجر الإسبان إلى مكان الخديعة قريب من موقع رباط مليلة مقابل نجاتهما من تنفيذ حكم الإعدام في حقهما وأفراد أسرتيهما. Juan D., *Un presionero en el Rif*. p. 21

لقبول مطلب توسيع حدود مليلة باللجوء إلى اختلاق مسألة المطالبة بالتعويضات.

ظل تسليم القلعيين للأسرى مشروطا برد حاكم مليلة لمدفع بني شكر، وانضاف إلى ذلك أسر الإسبان لمراكب تجارية ريفية كانت تقوم بالتجول بين الريف وتطوان وعلى متنها مائة وعشرون بحارا[195].

ويمكن الاطلاع على مجهودات المخزن من جهة والقنصل الإنجليزي جون دراموند هاي من جهة ثانية من الوثائق المخزنية. فقد سبق لهذا الأخير أن كلف المدعو الحاج عبد الله العمارتي وأبحره على متن سفينة بريطانية للاتصال بالمرابط محمد الحضري السعيدي ومرافقته إلى قلعية، وإليهما انضم قائد بني أوليشك العربي بن الحاج محمد الوليشكي[196]، وسرعان ما انضم إليهم القائد المخزني محمد بن حدة بخمسمائة فارس.

وتشعرنا مراسلة السلطان إلى المقدم المرابط محمد الحضري السعيدي أنه كان واعيا بخطورة ما وراء مسألة الأسرى، مما هو مبيت من التدخل العسكري الإسباني، حسبما سيتبين لاحقا من تأهب أسطول الخزيرات واستعداده للقيام بعمليات مشبوهة ضد السواحل المغربية، فقد جاء في تعليمات السلطان إلى الحضري:

"... فلا بد اقرأه عليهم (على قلعية) وذكرهم وعظمهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا، وأنه إذا لم يردوا هاؤلاء الأسارى فإنهم يسعون بذلك في ضرر المسلمين ويجرون عليه جسارة الكفر على الإسلام. وقد تعين من طريق المصلحة رد أساراهم عليهم. ومن أعظم المصالح فيه لأهل الريف رد ما بقي من إخوانهم مع ما بقي من فلائكهم وما كان فيها حسبما التزم به النصارى، فلا بد ابذل المجهود في هذا الأمر حتى يدفعوا الأسارى لأصحابنا يأتون بهم.."[197].

(195) خالد بن الصغير، **المرجع السابق**، ص. 135.

(196) **المرجع السابق**، ص. 136.

(197) مراسلة السلطان: 23 جماى الثانية 1275.

وفي تلك الأثناء كان الأسرى ما يزالون بيد بني شكر والمقدم محمد الحطري إلى أن تمكن محمد السيدالي من تسلمهم لقاء وعده باسترجاع القطعة المدفعية. ومن هناك نقل الأسرى إلى سجن مدشر القضيا ببني سيدال وفي الوقت الذي تبين فيه اقتراب تسريح الأسرى ونقلهم إلى فاس عارضت بنو شكر، مما أفشل مهمة الوفد السابق.

وفي هذا الوقت كان أسطول الخزيرات مبحرا في اتجاه طنجة، مما جعل القنصل الإسباني ديل بابي يضرب للنائب السلطاني محمد الخطيب ميعاد أربعة أيام لإطلاق الأسرى، والأسطول الإسباني راسي بمواجهة طنجة ملوحا بالتهديد بين القنبلة والاحتلال [198].

وسعيا لإيجاد الحل السريع بعث السلطان كمحاولة ثانية عامل بني يزناسن المدعو الحاج ميمون بقواته، فتمكن من التغلب على معارضة بني شكر ونقل الأسرى يوم 2 مارس 1859، بينما اشترط مقدم بني سيدال مرافقته للسجناء بنفسه بمعية ممثل من بني شكر إلى مقر تسليمهم الأخير، حيث لقي ترحابا وتقديرا من طرف المولى عبد الرحمن اعترافا بحسن المعاملة التي تلقاها السجناء[199]. وبذلك تسلمهم القنصل الإسباني بطنجة يوم 16 من نفس الشهر والسنة.

الخيار بين أداء التعويضات أو توسيع حدود مليلة

يتلخص المطلب الإسباني المفتعل فقط بقصد الضغط على السلطان لصالح مسألة توسيع حدود مليلة بفرض تعويض مالي قدره ثلاثة آلاف ريال مترتبة عن الأحداث الساحلية القلعية الموجهة ضد المراكب الإسبانية منذ العشر سنوات السابقة، كان آخرها استيلاء القلعيين على حمولة السفينة سان خواكين في مارس 1858. وضع مقدار التعويضات كدفع معجل مساومة

(198) خالد بن الصغير، **المغرب وبريطانيا في القرن التاسع عشر**، صص. 139. 141.

(199) دبر بنو شكر اغتيال محمد السيدالي بأرض المطالسة أثناء أوبته من فاس.

للاختيار بين الأداء أو الموافقة على منح أراضي لمليلة وتوسيع حدودها. وكانت هذه المعادلة المتناقضة صعبة على المخزن(200).

ففي الوقت الذي عد فيه المخزن مسألة التعويضات باهضة ومجحفة أيضا، اعبر التنازل عن الأرض من أجل المال إهانة وطنية. ولذلك سعى المولى عبد الرحمن إلى إزاحة شبح التعويضات برفضها أو التخفيف منها بمساعدة القنصل الإنجليزي جون دراموند هاي ومخاطبته لمحمد الخطيب أمام القنصل الإسباني خوان بلانكو دل بايي(Juan Blanco del Balle).

ويتجلى جواب المولى عبد الرحمن عن المسألة من رسالته الموجهة إلى محمد الخطيب بتاريخ 1 رجب عام 4/1275 فبراير 1859 في نقطتين:

- إنه سيأخذ بعين الاعتبار مطلب الحدود إذا كان ذلك مفيدا للرعايا والمملكة ومطابقا لما يضمن السلم لكلا البلدين.

- أما التنازل عن الأرض مقابل المال فأمر لا جدال في رفضه مهما ارتفع العرض، "فلا يمكن التخلي عنها ولو بمقدار موضع إبرة، ولن نتنازل عن مثقال ذرة من أراضينا لأي دولة كانت ومهما كانت الأسباب"(201).

ويلزم أن نبين أن الأراضي التي قدم السلطان وعدا بالنظر في شأنها متعلقة فقط بإحداث فراغ محايد بين القلعيين والحامية الإسبانية، يتم تحديده في إطار تسوية عادلة طبق المتعارف عليه بين الدول.

وبالطبع فإن ما كان الإسبان يرمون إليه هو الحصول على توسيع حدود مليلة من أسوارها إلى أبعد نقطة تتلوها مباشرة مساحة الأراض المحايدة. ويعني ذلك الهيمنة على المواقع الحربية واسترجاع الأبراج الخارجية التي كان الإسبان

---

(200) خالد بن الصغير، **المغرب**، ص. 128.البيضاء 1997. وسبق أن احتجز القلعيون مركبا من مالقة يوم 5 أكتوبر 1851 وآخر في مارس 1852 وآخر في يونيه 1853 بجون المزمة. (عبد العزيز خلوق التمسماني، العلاقات المغربية الإسبانية في عهد المولى عبد الرحمن، مشاكل القرصنة الريفية مثالا، ص. 117 من أعمال ندوة جامعة مولاي علي الشريف الخريفية بالريصاني 1993. أيضا. M. J. Diana, *Un presionero*, p. 181.

(201) عن خالد بن الصغير، **العلاقات**، ص. 133. مراسلة 1 رجب 4/1275 فبراير1859.

قد فقدوها منذ النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري (17م.) مما لم يكن للمغرب من سبيل لقبوله.

ولا ريب أن الإسبان كانوا يعلمون أنهم وضعوا المخزن في مسلك ضيق ولا مخرج منه، فهم متأكدون من أن السلطان غير قادر على أداء التعويضات المطلوبة مما سيحتم عليه قبول الحل الثاني المتمثل في قبول توسيع حدود مليلة، وحيث إنهم علموا بموقف السلطان المتصلب لم يسعهم سوى تدبير الضغط بواسطة المناورات الحربية.

هذا هو الذي يظهر جليا من الاستعدادات التي اتخذتها حكومة أودونيل وجاء بها ديل بايي من الخزيرات عائدا إلى طنجة يوم 28 فبراير 1859 رفقة سفينتين حربيتين، وكان هذا تهديدا صريحا بالحرب إذا لم يجد المغرب الحل السريع لاطلاق سراح الأسرى خلال أربعة أيام[202].

لم يحل تسريح الأسرى إلا يوم 16 مارس من نفس السنة مثلما علمناه كما أن الحديث عن منح التوسعة الترابية قد عم الجدال فيه بين ألاطراف الثلاثة الإسبان والمغاربة إلى جانب تدخل دراموند هاي في طنجة وسفير بريطانيا بمدريد السيد بيوكنان (Buchanan)[203].

ويلزم أن نقول كلمة عن الدور الإستشاري الذي قام به دراموند هاي في المحادثات الخاصة بتوسيع حدود مليلة. بدأت مشاورات محمد الخطيب للقنصل الإنكليزي منذ أن طرح الإسبان لمسألة التعويضات في بداية سنة 1859 واستمرت إلى أن سويت مسألة الأسرى وتوسيع حدود مليلة في الأخير يوم 24 غشت تلك السنة.

بدأ دراموند هاي اقتراحاته لفض النزاع بالإشارة إلى خلق ما سمي بالأرض المحايدة بين القلعيين والحامية الإسبانية على مسافة طلقة مدفع بعد

(202) خالد بن الصغير، **العلاقات**، 139.

(203) **المرجع السابق**.

هدم جميع المواقع الحربية المغربية السابقة، وتعيين حراسة مخزنية تحت إشراف قائد مخزني من رجال طنجة ومن رتبة عالية[204].

وتتبع تلك المشاورات يدل على أن القنصل الإنكليزي كان، أكثر ميلا إلى إرضاء الاقتراحات الإسبانية وسائر بها نحو حث المغرب على التنازل والتسليم بفكرة منح التوسعة بالكيفية التي يريدها الإسبان، أي منع التوسعة ثم إحاطتها بالشريط الأرضي المحايد.

وكان من رأيه أيضا أن التوصل إلى الحصول على المطلب الإسباني يستدعي على إسبانيا القيام بالمناورات الحربية خارج طنجة، وبالذات في الساحل الريفي لإرغام السكان والمخزن على التنازل[205].

وهكذا انتهت المشاورات مع القنصل الإنكليزي بحث المخزن على تقديم التنازلات الترابية للإسبان تجنبا للوصول إلى حالة الحرب بوضعه بين خيارين صعبين: التنازل عن الأرض المطلوبة أو الحرب[206].

ولعب دراموند هاي دوره أيضا في إقناع محمد الخطيب للتأثير على السلطان لقبول التنازل للإسبان، مستغلا توجه القنصل الإسباني إلى مدريد وعروجه على مليلة[207]. وما نعلمه بعد ذلك أن صيغة مبدئية كانت قد أعدت بمدريد في آخر مارس 1859. وترمي تلك الصيغة إلى قبول المغرب التنازل عن الأرض لصالح حدود مليلة الجديدة. وبمعنى آخر أن الحكومة الإسبانية كانت قد هيأت الاتفاق المبدئي بالصيغة التالية:

"يتعهد سلطان المغرب بمنح فحص مليلة للإسبان وبتوسيع أراضي الحصون الإسبانية إلى أقصى المرتفعات التي تضمن أمنها، وسيتم التنازل عن تلك التعويضات بمجرد تسليم الأراضي المطلوبة"[208].

---

(204) خالد بن الصغير، **العلاقات**، ص. 131.

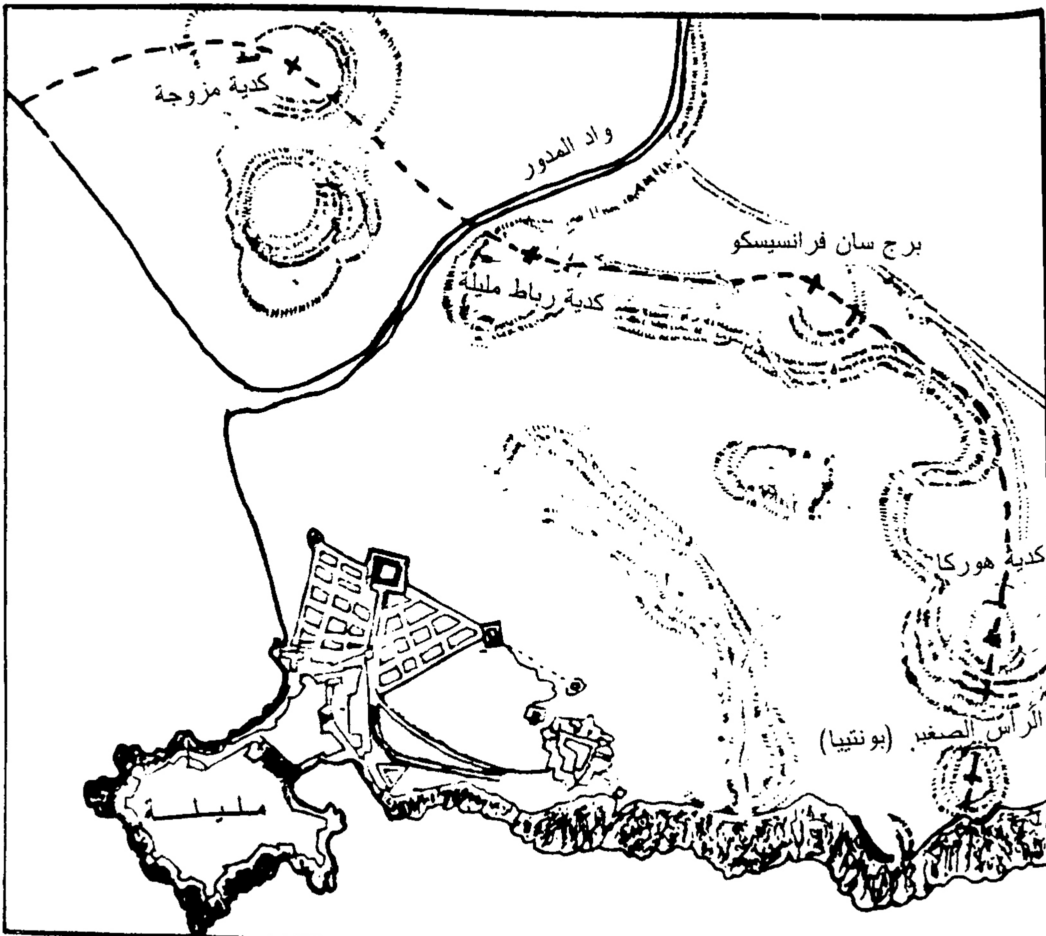
(205) رسالته مثلا بتاريخ 20 يناير 1859. خالد بن الصغير، **نفسه**، ص. 131. 132.

(206) خالد بن الصغير، **نفسه**، ص. 141.

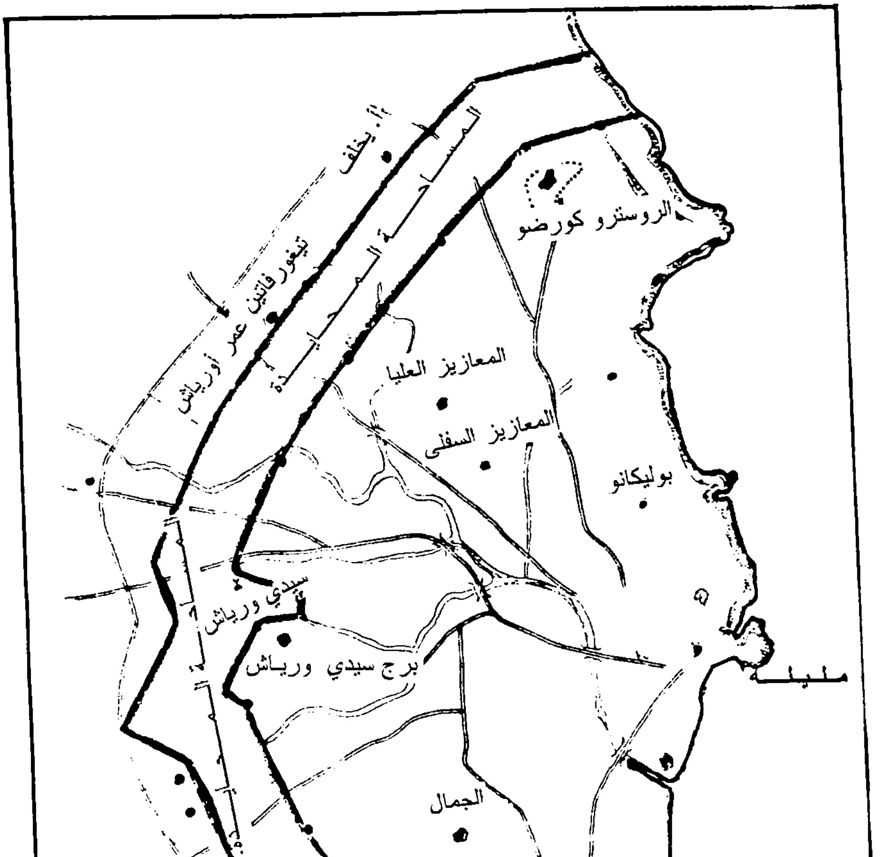
(207) رسالة محمد الخطيب: 10 شعبان 1275/15 مارس 1859.

(208) J. Beker, *España y Marruecos*, p. 229.

لا نعرف شيئا عن هذه الصيغة الموقعة في أخريات أيام السلطان عبد الرحمن بن هشام قبل وفاته بأربعة أشهر يوم 29 محرم 28/1276 يوليوز 1859، سوى أنها هي التي ستتحول إلى اتفاق 24 غشت 1859 في مستهل عهد السلطان محمد بن عبد الرحمن لتنتهي مرحلة ما أطلقنا عليه مقاومة الوجود الإسباني بمليلة وتبدأ مرحلة مقاومة توسيع الحدود الخارجة عن نطاق هذه الدراسة.



مجال الحدود المطلوبة



الجال الترابي المغتصب

خاتمة الدراسة

رجونا اليوم مثلما فعلناه منذ بضع سنين أن يكون هذا العمل تجربة أولى في تاريخ الشمال الشرقي المغربي عامة وتاريخ مقاومة الوجود الأجنبي بصفة خاصة. وتاريخ الشمال الشرقي ومقاومة الوجود الإسباني موضوعان مترابطان أشد ما يمكن من الترابط إلى درجة استحالة الفصل بينهما.

والدراسة رغم كبر حجمها وتعدد أقسامها وفصولها ليست في النهاية سوى جواب لسؤال عريض يتضمن عدة أسئلة فرعية يمكن طرحه بهذه الصيغة كيف استطاعت المقاومة الثبات في وجه النظام الحربي الإسباني طيلة تمام الثلاثة قرون ونصف القرن كاملة؟ ذلك ما حاولت الدراسة تقديم بعض التفاصيل الممكنة عنه.

ويمكن جمع شتات تلك التفاصيل في عنصرين أساسيين أولهما:

التمسك بمبدإ مقاومة الدخيل الأجنبي والبحث عن وسائل رده عن أهدافه التوسعية على حساب الحوز القلعي الذي هو جزء من التراب المغربي، فليس هناك مثال أروع للحفاظ على حرمة التراب الوطني من المثال الذي جرت أحداثه على المسرح القلعي الضيق المقابل لمدينة مليلة المحتلة خلال ثلاثة قرون ونصف القرن.

وما حاولت الدراسة إثباته أن الوفاء لذلك المبدإ أصبح تقليدا راسخا في حياة الجيل المنظم للمقاومة لتصبح جذوره عميقة في صلب حياة الأجيال التالية. بقي نظام المقاومة التقليدي البسيط بأطره وخطته وأسلحته ورصيد تجربته في المقاومة ثابتا لم يتزحزح، ولم يخطر على باله الاستسلام وترك المجال الترابي للتسرب الأجنبي مطلقا، سواء على المستوى الشعبي أو الرسمي.

وقد يبدي البعض من الباحثين، فيما يخص العنصر الثاني، تحفظهم لموافقتنا حين رددنا أصل الروح التي هيمنت على المقاومة والمقاومين بأن ودافع الثبات والصمود هو ما نسميه بالشعور الوطني المناهض للوجود الأجنبي.

فإذا كانت لأولئك تفاسيرهم الخاصة بالشعور الوطني المنطبقة على الفترة المعاصرة، ففي الشهادات الشعبية منها والوطنية المقدمة ضمن فصول القسمين الثالث والرابع دليل على سبق الشعور الوطني قبل الفترة المعاصرة، مما جعلنا نرى أن بداية ذلك الشعور الوطني حسب تعريف القرن العاشر الهجري بالشمال الشرقي المغربي هو مستهل الغزو الأجنبي لساحله.

فإذا كان النقاش في الموضوع لا يتسع له هذا المكان فإننا نرجو أن تكون الشهادات المقدمة الممتدة على طول فترة الدراسة ردا عن الكتابات الأجنبية التي فاتها الاطلاع على صور جهاد ومقاومة المغاربة بالشمال الشرقي وغيره من التراب المغربي، أوردناها لتصحيح وجهة النظر التي استمدت معينها من أقلام الكتابات الاستعمارية.

ونتساءل في الموضوع لو لم يكن منبع الثبات على المقاومة منبعثا من شعور الدفاع عن التراب الوطني، ولو أنه بدا لنا في حيز صغير، فما ذا نطلق عليه، ومن أي مسلك استمد دوافعه وحماسه واستماتته؟ وما عسانا أن نسمي المقاومة وأطوارها ورجالها؟ وما هو التفسير الذي نقدمه للمحاولات الوطنية المتكررة على طول هذه الفترة؟ فهل سنعود إلى تقبل زعم الكتابات الأجنبية من أن الدافع كان دينيا استنادا إلى المفهوم الظاهري للفظ الدين فقط قصد إبعاد السمة الوطنية عن المقاومة؟

وكل ما ينقص الأمثلة سوى هو تواري جمرة ذلك الشعور من وراء اختفاء مصادرنا، ولا نعتبر ما وصلنا عنه عن الكتابات التاريخية الأجنبية كافيا ولكنه مؤشر صريح لما قل ودل.

وبالطبع من الغني عن البيان أن الموضوع لا زالت تتخلله عدة فجوات جزئية كانت أو كلية، بل ولا زالت الدراسة لم يجمع معالمه في مختلف الفترات والمناطق. وعلى الرغم من طول المسافة الزمنية التي استغرقتها الدراسة فهي تقر

أنها لم تقدم سوى النزر القليل الناتج عن سخاوة المصادر الأجنبية، ونصرح أننا بعد اثنتي عشرة سنة مضت على مناقشة الرسالة لم نتمكن سوى من إضافة اليسير مما كنا نتمناه.

مُلحق

مقتبسات

من مراسلات أحمد الغزال



وَالمسئلة الثانية وَهُوَ الحُدُودْ

اعلم ان هاذه الحدود جعلها الملوك المتقدمة وَحَكَمُوهَا بقدار احضروا اهلها الومنا والفطة وانعدوا والجماعة

من المسلمين وانزلوا احكامه اليهم بان لا يحدث بيها نفسورة وما ملوكهم لها الزمان والملوك الذين يتولوا الامر

الرعية يجتهدوا ربح النعمة بمار الحراسة لها بالوجه الشهور ما اسبل المريرية الزيادة بيها ولا النقص وان كانت

هذه المسئلة جارية بدبينا لجدنا عليكم بها مراعة لجنابك وَخدمتك صدر الامر بكتبه بمدينة مراكش

عن الامر المولوي انشاء الله بتاريخ اوايل المحرم الحرام عام احد وثمانين وَمائة والف

الفقرة الأخيرة من مراسلة سيدي محمد لكارلوس الثالث غداة اتفاق 28 ماي 1767/ فاتح محرم 1181. وهي خاصة بمسألة مليلة


بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما والحمد لله رب العالمين

الوساطة المغربية بين الإسبان والجزائريين في شأن تبادل الأسرى

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم من كاتب الأوامر

من مولانا السلطان [illegible] أعظم سلطان من أكثر [illegible] ومكناسة وتافيلالت وسوس [illegible] المغربية [illegible]

إلى [illegible] الراي [illegible] أنا كنسلم عليك ونحب أن تكون

على خير والذي نعلمك به أنه حدث أمر بعد ما أمر مولانا السلطان نصره الله

بعث كتابه الشريف لسلطان الراي كارلوس وهو الواصل إليكم قبل هذا على

يد حاكم سبتة [illegible] مراد الذي حدث ها هو بالكتاب الوارد عليكم بالخط العجمي

مع هذا واعلم أن كل ما فيه هو صحيح واعزم برد جوابه من غير بطء

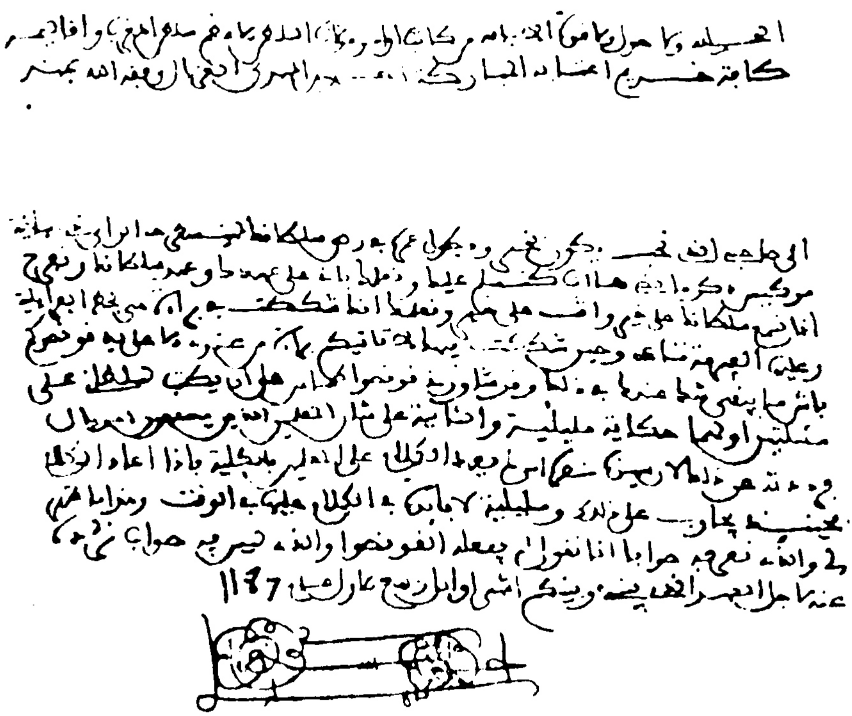
كتبه من حضرة مراكش حاطها الله في منتصف ربيع الأول عام 1183

تقديم مراسلة سلطانية إلى كارلوس الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم من كاتب اوامر مولانا السلطان ايده الله
سلطانه ونصره واكثر ومكن سلطانه وتابعا لذلك ومسوسرو ورهة وكاتبة الاقاليم المنحمية خديم اعتابه المباركة احمد الغزال

الى الطبيب ومحبنا المتسمي في الرايات صبانية مكيسر ... هذا وانا كنسلم عليك ونحب
تكون بخير وتكون عندك وتبقى دايم فرحانا برضى سلطانك والذي نعلمك به ان البراتين التي بعثت بها
نخوة سلطان السلطان يا محب خلد الله ملكه تاريخها بوليه البارحة دخلت بيدي وعرفت جميع ما فيها
ومن الخير خرجت فيها موجود انه لا يليق تبليغ كلامها لسيدنا نصره الله لانه اذا بلغه ذلك يخسر
خاطره على ولده وعلى اصحاب ولده وقد خشينا ان يقول سيدنا ان هذا التجار الذين يجعلون به تخسير
الخواطر لا حاجة لنا بهم ويذهبون بحال سبيلهم ويقع بهم مثل ما وقع بالفرنصيص وغيرهم من النصارى
ويتكوا ان خرجوا من البلاد كلهم على مسالة اضعف منها في الساحل على سبب الفرنصيص الانكليز وقد
سمعنا من سيدنا نصره الله مشافهة ان لا يدخل بلادنا احد من النصارى ليتكلم ومن اراد السبب
منهم ... ومن فيه يتكلم منهم لم نقوله فدونا عمر ولو خفية ويكون ايمان من حينه فلاجل
هذا اخفينا هذا الكتاب ولم نصحوا به تبليغه لسيدنا ايده الله خشية ان يقع شي مما ذكر
لان ... الا ... على ... كلهم وفرا على نصره الله كما
تحدامه بابا الله السعيد بان يسوحوا بحضرة المينوارجي ويبيعونه على ... الا جناس
والمسالة التي تكون سببا في تخسير الخواطر لا يحب سيدنا ايده الله ان يقع ذلك ومن العادة الجارية
عندنا انه من اشتكى فيه شي من جنب المال يفتش ويصير حتى يظهر وانتم اذا باشكوال
ذي شوشة ... عليه مولاه رجال من مال الطاكنة من واجب النصوح ولا نتكلم معه بعد وقد
وقع لفرنصوكم بادعى ... منه ابيه وابعده ... فيضه ولد القايد ... كان
يعل مسالة يجب ان ... عليها منها وحيث ... بنفسها ولم يحقق ... سيدنا ايده الله
... واعطاه ... وعونه وبعث به للصنعة مع بعض اصحاب سيدنا نصره الله ومما ذكرت من وقع
بين فرنصوكم وبعض التجار ... مولاي ... ما نقر تحقيرهم ...
ونبعث به اليهم وها انا ... يقع شي من ذلك وانا اياك ايا كم ان تكتب لسيدنا
كتابا فيه اي شي منه تخسير الخواطر لئلا تدخل فيه احد الكتاب ويبلغه لسيدنا نصره الله وانا
ابحثها بيدي وتحقق ما فيها بما كان فيه من صواب نزيد فيه وما كان مخالف لذلك نطرحه
قبل ان يصل لسيدنا نصره الله وتكون بعافية ذلك هو المراد. اه كتبه من امر كاتبه في ... جمادى الثانية
عام 1186

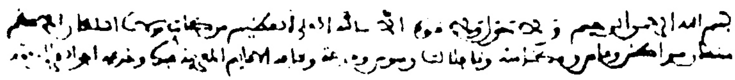
عن بعض المشاكل البحرية

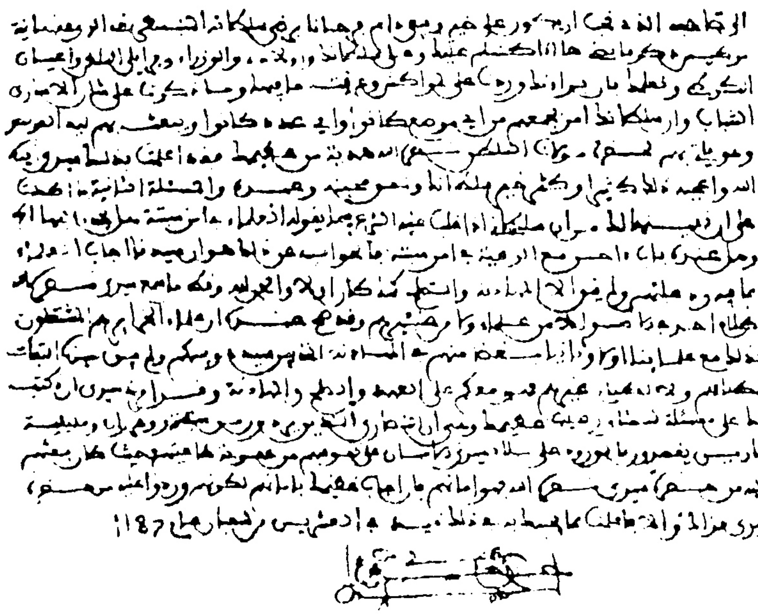


مراسلة الغزال إلى رئيس الحكومة الإسبانية بها إشارة إلى مسألة مليلة



المراسلة التي تظهر بها معارضة نتائج الصلح مع الإسبان





مسألة سبتة التي أخفت نية السلطان تجاه مليلة

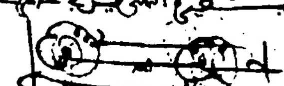
بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم من كتاب أوامر مولانا
السلطان سلطان مراكش وفاس ومكناسة وتافيلالت ومسيرو كافة الأقاليم المغربية خديمه أحمد الغزال وفقه الله

الى حاجب الذي قد خطب الله بكواعمه رئيس مملكانة التي سعيت الروخا امباقية وكيم
بكرما الى ما كنسل عليه وعلى خفيمد واولاده وكاتبه اسل الكرك ونعلمك وان نعرفكم
انتم خبيرون وان ادى ميمد رحمه الله الذين كانوا فرموا العنزلى جهة الفونصوا
لهمامريم وطوانين يواث وبغوا منالك وكانكم اخرتموهم عن الغرور حتى يغرم
عليكم رعية ملكانا وخزامه الذين هم في ايالة ميري رحمه الله وما هنت
انكم تظنون فينا الغدر لان الغدر حرام في دين المسلمين على انفسهم فأمرنا الا لاجل
ما نعرفه منكم من الصواب وساعة طلبت امراة الفونصوا ابراهيم الفروج اليكم
من الذي اشترا في بيتنا رحمه الله اسر القطاع بخزانه في المملكة كلها بان لا يعرض
احد لخسراج مملكا كامبنيول ولا لرعيته في البر كيف ما جرى ومهما شاء و
بكل ما هو لهم مسورين كان عليه من يوديه ويلهو بأهله وبمن وجد
الحال البعض من رعية الاصبنيول من التجار الذين كانوا بطنجة عليهم دين
خارج المرسى وغيرها مما انا محشش عنهم كل ما معوزهم ومهمتهم حتى يأتون
به او يرجعون وخليته بيتي رحمه الله رابع على هذه المواضع الآتية بالسواحل
ويكنا كا صبنيول لا جل دين المسلمين كل ما هي مهملة كتب عليها ملكا نسلط
دفيها له مسيحي والبحر الذي لا مسرحل لها من المسلمين ما امر فيه ميري
بنفوطم وكل من رايحا صبنيول جاء لمراسي ميري من في الامان من
وتاعه بيع او يحمل ما شاء كما كان قبل في بيتنا رحمه الله ما كيعتبرها على
مالو على غنيمة وفيضا بجبر الاصبنيول من هنا السواحل ومتغا بلاده
طاعة المسلمين من عنهم فتنة وابتلاء بلاه الله لمن يحب يعطيها ربما يحمل
ما عندنا ويطلب ادكاه من الله فيه في ثالث النعمان الحرام عام 1188

الحرب البرية والهدنة البحرية

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وكتاب اوامر مولانا السلطان
سلطان [illegible] وعاصم ومكناسة وتطوان [illegible] وكاتبنا [illegible] المغربية [illegible] اعزه الله

الى [illegible] الذي [illegible] اذا [illegible] بالرضى [illegible] ملكانة [illegible] امانة [illegible]
[illegible] ما انا [illegible] عليك وعلى ملكانة واولاده وكافة اهل [illegible] اما بعد [illegible]
[illegible] نصارى [illegible] بعث بكتاب [illegible] سيدي [illegible] الله [illegible]
[illegible] خرج [illegible] وتطوان [illegible] نصارى [illegible]
اهل [illegible] كتابه على [illegible] الله اعلى [illegible] الانطار [illegible]
[illegible] الله لو كان [illegible] سلطانهم [illegible] البحر [illegible]
[illegible] كل من جاء من [illegible] التجارة او حمل القوت او [illegible]
[illegible] على نفسه وماله [illegible] بالمرسى
[illegible] غنيمة [illegible]
[illegible] ابن الله [illegible]
[illegible] عليكم اخوانكم [illegible]
مع [illegible] الغدر والغدر لا [illegible]
[illegible] الله [illegible] والفضل
الينا [illegible] كل من [illegible] الصواب والفضل
[illegible] سيدي [illegible] الله [illegible]
ولا [illegible] شيء جاء [illegible] الصويرة [illegible]
بالكرة في البحر والبر [illegible]
[illegible] الله [illegible] ملكانا [illegible] البحر والبر
[illegible] الجهاد في البحر [illegible]
[illegible] النبوي [illegible] عام 1188



نفس الموضوع السابق

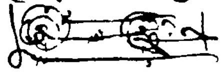
بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم من كاتب مولانا نصره الله امره سلطان
مراكش وفاس ومكناسة وتافيلالت وسوس ودرعة وجميع الاقاليم المغربية خديمه احمد الغزال

الى صاحبي الذي نفرح اذا يكون بخير ويكون عندنا مع رضى عظيمه الجيش معه في الدرك الاسبانية
مو كبير وكرملاف هذا انا كنسلم عليه وعلى سلطانه واولاده واهل الدركه ونعلمه بانه بعثت
للامراة قبل هذه واعلمته فيما بقضية داهري عشر من النصارى الذين خرجوا من سبتة
ونزلوا في بيرت نصره الله وقبض اهل العسة الذين هنالك وجاوا وطوا الحضرة سيدي
نصره الله امر ايده الله بسراحهم في الحال واعطاهم الكراع بان نبعث بهم اليكم
وها هم يردون عليكم في امان وكل من جا زنه في توتة وخرج في بيرامله الله
يطلكم هو وما كان معه في مركبه وكذلك كل من يقبض بالروح يطلكم في امان
ايضا لان ما يريده ايبيش غير الخير والمحبة في الكل ويجب يقبضوا البحرية وسيدي
نصره الله ما بينه وبينكم في من الكلمع بالكلية ولا عمل الدركة في شي من السواحل
الا [illegible] جل البحرين وبعد واذا انتم مجنا على المحبة نذهب البحر كما نحن معكم فاعلموا
واذا اراد عظيمها ان لا بد من الدركة في البر والبحر ما كتب لنا واعلمنا اي وقت
هو صبرا الدركة ليكون جميعنا على بصيرتهم وسيدي نصره الله عارف
ومتحقق وانا الروم ثم محبة بنالة الحرب من بعد ومن ابوه ونهى لكي
اكثر من المسلمين وانتم متكلون على انكم وسيدي نصره الله عامل التوكل على بال
في الله سبحانه هو حسبه والذي اعطاه الله ما يقدر احد ان يقلعه له والذي
منعه الله ما يقدر احد يعطيه له اثنى في رابع عشر في القعدة عام 1188

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم من كاتبنا الذي هو مولانا السلطان [illegible] عظم
وخديم مملكته السعيدة وزيره محمد [illegible] المرسية خديمه [illegible] الى [illegible] الله عمه

الى صاحب العز [illegible] يكون على خير ويكمل [illegible] في رضى سلطاننا المنصور في [illegible]
ذكرتم [illegible] ما انا كنتم عليه وعلى [illegible] والاجرة وامل [illegible]
[illegible] حرث [illegible] من انطار اثنا عشر نصرانيا [illegible]
[illegible] بنا خبر [illegible] لسيدي نصره الله واخبرته بالمركب وما فيه من [illegible]
[illegible] نصره الله في الحال [illegible] من الخدام ان يقفوا على [illegible] في اصلاح
المركب [illegible] ان يرفع فيه شيء [illegible] ويقضي له ما يحتاج اليه ويسبحوا في امن وامان [illegible]
بزلك يقينا على ما كان عليه من مراعاة [illegible] نصره الله [illegible] وتمنيت ان لو كنت حاضرا
[illegible] في اي موضع كان [illegible] بالله [illegible] تكن عند غيره من مراعاة سيدي لسلطانك [illegible] المنزلة
التي هو عندي [illegible] لم تكن لغيره من ملوك الروم ولو علم سلطانك بذلك لزاد محبة في سيدي [illegible]
[illegible] واما الكرة الواقعة لم تكن عن [illegible] صدرت [illegible] وانما حكمت بذلك [illegible]
[illegible] نصره الله [illegible] على [illegible] كما انتم تحافظون على دينكم ومع ذلك [illegible]
لم تزل طائفة [illegible] على ما كان عليه [illegible] غاية حيث
كتبت لك المرة [illegible] جواب من [illegible] من بعض الوزراء ولولا [illegible]
[illegible] سيدي نصره الله [illegible] كتب [illegible] عندي [illegible]
[illegible] ما [illegible] الوزراء هم الحازمون بما يصدر [illegible]
الملوك [illegible] يخبرون به [illegible] عليه [illegible] الملوك لا يصدر منهم الا
الخير [illegible] الوزراء [illegible] لا يروم حقيقة وعلى كل حال
[illegible] عما كتبت لك به [illegible] ما تعرف وتحن
[illegible] ما تعين من [illegible] عاشر المحرم [illegible] و118

وقد كتبت [illegible]
وبعثت [illegible] مع رئيس المركب [illegible]
وخشيت [illegible] بعثت [illegible]
ثانية



عن الحصار المغربي


الحمد لله وحده ولا حول ولا قوة إلا بالله

عن الحصار أيضا

" إلى صاحبي وعزيزي الذي هو عندي من خيار أصحابي المنسطر ذي الراي إسبانية مركيس دي كُريمالضي .. والذي نعلمك به هو لما ورد علي كتابك مع براوات أخر قرئت جميعهم على مولانا السلطان نصره الله وأعجبه خطابكم المشتمل على صادق المحبة والعقل والتمييز ، فأمر نصره الله بترحيل العسكرعن امليلية وبكف الرمي عليها. وقال نصره الله في جانب سلطانك من الخير شيئا كثيرا .. ولا بقي في خاطر سيدنا إلا مسألة سمعها سيدي وهي أن السلطان نسب سيدي للغدر ، وقال إنه نقض الصلح عليه فلم يرض سيدنا بهذه المقالة وهي سبب انتقاله بالمحلة والعسكر عن امليلية . وقال نصره الله لا بد من عمل الشرع فيما بيننا وبينكم ، فإن كان الحق لنا تودوه ، وإن كان لكم نودوه نحن ، وليات من ينوب عن الراي لطريفة الوزير أو من يقوم مقامه ، وناتي أنا لطنجة نائب من سلطاني والكرطي يحكم بيننا لتبقى الخواطر سالمة صافية . وأما سيدي هو مع سيدك على العهد والمهادنة غير أن الحق يكون بيننا وهو ما تعين به إعلامك . وحين سافر سيدي عن امليلية ذهبت أنا إلى المدينة والتقيت بالكوبرنادور وجماعة من الفسيان ، وفرحت بهم وفرحوا بي غاية وأطلعتهم على براءتك وأسكنت روعتهم وقلت لهم ما عندنا إلا الصلح ولا باس عليكم ، فإن سلطاننا مع سلطانكم في المحبة والعهد وأكدت عليهم في مكاتبتك وإعلامك بأني التقيت بهم ولا كان إلا الخير. وها أنا متوجه لناحية طنجة لقربها منكم ومن هناك يكون خطابنا معكم فيما يعود بخير. .. انتهى في خامس عشر محرم فاتح عام 1189 . " موافق 17 مارس 1775

(A.H.N. Estado L. 4.309 /2)

عن دواعي رفع الحصار

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع العربية

1 ـ المخطوطات

ابن زيدان، عبد الرحمن المكناسي، **العلائق السياسية للدولة العلوية**، خ. ح. ر، رقم 3178/د.

أبو النصر، إسماعيل، **ذكر التاج الإكليل**، خ. ح. ر، 1875/6.

أكنسوس، محمد، **الجيش العرمرم**، خ.ع. ر، 965/د.

البطوئي، عيسى بن محمد الراسي، **مطلب الفوز والفلاح في آداب طريق أهل الفضل والصلاح**. خ. ح. ر، 2613.

الزياتي، عبد العزيز بن الحسن، **الجواهر المختارة فيما وقعت عليه من نوازل غمارة**، خ. ع.ر، 66/ج.

الزياني، أبو القاسم، **البستان الظريف في دولة أولاد مولانا علي الشريف**. خ. ع. ر، 303/ك.

ـ **تحفة الحادي المطرب في نسب شرفاء المغرب**، خ. ع. ر، 2471/د.

ـ **الروضة السليمانية**، خ. ع. ر، 1275/د.

العشماوي، أحمد بن محمد، **التحقيق في النسب الوثيق**، خ. ع. ر، 1262/د. و1351/د. و3269/ك. و1439/ك.

العلوي، عبد السلام بن محمد بن عبد الله، **درة السلوك وريحانة العلماء والملوك**، خ. ح. ر، 514 و 1841 و 3137 و 4714.

الفاسي، عبد الرحمان، **ابتهاج القلوب**،خ. ع.ر، 178/ق.

القادري، عبد السلام، **الدر السني في بعض من بفاس من أهل النسب الحسني**، خ. ع. ر، 1456/د.

ـ **المقصد الأحمد في التعريف بسيدنا بن عبد الله أحمد**، خ.ع. ر، 1235/د.

الكردودي، محمد بن عبد القادر الكلالي، **الدر المنضد الفاخر فيما لأبناء مولانا علي الشريف من المحاسن والمفاخر**، خ. ع.ر، 1584/د.

مجهول، **كتاب الأنساب**، مجموع خ. ع. ر، 1275/ك.
- **مناقب الملياني الراشدي**، خ. ع. ر، 1457 و1471/د.
- المؤلف والعنوان، خ. ح. ر، 1220/ز.
- المؤلف والعنوان، خ. ح. ر، 3269.
- العنوان والمؤلف، خ. ح .ر، 653.
- العنوان والمؤلف، خ. ح. ر، 2389.
- العنوان ومنسوب إلى ابن خلدون، خ. ح. ر، 3269.

المشرفي، محمد بن المصطفى، **الحلل البهية في تاريخ ملوك الدولة العلوية**، خ. ع. ر، 1463/د. و 320/ك.

المهدي الفاسي، **الزهر الباسم في مناقب الشيخ قاسم**، خ. ع. ر، 2318/ك.

2 - المطبوعات

ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، الرباط 1936.

ابن الأحمر، إسماعيل، **روضة النسرين في دولة بني مرين**، الرباط 1962.

ابن حزم، علي بن أحمد الأندلسي، **جمهرة أنساب العرب**، مصر 1962.

ابن حوقل، محمد النصيبي البغدادي، **صورة الأرض**، بيروت.

ابن حيان الأندلسي، **المقتبس**، الرباط 1981.

ابن خلدون، عبد الرحمن، **ديوان العبر**، بيروت 1961، الجزائر 1847.

بن زيدان، عبد الرحمن ، **إتحاف أعلام الناس**، الرباط 1933.

ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب**، طبعتا بيروت وتطوان 1963.

ابن القاضي أحمد بن محمد بن أحمد بن أبي العافية، **جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس**. الرباط 1973.

ابن مريم التلمساني، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**. الجزائر 1904.

البادسي، عبد الحق، **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في ذكر صلحاء الريف**. الرباط 1982.

البكري، أبو عبيد الله، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، الجزائر.

البوعياشي،أحمد، **حرب الريف التحريرية**. طنجة 1974.
البيذق، أبو بكر بن علي الصنهاجي، **أخبار المهدي**، الرباط 1971.
التادلي، يوسف بن يحيى (ابن الزيات)، **التشوف إلى رجال التصوف**، الرباط 1951.
حجي، محمد، **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**. فضالة 1978.
داود، محمد، **تاريخ تطوان**، ج. 1 و 2 و 3.
الرباطي، محمد بن عبد السلام الضعيف، **تاريخه**، تح. أحمد العماري، الرباط 1986.
الرقيق القيرواني، **تاريخ إفريقية والمغرب**، تونس 1960.
الريفي، عبد الكريم بن موسى، **زهر الأكم**. تح. آسية بنعدادة. الرباط 1992.
الزياني، أبو القاسم، **الترجمانة الكبرى**، فضالة 1961.
الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**. ليدن 1866، روما 1972.
العلوي، إدريس، **الدرر البهية والجواهر النبوية**، طبعة فاسية 1314.
الغزال، أحمد بن المهدي، **نتيجة الاجتهاد في الهدنة والجهاد**. العرائش 1941.
الفشتالي، عبد العزيز، **مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا**. تطوان 1964.
الفكيكي، حسن، **سيدي محمد بن عبد ا لله وقضية مليلة المحتلة**. الرباط 1996.
القادري، محمد بن الطيب، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي**. فاس 1310.
كاربخال، مارمول، **إفريقيا**، الرباط 1984.
الكتاني، محمد بن جعفر، **سلوة الأنفاس**. فاس 1318.
الكزنائي، علي، **جني الآس في بناء مدينة فاس**، الرباط 1967.
مجهول، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**. الرباط 1972.
- **تاريخ الدولة السعدية**، الرباط 1934.
- **نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر**. العرائش 1940.
- **الذخير السنية في تاريخ الدولة المرينية**. الرباط 1972.
المقري، أحمد التلمساني، **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب**. بيروت 1968.
المكناسي، محمد بن عثمان، **الإكسير في فكاك الأسير**، الرباط 1965.
الناصري، أحمد بن خالد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**. البيضاء 1956.
الورطاسي، قدور، **بني يزناسن**، مرقون.

الوزان، الحسن، **وصف إفريقيا**، الرباط 1980.
اليفراني، محمد الصغير، **نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي**. أنجي 1888.
يوسف بن يحيى التادلي (ابن الزيات)، **التشوف إلى رجال التصوف**، الرباط 1951.

3 ـ تقاييد ورسوم قلعية

ابن القاضي، أحمد بن محمد بن أبي القاسم القلعي، **تقييد** حول جهاد رباط مليلة (1079- 1096/1668- 1684)

تقييد أولاد القاضي ببني سعيد (1172/1780).
تقييد نسب الورياشيين (1274/1857).
رسوم أولاد داود التازوطيين الشكريين، 730-1267/1329-1850 (رسوم الطاهر عالوش، ومحمد الوردة وعبد السلام الطويلي).
رسوم أولاد عسو البوكافريين (1114-1299/1705-1881).
رسوم مرابطي تيليزارت السيداليين (1074-1294/1663-1877).
رسوم القضيا السيداليين (1140-1267/1727-1850).
رسوم الرتابة بني أنصار المزوجيين (1151-1297/1738- 1879).
رسوم إحدادن السبت الشكريين (1194-1267/1780-1850).
مجهول، **تقييد نسب قبائل إقليم كرط** بتاريخ 939/1532. مخ. خ. ع. بالرباط.
نسب اللحاينة السيداليين، بدون تاريخ.

4 ـ وثائق الخزانة الحسنية بالرباط

مجموعات خاصة بسنوات ما بين 1253/ 1837 و 1266/ 1848.

المصادر والمراجع الأجنبية

1 ـ المصادر والمراجع العامة

Andres Bernardez, *Historia de los Reyes Catolicos*.

Angelo Ghirelli, « Apuntes historicos sobre las ruinas de Tazuda ». *Africa revista de las tropas coloniales*. Abril 1930.

Anonimo, *Historia de la Casa de Cordoba*. B.N.M. Mns. N° y 40- f. 120.

- *Papeles curiosos.* B.N.M. Mns. N° 10928.
- *Relacion de la defensa que hizo de Melilla su alcaide Pedro Venegas de Cordoba año 1564*, Mns. cm. 23, fol. 400, r° 403 v°.

Carlos Posac Mon, « Episodio del exodo morisco allende del Estrecho de Gibraltar ». *C. B. E. T.* 17-18. 1978.

Charles Emmanuel Dufurcq, *L'Espagne Catalan et le Maghreb au 13 et 14 siecles*. Paris 1966.

Coleccion de Documentos Inéditos para la Historia de Espana. t. 8.11. 14. 39. 51.

Comision Historica de las campanas de Marruecos, *Geografia de Marruecos*, t. 2. Madrid 1936.

Diccionario Geografico Estadistico, de Espana y sus posesiones de Ultra Mar. t. 11. Madrid. 1848.

Ignacio Bauer, « Embajada de un marino en Marruecos y el tratado de paz de 1767 ». *A. I. E. A.* 5/1951

Isidro de las Cagigas, *Tratados y convenios referents a Marruecos* , Madrid 1952.

Fernando de Pulgar, *Cronica de los Reyes Catolicos*. B. N. M. 1- 97813.

Fidil Fita, « Melilla Punico Romana ». *B. R. A. H.* 1914.

Francisco de Miranda, *Diario del ataque y defensa de la plaza de Melilla*. Madrid 1939.

Francisco Selin de Pena, *Memoria sobre la conservacion o abandono de los Presidios Menores*. Valencia 1846.

Gabriel Morales, *Datos para la historia de Melilla*. Melilla 1909.

- *Efemérides y curisidades*.

- « Embajada de D. Francisco Salinas y monino y el arreglo de 1785 ». *B. R. A. H.* 1913.

Jeronimo Beker, *Espana y Marruecos, sus relaciones diplomaticas durante el siglo 19*. Madrid 1903.

- *Historia de Maruecos*, Madrid 1915.

Jeronimo Zurita, *Historia del Rey D. Hernando el Catolico*. t. 5. 6 Zaragoza 1670.

Juan Antonio de Estrada, *Poblacion General de Espana*. Madrid 1747.

Juan Bravo de Acunio, *Libro de defunciones de Iglesia Parroquial*.

Juan Caballero, *Diario del ataque y defensa de la plaza de Melilla*. A. G. S. Secretaria de Guerra.

Junta Municipal de Melilla, *Cuestionario de Cabilas*, Melilla 1926.

J. F. Troin, « Rif Oriental », *Revue Geografique*, Rabat 12/1967.

Lorenzo de Padia, *Cronica de Felipe Primero, llamado El Hermoso*.

Louis Chénier, *Journal de Cosulat General de France au Maroc*, Casablanca 1943.

- *Recherches Historiques sur les Maures*.Paris 1787.

Maldonado, « Asidio de Melilla 1774-1775 ». *Africa*, Julio 1962.

Manuel Danvila y Collado, *Historia General de Hispana, Reinado de Carlos III*. t. IV.

Manuel Juan Diana, *Un prisionero en el Riff, Memorias del Ayudante Alvarez*. Madrid 1859.

Mariano Arribas Palau, « La correspondencia inicial entre Carlos III y el sultan de Marruecos (1765-1767) ». *Al Qantara* , vol. 2, 1981.

Marmol Carbajal, *Historia del Rebelion y Castigo de los Moriscos del Reino de Granada*. Madrid 1797.

Nicolas Cabriana, « Notas sobre las relaciones de Malaga en el norte de Africa en el siglo 16 ». *C. B. E. T.* 17-18/1978.

Pedro Maldonado Barrantes, *Ilustraciones de la Casa de Niebla*. *R.A.H.M.* n° B. 19.

Pedro de Medina, *Cronica de los Duques de Medina Sidonia*. *C. D. I. H. E.*

Provincio de Sandoval, *Historia del Emperador Carlos V*. t. 1.

Rachel Arie, *L'Espagne Musulmane au temps des Nasrides*. Paris 1973.

R. F. de Castro, « Historia y exploracion de las ruinas de Cazaza ». Madrid 1943.

- *Guilaia y Quebdana*. Melilla 1911.
- *Melilla prehispanica*. Madrid 1945.
- « Asidio de Melilla ». *Mauritania* 1942.
- « Alcaides y gobernadores de Melilla ».
- « De la Vieja Melilla ». *Africa* , Octubre 1930.
- « Fortificaciones de Melilla en el siglo 16 ». *Africa* 1931.
- « Nuevos datos sobre Melilla ». *Africa*, Agosto 1964.
- « Plazas espanolas en el siglo 17 ». *Africa*, Julio 1930.

Ramon Lourido Diaz, *Marruecos en la segunda mitad del siglo 18* .

- « El armamento y la asitencia técnica militar europea en el asidio marroqui de Melilla ». *R. H. M.* 32/1972.
- « Ensallo sobre el sultanato de Sidi Mohammad B. Abd - Allah ». *C. H. I.* 1/1967.
- « Extrategia Militar y diplomatica previa al asidio de Melilla ». *R. H. M.* 36/1974.
- « Relacion del alawi sidi Mohammad B. Abd Allah con el emperio Turco ». *C. B. E. T.*, 23-24/1981.
- « Una fabrica de canones en Tetuan a mediados del siglo 18 ». *R. H. M.* 33/1972.
- « Sidi Mohammad y sus intenciones de creacion de una marina de guerra al estilo europeo (1769-1777) ». *Hisperis* 12/1971.
- « Los Misioneros Franciscanos y su participacion en el tratado de paz Hispano Marroqui de 1767 ». *A. I. A.* 133/1974.
- y Mariano Arribas Palau, « En torno al ensanche de los limites de Ceuta en 1782 ». *Hesperis* 1981-1982.

- « Intentos fracasados de Sidi Mohammad B. Abd- Allah en la creacion de la Marina mercante.(1778-1790) ». *Mescelanea de estudios Arabes y Hebraicos*. 20/1971.
- « Los entercambios comerciales Hispano Marroquies en el siglo 18 ». *C. B. E. T.* 8/1973.

Robert Rézètte, *Los enclaves espanoles en Marruecos*, Traduccion M. Dangean, Paris 1976.

Roland Frejus, « Relation », *S.I.H.M.* France, t. 1.

Tomas Garcia Figueras, « Los Presidios Menores de Africa ». *Tamuda* 1954.

Vicente Palacios Atard, *Primeras negociaciones entre Espana y Maruuecos en 1765*. *Hispania*, 11/1951.

Vicente Rodrigues Casado, *Politica marroqui de Carlos III*. Madrid 1946.

2 - مجموعات الوثـــائـــق

بالأرشيف العام بسمنكاس.(A.G.S)

- مجموعـة: Negociado de Mar y Tierra، ملفها رقم 1315: تغطي سنوات متراوحـة بين 1493/899 و 1498/904.
- مجموعة: Contadura del Sueldo, Primera serie .، ملفها رقم 35: سنة 1493/899.
- مجموعـة: Estado، ملفاتهـا: 13 و 79 و 80 و 82 و 84 و 85 و 461 و 474 و 475 و 476 و 477 و 477 و 478 و 479 و 480 و 482 و 483 و 484 و 485. تخص السنوات المتراوحة بين 1535/942 و 1559/966.
- مجموعـة: Guerra Antigua، ملفاتهـا: 24 و 42 و 50 و و 53 و 55 و 56 و 58 و 60 و 80 و 85 و 89 و 105 و 168. سنواتها: مـا بـين 1552/959 و 1575/983.
- مجموعـة: Noticias y Conedencias، ملفاتهـا: 520 و 521 و 523 و 524 و 526 و 527 و 534. وسنواتها متراوحة بين 1774/1188 و 1775/1189.
- مجموعة: Desposiciones para la defensa de Plazas، ملفهـا: 532. وهـي خاصـة بسنة 1774/1188.

بالأرشيف التاريخي الوطني(A.H.N.)

- مجموعـــة: Estado، ملفاتهـــا: 3372 و 4308 و 4309 و 4311 و 4312 و 4314 و 4317 و 4318 و 4319 و 4320 و 4321 و 4322 و 4323 و 4326 و 4329 و 4334 و 4336 و 4341 و 4342 و 4344 و 4349 و 4351 و 4355 و 4762 و 5803 و 5808 و 5815 و 5821 و 5823 و 5825. وسنواتها متراوحة بين 1799/1213 و 1848/1264.
- كازيطا دي مدريد: Gazeta de Madrid, Suplemento ، من 24 يناير إلى 4 أبريل 1775.
- يومية وهران: Diario de Oran، من 42 ديسمبر إلى 31 منه سنة 1774.

مراسـلات القنصـل لـوي شـنيي: La correspondance du consul Louis Chénier

- مجموعة قام بنشرها بيير كريلون، Pierre Grillon وتهـم السـنوات المتراوحـة بـين 1768/1182 و 1781/1195.

قسم الفهارس

فهرس الأعلام البشرية

فهرس الأعلام الجغرافية
(باستثناء المغرب وقلعية ومليلة)

فهرس الخرائط

فهرس الرسوم

فهرس الجداول

فهرس الصور

فهـرس الموضـوعـات

القسم الثاني

القسم الثالث

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

هذا الكتاب



نموذج من صور تاريخ الشمال الشرقي المغربي عامة وتاريخ مقاومة الوجود الأجنبي بالمنطقة بصفة خاصة. والدراسة من جانب أوضح جواب عن سؤال عريض متضمن لعدة أسئلة فرعية يجمع شتات تفاصيلها عنصران أساسيان، يتصدر مقدمتهما بروز عمق الشعور المتشبع بروح الدفاع عن حرمة التراب الوطني.

والدراسة، بتركيزها على نموذج مقاومة الوجود الإسباني بمليلة، معززة من جهة أخرى بإثباتات تاريخية شاهدة على رسوخ مبدإ المقاومة للدخيل الأجنبي في الحياة اليومية المغربية. لقد بقي نظام المقاومة ومحاصرته للخلية الأجنبية بمليلة صلدا متماسكا مازاد على ثلاثة قرون ونصف، متربصا لكل تسلط جديد على التراب الوطني.

وستجد أيها القارئ الكريم في هذا الكتاب الأمثلة الصريحة الواحدة تلو الأخرى، كلها تعبير عن تفاني المغربي واستعداده لإفراغ كل إمكاناته المتوافرة قصد إبعاد الخطر الأجنبي عن حوز الشمال الشرقي، الذي هو جزء من هذا الوطن العزيز.

ولا ريب أنك ستقف عند مختلف نماذج المقاومة وعلى أصناف مستوياتها، وسوف تستوقفك طويلا المحاولة الجريئة التي قام بها السلطان سيدي محمد بن عبد الله أملا في استنقاذ مدينة مليلة من أغلال الاحتلال.